من رواد الأدب السعودي

فاروق بن صالح باسلامة



اهداء لأخي الفاضل الدكتور
عمر يحيى المحترم
مع أطيب المنى
المؤلف
٢٦/١١/١٤٣٤هـ

من
رواد الأدب السعودي

الطبعة الأولى

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٣ م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٣/٣/٨٩٩)

٨١٠.٩٥٦٦

سلامة، فاروق صالح

من رواد الأدب السعودي، فاروق صالح سلامة. -- عمان : دار عمار للنشر والتوزيع ٢٠١٣

(٣٣٢)ص.

ر.إ. : ٢٠١٣/٣/٨٩٩.

الواصفات: / العلوم القرآنية/ / القرآن الكريم

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ISBN 978-9957-481-10-0 (ردمك)

دار عمار للنشر والتوزيع

وسط البلد - بجانب الجامع الحسيني - هاتف ٤٦٥٢٤٣٧ - فاكس ٤٦٥٢٤٣٧

عمان - المملكة الأردنية الهاشمية

من
رواد الأدب السعودي

تأليف

فاروق بن صالح باسلامة




بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وإصحابه الغر الميامين ومن تبعهم بإحسان الييوم الدين.

أما بعد:

فإن الأدب السعودي له رواد كثيرون خاصة في الحجاز الذي شهد التقدم الحديث للمملكة العربية السعودية قبل سواه من المناطق والمحافظات.

ففي مكة المكرمة انبثق النور وفي جوار حرمها الآمن تخرج العلماء والأدباء، حيث حلقات العلم المتعددة في الفقه والتفسير واللغة والنحو وسواها من العلوم والآداب والفنون، التي كان المشائخ يدرسونها للطلاب أمثال: محمد العربي التباني، وحسن يماني، وعمر حمدان، وأحمد ناضرين، وعلوي المالكي وسواهم.

وسيجد القارئ في ثنايا هذه التراجم الموضوعية التي وضعناها لأدباء الحجاز وشعرائه وسواهم ذكراً لهؤلاء العلماء كلٌّ في موضعه.

هذه التراجم ليست تاريخية بالمعنى الواسع للتاريخ ولكنها شذور وأفكار وقيم ومعاني لهذه الشخصيات من خلال إنتاجهم وملامح من أدبهم وأشعارهم. سائراً فيها على اتجاهات هؤلاء الفكرية والأدبية والمعرفية والعلمية.

إن الحجاز الذي استودع الله فيه البيت الحرام والكعبة المشرفة وجدت فيه معاهد العلم ومدارسه مثل مدارس الفلاح والمدرسة الصولتية والمعهد السعودي أضف إلى ذلك دار العلوم والمدرسة الماجدية والمدرسة الفخرية والمدرسة الرحمانية والمدرسة المحمدية والمدرسة العزيزية التي تخرج فيها معظم من ترجمنا لهم في هذا الكتاب.

لقد كانت المناهج العلمية والتربوية التي درسها أعلامنا الأفاضل كانت تستوعب كل العلوم والآداب والفنون في هذه المعاهد والدور العلمية، ثم توجت أم القرى بعد ذلك بكليتي الشريعة والتربية ومع مسيرة الأيام والسنين افتتحت في بداية القرن الخامس عشر الهجري، جامعة أم القرى (١٤٠١هـ-١٩٨١م).

إذاً فالحجاز قد خرج لفيفاً من العلماء والأدباء والشعراء والكتاب والمثقفين، ونجد أن من تولوا المسؤولية في المملكة العربية السعودية في الوزارات والإمارات والدوائر الحكومية أغلبهم قد تخرج من مدارس الفلاح في مكة المكرمة وجدة على سبيل المثال، الأمر الذي يدل على قمة هذه المناهج التعليمية والتربوية وعمقها العلمي والأدبي والرياضي.

كما أن أم القرى من أول المدن العربية السعودية التي أنشئت فيها النوادي الثقافية والرياضية مثل: نادي الوحدة الثقافي الرياضي، ونادي مكة الأدبي الثقافي، وهناك أندية كثيرة سواها وفي جدة كذلك، ثم تدرجت المعالم في سائر مدن المملكة العربية السعودية بما فيها العاصمة الرياض والمدن الأخرى سواء في نجد والقصيم وعسير والأحساء.

لقد ألزمت نفسي أن أترجم لمعظم روادنا الأدباء الأفاضل وليس لكلهم وفي العهد إذا مد الله في العمر أن أترجم لمن هم بعد الرواد، حيث تضمهم مجموعة أخرى إن شاء الله وهم كثيرون كثرة الرواد والأدباء والعلماء، حاملاً الأمانة الدينية والعلمية فيما أكتب عن هؤلاء وأولئك ذلك أنني عرفت شخصياً وعلمياً وأدبياً معظم هؤلاء، ولا أريد أن أضرب الأمثال فالكتاب هو الشاهد على ما أقول. ولا شك أن هناك من كتب في هذا المجال قبلي لكني رأيت مساراً آخر في التراجم الشخصية لمعظم روادنا من الأدباء السعوديين لم يتطرق إليها من هم قبلي. فإن أصبت فمن الله وإن كانت ثمة أخطاء فمن نفسي.

إن هذه لتجربة ومحاولة لا أقول إنها كاملة ولكنها في الدرب الأدبي والمعرفي قد يعتبرها القارئ ذات بال والله أعلم.

وقد رجعت إلى بعض المراجع مثل العدد الخاص لتراجم أدب وأدباء المملكة العربية السعودية من مجلة المنهل التي كان يصدرها الأستاذ / عبد القدوس الأنصاري، والموسوعة

الأدبية لأدباء المملكة العربية السعودية للأستاذ / عبد السلام الساسي، وكتاب الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي للدكتور عمر الطيب الساسي، وكتاب وحي الصحراء للأديبين محمد سعيد عبد المقصود وعبد الله عمر بالخير وكتاب الموسوعة الادبية للأستاذ عبد السلام طاهر الساسي والصحف العربية السعودية والمجلات التي كانت تصدر خلال حياة الرواد وسواها من الإنتاج الأدبي والثقافي لهم.

كما استعنت بمذكراتي الخاصة سواء من التي حفظتها أو كتبتها وهي معلومات واراء وافكار حدثت لي مع بعض هؤلاء الرواد كالأساتذة محمد سعيد العامودي وأحمد محمد جمال وعبد القدوس الأنصاري.

آمل أن أوفق في صياغة هذا الكتاب عن أولئك الرواد الذين امتدت صداقتي مع مجملهم خلال الخمس والعشرين سنة من قبيل وفياتهم عليهم رحمة الله اجمعين.

فاروق صالح باسلامة

جدة ٢٦/ محرم/ ١٤٣٤هـ

١٠/١٢/٢٠١٢م

محمد سرور الصبان

ولد الشيخ محمد سرور الصبان سنة ١٣١٦هـ - ١٨٩٩م في جدة كما يقول الأستاذ محمد علي مغربي في أعلام الحجاز، بناء على ما قاله من أن الشيخ الصبان كتب ذلك في ترجمته لنفسه في كتاب "أدب الحجاز"، ورغم أن الشيخ سرور رحمه الله لم يذكر أنه قال/ في إحدى مدن الحجاز!! في حين أن الشيخ عبد القدوس الأنصاري كتب في عدد مجلة المنهل عن تاريخ أدباء المملكة العربية السعودية، وكذلك الأستاذ خير الدين الزركلي في الأعلام والدكتور عمر الطيب الساسي في تاريخه الموجز في الأدب العربي السعودي وغيرهم كثير ممن كتبوا عن الأدب السعودي وأدبائه.

كانوا قد ذكروا أن الشيخ محمد سرور الصبان ولد في القنفذة في السنة المذكورة آنفاً، ثم انتقل إلى جدة ثم إلى مكة المكرمة وعمره أربع سنوات، أما كيف كتب الشيخ سرور ترجمة عن نفسه؟ فكان رحمه الله قد سئل أن يكتب سيرته في كتاب خاص فاعتذر ثم ألحوا عليه وأقنعوه أن ذلك حق العلم والحقيقة والتاريخ وليس حقه، فما كان منه إلا أن استجاب لهم، وذكر بكثير من الاستحياء والتواضع شيئاً يسيراً عن ذاته، أدب الحجاز -الدكتور بكري شيخ أمين في كتابه (الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية ص٣٩٩) طبعة دار العلم للملايين- بيروت. ومع أن هذه الترجمة قصيرة جداً إلا أننا نجد سيرة الشيخ رحمه الله في كتاب الأستاذ عبد الله عريف عنه الذي طبعه تحت اسم رجل وعمل/ وهو كتاب عملي جعله الله في ميزان حسنات مؤلفه، وقد كتبه مبكراً جداً.

وهو أبو عبد الرحمن محمد سرور الصبان الأديب الكريم، ورجل العمل الأريب الحكيم، أنتج الكثير من الأعمال والإنجازات الأدبية والاجتماعية والثقافية والمالية، فكان مثال الرجل العصامي، والعامل الدؤوب، بما اتسم من بعد نظر، وكرم محتد، وشرف جميل، إنه الأديب

الأريب الرائد الثقافي في مكة المكرمة بل في الحجاز كله، كان رائداً أديباً عندما احتاج الوضع الأدبي إلى رجل يخطو بشباب الأدب والعلم إلى الأمام، وينير له الدرب الثقافي، فكان أن فتح مكتبته الخاصة لهم، ليوسعوا مداركهم، ويهذبوا مواهبهم، ويُغْنُوا أذهانهم بالثقافة والمعلومات فاستقام عود الأدب، وازدهر سوقه شيئاً فشيئاً، نظراً لدعمه السخي، وتشجيعه الأدبي.

فنشر منذ ما يزيد عن نصف قرن تقريباً كتابه (أدب الحجاز) و(المعرض) يحملان بواكير نتاج الأدباء السعوديين الشباب، مثل أحمد قنديل، وحمزة شحاته، ومحمد حسن عواد، ومحمد سعيد العامودي، وعبد الوهاب آشي، وأحمد جمال، وعزيز ضياء، وحسين سرحان، وعبد الله عريف شعراً ونثراً، فكان ذلك خطوة رائدة في بدء تأريخ الأدب العربي السعودي بحق، وحلماً محققاً للوجود الثقافي الأدبي والفكري في الحجاز آنذاك.

وليس فيما أقول مبالغة؛ إذ الرجوع إلى الربع الأول من قرننا العشرين ينبئ ببادرة محمد سرور الرائدة في إيجاد فكر أدبي جديد في مكة وجدة على أقل تقدير، ولا شك أن للدور التربوي والتعليمي له أثره كذلك فيه.

ولم يكتف الصبان بفتح مكتبته الخاصة بل عمل لشداة الأدب ممن يرغبون في اقتناء الكتب مكتبة عامة تجارية في مكة المكرمة ولتتصور الجو المادي والوضع المعيشي لمجتمع مكة آنئذ لكن همة الرجل لا تبالي في التضحية والمغامرة والفداء المالي، إنْ صح التعبير، في سبيل الفكر والأدب والثقافة، كان يبيع الكتاب بلا فائدة تذكر، أو توزيع صحيفة أدبية بلا عائد مادي، إلا العائد الفكري والمعنوي.

وقد عاش محمد سرور الصبان معظم حياته بمكة حيث يعتبر أحد أبنائها البارين. فقد أسس أعماله فيها، بل إنه بدأ العمل موظفاً بسيطاً في بلديتها ثم غدا رئيساً لمكتبتها.

وقد نظم قصيدة عالية الجودة وهو هناك بمكة بعنوان "عاطفة النفس" يقول فيها:

جَلَّ الأسى وتتابعت زفراتي ... ودنا المشيبُ فقلت حان مماتي

فكّرت ألتمس الخلاص بحيلة ... أين المفر من القضاء الآتي

يا أيها القدر المواتي إنني ... بادي الضنا هلا ترى نظراتي

امنن عليّ بساعة أقضي بها ... حق البلاد وخذ ربيع حياتي

إن كان في الأجل المقدر فسحة ... أو لا فإنك نافذ الرميات

ما لي إليك وسيلة أرجو بها ... نيل المرام فجدتُ بالعبرات

وَيْحي أيعترض القنوط عزيمتي ... والحزم من طبعي ومن عاداتي

والدهر طوعي والزمان مصادقي ... والصبر درعي والثبات قناتي

فلقد أكر على الخطوب فتنثني ... جزعاً أمام مهنَّدي وشَباتي

وتمر بي شتى الحوادث خشعاً ... ويصيبها خور حيال ثباتي

لكنني فرد ولستُ بأمةً ... من لي بمن يصغي لصوت شكاتي

من لي بشعب نابه مستيقظ ... يسعى لهدم رذائل العادات

من لي بشعب عالم متنور ... ثَبْتِ الجنان وصادق العزمات

من لي بشعب باسل متحمس ... حتى نقوم بأعظم النهضات

من لي بشعب لا يكل ولا يني ... يسعى إلى العليا بكل ثبات

إن البلاد بأهلها فبجهلهم ... تشقى وتلقى أعظم النكبات

وإذا توحدت الجهود لخيرها ... سعدت ونالت أرفع الدرجات[1]

وقال أيضاً وهو هنا يُخاطب أبناء الغد:

أيها الأبناء سمعاً إنني ... سوف أتلو لكم ذكرى السنين

كان لي مال وجاه وندى ... وسماح فوق وصف الواصفين

---

(١) من كتاب وحي الصحراء.

أجمع المال لكي أنفقه في مواساة العباد البائسين

فكأني حاتم في قومه أصرف الأموال في وجه قمين

يلهج الناس بشكري دائماً ويعيشون بفعلي آمنين

غير أن الدهر عاداني ولم أدر ماذا يبتغي مني الخؤون

ورماني بصروف قَوَّضت وأمادت ذلك الركن الركين

أخذتْ مالي وهَدَّتْ قوتي وحنت ظهري تباريح السنين

ثم لما علم القوم بما كان من أمري تولوا معرضين

وانبري البعض فأضحى قائلاً إنما هذا جزاء المسرفين

لا يبالون إذا ما أنفقوا أجزافاً أم لمدح المادحين

أم تراث ورثوه فجأة أم كنوز، ويح مَنْ لا يستبين

ليس همي في الذي قالوا فما أبعد الشك على أهل اليقين

إنما قد ساءني أنهم أسقطوني من عداد العالمين

ورموني بظنون تركت بفؤادي غصة الحزن الكمين

كل ذا اليوم لأني مُعْسِرٌ بعد أن كنت زعيم الموسرين

نفذ الهمُّ إلى قلبي وقد كان لي درع من المال حصين

وبياض الشيب وشَّى لمتي بإكليل من الماس الثمين

بعدما عاركت دهري زمناً نلت في أثنائه الفوز المبين

خلسة الدهر تولت ومضت ولذكراها حمى الدمع السخين

يا بني اصبر ولا تيأس إذا مَسَّكَ الهم وجافاك الخدين

إن في الصبر سلاحاً واقياً من شرور الناس والداء الدفين

في زمــان أصــبح المــال بــه	ســلم الخزي لـبعض الفاسـقين
وغــدا الــدينار طوعــاً لــلألى	بَــدَّدوه في تعــاطي مــا يَشِــين
حكمــة المــولى فــلا منــع لمــا	قــد قضــاه الله رب العــالمين
فـانهج الحـق ودع طـيش الصبا	واتَّبــعْ خَطْــوَ الجـدود الأولـين
واسكب الدمع على عهدٍ مضـى	إن في الــدمع عــزاء للحــزين[1]

لقد كان الرجل عملياً فهو يدير شركات السيارات والمطابع -بالإضافة إلى المؤسسات التجارية الأخرى- فكان نعم النظر البعيد منه أن يضحي ويبذل النفيس في دروب المعرفة والأدب والعلم والفكر والثقافة، كما أنشأ شركة الطبع والنشر والصحافة التي انطلقت منها أول صحيفة مكية حجازية ألا وهي صحيفة صوت الحجاز وكان أنشأ هذه الشركات من ماله ويديرها بنفسه، وليس للجوء إلى الجمع المالي من أجل المادة فحسب، كما عرف عن كثير من التجار الذين يقول أبو العتاهية في أمثالهم:

تعــالى الله ســالم بــن عمــرو	أَذلَّ الحــرصُ أعنــاق الرجــال
هــب الـدنيا تسـاق إليـك عفـواً	ألــيس مصــير ذاك إلى الــزوال

ثم تولى بعض الأعمال الحكومية المالية مع الوزير عبد الله السليمان (١٣٥٠هـ)، وبعد وفاة الملك عبد العزيز طيب الله ثراه عين الشيخ محمد سرور وزيرا للمالية، وفي عهد الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله عين أميناً عاماً لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة فاستمر إلى أن توفي بمصر سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧٢م، ونقل جثمانه إلى المملكة حيث دفن بمقابر المعلاة بعد أن صُلي عليه بالمسجد الحرام.

---

(١) من كتاب وحي الصحراء، وهذه القصيدة وتلك هما من خيرة ما نظمه الشاعر وهو يعاني الحياة العملية والأدبية نظماً يُخيل إلى قارئه أنه رثى نفسه قبل الوقت المناسب أما الأخرى فقد عبر فيها عن ما يكنه لأبناء جيله من معزةٍ وخير وقد أسهب الشاعر في كلتا القصيدتين عن شعوره وإحساسه بالحياة على وجه العموم على أن محمد سرور الصبان يُعد شاعراً مُقلاً لكنه شاعرٌ فحل.

وكان البذل من (الصبان) على مدى سني عمره عريضاً، حيث نشر على نفقته الخاصة - كتباً من ذخائر المعرفة والتأريخ واللغة كـ«العقد الثمين في تأريخ مكة البلد الأمين»، و«نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر الهجري» و«تهذيب الصحاح» للزنجاني بتحقيق أحمد عبد الغفور العطار، وعبد السلام هارون، وكتاب «خواطر مصرحة» لمحمد حسن عواد و«ديوان شاعر العرب» فؤاد الخطيب، كما أنه لا تلقى محاضرة في مكة أو جدة في الأدب العربي والفكر الإسلامي إلا طبعها على نفقته كما كنت أرى منه ذلك في نادي الوحدة الرياضي الثقافي بمكة المكرمة، قبيل رحيله عام ١٣٩١هـ-١٩٧١م، بفترة ليست بالقصيرة كما فعل بمحاضرات أبي الحسن الندوي، والدكتور سعيد رمضان المصري، وفوزي البشبيشي، وأحمد جمال وسواهم.

فمحمد سرور الصبان أديب وشاعر كبير من أوائل الشعراء والأدباء في المملكة العربية السعودية، ويعد على رأس الرعيل الأول فيهم تاريخاً وعملاً وأدباً وإنجازاً.

أما الإذاعة فكانت في مكة المكرمة عندما أنشئت في خواتيم الأربعينيات الميلادية على عهد الملك عبد العزيز وكان محمد سرور الصبان مديراً لها وهي في جبل هندي بمكة حيث تذاع عبرها تلاوة القرآن الكريم وأهم الأخبار بإيجاز.

والذي سقناه في هذا الحديث يدل على تعدد مواهب الصبان العلمية والعملية والأدبية والدينية، ومن رزق ذلك فقد فاز في العلم والعمل. والتصورُ هذا نشخصيته لا يجحدها إلا مكابر أو جاهل لا يعلم شيئاً. أما الواعي بسير الرجال وأعمالها فهو لما قلنا موافق. حيث قام بدور كبير في ظهور أدب وأدباء الحجاز والتف من حوله شباب هذا الأدب في أواخر عهد الأشراف وأوائل العهد السعودي وفتح لهم مكتبته التي تعد من أولى المكتبات الخاصة بمكة المكرمة وجدة، وذلك إيماناً منه برسالة الأدب العلمية ومهمته الثقافية وواجبه المعرفي وصار هؤلاء الشباب يطلعون على الكتب من مصادر المعرفة الأصلية وروافدها الفرعية، ما كان لهم سابق عهد بها إلا الشيء اليسير إذ لم يكن في الحجاز في تلك الفترة مكتبات تجارية عامة مثل اليوم يقتنون منها الكتب ويمتلكونها تكويناً للفكر الأدبي ومسيرته الثقافية وكان هذا تشجيعاً

منه للشباب.. شباب الأدب في الحجاز الذين سرعان ما كتبوا الشعر والنثر، فقام رحمه الله بجمع هذا الإنتاج الأدبي ونشره في كتاب (أدب الحجاز) كصفحة فكرية من أدب الناشئة الحجازية. وصدر الكتاب سنة ١٣٤٤هـ بإهداء: "إلى شباب الحجاز أهدي أدب الحجاز" في السنة التي تلتها، أصدر الأستاذ الصبان كتاباً آخر بعنوان (المعرض) عبارة عن استفتاء وجهه لهؤلاء الشباب الأدباء حول استخدام اللغة العربية الفصحى كأسلوب للأمة في تفاهمها أم تجنح هذه الأمة إلى التطور الحديث في المجال اللغوي؟! وقد شارك في الكتابين محمد سعيد العامودي وعبد الوهاب آشي ومحمد حسن عواد ومحمد عمر عرب، وأعربوا في المعرض عن رؤيتهم الفكرية تجاه اللغة الفصحى وكيفية استخدامها لا في الكتابة الأدبية فحسب، بل في الحياة بصفة عامة!!

وكان للصبان بوادر ريادية.. الريادة في الأدب والريادة في الثقافة وفي عالم المعرفة والفكر إذ هي ومثلها تمهيد لإرساء قواعد الأدب السعودي -وبالذات في الحجاز- الذي سرعان ما تكون وسارت ركابه في دروب الثقافة والفكر ليساير الآداب العربية الأخرى في الوطن العربي الكبير، فإذا كان في مصر إبراهيم ناجي فإن في المملكة العربية السعودية محمد حسن عواد، وإذا كان في سوريا عمر أبو ريشة فإن في السعودية أحمد محمد جمال، وإذا كان في لبنان الشاعر القروي فإن في المملكة طاهر زمخشري، وإن في العراق محمد مهدي الجواهري فإن في الشعر السعودي حمزة شحاته. وبهذا تتم التعادلية بين الأدباء السعوديين والأدباء العرب سواء في الشعر والنثر، هذا سوى أن الصبان -رجل مكة القدير- أبرز من ساهم بماله وفكره لمعظم أقرانه من الأدباء والمثقفين في تنشيط الأعمال.. أعمالهم الأدبية تأليفاً ونشراً وإعلاناً والتي اقترحها عليهم ومن ثم قام بتنفيذها.

إنه من أثرياء البلد الأمين المحسنين وأغنيائهم الكرماء الذين أحبوا العلم والأدب والثقافة، وقد جمع مكتبة احتوت على آلاف من أمهات الكتب والمخطوطات وقد أنفق كثيراً على نشر وتوزيع كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» لقاضي مكة ومؤرخها التقي الفاسي المتوفى سنة ٨٣٢ هجرية ؛ الواقع في أكثر من ١٥ مجلداً.

كما أنه كان يعول عالماً كبيراً من الناس من مختلف طبقاتهم فيهم العلماء والأدباء والشعراء وذوو الحاجة من الفقراء وطالبي الفضل، فضلاً عن ذوي القرابة أو تُدنِيه من صداقة أو معرفة قديمة، فكان كل هؤلاء عالة على محمد سرور الصبان، إذ الكرم أبرز صفاته، يتفقدهم برعايته وهم يعيشون في كنفه، يسير في كرمه هذا على كلمته المشهورة: «إذا أحببت ذاتك خسرت أصدقاءك».. فلما توفي صارت الحال كما قال الشاعر:

ولكن الرزيةَ فقد شهم ... يموت بموته خلقٌ كثير

هذا ما أعرفه أدبياً، ومن شاء أن يعرف عن سخاء محمد سرور الصبان لأهل مكة وجدة فليرجع إلى كتاب عبد الله عريف «رجل وعمل» وكتاب «أعلام الحجاز» لمحمد علي مغربي.

وإن أنس لا أنسى مقابلتي له شخصياً -رحمه الله- في مبنى رابطة العالم الإسلامي القديم في المعابدة بمكة المكرمة أول مرة، وتعرفه لشخصي المتواضع في أواخر الستينات الميلادية؛ فحياني بحرارة، وكان ذلك ضمن الاجتماع الدوري للمجلس التأسيسي للرابطة، في كل من شهر رجب وذي القعدة من كل عام هجري.

ومن أدبياته في الرابطة عندما تأسست، وكان أول أمين عام لها، سن إقامة الموسم الثقافي بالرابطة في موسم الحج الذي تلقى من خلاله المحاضرات الدينية والأدبية لرجالات الدعوة الإسلامية يستكتبهم (الصبان) خصيصاً لذلك.

كما أن من أدبياته أيضاً إنشاء مكتبة بالرابطة للمطالعة وقسم إهداء الكتب الذي كان يدير هذين المنشأتين بالرابطة الشيخ رشيد فارسي -رحمه الله-.

كما أن من حبه لرجالات الأدب والدعوة والفكر استخدامه نفوذه العملي للدفاع عنهم، كما فعل لسيد قطب -رحمة الله عليه- عندما صدر الحكم عليه بالإعدام شنقاً على عهد الرئيس جمال عبد الناصر إذ بعث ببرقية للرئيس المصري يطلب فيها إلغاء هذا الحكم وقد أذاعتها وكالات الأنباء. رحمه الله رحمة واسعة.

محمد سعيد عبد المقصود خوجة

ولد هذا الأديب بمكة المكرمة سنة ١٣٢٤هـ الموافق ١٩٠٦م وبها تلقى علوم اللغة والحساب والأدب والفقه على بد والده وفي حلقات الحرم المكي الشريف وبمدرسة الفلاح القرآن الكريم واللغة العربية وآدابها.

وسرعان ما ترعرع الفتى وشب حتى اشتغل مديراً لجريدة (أم القرى) الرسمية ومطبعتها الحكومية حيث جاءت الفرصة تلو الأخرى لنشر الآداب والعلوم والثقافة وفنون المعرفة والأخبار الاجتماعية والوسط العام. سواء كان ذلك النشر لأدبه أو إنتاج زملائه من الشباب وهم كُثر في مكة المكرمة أمثال محمد سعيد العامودي، وعبد الله عمر بلخير، وأحمد السباعي.

ونحن لا توافق الدكتور محمد بن سعد بن حسين وهو يتحدث عن محمد سعيد عبد المقصود وأقرانه من شباب أدباء الحجاز أن أولئك كان يعتري أدبهم تخلخل في اللفظ والأسلوب[1].

فهؤلاء هم الرعيل الأول الذين حفلت بهم الساحة الأدبية فازدهرت وضعية الأدب وعلومه اللغوية والشعرية والنقدية والقصصية بهم.

وكان للشاب محمد سعيد عبد المقصود شرف الريادة في الجانبين الأدبي والثقافي وفي الوسط الاجتماعي الرسمي وبين الشباب الحجازي المشار إليهم. حيث كان في نفس الوقت مشتغلاً في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا مشتغل يعني الكثير من المؤهلات الفقهية والشرعية والثقافية والعلمية التي لا تتوفر إلا لعامل متمكن في هذا المنصب وعالم يحمل تلك المؤهلات.

أما الأدب ومبحثه فهو المجال الواسع الذي أصدر من خلاله كتاب «وحي الصحراء» مع صديقه عبد الله عمر بلخير الذي يصغره سناً فأراد أن يشركه في هذا الكتاب تشجيعاً منه للأدباء الشباب بالحجاز.

---

(١) محمد سعيد عبد المقصود خوجة حياته وآثاره، ص ٢٩.

وعلى سبيل المثال البحث الأدبي الذي قدمه الأستاذ محمد سعيد عبد المقصود نفسه كتمهيد لهذا الكتاب يجد القارئ إلمامَ هذا الأديب بتراث العرب الأدبي من خلال المصادر والمراجع التي اطلع عليها للأصفهاني والجاحظ وابن عبد ربه وابن قتيبة وغيرهم.

ومن الكتب الحديثة اطلع عبد المقصود على دواوين الشعر والنثر كتاريخ آداب العرب للرافعي وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان، وتاريخ أحمد حسن الزيات في الأدب إضافة إلى الشوقيات وديوان حافظ إبراهيم، ويوم الإسلام لأحمد أمين ووحي القلم للرافعي؛ أضف إلى ذلك المجلات الأدبية مثل مجلة الرسالة ومجلة الثقافة.

وفي هذه المراجع بحث عبد المقصود واستنبط منها الأفكار الثقافية والآراء والمواقف الأدبية كي يمهد لوحي الصحراء بهذا البحث الماتع وهو من الدلائل العميقة والآثار الجميلة لهذا الأديب المطلع.

إن «وحي الصحراء» يعتبر اختيارات ونماذج أدبية تعبر عن واقع الساحة الأدبية التي كانت تضج بأعمال الأدباء الرواد في الحجاز، وقد كان لا بد من ذلك نظراً إلى واقع هذه الساحة الذي يعبر عن تاريخ الأدب الحجازي في تلك الفترة الزمنية أو جزء منها على سبيل المثال والطرح لا غير.

وكان لابن عبد المقصود القدح المُعلى من الإشراف والاستكتاب لهؤلاء الذين قدموا له ما طلب منهم وكان نتاج وحي الصحراء شبه المعجزة الأدبية فيما انطوى بين غلافيه من العمل الأدبي والشعر الفني.

والطريف أن عنوان وحي الصحراء جاء بعد تشاورٍ بين المؤلفين عبد المقصود وبلخير والأدباء أحمد جمال ومحمد سعيد العامودي؛ والأخير هذا هو الذي قدم واقترح عليهم أن يُسمّوا هذا الكتاب «وحي الصحراء»[1].

---

(١) وهو مثبت في لقاء أدبي أجريته معه في مجلة الفيصل في ربيع عام ١٤١٠هـ الموافق ١٩٩٠م.

والأديب محمد سعيد عبد المقصود كاتب مصلح وأديب اجتماعي له من القدرة الشبابية أن يرصد لمجتمعه سُلماً للإصلاح عبر مقالاته بعنوان (الغربال)[1] سوى آرائه الأدبية والثقافية التي نجدها مبثوثة في هذه المجموعة الرصينة وفي سائر ما كتب وألف، علماً بأنه ترك آثاراً تأليفية ومخطوطات أدبية وللأسف الشديد لم تر نور الطباعة والانتشار[2].

لكنه أثرى صحف الحجاز في عصره بالمقالات والدراسات والأفكار في ما يعتري مجتمع الحجاز من أدباء ومعلمين وعلماء والناس كافة من أحداث وأوضاع وأفكار وما ساقه لنا تاريخُهُ النظيف من صدق وإخلاص وعطاء معنوياً وأدبياً وفكرياً ومادياً كذلك.. الشيء الذي سطره من أعماق تفكيره وآثار إخلاصه لمجتمعه الحجازي وما قدمه من أبحاث وما بذله من جهود تدل على ذاك الإخلاص والتميز الشبابي عند شاب في العشرينيات من عمره.

إن محمد سعيد عبد المقصود مضى في حياته بصمود قوي وجهود عظمى فكان كفاحه مستميتاً في سبيل الرسالة التي حملها في تلك السن الباكرة.

وهذا من الدلائل التي تشير إلى نشاطات بذلها الخوجة في المجتمع والتعليم والصحافة والكتابة مع الثقافة.

ومن كان تلك ميزته فإنه بحق يعد مصلحاً في مجتمعه وبما أوتي من قوة معنوية وملكة أدبية وقدرة هائلة جعلته حاملاً للرسالة التي استمرت معه حتى جاءه الأجل وهو في عنفوان شبابه بعد مرض أصابه رحمه الله. ولله في خلقة شؤون.

---

(١) جمع هذه المقالات زميلنا حسين الغريبي بعنوان الغربال وهو من كتب الإثنينية لناشرها ابن المترجم عبد المقصود محمد سعيد خوجه صاحب الإثنينية المشهورة.

(٢) يبدو أن السبب في عدم الالتفات والاهتمام بتراث الأستاذ محمد سعيد عبدالمقصود أنه كان المنافس الأول في ميدان الفكر والإصلاح للشيخ محمد سرور الصبان الذي كان أقوى نفوذاً منه ومع هذا –والقول للدكتور بن حسين– راوياً عن الشيخ محمود حافظ: بلغني أن الشيخ محمد سرور الصبان قال بعد وفاة الشيخ محمد سعيد: لقد خسرت البلاد بوفاة هذا الرجل خسارة كبيرة، ربما أحسها أنا أكثر من غيري ص١٧.

نموذج من أدبه:

«الأدب ميزان ثقافة الأمة، ودليل حياتها، وهو فن الحرية والجمال، يزدهر إذا تعهدته الفِطر القويمة بوسائل الإنعاش، وأدب كل أمة صورة دقيقة لحياتها، ومقياس لتقدمها ورقيها، وكما أن الحياة تتقلب في أدوار مختلفة، وتحيط بها ملابسات متباينة، وتسير طبقاً لسنن الكون في النمو والارتقاء، والذبول والاضمحلال، فكذلك الأدب يزدهر بازدهار الحياة ويذبل بذبولها».

«و لم يستدبر الحجاز عصر الحسين ويستقبل العصر الحاضر، إلا وكانت قلوب الشبيبة المتأدبة تتأجج ناراً يندلع لهيبها ويتأجج أوارها، فكانت أفكار تظهر كلما سنحت لها الفرصة بذلك، وأول ما ظهرت في كتاب «أدب الحجاز» ثم في «المعرض» وبصورة أوسع على صفحات صوت الحجاز في بعض أدوارها.

ومما ساعد على انتعاش الحركة الأدبية وتقدمها في هذا العصر، رفع بعض الحواجز التي كانت مفروضة في العصر السابق، وقد تدرجت الأيام في الحركة الأدبية -شأن كل الأمم- حتى وصلت إلى الشكل الحاضر، الذي يراه القارئ ماثلاً في هذا الكتاب. ولا نريد أن نعلق عليه بشيء تاركين الكلام عليه لواضع المقدمة الأستاذ الكبير محمد حسين هيكل ليوفي الموضوع حقه، وآمل أن تتقدم الأيام بالأدب الحجازي فيستعيد ما كان له من مقام ممتاز، وليس ذلك على الله ثم على أولي الأمر ببعيد».

وحي الصحراء

عبد الوهاب آشي

هو أبو أحمد عبدالوهاب إبراهيم آشي من كتاب وأدباء المملكة العربية السعودية ، ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٣هـ وتلقى التعليم في مدرسة الفلاح بها وبعد أن تخرج منها اشتغل بالتدريس والتعليم في العلوم الأدبية واللغوية . واستمر كذلك حتى اختير ليرأس تحرير جريدة (صوت الحجاز) من أول عدد وذلك من يوم ٢٧/ ذي القعدة / ١٣٥٠هـ وبعد فتره ترك هذا العمل وانخرط في سلك الوظائف الحكومية.(١)

وعبدالوهاب آشي كاتب وأديب ينظم الشعر ويبدعه في قالب شعري جيد وموضوعات عاطفية من الشعر ، ويعد من الرواد في الأدب السعودي، وكان يحرر افتتاحيات جريدة صوت الحجاز بأسلوب أدبي بين السطور حتى إن العبارات والجمل في تلك الافتتاحيات تشي بكتابة أديب جيد ورائع . وللآشي قصائد شعرية ومنظومات كثيرة وبالذات التي تنتظم تحت العناوين الآتية : (التحية الوطنية) ، (السأم من الحياة)، (يا قلب ويا نفس)، وقصيدة (لوم مردود) منها قوله :

تلومينني أن لست أهجر موطني — ترى ليس يجدي شدك الحبل في العتب

بلادي لبي والفؤاد ، فهل فتى — يعيش بلا لب ويحيا بلا قلب

وللآشي نظرات أدبية وخواطر كتابية يتفلسف فيها حيناً ويتأمل فيها أحياناً أخرى وذلك حول الطبيعة البشرية والأكوان الأخرى كقوله تحت عنوان (نظرة في الجمال الإنساني) :

(الجمال يتمثل في كل ما يقع تحت النظر من صور الكائنات . فللسماء جمالها، وللجبال جمالها، وللغابات والمروج جمالها، وللصحارى والواحات جمالها، وللتماثيل والصور الفنية جمالها، وللحيوانات جمالها، وللأناس جمالهم، وهو في كل منها صورة سامية لذلك الشيء جمعت

---

(١) وحي الصحراء لمحمد سعيد عبدالمقصود ، وعبد الله عمر بالخير ص ٢١٥ الناشر عبد المقصود محمد سعيد خوجة – جدة ٢٠٠٧

لمزايا الحسن الذي ينبهر منه العقل ، ويجعله الفكر ، وينقاد له الشعور ، ويرمز إلى مثل أعلى من مثل الكمال في الحياة . ونريد أن نتكلم على بعض نواحيه في الجمال الإنساني) .

بعد ذلك يعبر عبد الوهاب إبراهيم آشي عن فكرته في الجمال الإنساني قائلاً :

(الجمال الإنساني ، مظهر من مظاهر الطبيعة الخرساء . الذي لا ينطق الإ بجلاله وهيبته . ولا يفصح إلا بسموه وروعته . تفيض جوانبه بالنور . ويشع هيكله من خمائل السحر ، وبوارق الفتنة . يقف المرء بلبه وقلبه تجاهه خاشعاً خاضعاً مستسلماً لإرادته القاهرة وأحكامه القاسية) .

ثم يستطرد عن الجمال البشري قائلاً:

(والجمال الإنساني الكامل ، هو الذي إذا وقع عليه النظر لا تمل العين الحكيمة دوام مشاهدتها له ، ولا تسأم النفس الشريفة من القيود التي تقيدها به تلك الأشعة المنبعثة من هاتيك العين الدعجاء أو المقلة النجلاء كما يعبر الشعراء - والأنوار المنبعثة من ذلك المحيا الوضاح ، أو الطلعة المتناسقة الوضع ، الكاملة الصنع البهية المنظر الجذابة الشكل) .

وكما ترى فإن الآشي يتفكر ويتأمل بما كتبه في الجمال الإنساني وهو تأملات وخطرات وأفكار أديب ومفكر وشاعر ولعلنا أن نوفق في النظر في شعره لأن الرجل له شعر جميل خاصة في الشؤون الكونية والطبيعية التي يتفسلف فيها بشعر ثنائي كالآتي :

إذا لمع البرق بين الغمام ... وشق الصباح قباب الظلام

وقامت ذكاء تحيي الأنام ... ألا فاذكريني وردي السلام

إذا أنعش الروض هب النسيم ... وغنى الهزار بصوت رخيم

وماست غصون وجد النعيم ... ألا فاذكريني وردي السلام

إذا ما الندى كلل الجلنار ... وهب الأناسي لكسب اليسار

وحل الرحيل وسار القطار ... ألا فاذكريني وردي السلام

أسلماي هلا تعطفين على ... عليل يقاسي عذاب القلا

ألا فاذكريني وردي إلى ... فتاك الحياة برد السلام

وهكذا نجد في هذه الثنائيات الشعرية أشجان القيثارة التي شدا بها شاعرنا الآشي بجمل قصيرة لكنها بالغة الغاية بدقتها البلاغية ومشاعرها البيانية ،بحيث لا ينزلق لفظ على الآخر بل ثمة ترتيب شعري بياني من خلال ما عبر عنه الشاعر الآشي بلا تردد أو التفات عما نظر فيه فلسفياً وفكرياً. ونستطيع من خلال الشعر أن نتعرف على شاعرنا الآشي أكثر وأكثر فهو يقول تحت عنوان: (يا نفس) :

يا نفس ما هذا اللجاج ترفعي	وتنكبي سبل المفاسد والغواه
ما أنت إلا زهرة من باقة	في الكون قد جمعت لأشتات الحياه
ما أنت إلا ذرة من عالم	هو طفلة الماضي أعدت للغداه
ما أنت إلا فرع دوح ناضر	تجنى لطاف ثماره أيدي سواه
فتبصري كي لا تضيعي مأرباً	تبغينه كإضاعة الساعي مناه
اليوم يومك فاقصري من مسلك	يدنيك للاخفاق واغتنمي النجاة
كوني لمن صافاك شهداً نافعاً	والصاب للطاغي أسير قوى هواه
ودعي الهوادة يوم يلوك العدى	واللين أحمد حين لا يرجى سواه
لا فرق بين فتى أبي عائف	للهون ، والذلان إلا في أباه

إنها محادثة شاعر لذاته ولنفسه كي يبصرها في تؤدة وترو بها فكر فيه وهو يخاطبها قائلاً:

فتبصري كي لا تضيعي مأربا	تبغينه كإضاعة الساعي مناه

وفي قصيدة أخرى بعنوان لوم مردود أتينا على نصها سابقاً في بيتين ونريد الإتيان بهما مرة أخرى وهما :

تلومينني أن لست أهجر موطني	ترى ليس شدك الحبل في العتب
بلادي لبي والفؤاد ، فهل فتى	يعيش بلا لب ويحيا بلا قلب

وهو قول مختصر يعبر فيه الشاعر عن بلاده في صيغة نفسية مباركة كقوله في قصيدة أخرى عن الحجاز :

بلاد حَبَتها الطبيعة ما	يحبب للقلب أدوارها
جبال تناطح جون السحاب	وتوحي إلى النفس أفكارها

إلى قوله :

بـــلاد ســـمت بـــالألى عرفـــوا | طريـــق المعـــالي ومضـــمارها
كبـــار النفـــوس قصـــيو المـــرا | م تهـــدوا الحيـــاة وأسرارهـــا
ســـعى المجـــد طوعـــاً إلى بـــابهم | وأولـــتهم الأرض أمصـــارها
إذا جـــد جـــد الـــوغى يممـــوا | ميادينهـــا وجلـــوا عارهـــا

وفي قول ملؤه الحكمة وفصل الخطاب هو :

وأفضـــل مـــا يطلـــب المـــرء في | دنـــاه عـــلا يعـــتلي دارهـــا

إنها فكرة وحكمة بالغة القصد يأتي بها الشاعر بين أبياته الوطنية وأشعاره البلدية ، وما أروع قوله :

بلاد بها الـوحي ألقـى العصـا | وبالهـــدى بارئهـــا خارهـــا
بـــلاد أضـــاءت ســـوالفها | ورثنـــا أســـاها وتـــذكارها
تصـــدى الزمـــان لتصـــديعها | و أوهـــى التنـــاحر أمرارهـــا
بـــلاد بهـــا نبتـــت أعظمـــي | أكلـــت جناهـــا وأثمارهـــا
أحـــن إليهـــا وأصـــبو إلى | رباهـــا وأعشـــق أحجارهـــا
وأســـعى أداء لواجبهـــا | حيـاتي ، وإن ذقـت أضرارهـا

إنه منتهى الإخلاص والوفاء لهذا الوطن وهذه البلاد التي هي مهبط الوحي زانها الرحمن بهذا الوحي المبين البليغ في إحسان تام ويذكرني ذلك برباعية قالها شاعرنا عبدالوهاب آشي عن البلاغة :

يـــا مـــن تطلـــب في الأســـفار | ورد البلاغـة عـن شـوق وإشـفاق
إن البلاغـــة في فكـــر ومعرفـــة | ومنطـق بفصـيح القـول دفـاق
يفـيض نـوراً ويسـمو في جلالتـه | كالشـمس تظهـر في زهـو وإشراق
ما اللؤلؤ المنتقى ؟ مـا الحسـن أبرعـه ؟ | لـدى البلاغـة بـل مـا نفثـه الراقي ؟

وفي بيان آخر من شعر هذا الشاعر ما اختاره الدكتور/ عمر الطيب الساسي عن كتاب (شعراء الحجاز في العصر الحديث) للأستاذ / عبدالسلام الساسي وهو قول شاعرنا الآشي :

حسرت يوم قابلتني قناعاً	عن محيا يشع نوراً جميلا
ثم عند الفراق مدت يديها	لوداعي ومعصماً معقولا
معصم رق كالضياء صفاء	كاد لولا سواره أن يسيلا
برهة للنعيم مرت سراعا	وتلتها التي تضل العقولا

ولكننا لسنا مع الدكتور / عمر الطيب الساسي في قوله وهو يمهد لاختياره: وله شعر فيه بعض النماذج القوية ، ولكن شعر عبدالوهاب آشي لا يرقى إلى مستوى شعر أقرانه: العواد ، وحمزة شحاته ، و أحمد قنديل، و محمد حسن فقي، و حسين سرحان، وحسين عرب. انتهى قوله.

لأن المنشور من شعر شاعرنا عبدالوهاب آشي فيه كثير من الشعر المتسم بالقوة الأسلوبية والحيوية العاطفية والحكمة الفكرية .. كل ذلك يتسم به شعره ، بل إن نثر الأستاذ / عبدالوهاب آشي يتسم كذلك بالدقة الأسلوبية والبيان المرسل . إن ما قاله الدكتور / الساسي فيه نظر أخالفه فيه بوجهة نظري هذه لأنه يمسح جودة شعر شاعرنا ويجعله بعيداً عن شعر أقرانه المذكورين سالفاً . لذا فلا لزوم من أن يقول الساسي بنفي جودة شعر الشاعر لأن ذلك يمحو شعره على الإطلاق .

فالأستاذ آشي رائد من رواد الأدب العربي السعودي الذين أشعلوا رايته الخضراء وعلامته المضيئة وبيانه الفصيح والذي نختلف فيه مع الدكتور الساسي أمران أولهما : قوله وله شعر فيه بعض النماذج القوية، والأمر الثاني أن شعر الآشي لا يرقى إلى مستوى شعر أقرانه المذكورين، فكلا الأمرين مردود عليهما فالآشي شعره راق وبيانه فيه متلألئ يرقى إلى قصائد قالها العواد وحمزة شحاته وأقرانهما [١] . ولله في خلقة شؤون .

توفي الأستاذ عبدالوهاب إبراهيم آشي في قاهرة المعز يوم الجمعة ١٧/ ٦/ ١٤٠٥هـ الموافق ٨/ ٣/ ١٩٨٥م . رحمة الله عليه .

---

(١) راجع كتاب الدكتور / عمر الطيب الساسي الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي ص ١٠٠ ط ٢

أحمد علي أسد الله

أبو زهير أحمد علي أسد الله الكاظمي ، من معلمي الأمراء ، ومن رجال التأريخ ، والخلق الدمث ، والتواضع الجم ، المستوحى من أفاضل رجال الدين العلماء في أم القرى وما حولها أساتذته وشيوخه المكيّين. لقد حوى البيت الحرام جُلّ هؤلاء الذين درسوا العلم كابراً عن كابر في حلقات فهو قد درج على الأخذ تعليماً لفكره وتهذيباً لنفسه و اقتداءً بهداهم فمثل هؤلاء رجال عرفهم أحمد علي كالشيخ حسن المشاط ، وثمة رجال لا ننساهم كالشيخ سراج ششه والشيخ أحمد ناضرين.

وينبغي ذكر الصلة الحميمة التي جمعت التربية الروحية في المسجد الحرام والتربية العلمية والتطبيقية في مدرسة الفلاح فأنت تجد أحمد علي – رحمه الله – قد برز في ظل تلك الصلة التي جعلت منه مربياً كأقرانه أمثال الشيخ عبد الله عبد الغني خيّاط والسيد أحمد العربي في مدرسة الأمراء لا يُنسى إبان ترسية الملك عبد العزيز للتعليم في الرياض.

وقد عرفته شخصياً في دارةِ طيّب الذكر الشيخ محمد سعيد ألعامودي في بداية السبعينيات الميلادية ، رأيته فتجلّت أمام ناظري شخصيته الروحية الطاهرة رجلاً ليّن العريكة ، طيب الخلق على دماثة في الطبع الفطري النقي ، وقد عرّفه بي الشيخ محمد سعيد – عليهما شآبيب الرحمة الإلهية – فسررت، فقد كنت أقرأ له فيما ينشره الشيخ محمد سعيد في مجلتيه " الحج" و"رابطة العالم الإسلامي" وبين ما قرأته سلسلة المجموعة التاريخية لخلفاء الدولة العباسية متدرجاً بعدها إلى خلفاء مصر الفاطميين وغيرهم من خلفاء الدويلات التي تمخّضت عن دولة بني العباس – رضي الله عنه.

وهنا أذكر فضلاً للرجلين – ألعامودي وأسد الله – لا بد من تسجيله للتاريخ الأخلاقي والعلمي معاً كنت مرة في دار الشيخ محمد سعيد وأتحدث معه في فنون من المعرفة وفي أفانين من غصونها اليانعة من ذلك ما أخبرني به – رحمه الله – رغبة قديمة في نشر العلم المكي من الزاوية التاريخية لعلماء أم القرى كان صاحبها الشيخ محمد سرور الصبان قلت للشيخ سعيد

وأنا أرى في يده أوراقاً مكتوبة بالمداد الأحمر – ما هذا؟ فأجاب : مسودة لكتاب (نشر النور والزهر لتاريخ علماء مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر للهجرة) للشيخ أبي الخير .

وبعد هنيهة قدم السيد أحمد علي ، فأخبرني العامودي أنهما يعكفان على جمع واختصار وتحقيق الكتاب، على نسخة كانت موجودة في مكتبة الشيخ عبد الوهاب الدهلوي ، وأن الشيخ محمد سرور سلمها للشيخ العامودي آملاً منه إخراج الكتاب على نفقته – رحمه الله .

ومرت الأيام في بضع سنين عقب وفاة الصبان ١٣٩١هـ وعقد العامودي العزم على تحقيق رغبته القديمة تلك، ومن تواضع الشيخ العامودي اشتراك السيد أحمد علي في تحقيق الكتاب فرأيت بين الفينة والأخرى الرجلين يشتركان في الرأي ومداولة التحقيق.

وهنا عرفت كيف كان العامودي يعتمد عليه تاريخياً فيناوله منه رزمة رزمة ويعود أسد الله الكاظمي بالرزم مستنسخةً بواسطة الآلة الكاتبة وقد وثقها تاريخياً كما رآها الشيخ العامودي معروفةً لديه من خلال حذق الكاظمي وتبصره في مسار التاريخ المكي الخاص بعلماء الحرم .

ولم يقتصر – الفضل هنا – على هذا الجانب فقد عرفت تواضع السيد أحمد علي في رضاه وصمته الحكيم على كتابة العامودي لمقدمة الكتاب، وتقديم الأديب الفاضل الشيخ عبد القدوس الأنصاري الوارد في صدره إيماناً منه – رحمه الله – أن العلم صلة رحم روحية بين أهله وهذا فضل ولا يعرف الفضل إلا ذووه . سمةٌ أخرى هي في التربية العلمية أجدها ماثلةً أمامي أدركتها – ولا أزال – للسيد أحمد ، تلك الرؤية هي أنني عندما أقابله أمام الحرم وقد أحمل كتاباً ابتاعه من مكتبة (المعرفة) لصاحبها المربي الفاضل الشيخ عبد الرزاق بليلة فسألني السيد الأستاذ الكاظمي عن اسمه وموضوعه، ومرة كان الكتاب عن التاريخ السياسي المتعلق بالبلاد العربية من وجهة نظر ثقافية فسألني السيد أحمد عنه كالعادة فأعجب باختياري للكتاب في مثل موضوعه! كان ذلك رفعاً معنوياً لأمثالي من طلاب وعشاق العلم و الشيء يُذكر بالشيء! حرص الشيخ السيد أحمد – عليه رحمة الله – على الوفاء ، أذكر حضوره لزيارة الأمير نايف بن عبد العزيز جامعة أم القرى ومحاضرته عن والده الملك عبد العزيز فقد أبصرته رحمه الله – متأبطاً بيد صفيه الوفي الدكتور محمود أسد الله وكيل الجامعة للدراسات العليا والبحوث العلمية آنذاك وذلك لكللٍ في عينه وهنا سِمَتُه الفاضلة تبرز من جِبِلَّتِهِ المطبوعة على الخير وحب العلم والتربية .

هذا مما عرفته عن الرجل شخصياً وعلمياً وروحياً ولا يغيبن أن الرجل معروف بحبه الرحلات : يجوب الكون بصرياً ورؤيةً وتنقلاً للتعرُف العالمي والعلمي كذلك ، ولديه علم واسع ، وليته جمع منخول معرفته في مؤلفات ككتابه (الرحلات) الذي أعده غيضاً من فيض على الرغم من أن هذا الكتاب أعده أيضا – دلالة شاهدة على الذي أُلمح وأشير إليه، وكتاب "ذكريات" من مطبوعات نادي الطائف الأدبي الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ عبارة عن تعبير عن مشوار حياته العلمية والعملية وهو مليء بالمعلومات التاريخية والاجتماعية وما مرّ بالرجل من أعمال في المدارس والمعاهد وعندما كان عميداً لكلية الشريعة بمكة المكرمة وعن رحلاته في سبيل العلم والثقافة والأدب والتأريخ وذكرياته مع أسرة بيته وإخوته .. إنها ذكرياتٌ علميةُ أدبية مع المدرسين والمعلمين والإداريين في مكة المكرمة والرياض والطائف وعند المسؤولين في كافة المرافق بالحجاز ونجد، والمدينة المنورة و الظهران و الدمام و الخُبر بالمنطقة الشرقية .

إنها ذكريات تاريخية بعبقها الحجازي وتأريخها الأدبي . ولا بأس أن ننقل شيئاً من كتاباته كما يلي :-

(كانت الشمس على وشك المغيب ، وكان الجو حاراً .. إلا أن نسمات الرياح التي كانت تهب من الأمام كانت باردة وتزداد برداً ورقة كلما تقدمت السيارة .. كان السكوت و السكون جاثمين على السيارة ومَنْ بها من الركاب ، وذالك لأنهم كانوا كلهم في لجة من الأفكار والذكريات القريبة والبعيدة .

كانوا يفكرون في الحقائق والواقع الذي كانوا فيه .. حتى ركوبهم في السيارة .. إنه سرعان ما تحول إلى ذكريات وأحاديث كأحاديث القصص وإلى حوادث التأريخ .. وكلما حاولوا التغلب على هذه الأفكار بعقولهم رجحت كفة العاطفة وانهزموا في المحاولة .. لقد كان العقل يحاول الاقتناع بأن شيئاً لم يحدث وأن ما حدث هو أمر مألوف معتاد .. ولكن العاطفة كانت تقول غير ذلك .. إنها تصور لهم صور الحقائق التي كانوا فيها بطرق لا يمكن عدها ولا حصرها .. تصور لهم الصغار أفلاذ أكبادهم وهم يلعبون ويمزحون .. وتصور لهم الكبار وهم مؤتنسون بهم وبوجودهم بين ظهرانيهم .. إنها – أي العاطفة – تصور لهم طول المدة التي ستمر عليهم وهم في عالم الذكريات .. في مثل هذه الهواجس كان السكون مستولياً على السيارة وأهلها ، وكانت الألسن ساكتة والأفكار سابحة).

هذا النص يحتوي على فكرة ليست غريبة ولكنها عجيبة إذ إن صاحبها يريد أن يُعبر عن رحلته عبر طريقٍ طويل شاق ولكنه بأسلوبه الأدبي المبسط استطاع الأديب أحمد علي أن يوفي موضوع رحلته بين مكة والرياض .

وكذيدن الرواد من الأدباء والمؤرخين كتب الرجل كثيراً على وتيرة هذه الكتابة التي نقلناها عن مجلة المنهل التي كان الأستاذ أحمد أحد كُتابها في العدد الذي يترجم لأدب وأدباء المملكة السعودية المعاصرين في رجب سنة ١٣٨٦هـ الموافق نوفمبر ١٩٦٦م .

وللأستاذ أحمد علي بعض المؤلفات ومنها تأريخ آل سعود في مملكتهم الشاسعة العظيمة، وسواها من المؤلفات المخطوطة التي لم تَرَ النور بعد : ﴿وفوق كل ذي علمٍ عليم﴾ صدق الله العظيم.

الطيب الساسي

من الرجال الأعلام فئة أو نفر ذوو مواهب وابتكارات أدبية ومادية علمية وعملية يكون حاضرها ومستقبلها غاية في الحركة العملية والنشاط الأدبي بحيث تنتج أفكار هؤلاء إبداعات خصبة في مجال المعرفة وفنونها وعلى الرغم من أنه لم يؤت نصيباً من التعريف كما عرف عن أقرانه من الأدباء والرواد إلا أنه يعتبر واحداً منهم ذلكم هو، الطيب الساسي الذي ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣١٠هـ وتلقى التعليم في حلقات العلم بالمسجد النبوي الشريف وغيرها من كتاتيب المدينة الروحية على صاحبها الصلاة والسلام.

وظهرت موهبته بقول الشعر مبكراً من عمره ومارس مهنة التربية والتعليم في المسجد النبوي. ورأس تحرير جريدة القبلة التي كانت المنبر الرسمي العام، ينشر من خلالها المواد الإخبارية والأدبية والاجتماعية والسياسية. وقد نشرت له أشعار وقصائد ومقالات وأبحاث.

وعندما رأى صاحب الشأن أن الأستاذ الساسي له خبرة علمية وأدبية أمره بإنشاء المدرسة الراقية بمكة، وقد تولى الساسي إدارتها وصياغة مناهجها التربوية والتعليمية بالإضافة إلى عمله في جريدة القبلة.

وكان رموز عصره كفؤاد الخطيب ومحمد حسن عواد الذي تولى الساسي تدريبه على التحرير الصحفي وذلك في جريدة "بريد الحجاز" بجدة. كما أن من أعلام عصره خير الدين الزركلي ومحمد سعيد عبد المقصود خوجه وآخرين وجُلُّهم من الأدباء والعلماء ورجال التاريخ والأدب. وللساسي ديوان شعر كما يقول ابنه الدكتور عمر الطيب الساسي في كتابه «الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي». وقد قال الدكتور عمر: «في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي نظمته جامعة الملك عبد العزيز وعقد بمكة المكرمة في الفترة من ١ إلى ٥ ربيع الأول ١٣٩٤هـ تم اعتبار الطيب الساسي -رحمه الله- رائداً من رواد الأدب الأوائل في هذه البلاد».

وهذا يدل على غزارة فكر الساسي وفنونه العلمية من سياسة وآداب وصحافة وشعر وثقافة.

ويبدو أن هذا الرجل المفكر لم يكن يهوى الشهرة التي كان بعض العلماء في فكرنا وفقهنا الإسلامي يحذر منها كالإمام سفيان الثوري -رحمه الله-. كما ورد ذلك في «حلية الأولياء» للأصبهاني.

إن الطيب الساسي رمز أدبي مغمور في بحر الفكر والشعر ويبدو أن ذكره في تاريخ الأدب لدينا قليل جداً، لكنه مذكور في العارفين والقائمين على الواجب الأدبي الذي يعرفه كل من ألمّ إلمامة بسيطة أو كثيرة بتاريخ الأدب الوطني. خاصة عندما يذكر تاريخ الملك المؤسس -رحمه الله- حيث لقي الساسي منه تشجيعاً أعانه على مواصلة العمل في خدمة الإسلام والعلم والأدب فأعاده الملك عبد العزيز إلى رئاسة جريدة "أم القرى" التي خلفت صحيفة "القبلة". ومن العجيب وعلى الرغم من أن الأستاذ الساسي قد عين عضواً في كل من مجلسي المعارف والشورى إلا أنه لم يكتب تاريخه الشخصي والأدبي والعلمي. وهكذا ديدن كل عبقري في زمانه وخاصة في الفنون الأدبية والتاريخية كالخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه وإبراهيم الحربي وسواهم من العلماء والأدباء الذين لن ينساهم التاريخ مهما يكن من أمر.

وقد نقل الدكتور عمر الساسي عن الطيب الساسي وهو والده -- أن اعتبار الطيب الساسي رائداً من رواد الأدب الأوائل في هذه البلاد مع ثمانية آخرين ممن كانوا قد انتقلوا قبل انعقاد المؤتمر الأول المذكور آنفاً، ففي هذا تأكيد ضمني على الاعتراف بدور جريدة "القبلة" في إشعال شعلة النهضة في بداياتها الأولى في هذه البلاد وبصفة خاصة في الأدب والوعي الأدبي وتذوق الأدب وفهمه.

وفي حياة الطيب الساسي رحلات خارج الوطن إلى اليمن وعدن وحضرموت ثم إلى الهند وإندونيسيا وسنغافورة، هذه البلدان التي تعج بالحركة والنشاط، واصل الساسي كفاحه في كل مكان في نشر العلم واللغة العربية والدفاع عن الدين والمسلمين على الرغم من قسوة الغربة وعدم الاستقرار.

ويبدو أن استغراقه في العمل والوظائف جعله أقل انشغالاً بالإنتاج الأدبي والشعري على الرغم من أنه يملك المبادرة العلمية والتعليمية لم يقم أحد من تلاميذه بالاهتمام إعداداً ونشراً

بسائر إنتاجه الكتابي أدباً وثقافة وشعراً. وهذا القول يسري على زملائه كخالد الفرج، وحمزة شحاته، ومحمد عمر عرب، ومحمد سرور الصبان الذين لا يكاد القراء أن يلتمس أحدهم على ديوان من دواوينهم أو كتاب من كتبهم أو مؤلف من مؤلفاتهم هذا إذا ما سلمنا جدلاً من أن لهم ترجمات شخصية وتاريخاً أدبياً وبذلك يخسر جيل اليوم ويُحرم من ذلك الإنتاج الثري الزاكي.

توفي الطيب الساسي سنة ١٣٧٨هـ إثر حادث أليم في طريق مكة جدة رحمه الله.

محمد حسن عواد

هو أبو نجاة محمد حسن عواد الأديب والمفكر والشاعر المحلق الغِرّيد صاحب الطفرة الأدبية «خواطر مصرحة» ومهما قيل عن هذا العمل الأدبي ما قيل من خروج عن المألوف والمعتاد في فكر الجزيرة العربية فإن الرجل أحسبه مجتهداً إن أخطأ فله أجر فكان ذا طموح لماح اجترح العجب وتمكن من كسر الجمود، فالعواد رحمه الله مفكر من قبل أن يكون أديباً لكنه شاعر تمكن من التحليق في جو الشعر أكثر من تميزه الأدبي وهذا ما نراه في ديوان نحو كيان جديد.

عرفته في شتاء عام ١٣٩١هـ الموافق ١٩٧١م عندما عَرَّفني به وعرفه بي الأستاذ عبد الكريم نيازي رحمه الله وكانت بدايتي الصحفية مع جريدة البلاد إبان رئيس تحريرها الأستاذ عبد المجيد شبكشي رحمه الله، فانتهزت الفرصة وعملت مع الأستاذ العواد رحمة الله عليه لقاء أو حواراً أدبياً أو ثقافياً ونشره الأستاذ الشبكشي في صفحته الأدبية بـ«البلاد» الغراء. كان ذلك اللقاء في دارة ابنته المذيعة نجاة أواخر ١٣٩١هـ ثم تدرجت معرفتي بالعواد الرجل الطموح والمفكر بعيد النظر حتى كتبت عنه كلمة بعنوان محمد حسن عواد بين القديم والجديد ونشرها أخي النيازي في صيف ١٣٩٣هـ بصفحته المسماة كل يوم في البلاد.

وفي هذه المقالة أشرت إلى المعركة الأدبية بين العواد والأستاذ عبدالعزيز الربيع رحمة الله عليهما حول أحمد شوقي هل هو أمير الشعراء؟

وحينما نذكر فكر العواد الأدبي يلزم ذكر العواد وفكره الاجتماعي حيث أطلق عبارة الجنس العطوف على المرأة في حين يُعرف الرجل بالجنس الخشن على العموم، ومن إسرافه في ذلك آثر أن تكون الشاعرة ثريا قابل أشعرَ من أحمد شوقي الذي عُرف بلقب أمير الشعراء وهذا تعاطف شعوري واضح ترسمه نفسية العواد الذوقية، وقد عرف بعض الأدباء والشعراء بالتحيز إلى المرأة كما نعرف عن قاسم أمين في كتاب تحرير المرأة والمرأة الجديدة.

والشيء يذكر بالشيء فقد نقل الأستاذ أحمد جمال طيب الله ثراه في كتابه محاضرات في الثقافة الإسلامية عن طريق مصري ثقة بالنسبة له أن الشيخ محمد عبده هو الذي أوعز إلى قاسم أمين بالشروع في تأليف الكتابين المذكورين وهذا غريب من الأستاذ جمال رحمة الله عليه لكنه لا يعدو أن يكون ناقلاً وليس بالضرورة أن يكون محققاً على أنه لو صح ذلك فإن العذر مع الشيخ المجدد في بيئته المتخلفة في القرن الرابع عشر الهجري.

وقد كتب أحد تلامذة الأستاذ محمد حسن عواد عن سرّ اهتمامه بالمرأة فيقول: «عُرف عن العواد اهتمامه بالمرأة.. ووقوفه إلى جانبها في كل قضاياها! لذلك فإن الغالبية العظمى من مُحبي العواد والمعجبين بأدبه.. هم من الجنس العطوف.. لا الجنس الخشن على حد تعبيره؟ ما سِر اهتمامه بالمرأة؟! وهل كان عاشقاً يحلم كما يحلم الصغار المراهقون! لقد كان العواد عاشقاً بالطبع.. وقد انعكس عشقه على فكره وعطائه.

بهذه الروح.. وهذه العاطفة.. والمشاعر.. دافع العواد عن المرأة، "الجنس العطوف"، التي ستبقى -على حد قوله- ينبوع عطاء دائم ومصدر إيحاء وإلهام.

تقول الأديبة المتألقة فوزية أبو خالد: «إن موقف العواد من قضية المرأة، كان موقفاً وطنياً ملتزماً متقدماً جداً على زمن ذوات الخدر والخمار وساقية الحجيج وعلى المرأة وقد بدأت تحس بأن حلقة الخلخال وإن كانت من ذهب هي بعض قيدها وأن اللبان "العلك" وإن كان أمريكياً هو بعض لسانها وأن لا تنسى أن تسجل أن هذا الرجل قد أحب في القيود الكثيرة بعض قيدها، وإذا كانت بعض مواقف العواد من أدب المرأة أبوية وإرشادية.. يبقى أن العواد بمواقفه عموماً هو إحدى الشارات الهامة التي تدلنا على مفترق الطريق الصحيح.

وقد خاض العواد الكثير من المعارك ليدافع عن أدب المرأة..! ولعل وقوفه إلى جانب الشاعرة ثريا قابل.. وتشجيعه لها جعله يعترك مع كثير من الأدباء والشعراء الذين انتقدوا ديوانها "الأوزان الباكية" ومن أبرز معاركه مع هؤلاء الأدباء، معركته مع الشاعر الرقيق الأستاذ حسن عبد الله القرشي. بالغ العواد في مديحه للشاعرة ثريا.. وأغدق عليها بالكثير من النعوت والصفات منها "خنساء الجزيرة" و"ساجان السعودية".. وغيرها.

وكان ديوان "الأوزان الباكية" الديوان الوحيد للشاعرة.. كما لو كان بيضة الديك وقد حاول الأستاذ العواد في آخر أيامه أن ينتشل ثريا قابل من عزلتها.. ويخرجها من صمتها لتخرج ديواناً جديداً.. إلا أنه لم يفلح.. لقد كان وراءها يدفعها ويشجعها لكنها آثرت الصمت. كتب إليها في آخر أيامه رسالة بتاريخ ١٢/٣/١٤٠٠هـ خاطبها فيها: الشاعرة الكاتبة اللامعة السيدة ثريا محمد قابل.

ونظراً للرعاية المتطورة التي ستتخذ خطوات تقدمية جديدة من مقام رئاسة الوزراء بتوجيهات صاحب الجلالة حول التركيز على نشر الأدب الذي ينتجه أدباء وأديبات المملكة، والتوجيه المؤكد الذي وجهته الدولة للمشرفين على الصفحات الأدبية والثقافية (جرائد ومجلات) وأجهزة الإعلام السعودية عن طريق صاحب السمو الملكي فيصل بن فهد الرئيس العام لرعاية الشباب بأن يعطوا أولوية الاهتمام في الريبورتاجات الصحفية والمقابلات، والتحدث عن الإنتاج السعودي لأدباء المملكة بدلاً من الخطة التقليدية العقيمة التي كانوا يركزون فيها أولوية الاهتمام على أدباء من خارج المملكة.

بناء على كل هذا، وبناء على المكانة الأدبية التي لكِ هنا وهناك، يتقدم إليك النادي- رئيساً وأعضاء من كل أنواع العضوية بالرجاء التالي: أن تتفضلي بالاعتماد على النادي في طبع نتاجك الأدبي في كل شكل من أشكاله، وسيتعامل معك على قاعدة التعامل مع كل المؤلفين السعوديين»[1].

وللأسف فإن الشاعرة لم تُلبِ هذا النداء أو هذه المطالبة التي أرسلها أستاذنا العواد. لكن لا يعني ذلك إلا إصراره على أن تشارك المرأة الرجل في الأدب والفكر والفن. حيث أنه كان مفكراً يجوب ساحة الثقافة بحضوره الواضح المتألق وله مقولات فلسفية يعبر فيها عن معاني الفلسفة في الحياة الاجتماعية والفكر الإنساني وعلاقتها بهذه الحياة العامة، والدنيا ذات العجائب والرغائب، الشيء الذي عبر عنه بقوله اجتماعياً، نظرياً، وأدبياً، ودينياً، ودنيوياً.

---

(١) محمد علي قدس: العواد رائد التجديد.

يقول تحت عنوان ما هي الفلسفة: (لا أحب أن أتطرق إلى الفلسفة إن كل واجب إنساني في كل عمل اجتماعي في العالم كله سواء كان العمل دنيوياً أو دينياً، لا يمكن أن يتحقق أو يتم إلا بتأثير أحد عاملين: الدفع أو الاندفاع أو تأثيرهما معاً مشتركين.

فعامل الاندفاع هو عامل نفسي داخلي يتكيف به الضمير فيحس صاحبه أنه مطالب من نفسه بتحقيق واجب من الواجبات، أي واجب كان، فيصغي المرء إلى ذلك الصوت الذي يناديه من أعماقه لأن يعمل دون إغراء أو تلويح خارجي.

وعامل الدفع عامل خارجي منفصل عن الذات فيختلف عن عامل الاندفاع حيث يخاطب المرء خارج ذاته صادراً إليه من البيئة أو من المجتمع مجسداً في صوت أمل بتحقيق العمل، ولا فرق أن يكون من الأعلى للأدنى أو بالعكس، وفي هذه الحالة كثيراً ما يصبح الأمر أمراً ويكون الأمل أمراً، ويكون التكليف مستديماً كما هي الحال في الواجبات الوظيفية ويكون موقوتاً بزمن قصير أو لمدة واحدة)[1].

وقد رأس نادي جدة الأدبي ضمن الأندية الأدبية التي تأسست في مدن المملكة ابتداء من عام ١٣٩٥هـ- الموافق ١٩٧٥م فكان يجلب للنادي كبار المحاضرين من أعلام الفكر والأدب ولا زلت أذكر استحضاره في ذي القعدة من السنة المذكورة الشيخ حسن عبد الله آل الشيخ طيب الله ثراه ليحاضر في النادي عن موقف الإسلام من المرأة وقد حضر هذه المحاضرة لفيف من رجال الأدب والمهتمين مثل الأستاذ ضياء الدين رجب وعبد العزيز ضياء وغيرهما ورجال الصحافة والأعلام في جدة والرياض. والجدير بالذكر أن الأستاذ عواد وزع أعمال المؤتمر الأول للأدباء السعوديين (١٣٩٤هـ-١٩٧٤م) الذي يحوي خمسة أجزاء كبار على الحضور بعد انتهاء محاضرة الشيخ حسن. فكان ذلك إهداء لطيفا ونادراً في آن واحد نظراً لبعد الحصول لهذه الأعمال مطبوعة في نسخ محدودة وهي بلا ريب لفتة كريمة من الأستاذ عواد رحمة الله عليه.

ولدينا صورة من رسالة موجهة إلى الأستاذ أحمد زكي يماني يدعوه فيها الأستاذ العواد إلى إلقاء محاضرة في نادي جدة الأدبي وإليكموها:

---

(١) العواد رائد التجديد لمحمد علي قدس، صفحة ٧٠، الناشر نادي جدة الأدبي.

(صاحب المعالي الأستاذ أحمد زكي يماني

وزير البترول والثروة المعدنية المحترم

تحية طيبة مباركة،،،

وبعد فقد سعدنا مراراً بلقائكم والتحدث معكم عن التفضل بالمشاركة في تثقيف وتوعية المواطنين، ولا سيّما من الشبان هنا، بإلقاء محاضرات مختلفة في أزمان متباعدة أو متقاربة على حسب ما تسمح ظروف أعمالكم الكبيرة ومشاغلكم في الدولة، وذلك للاستفادة العامة في حقل الثقافة الإسلامية أو العربية أو الوطنية أو الثقافية العامة في أي موضوع تشاؤون التحدث فيه.

وقد وجدنا من معاليكم الارتياح النفسي لهذا الطلب، بل قدمتم لنا وعوداً مطلقة بالإجابة الكريمة ما نزال متمسكين بها لحرصنا الشديد على أن يدوي صوت مواطننا العزيز القادر على العطاء الفكري والروحي في أرجاء أول ناد أدبي يؤسس في المملكة وينال رعاية الدولة التي حظيت بها المؤسسات كما حظي بها الأفراد.

وانطلاقاً من كل هذا، ومن أمداء الأمل الكبير المتسع الذي يشدنا إليكم دائماً نرجو التكرم بإجابة طلبنا وتحديد الأسبوع أو الشهر الذي يحظى فيه ناديكم بالمحاضرة الموعود بها في أي موضوع ترغبون.

وفي انتظار الرد الكريم الذي يحقق تنفيذ هذه الرغبة نهديكم التحية والاحترام والتقدير.

محمد حسن عواد

رئيس نادي جدة الأدبي ٢٤/ ٤/ ١٣٩٨هـ)[١].

ومثل هذه الرسالة هي نموذج لاستكتاب العواد لرجالات الفكر والأدب في المجتمع المحلي أن يشاركوا بإلقاء محاضرة أو بحث أو دراسة في النادي الأدبي الذي يرأسه وقد لبى الكثيرون لمثل هذا الاستكتاب وبعضهم انشغل عن ذلك.

---

(١) العواد رائد التجديد، جمع وإعداد محمد علي قدس.

ويبدو في شخص العواد نوع من الغرابة وشيء من التطرف أحياناً في المجال الفكري فتارة نجده جانحاً نحو المرأة وأدبياتها مناصراً ومدافعاً عن حقوقها في إسراف واضح وتارة يتناول الفكر الإسلامي وقضاياه كورقة العمل التي قدمها في مؤتمر الأدباء السعوديين بمكة المكرمة عن التضامن الإسلامي والملك فيصل عام ١٩٧٤م وعرضه للكتب الإسلامية في عكاظ على مقدار صفحة كالذي دبجه عن كتاب «من كل صوب» للشيخ زيد بن فياض الكاتب الإسلامي المعروف.

فمثل ذلك نوع من الغرابة النادرة في رجل مفكر كالعواد المعروف بكتابه خواطر مُصرَّحة في الزمن العتيق المتقدم يخرج للمجتمع بآراء جريئة وأفكار متحررة.

وفي نفس الوقت فإن للشيخ محمد حسن عواد إسلامياته في الثقافة والأدب ولا ينكر ذلك إلا ظالم أو جهول أو جحود بفتح الجيم المعجمة.

ومن يقرأ ما كتبه العواد في عام ١٣٩٤هـ وما أنجزه في ذلك العام من عمل فكري يجد كلامي صائباً والله أعلم.

وأذكر والشيء يذكر بالشيء أنه في أواخر العام المشار إليه جاء إلى مكة المكرمة من جدة ونزل في فندق شبرا بجوار الحرم الشريف أكثر من ثلاثة أيام وقابلته آنئذ فحيَّاني ولما سألته وهو منفتل من صلاة الظهر بالحرم عن سبب وجوده أجابني قائلاً: حج وحاجة، وعلمت منه أنه بصدد معاملة وقف في فرع وزارة المالية الكائن في أجياد بمكة شرفها الله.

ومن الذكريات التي أتذكرها للأستاذ عواد أنه كان في مكتب الأستاذ عبد المجيد شبكشي بصحيفة البلاد وكان مدير إدارة المؤسسة -مؤسسة البلاد واقرأ الصحفية- الأستاذ عبدالفتاح أبو مدين رئيس النادي الأدبي بجده سابقاً، وكان بين العواد وعبدالفتاح نوع من الجفوة ولم يكن الأخير حاضراً سأل الأستاذ عواد عن نسخته وحقه الأدبي من الجريدة فأجاب الشبكشي: أن أبا مدين المسؤول.

عندئذ صرخ العواد قائلاً: لم تلده أمه بعد من يفعل ذلك.

ولد العواد بجدة سنة ١٣٢٠هـ وقد درس في مدرسة الفلاح وبعض الكتاتيب والمدارس في جدة ونظم الشعر وهو في تمام العاشرة من عمره وقد مثل المملكة العربية السعودية في كثير من المؤتمرات الأدبية في بعض البلدان العربية.

وكان شديد الذكاء سريع البديهة بَزَّ أقرانه في سرعة الفهم والإدراك وعاش حياة حافلة بالنشاط والعطاء والإنتاج المثمر «الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي» للدكتور عمر الطيب الساسي.

كما يصفه الدكتور الساسي بأنه رجل مبادئ عنيد لا يخاف ولا يجامل في الحق أبداً.

كان نصيراً للمرأة دعا لتعليمها وإعطائها فرص الحياة الحرة الكريمة.

وربما كان لابنته (نجاة) التي لم يرزق سواها أعظم الأثر في موقفه ذلك فهو معروف بانحيازه في الحياة إلى المرأة يدافع عنها ويرفع من شأنها وقيمتها ودورها في الحياة.

حاز الجائزة الأولى المحلية والثانية العالمية – في مسابقة لندن الشعرية في نهاية الحرب العالمية في عام ١٩٤٣م الموافق ١٣٦٢ هـ.

وشعره قويٌ في أسلوبه ومتماسكٌ في ألفاظه يقول في قصيدته "رسالة إلى الظلام"(١):

يـا ظـلام النهـي! حـذار حـذار	مـن ضـياء النهـي بهـذي الـديارِ
إنــه للسـماح حينـاً.. ولكـن	طبعـه الحـزم.. مثـل مـاء، ونـارِ
في قـواه السـطاء يـدبره العقـ	ـل، وفيـه مـراحم الجبـار
ههنـا نحـن، في جميـع قوانـا..	بالهـدى.. بالـدهاء.. بالانفجـار
بأمانينـا.. بأيـدٍ طـوال	لعبـت بـاليراع، والبتـار
لا تغرنّـك خافيـات السراديـ	ـب تـواري مخـازن التـواري

إلى أن يقول:

يـا ظـلام النهـي تركـز في رهـ	ـط أبـاحوا الحيـاة شر البـوار

---

(١) نشرت في جريدة البلاد ٢٨/ ١/ ١٤٠٠هـ بمناسبة القضاء على المخربين في المسجد الحرام، نقلاً عن محمد علي قدس.

وأتـوا قـومهم بأسـوأ مـا يـؤ — تـى بـه مـن نذالـة وخسـار

إذ تنـادي شـتيتهم باحتجـاز الــ — ـبيت، والبيـت في حمـى القهـار

شـاده خـالق دعـا الرسـل مثابـاً — مسـتمراً، لا للضـلال المُعـار

ثم يقول:

ميـزاتٌ تخاطـب العقـل والوجـ — ـدان مـن دون فاصـل أو سـتار

لـيس فيهـا تحـريم مـا زيـن الله — لإنسـانه فريـد الغـرار

قد نهاهـا الهـدى إلى شرعـة الرحـ — ـمان تمحـو شرائـع الفجـار

تتهـدى كتابـة.. تتقـراه — بـلا لوثـةٍ ولا اسـتهتار

وتُمـاشي مواكـب السـنة العصـ — ـماء في غـير وكسـةٍ أو عثـار

فهذه القصيدة مُترامية في ألفاظها وجملها بحيث عبَّر فيها الشاعر عن إيمانه بقداسة الحرم وحرمته فجاء بالعنوان "رسالة إلى الظلام" وكأن ذلك وحده يكفي أن يعبر الشاعر عن إخلاصه وولائه وإيمانه.

وله كتاب «خواطر مصرحة» نشره وهو في العشرين من عمره كما أن له كتاباً عن سليمان بن عبد الملك وديوان البراعم وديوان "نحو كيان جديد" وله قصة طويلة (رواية) بعنوان (طريق الخلود) جمع كل هذه الكتب والدواوين في أعمال كاملة.

أن محمد حسن عواد مثقف ومفكر وأديب شاعر. وفي كتابه «تأملات في الأدب والحياة» شذور من الفكر والأدب والثقافة ومقالات من الجانب العقلاني والفكري عند الأستاذ العواد كما حوى هذا الكتاب رؤية نقدية لبعض أعمال معاصريه من الأدباء كما فعل في نقد جارح لروايتي «التوأمان»، «مرهم التناسي» وكلتاهما للأستاذ عبد القدوس الأنصاري. (انظر كتاب الدكتور الساسي).

لكن العواد غلبت الفِكَرُ عنده أشعاره التي تتسم بالأشواق والأعراق وسبق النقد لديه التفلسف والتفكر.

وهذا من شأنه أن يؤطر كيانه المعنوي بأنساق من المعرفة الفكرية والثقافة الأدبية والعواطف الشعرية.

ولكنه لم يجد من يناصره في نظام الشعر الحديث الذي طرقه في كتابه «الطريق إلى موسيقى الشعر الخارجية».

وقد ابتدع لهذا النوع من الشعر اسم (شنر) يقصد الجمع والتوفيق بين الشعر والنثر. كما ابتكر مصطلح (فكفن) أي الجمع بين الفكر والفن.

وأصبح ما قاله من الشعر الحر غير مهتم به، سواء على المستوى الخطابي أو النقدي.

ونحن لا نوافق الدكتور عمر الساسي في قوله عن العواد أنه أسبق من نازك الملائكة وبدر شاكر السياب في قول الشعر الحر فقد سبق هؤلاء جميعاً علي أحمد باكثير في هذا الشعر الحر.

وعلى ذكر هذا النوع من الشعر للأستاذ العواد نصيبٌ كبير ومكثف في الشعر الحر. يقول في قصيدة عن التساوي في الثقافات بين الجنسين:

ليس من جنسنا أساتيذهنّ

أو لنا مثل ذاك من جنسهنّ

حالةٌ يستوي بها كل فرد وأخوه وأخته حين يُعنى

فسواء عطوفُنا ونشيط

وسواءٌ بها "زيادٌ" و"حسنى"

إن منطق الوقائع و"التقييم" والتسويات

-كيفاً ووزناً-

أمناء تبادلوا الفكر والفن

وأضفوا عليه فكراً وفنا

من هنا من هناك

فلا فرق

لا تحديد في الأمر

في رؤى "هم" و"هن"

إن أستاذنا جميعاً هو الإيحاء حراً

مركزاً مطمئناً

وحدة في كياننا تتفشى

لا تعادل يراد منهم ومنا

فالثقافات سائلٌ بشريٌ

يتهادى ما بين "زيد" و"لبنى"

فالعنعنات أضعف شأناً

كم فتاةٍ.. وكم وليدٍ..

أقاما في حجى الفيلسوف للفكر مبنى

وأمدَّا دماغه بضياءٍ قاد تفكيره إلى ألف معنى

ومن النقص في الثقافة أن نجحد فكراً على رؤاه اعتمدنا

وبنينا من لبنةٍ منه صرحاً

وعلى هديه القلاع رفعنا

وأشدنا به

وسرنا على أضوائه

في حماسةٍ وانتفعنا

وسمونا بفضله

ثم نَمَّيناه حجما

وفي ثناياه عشنا

ليس فكراً فحسب

حتى ولو عنصر فكر

أو جملة ما أردنا

أو حديثاً مقطعاً

أو إشارات صغاراً

أو همسة قد سمعنا

هذه الشمس

قد تعلمت الإشراق من نجم السهى

وهي أدنى:

حين أومت عيونها الضئيلات إليها:

أن تملأ الأرض حسناً

والثريا..

فهذا نموذج من الشعر الذي أروع ما يكون حينما يصدر عن زعيم من زعماء التجديد في الشعر الحديث وبالذات في الأدب العربي السعودي، ولو تأملنا في هذه القصيدة لوجدنا الصور والأخيلة والأفكار التي تنمُّ عن مقدرة الشاعر العميقة القادرة على تصوير التساوي في الثقافات بين الجنسين الذي طالما دعا إليه الشاعر العواد.

وقد قال في التمهيد لهذه القصيدة: ولا نهدف بهذا الوضع إيجاد قاعدة جديدة للقوافي وإنما هو تجديدٌ في هذه القصيدة وحدها جاء عفوياً نتيجة الانطلاق في حرية التجديد الفني انطلاقاً مُقيداً بالموسيقى الداخلية للشعر.

وسبحان الله لكأن الشاعر هنا يُتحفنا بعنصر أو نوع من الشعر الحر الذي أتقنه وصنع له بفكره وشعوره قبل أي شيء آخر.

أما محاضرة العواد الأخيرة التي كتبها قبل وفاته فهي عن المشاركة في التوعية والتنمية والتطوير، يقول في بعض فقراتها:

«أيها الإخوة: لا بد للإنسان أن يتعايش مع هذه المشاركة السعيدة إما بالترقية والتنمية والتطوير الفعلي فيقدم لأمته وبلاده ما يستطيع وكيفما يستطيع وإما ببذل المحاولة إذا لم يكن في القدرة إلا المحاولة، وأن يسخر طاقته وإرادته في سبيل هذه الغاية حتى تتبلور مواهبه وضروب نشاطه في أعمال هامة مثمرة.

ويجب أن لا تكون أمامه معوقات تجعله حائراً في الاختيار، فإن المواهب الإنسانية متعددة سواء كانت فكرية أو فنية أو مالية أو روحية أو يدوية.

وعندما يؤمن الإنسان بهذا التصور أو بهذه الإيديولوجية ويقتنع بالإقدام ويعزم فإن العمل وهو آخر المراحل يصبح سهلاً سائغاً وتتفتح أبوابه المغلقة وبالأصح التي كانت مغلقة. وعند ذاك يسعد الإنسان في نفسه ويسعد بسعادته أمته وبلده»[1].

ومن الكتابات النادرة التي تركها العواد بعض المقالات والمقولات، مقالة قصيرة بعنوان "الشيوخ المتصابون في صفوف الأدباء":

«المفكرون والأدباء والشعراء لا يشيخون كما يشيخ سائر الناس، فأحاسيسهم ناضجة دائماً قوية دائماً في سن الشباب وفيما بعد الشباب. وقد لا يحس كثير من الناس بهذه الحقيقة. ولكنهم لا يلامون. إلا أني عرفت أن هناك طائفة تحسُ بها، ولا تطبقها، لأنها تجد أنفسها فارغة منها بالرغم من اتزان هذه الطائفة مع المفكرين والأدباء والشعراء في السن نفسها واشتراك بعض أفراد معهم في معايشة الجو الأدبي بدون اشتراك في نفس السن.

وعندما يعتمل هذا الإحساس في نفوس هذه الطائفة تحتاج لتفريج كربها وإطفاء جذوة حقدها على الأدباء الأقوياء في شبابهم وكهولتهم وشيخوختهم بحيلة تافهة مضحكة هي الضرب دائماً على وتر تركيزهم بأنهم شيوخ، والمبالغة في تخيل الرقم النهائي أو القريب من أنها في الشيخوخة، فيصفون أبناء الستين بأنهم في الثمانين وأبناء السبعين بأنهم في التسعين وهكذا تطور في الزيادة والمبالغة وهي إحدى منافذ التنفيس عن الكرب عند أولئك الفارغين.

كتب بعضهم عني أني في الثمانين، وظل يضرب على هذا الوتر منذ عشرين عاماً وسألته ألم يزد عمري فهي الثمانين طوال هذه الأعوام العشرين التي مضت فأسقط في يده، لأنه نسي الرقم السابق الذي منحني إياه في تلك الفترة ثم كرره بذاته فيما بعد وبدت على وجهه بسمة ذابلة من الكسوف حاول أن يوحي بها أنه ظريف ومداعب لا أكثر ولا أقل، فتركته لشأنه

---

(١) العواد رائد التجديد لمحمد علي قدس، ص٩٣ و٩٤.

لكني سألته كم عمرك الآن وتَلفَّتَ خلسة إلى يمينه ويساره ليتأكد من أن الحاضرين لا يسمعونه فقال: أربعة وستون عاماً، ففوجئ من بعض مسترقي السمع يعترض عليه قائلاً: يا أستاذ إنك زعمت البارحة في المجمع الفلاني أنك في الرابعة والخمسين، فكيف تقول في السر ما لم تقل في العلن فأسقط في يده مرة ثانية وقال: إني أداعب الأستاذ فرد عليه أن الأستاذ قوي وصادق، لم يتلون في عمره كما تتلون الحرباء ولكنه خفف من ذلك هذا القول على الشيخ المتصابي بأن أخرجه معه، وبعد أن تركته دقائق في يد هذا المعترض يلعب به كما تلعب الهرة بالفأر قبل أن تلتهمه، وبعد أن تأكد أنه بدأ يسترجع حالته الطبيعية قلت له: هل تعرف يا شيخي العزيز أني كتبت أفكاري ومشاعري ونشرتها وطبعتها وأنا في الثامنة عشر وهي الآن بين أيدي القراء محل الإعجاب والاحترام فماذا صنعت أنت في تلك السن؟ إننا لم نعرف اسمك على الصحف والصحف فقط دون الكتب المطبوعة- إلا وأنت في الأردن).

وأنهى الأستاذ العواد المقابلة مع المتصابي وأحب أن يعلق بالآتي: «ليس كل الناس أدباء وهذا طبيعي وهناك أناس يرتزقون بما يشبه الأدب وهم في الواقع "شحاذون" يمدون أيديهم لاستجداء الأدباء أنفسهم ليقدموا لهم شيئاً من عطائهم الأدبي يستعينون به على التسول والارتزاق والشهرة فينعكس عليهم الأمر لسببين: الأول أن الأديب الحقيقي نبيل بأفكاره ومشاعره الصادقة والمؤثرة فهو لا يؤدي إلى طريق ملتوٍ وعلى الأخص إذا كانت هذه الطريقة صادرة عن خسَّة النفس، والثاني أن سوء النية باعث على الارتكاس عند صاحبه وسينفضح موقفه مهما بطل أمد التستر فويل للشحاذين الوافدين من أنفسهم وويل لهم مما يكسبون!»[1].

فأنت ترى فيما كتب العواد روحاً تعلو وقوةً تتعالى في سبيل الفكر والفن والأدب.

وإذا أردنا أن نتعرف على تفكيره الديني فإن العواد له نصيب في هذا الجانب من جوانب الحياة الروحية في الإسلام اسمعه يقول: «الحج عبادةٌ لله، وقد سماها الفقهاء عبادةً بدنية وهو الركن الخامس من أركان الإسلام كما تعلمون أما فكرة "الإئتمار" في المؤتمرات الإسلامية فمن

(١) العواد رائد التجديد، ص٨٠- ٨١.

العبث أن نحصرها في مكان معين أو في زمان معين خُلِقا -أعني الزمان والمكان المعينين- لغير الائتمار أساساً. إنما تكون المؤتمرات الإسلامية في غير أوقات الحج، وفي غير مشاعر الحج، أو فيهما ولكن بعيداً عن أعمال الحج ومناسكه حتى لا يكون هناك خلط في أعمال الدين، وحتى لا يكون ابتداع "بدع" في أركان الإسلام نهي عنها صاحب الرسالة نفسه حينما قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

والمؤتمر الإسلامي مطلوب عقده بنص القرآن الذي تقول إحدى آياته ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ وفي المؤتمر تحقيق لمبدأ الشورى الإسلامي وليس للمؤتمر ولا للائتمار وقت خاص ولا مكان خاص، أما خلطه بأعمال الحج أو محاولة قلب هذه الفريضة إلى وضع أخر فهذا ما نعوذ بالله منه».

والأستاذ هنا يريد أن يؤكد على رأيه فيواصل أقواله كما يأتي:

«قلت: ليس للمؤتمر الإسلامي مكان خاص ولا زمن خاص، وهذا معناه أنه يصح أن يعقد في لندن أو باريس أو واشنطن أو طوكيو وأن يعقد أول السنة الهجرية أو في وسطها أو في آخرها على أن يكون المؤتمرون مسلمين وأن يكون الهدف من المؤتمر تحقيق "الشورى" الإسلامية قبل تحقيق الغرض الفرعي للمؤتمر)[1].

فالأستاذ هنا يضع فكرةً دينية ورأياً موضوعياً لأن الحج في رأيه كما هو معروف عبادة وركن من أركان الإسلام الخمسة أما أن يكون مؤتمراً فهذا ما لا يمكن في رأيه ولكلٍّ رأيٌ.

رحم الله العواد فقد فوجئت بنعيه ذات يوم من صيف عام ١٤٠٠هـ حينما أذاعت الإذاعة العربية السعودية البرنامج العام خبر وفاته في نشرتها الإخبارية الرئيسية وكيف تلطف الدكتور محمد عبد يماني وزير الأعلام الأسبق وبعث كما ورد في الخبر ببرقية تعزية لأسرة الفقيد رحمة الله عليه فقد كان عبقرياً وشاعراً ومفكراً.

---

(١) المرجع السابق، ص٨٢.

حمزة شحاتة

ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٨هـ حيث كانت أسرته هناك ونزحت إلى جدة وهو في سن الطفولة فنشأ بها ودرس في مدرسة الفلاح وبعد تخرجه عمل في بيت زينل التجاري حيث أوفدته إلى الهند وهناك اطلع على الآداب الشرقية والغربية إضافةً إلى الأدب العربي وشعره الذي برع فيه شاعرنا حمزة شحاتة، ولما عاد من الهند اشترك مع أخيه محمد نور شحاتة في العمل التجاري لكنه بعد ذلك غادر جدة إلى القاهرة ليعمل محاسباً في البعثة التعليمية السعودية واستقر به المقام هناك إلى وفاته بتاريخ ١٢/ ٢/ ١٣٩٠هـ، ويعتبر حمزة شحاتة من فطاحل الشعر السعودي الذي برز في مقدمتهم وله مُساجلات مع الشاعر محمد حسن عواد وغيره وهو يميل في الثقافة إلى العلوم والآداب والفنون وله إنتاج شعري رصين يدلُّ على عبقريته.

وقد جُمِعَ شعره بعد وفاته في ديوان من قِبَل صديقيه الأستاذين محمد علي مغربي وعبد المجيد شبكشي، بمقدمة للأستاذ عزيز ضياء الذي كتب عنه كتاباً بعنوان «حمزة شحاتة قمّة عرفت ولم تُكتشف» في سلسلة المكتبة الصغيرة المشهورة.

في هذا الكُتيب رسم عزيز ضياء صورةً فكرية عن عبقرية هذا الشاعر وفحولة شعره ولكن ثمة إشارات ووقفات حول هذا الرجل الأديب الشاعر والعبقري الناثر وكيف أنه ضحى بهذه العبقرية في سبيل الاعتزاز النفسي الذي جعله صاحبه أروع ما في حياته وفيها قدم فيها.

إن حمزة شحاتة قمة من قمم الأدب السعودي ورائدٌ من رواده، كما أنه المفكر الأبرز حتى قبل محمد حسن عواد، وليس ذلك مقياساً ولكن الميدان هو الذي ظهر من خلاله حمزة شحاتة الشاعر المفكر والعبقري الفنان.

ومن شعره الجميل الرائع قصيدته "سطوة الحُسْن" يقول فيها:

بعد صفو الهوى وطيب الوفاق   عَزَّ حتّى السلامُ عند التّلاقي

يــا مُعــافى مــن داء قلبــي وحُــزني	وســليماً مــن حُرقتــي واشــتياقي!
هـل تمثّلـت ثـورة اليـأس في وجهـي	وهـــول الشـــقاءِ في إطراقـــي؟
أيُّ ســـهمٍ بـــهِ اخترقـــتِ فـــؤادي	حـــين ســـدّدتَها إلى أعماقـــي؟
مُســـرعاً في المســير تنتهــبُ الخَطــو	فهــل كنــتَ مشــفقاً مــن لحــاقي؟
إذ تهاديــت مُبــدلاً نظــرة العطــفِ	بـــأخرى قليلـــة الأشـــواقِ
وتهيـــأت للســـلامِ ولم تفعـــل	فأغريـــت فضـــول رفـــاقي
هبك أهملـت واجبـي صـلفاً منـك	فـــما ذنـــب واجـــب الأخـــلاق؟
واعــترى قلبــك المــلالُ فأعرضــت	فهـــلاّ انتظـــرت يـــوم الفـــراق؟
لا أُداجيـــك والكرامـــةُ معنـــى	تـــنجلي في صـــحة الميثـــاق
قـد يُطـاق الصـدود يوجبـه الـذنب	وصـــدُّ المـــلال غـــير مُطـــاق
سـطوة الحسـن حلّلـت لـك مـا كـان	حرامـــــاً فـــافتنَّ في إرهـــاقي
أنــت حُــرٌّ والحُسـنُ لا يعـرفُ القيـد	فصـــادر حريتـــي وانطلاقـــي
لم يكن باليسير صبري على عسفك	لـــو أننـــي طليـــق الوثـــاق

وهي قصيدة تُمثل ما في نفسية حمزة شحاتة الشاعر من القدرة الفنية والتصويرية للجمال في الناس أجمعين وإن كان يقصد أن يُظهر ما في ضميره من الحُب والفن والتفكير في هذا الجمال، الذي روعه وجعل منه مثالاً لمجنون ليلى أو قريباً منه وفي هذا الشبه نذكر كذلك العباس ابن الأحنف وجميل بثينة وكثير عزة أولئك الذين تغنوا بالجمال والحب والعشق.

وديوان حمزة شحاتة مليء بالقصائد الخالدة التي تصور لنا نهايات المُحبين العاشقين الذين رحلوا وتركوا بصماتهم الفنية والشعرية.

ونحن لا نُريد إلا التعبير عن هذا الرائد في الأدب والشعر والفن الذي يليق بموقعه أو منزلته بين الأدباء الرواد.

فنحن نعرف أن له أنداداً، أمثال ضياء الدين رجب ومحمد سعيد العامودي وأحمد بن إبراهيم الغزاوي وحسين عرب ومحمد حسن فقي وأحمد العربي وآخرين يطول بنا ذكرهم، وإنما أردنا أن نضرب المثل ليس إلا، ولكننا لا نريد أن نضرب كشحاً عن الشعر الجميل عند حمزة شحاتة بل نريد أن نستطرد في الاستقراء مع شعره الجميل، يقول في قصيدة حسبي:

حسبي بما حمل الفؤاد وما لقي ... كم ذا أُصانع في هواك وأتقي؟

وعلام تلقاني بوجه مُشرقٍ ... تُخفي طلاقته جهامة مُطرقِ؟

ماذا يصُدُّك عن هواي ودونه ... نجوى ضميرك إذ تقول وموثقي؟

قد كُنتَ تهزأُ بالصعاب فما لها ... ردّت خُطاك، وما لنا لا نلتقي؟

هانت عليك مواجعي فنسيتها ... أم كنت في مسعاك غير موفق؟

بل قد منعت ولستُ أول راغبٍ ... فجعته في رغباته يدُ أخرقِ

وعلى هذه الوتيرة والطريقة يقول حمزة شحاتة شعره ويؤطرُ عاطفته بمثل هذه الأبيات ويشقُّ من خلالها الصور والأفكار والقيم والمعاني مُعبراً عن ما في خلجاته من الأهداف المعنوية والعواطف الحسية.

ولعل ما يمكننا في الاستئناس من شعر حمزة شحاتة قصيدته "الشرق والغرب لا يلتقيان" وفيها يقول:

أَبَتْ قُربُ الإنسان إلا تلاقيا ... على غلواء الدهر بعد التجافيا

وما قُربُ الإنسان إلا وشائجٌ ... من النسب القاصي تداعت دوانيا

رمى بينها عسفُ الفروق فدكها ... فقام بها داعي الأواصر بانيا

فإما تلاقت بعد ريب وجفوةٍ ... ففي أن ترى ورد المناسب صافيا

وفي أن ترى حق العدالة شائعاً ... وفي أن ترى ظلَّ المساواة ضافيا

وفي أن تنال الحق حُجةُ أهله ... ولو أن تيجاناً أَبَتْ ومواضيا

وفي أن يماط الضيمُ عن كل أمةٍ ... تخونها بأس المغيرين باغياً

وفي أن تُرى حُرية الرأي مورداً ... مُباحاً وألا يدفع الظلم صاديا

ويُدرك القارئ الوعورة اللغوية والصعوبة البلاغية اللتين يتخذهما الشاعر كمسار من مساراته الشعرية الفنية حيث يستخدم ألفاظاً غير مُشاعة أو بعبارة أخرى فيها وجهٌ من الصعوبة التي لا يدركها إلا العارفون بشاعرية لغتنا العربية الفصحى.

ومهما يكن من أمر فالشاعر وشعره هما اللذان يأسران القارئ كيما يتصور مع الشاعر ماذا يريد هذا الشاعر من شعره وماذا عساه أن يعبر عن حسه؛ بل يريد الشاعر هنا من شعره أن يعطي القارئ صوراً شتى رسمتها لغته الشاعرة بحيث لا يدرك ذلك إلا العارفون ببواطن الشعر واللغة وفن التصوير.

ومع أن الأستاذ شحاتة شعره متمكن ويصدر عن عاطفة عميقة إلا أنه ذو فكر عميق أيضاً ولا يعني هذا أنه ناظم للشعر ولكنه ذو شاعرية وشعره جميلٌ ودافئٌ بالعواطف.

إذن هو شاعر ومُفكر أسمعه يقول في قصيدة بعنوان "تأمُلات" يقول:

آثـرت أن أظمـأ وعفـت مـواردي	واعتضـتُ مـن نـومي أنتباهـة ساهد
وصرفت نفسي عن علالات الهوى	لمّــا أجلــت بهــن رأي الناقــد
ونــذرت نفســي للجهــاد فهالهــا	ألا تشــد عــلى اللغــوب بعاضــد
فغــدا مــراد الــنفس أبعــد غايــة	ممــا يعــين عليــه جهــد الجاهــد
وإذا الحيـــاة بغـــير مجـــد قصـــةٌ	زكـى القنـوط بهـا فـوات الشـاهد

فأنت ترى في هذه الأبيات عمق اللغة وعمق الفكر وقوة الشكيمة -إذا صح التعبير- ونجد هذه اللغة تنمُّ أنه عارفٌ بأسرارها وببلاغتها وببيانها وبديعها ومعانيها فكيف بنا لو مررنا بجميع قصائده وجميع شعره لهالنا الموضوع ولسبحنا في بحر شاعريته وشعره.

وقد تحدث الأستاذ محمد صالح باخطمة في ذكرياته وأيامه معه، أي مع شاعرنا حمزة شحاتة عن أحداثٍ مر بها الشاعر بلمحاته الإنسانية فكان كالطود الأشم في الصبر والمعاناة التي عاناها جسماً ونفساً وروحاً.

وفي ظننا أن هذه المعاناة ليست أنانية فيه ولكنها معاناة المفكر والشاعر الذي يحمل مسؤولية إنسانية كبرى في ذاته تجاه أمته. إذن فعليه أن يعبر بقوة وعنفوانية كيما يدل الإنسان على حقيقة هذه الحياة وأنها غير مفروشة بالورود[1].

أما وقد جئنا إلى حديث النثر فنقول: إن لشاعرنا حمزة شحاتة نثراً بليغ اللغة كشعره تماماً وعلى سبيل المثال كتابه "الرجولة عماد الخلق الفاضل" وأصله محاضرة ألقاها في الموسم الثقافي لجمعية الإسعاف الخيرية بمكة المكرمة سنة١٣٥٩هـ الموافق١٩٤٠م، تحدث فيها عن الأخلاق الفاضلة متفلسفاً فيها بالرجوع إلى الأخلاق ومعناها وقيمها في الفكر العربي الإسلامي.

الذي جاءت في رسائل الفلاسفة كالكندي وابن سيناء وابن طفيل وابن خلدون وابن تيمية والغزالي وإخوان الصفاء.

تلك الرسائل التي أصّلها هؤلاء الفلاسفة والمفكرون في معنى الأخلاق الإيماني والفكري والفلسفي والذاتي والتربوي والتعليمي.

نرى حمزة شحاتة ذلك الشاب المكي الذي رصد لهذه المعاني الخلقية وألقاها أمام جمهور من المواطنين والوافدين وكان متشجعاً فيها دالاً على قوة روحه ونفسه وفكره وعقله وعاطفاً على الأمة التي قصر عمرها إلا من معاني الحياة العملية فقط.

فهو يستبعد الضرورة كأساس للخلق الفاضل لأن الضرورة أمرٌ طارئ والأصل في الخلق الفاضل أن يكون ثابت الجذور بلا رياء[2].

ونحن نوافق الدكتور الساسي الذي ذكر أن أساس الأخلاق الذي تحدث عنها شحاته هو الحياء.

ولذلك ورد في الأثر النبوي الشريف بأن من أقوال الأنبياء: إذا لم تستح فاصنع ما شئت، أو كما قال ﷺ.

---

(١) انظر كتاب حمزة شحاتة أيام معه لمحمد صالح باخطمة، فصل لمحات إنسانية وأحداث بحياته، ص٢٧ سنة النشر ١٤٢٧.

(٢) الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي للدكتور/ عمر الطيب الساسي، ص١١٨، الطبعة الثانية سنة١٤١٥هـ-١٩٥٩م، دار زهران بجدة.

وهناك جانبٌ أخر من نثر حمزة شحاتة وهي مجموعة أفكاره التي جمعها الأديب الراحل عبد الحميد مشخص تحت عنوان "رُفات عقل" على أنه كتاب لشاعرنا شحاتة، والحق أن هذه الأفكار لا يقولها إلا متمكن من الفلسفة والفكر الإنساني والعقل الباطني الذي ظهر تماماً في قدرة المؤلف على مسارات أفكاره ومعاني عقله.

وفي تقديم هذا الكتاب يذكر الأستاذ عبد الحميد أن حمزة شحاتة لم يكن معنياً بجمع تراثه الشعري والفكري أو أعماله الأدبية بل كان يمزق قصائده شر ممزق ولكن الناقدين والباحثين استطاعوا بعد رحيله أن يجمعوا ما تبقى من آثار حمزة شحاتة، يقول حمزة شحاتة تحت عنوان "لست راضياً عن آثاري الأدبية":

«ولم أكن راضياً قط، عن أثر من آثاري الأدبية بعد تأمله ولذلك لم أفكر في جمع هذه الآثار..

ولا شك أن قدرتي لا تجاري شعوري بالكامل.. أو بما يدنيني منه.. إنني أشعر باختناق، واشمئزاز من خير ما يتقبله الناس من إنتاجي، لأني أحس بدقة متناهية كل جوانب النقص فيه.. مهما خفيت..!!

وعبثاً أحاول التخلص من سيطرة شخصية الناقد على اتجاه ما أنتج.. إنها ظاهرة قد تُفسَّر بضعف الثقة في الذات.. أو بأنها أثر للشعور بالخطيئة.. إنني على استعداد لتقبل كل تفسير مهما كان قاسياً.. ولن أدافع عن نفسي أو أبررها» أ.هـ.

إذاً فشاعرنا وأديبنا لا يريد الشهرة وهذا من خلق الأفاضل كما أخبرنا التاريخ كأبي حيان التوحيدي الذي مزق كتبه ومؤلفاته ولم يبق منها إلا اليسير وكأن الأدب والشعر يخلدان في هامش التاريخ حتى إذا جاء الباحثون والمنقبون عن الآثار وجدوها.

وإذا أردنا أن نتجول مع أثار شاعرنا لنفتح بعض الصفحات من رفات عقل كقوله مقارناً بين الصحفي والأديب:

«ولا يزال هناك الكثير من المواضيع الهامة التي لا بد أن أبدي فيها رأيي الصريح.. الرأي الذي لا يعرف المهانة أو المداراة فهناك من يربطون بين الأديب والصحفي وهناك من يقولون بأنه ليس من الحق اعتبار كل صحفي أديباً وهناك أيضاً من يدعون إلى قيام مجمع للغة العربية في بلادنا.

وفي رأيي أنه ليس كل صحفي أديباً.. هذا صحيح ولكن لماذا لا يكون الأديب صحفياً يجري على طريقة الصحفيين في تقديم أدبه؟!

إن الفارق بين ما هو أدب وما هو مجرد كتابة صحفية، فارق واضح وإنك لتجد عرضاً أو تعليقاً سياسياً أو اجتماعياً لا تجد له مكاناً إلا بين أفضل الآثار الأدبية».

«كثيراً ما يسألني بعضهم عما طرأ على إنتاجنا الأدبي من تغيير في السنوات الأخيرة وعن موقف الرعيل الأول من أدبائنا من مسايرة الحياة كما هي اليوم..

وأقول لهم: إنني منذ أن أصبحت أمياً لا أقرأ ولا أكتب إلا بالواسطة لم أقرأ من آثار أدبائنا شيئاً يمكنني من الحكم على مدى التغيير أو التطور الذي حققته الآثار الجديدة.. ولكني أعتقد أننا نستقبل مجالاً أرحب يمتلئ بآثار الجامعيين والمثقفين والمتخصصين نبدأ به بدأة غنية محمودة مرحلة انتقال طال علينا أوان ارتقابها».

«وما دامت الحياة حركة دائبة فهي تغير وتطور، والحياة بالمعنى الشامل هي الإنسان وعلاقاته وصيرورته، والأدب والفنون في الحياة ومنها.. ولا يمكن أن تكون شيئاً منفصلاً عن الإنسان.. ولا بد أن تتطور في خط يجاري مطالبه المتجددة وعلاقاته بالوجود الإنساني وبالطبيعة وسيظل الأدب فناً قوامه الجمال والتأثير والفكرة والعاطفة وهدفه الإنسان متابعاً لتحولاته قائداً لمشاعره موجهاً لاهتماماته.. وتتغير اتجاهات الأدب كما تتغير اتجاهات الإنسان على رابطة العلاقة بينهما.. والأدب في خدمة المجتمع لا يكون ولن يكون أدباً متجرداً من جمال الفن وفن الجمال».

هذه المحاور والنصوص أثبتناها كي نتعرف على جانبٍ أخر من جوانب أدب وفكر شاعرنا وناثرنا وأديبنا وعلى الرغم من أن ما تحدث به قد يكون يمثل جوانب تقليدية إلا أنها تشكل لنا نموذجاً أو أكثر من النماذج المتأصلة عند روادنا أمثال شاعرنا.

فهو يغوص في فكره بالثقافة الواسعة شرقيها وغربيها وما يمتُّ إليها بصلة أدب أو فن أو فكر، الشيء الذي يجملُ ما يبوحُ به الشاعر أو المفكر أو الفنان أو المُفنّ على اعتبار المعنى اللغوي.

وبجوار هذه الثقافة يُبحر شحاتة في أكوان الأدب والثقافة والشعر والفن بما أُوتي من قوة عابراً هذا البحر بأمواجه العاتية ولياليه الظلماء غير مبالٍ كما فعل ذلك -والراوي هو الأستاذ باخطمة- عندما اشتهى شاعرنا شحاتة أن يأكل سمكاً في إحدى الليالي فركب السيارة على غير عهدٍ بها وذهب إلى تول من ضواحي ينبع والمدينة المنورة وأكل ما اشتهاه ثم عاد إلى جدة وقد حقق ما أراده بالعزيمة.

وهذا يدل على صدق من قال: إن حمزة شحاتة مفكر وفيلسوف عميق وثقافته هي التي جنت عليه من خلال الصعوبات التي واجهها وهو خارج البلاد.

والمعجب هنا أنه بسيط الشكلية لكنه عميق الفكر فالأفكار التي يطرحها يعبر عنها بجزالة أسلوب وعمق بلاغة وبيان وهذا يدركه أي قارئ لشعره وقصائده وأبياته وكتبه النثرية حتى رسائله إلى ابنته شيرين يجد فيها هذا القارئ الأفكار الغريبة والصور اللطيفة التي يعبر بها عن مدى مسؤوليته عن بناته.

وإذا عدنا إلى شعره نتأمل فيه نجد قصيدة في ديوانه بعنوان "الشباب" يقول فيها:

مـن للغِـلابِ سـوى الشباب	إذا تكاتفـت الصـعاب؟
المرفضـين إلى الـوغى	يتواثبـون عـلى الرقـاب
والسـابحين عـلى العُبـا	يغـالبون قـوى العُبـاب
والراقصـين عـلى الثـرى	والطـائرين عـلى السـحاب
الصـاخبين اللاعبـين	الباسـمين عـلى العـذاب
يتلهبّـونَ عـلى الصـراع	تلهـب الأسـد الغضـاب
لم تثـنهم نـار الحصـاد	ولم يصـدهم المصـاب
فكـأنهم عشـقوا الفنـاء	فـلا ارتـداد ولا انقـلاب
هـم في الخنـادق صـامدين	همـو عـلى قمـم الهضـاب

وهي قصيدة ملأى بالهمة ينشدها للشباب ويفرش الفكرة العنفوانية لهم بالتصور القوي لقواهم والهيبة لأجسادهم ونفوسهم وهي قصيدة طويلة نلمح من خلالها كيف يتصور هذا الشاعر الفكرة الشبابية والقوة العنفوانية فيهم.

وإذا قرأنا القصيدة إلى آخرها لاستقرأنا المُثل العليا التي وضعها الشاعر في أبيات قصيدته والقيم الحميدة فيها والمعاني السامية خذ منها كذلك هذه الأبيات:

يـــا مُنقـــذي شرف الحضـــارة	أن يــــــذل وأن يُصـــــاب
شرف الحضـــارة دون هيكلهـــا	أحـــــق بـــــأن يُهـــــاب
فلتـــــدفعوا عنـــــه النقيصـــة	بالفنــــــــاء وبـــــــالخراب
فالمجـــــد للحـــــر المظفـــــر	لا لُمتلـــــــئ الوطـــــــاب
أغـــلى المبـــادئ مـــا أقـــام	الحـــق محمـــي الجنـــاب

فنجد فيها نداءات لتحفيزهم نحو المستقبل والعمل من خلال الحياة التي يعتبر فيها قيمة الإنسان، أي إن العمل هو مقياس الحي في حياته والجزاء من عمله مُكافِئة متكاملة لعناصر العمل المطلوب الذي لا يقبله إلا فاقد العقل أو من ليس له مسحة من تعقل وهذا ما تؤكده الأبيات التي تلت في قوله:

النصــــر يــــا همـــم الشـــباب	جنـــى الســـواعد والخـــراب
ســـيروا عـــلى ســـنن القنـــا	فأمـــامكم ظفـــرُ المـــآب
خوضـــوا الضـــباب ســـتنجلي	عـــن فـــوزكم كِســـفُ الضـــباب

وكأن الشاعر يُدرك ما لم يدركه من سبقه في فلسفة فكر الشباب وهمته وقيمه حيث يعبر عن ذلك في قصيدته الطويلة هذه التي اقتطفنا منها الكثير.

ومن المعاني التي نريد أن نثبتها من أقوال مفكرنا التي تدل على رؤيته الحياتية من خلال تجاربه:

(لا يصبر المحروم إلا لأنه يخشى قسوة القانون)

(قبل أن تختار شيئاً، يجب أن تطيل التفكير.. أما بعد اختياره.. فلا..)

(بماذا تفسر مَنْ تُضحكه نكتتك قبل أن يسمعها).

(التردد من مظاهر الرحمة وهو ضعف تصاب به الشخصية، إن عقلي يتداعى أمام هذا القانون).

(أول سبيل الهداية الصدق في مراقبة النفس)

(حسن أن تتكلم وأحسن كثيراً أن تصمت)

(الصمت أفضل لغة للحوار)

(الإسهاب صنعة والإيجاز فن)

(ليست المعرفة أن تتعلم ما تجهل ولكن أن تنتفع به)

(ليست المعرفة هي التي تقودنا ولكن ما بداخلنا مهما ناقض معرفتنا)

هذه العبارات كانقاط على الحروف في مجالات شتى وجوانب متعددة من الحياة الإنسانية والاجتماعية والأدبية بحيث يفكر الإنسان بحياته نحو أعمالها ومتناقضاتها وحلوها ومُرها وما إلى ذلك من مظاهر الحياة وشؤونها وشجونها كذلك.

ويظل حمزة شحاتة مفكراً وأديباً وشاعراً من خلال حياته ومن خلال الرؤى التي حلم بها ومن الأفكار التي جسدها صوراً شتى من معاني الحياة وقيمها ولا ينبئك مثل خبير.

إن فيه من إباء المتنبي وشاعرية البحتري ورقة الأحنف وفلسفة المعري الشيء الذي يكون من شاعريته وأفكاره ولغته شاعراً آخر لم يأت به الزمان بعد، وكأنه سبق عصره بدهور وأزمان نظراً لفكره العميق وفلسفته القوية وشعره الجزل لغةً وبلاغةً وبياناً. حمزة شحاته هو الشاعر الوحيد من رواد الأدب السعودي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس كما قال ابن رشيق في المتنبي وهي مقولة تنطبق على حمزة كما انطبقت على المتنبي.

فإن شئت شعراً رقيقاً وجدته، وإن شئت شاعرية في القول تجده، ولو أردت فلسفة لوجدتها؛ كل ذلك في ديوانه وكتبه النثرية، بل إن ديوانه ينبئك على ذلك كله لأن في شعره ملكة القول وفي

نثره فلسفة الكلام وقد تحار بين هذا وذاك لكنك ستجد ما أردته بلا تردد، لأنه يعطيك من الشعر أحسنه ومن النثر أجوده فلا تخرج من القراءة بين ذاك وذاك إلا بفائدة أدبية أو فلسفية أو معرفية؛ بل قد يعطيك ثقافة حتى من شطر بيت في أية قصيدة تقرؤها في ديوانه.

لقد تثقف حمزة شحاته على دواوين كثير من الشعراء أمثال زهير بن أبي سلمى وطرفة بن العبد وعنترة بن شداد من الشعراء الجاهليين والأخطل والفرزدق وجرير وجميل بثينة وكثير عزة والعباس ابن الأحنف من الإسلاميين وأبي العتاهية وابن الرومي والمتنبي والشريف الرضي من العباسيين، ومن المعاصرين قرأ حمزة وتثقف على دواوين محمود سامي البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وإسماعيل صبري ومعروف الرصافي والجواهري والزهاوي وعمر أبي ريشة وخير الدين الزركلي.

كما تثقف على كتب الرافعي والزيات والعقاد وطه حسين وزكي مبارك وتوفيق الحكيم والمازني.. هؤلاء الشعراء والكتاب والمثقفون والمفكرون الذين كان لهم دور الريادة في ثقافة العصر الحديث فأثروا الساحة الأدبية والمعرفية والفكرية والثقافية والشعرية بإنتاجهم وكتبهم ودواوينهم.

من هنا فإن ثقافة شحاته كانت مزدهرة تتطلع إلى الأستاذية في الشعر والنثر اللذين أجاد فيهما ثقافة وفكراً وشعراً واستطاع أن يكون من الرواد في الأدب السعودي الحديث، فهو من حيث الثقافة مثل أقرانه العواد والقنديل والعامودي والزمخشري وسرحان وغيرهما من الرواد الكبار والأساتيذ في المعرفة والثقافة والشعر والنثر بصفة عامة الذين شكلوا محاور الأدب السعودي وأركانه وجعلوا منه نوافذ فكرية وأدبية وثقافية التي تنم عن قدرتهم الفائقة على السير في درب هذه الآداب والعلوم والفنون، فافتَنُّوا في التأليف والكتابة والإنتاج شعراً ونثراً وملؤوا المكتبة السعودية بذلك الإنتاج والتأليف في شتى ميادين الشعر والنثر وما أكثرها تلك الميادين والمواضيع سواء هي معارف أو مشاعر أو أفكار أو عن الشخصيات التي مضت في التاريخ سائرة في دروب ذلك التأليف والإنتاج والكتابة.

وبالنسبة لديوان الشاعر حمزة شحاتة هناك ثلاثة أشخاص لهم الفضل في جمع شعر هذا الديوان وهم: الأساتذة محمد علي مغربي وعبد المجيد شبكشي وعبد السلام الساسي إذ

المعروف أن الشاعر قد مزق قصائده وشعره بصفة عامة لكن جهود هؤلاء الأدباء الثلاثة استطاعت بتوفيق من الله أن تجمع شتات شعر هذا الديوان وهو المجموعة الشعرية لحمزة شحاتة التي نشرها نادي جدة الأدبي الثقافي الذي يُذكر ثم يُشكر.

وهكذا شاءت الإرادة الإلهية أن تحفظ شعر هذا الشاعر من الضياع. وهناك أشخاص آخرون كان لهم فضل الاحتفاظ ببعض شعر الشاعر حيث جمعها أخيراً الأستاذان المغربي والشبكشي في مجموعة ديوان حمزة شحاتة الموجود والمطبوع الطبعة السائرة.

إن حمزة شحاتة شاعر متمكن من لغة الشعر العويصة المعنى والبليغة المبنى لفظاً ومعنىً استطاع فيهما أن يعبر عن وجدانياته ومعنوياته وأفكاره وقيمه وأخلاقه وخواطره بلغة جزلة وأسلوب رصين بلا تقعر أو تكلف؛ بل إنه سار في شعره مسيرة اعتيادية لا تشوبها شائبة، إنه يمضي قدماً شاعراً لا يقف في طريقه بل يسير بكل قوة واثقاً من شعره مقدماً بفكره ينتهب الطريق بكل جرأة كي يعبر ويفكر ويشعر كقوله في قصيدة بعنوان (هذا العيد).

هـذا هـلال العيـد أشرق فـاغتبط ... وألـبس لمقدمـه السـعيد جديـدا
واخلـع قـديمك للقـديم.. تلفـه ... فيـه يـد تطـوي الطريـف تليـدا
وانهـب مـن اللـذات قبـل فواتهـا ... مـا تسـترد بـه الحيـاة وليـدا
أرسـل لنفارهـة الشـباب لجامهـا ... فغـداً سـيعقبك المشـيب قيـودا
دعهـا تـرد عـذب المـوارد قبـل أن ... تبغـي الـورود فـلا تطيـق ورودا
اليـوم تمنحـك الحسـان خـدودها ... وغـداً ستصـليك الحسـان صـدودا
اليوم زيـن الصـحب أنـت وشـغلهم ... وغـداً تـدب عـلى عصـاك وحيـدا
اليوم دنيـا القـادرين... فـإن مضـت ... هيهـات لـو ناديتهـا.. فتعـودا
طِـرْ في حـدائقها، ومـصَّ رحيقهـا ... واحمـد ورودك إن رشـفت ورودا
وانصب شراكك، وارم سهمك صائباً ... واقـرع قريعـك في النضـال جلـودا
فـاليوم تعطيـك الحيـاة وقودهـا ... وغـداً ستصـنعك الحيـاة وقـودا!!

وعندما نورد هذه القصيدة والقصائد السابقة فإننا نعني ما نقول وما ننقل من شعر الرجل، فلا يكفي البيتان أو الثلاثة وإنما يجرنا إلى نقل القصيد كاملاً هو أولاً أسلوب الرجل، ثانياً لغته الشعرية، ثالثاً معانيه المكثفة، من أجل ذلك فنضطر نحن لنقل هذا الشعر كاملاً غير منقوص كي يستبين للقارئ ما أردناه من أقوال قبل نقل الشعر وبعده أي أننا لا نستكثر الشعر استكثاراً ولكننا ننقله بقدر، كالقصيدة الماضية عن العيد التي قالها الشاعر فلا نستطيع تقطيعها بل لابد لنا من أن نوردها كاملة، حتى يتبين للقارئ ما أراده الشاعر من ذكر للقديم والشباب واللذات والحسان والورود وما إلى ذلك من معالم العيد التي يذكرها الشاعر بيتاً وراء بيت وقصيداً خلف قصيد، الأمر الذي يضطرنا كما سبق أن قلنا لنقل الشعر نقلاً. وهذا لا يقتصر على شاعر دون آخر ممن ذكرنا من الرواد بل إنه ينطبق على كل منهم قد نقلنا من أشعارهم القصائد الطوال.

وشاعرنا نفسه طويل في الشعر وقوافيه متعددة، ولذلك نجد أن ديوانه متعدد الأغراض وطويل القصائد ومواضيعه مختلفة بحيث يحار الناقد الأدبي يختار أي قصيد أو قصيد الشيء الذي يجعلنا أمام الواقع الشعري العتيد، ويعتبره النقاد ومؤرخو الأدب السعودي أعرق شاعر وأقوى أديب في قرض الشعر.

ولذا خصصنا بالدراسة الموضوعة على أسس الريادة الشعرية في الأدباء السعوديين، فيعتبر هو في مقدمة الشعراء من هذا الباب، أي الباب الريادي، فإن أردنا أن نخصص شعره في الغزل قلنا إنه كذلك، وإن أردناه في الهجاء كان كذلك، وإذا أردناه في الوصف والإخوانيات كان كذلك، فهو طَوَّع الشعر في كل غرض من الأغراض التي طرقها في كل ديوانه بل حتى في شعره الذي لم نقف عليه نظراً لإتلافه الكثير مما قاله من شعر.

إن حمزة شحاتة شاعر فحل يمكننا إدراجه في كبار الشعراء المعاصرين لا في الأدب السعودي فحسب بل في الشعراء العرب المعاصرين كذلك، فهو لا يقصر عن عمر أبو ريشة أو بدوي الجبل أو محمود غنيم أو أحمد محجوب أو زكريا مفدي أو الأخطل الصغير فهؤلاء أقران حمزة وأترابه في قول الشعر وفي التصوير الشعري للأدب الذي يعد الشعر أكبر أبوابه وأعوص

مطالبه لذلك فليس كل أديب شاعراً بل إن كل شاعر أديب، وهذا القول يتفق ونظريات النقد الأدبي الحديث، ألم تر كيف يتنازع القول بفرنسا وسويسرا على جان جاك روسو لأنه ولد في سويسرا لكنه يعود أصله إلى فرنسا لا من الناحية القومية أو الوطنية ولكن النزاع عليه كان في الفن الأدبي فالسويسريون يعتبرونه سويسرياً والفرنسيس يعتبرونه فرنسياً، نفس الإشكالية التي نتنازعها مع الإخوة الكويتيين حول الشاعر خالد الفرج، أهو سعودي أم كويتي؟ لمجرد أن ولادته كانت هناك ولكنه يعود أصله إلى المملكة؟

إن القومية أو الوطنية ليس قصارى معناها في الطين أو البيئة إنما الفن هو الذي ينزع الناقد بالأديب إلى أدبه وبالشاعر إلى شعره وبالفنان إلى فنه.

فحمزة شحاتة فنان شاعر وشاعر مفن، بل إنه أديب وشاعر اكتسح الساحة الشعرية بلغته الشاعرة التي يصح معها أنه يصلح لأن يكون عضواً في مجمع اللغة لو كان لدينا مجمع لغوي لأن شعره مطرز بالكثير والكثير من الألفاظ اللغوية البليغة التي لا يصطادها إلا ماهر وعارف بأسرار العربية التي يقول عنها العقاد: إنها اللغة الشاعرة، وإذا رام القارئ أن يقف على ذلك فعليه بالديوان فإنه سيجد مصداق هذا القول، وليس من همنا أن نعد الرجل لغوياً فحسب، فهو بليغ أيضاً في لغته الشعرية ولغته الأدبية ولغته الفنية، وللأسف لم يتسن له من يدرسه دراسة لغوية خاصة أو دراسة لغوية بلاغية، ولعل القراءة التي نهجها نادي جدة الأدبي المعروف بقراءة النص هي اليتيمة في دراسة لغة حمزة الشاعرة، هذا إذا استثنينا كذلك الكتاب أو الكتيب الذي ألفه الأستاذ عزيز ضياء بعنوان "حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف".

ولنقف قليلاً مع شعر عنوانه "من أعماق الحياة":

الفكـر ينجزهـا، واليـأس يلويهـا	منـي يبيـت عـلى الوعثـاء ساريها
عشنا، وعاشت على صحراء مجدبة	مـن الحقـائق، تطوينـا ونطويهـا
أنضـاء معركـة، أنقـى السـلاح بهـا	للفـوز، مـا شرعـت أخلاقنـا فيهـا
حيث النضال خؤوف، والقوى خدع	ألقـى عليهـا ضيـاء الحـق مزجيهـا
لـئن أقمنـا عـلى خسـف فـما فتئـت	قلوبنـا تتحـدى بـأس مرديهـا

يا منكر العيش أو شاء مذهبة لقد رضيناه أحلاماً وتمويها

عفنا الرخاء فلم تعلق بنصرته مبادئ عن طلاب الذل تغليها

فمورد الإثم تأباه لنا شرع من الفضائل قادتنا دواعيها

فما تميل بنا – يوماً – لمنقصة ولو تقلد بالجوزاء آتيها

ولو طوينا على الأجراح راعفة صدورنا ما غضضنا من نواهيها

فافرح بدنياك ما جنت فإن عقلت ردتك فيها يدير القول تشبيها

فالقصيد هنا قصيد فكرة ومعقوليات من الحياة بل من أعماقها، وقيم وشيم من الدنيا ما تزال متمسكة أو ممسكاً بها كل إنسان في الوجود غايته منها أن يترسم هذه الحياة وهذه الدنيا في دروب سمحة وطرق ممهدة، حتى يصل هذا الإنسان إلى مبتغاه وهذا ما جعل الشاعر يضع عبارة من "أعماق الحياة" عنواناً للقصيد. هذا مثال من أمثلة مررنا بها في ديوان شاعرنا فكيف لو نقلنا كل قصيدة فيه لأعيانا الترحال والنقل والنقش على كل ما قاله حمزة شحاتة من شعر والمقصود هنا أننا نتصور الشاعر وما قاله من شعر كتعابير لموضوعات الحياة كلها مهما تكن الصعوبة فقصيد شاعرنا ممتلئ بالتفوق الشعري الذي لا يجاريه إلا أمثاله وإلا فأروني ماذا يمكن للقارئ أن يترسم هذا الشعر إذا انفلتنا في نقل كل أشعار الشاعر، هل سيصادق على ما قلناه خاصة إذا ما قلنا إننا نراهن بذلك على سواه من الشعراء..!

وهذا يذكرنا بقول الحطيئة:

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

زلت به إلى الحضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه

كما يقول الفرزدق في عبارة غير شعرية لكنها تمس شعره:

يمر بي أحياناً أن أقول الشعر فلا أستطيع، وإن قلع ضرس أهون علي من قول بيت من الشعر..!

أليس كذلك أخي القارئ؟؟

توفي الشاعر حمزة شحاتة سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م رحمة الله عليه.

محمد سعيد العامودي

في مكان كريم بأم القرى ولد محمد سعيد العامودي، سنة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥م، لأبوين كريمين، ترعرع في ظلهما، بالتربية الحانية، والحنان الطيب الكريم، وكان والده الشيخ عبد الرحمن العامودي من تجار مكة المكرمة وأعيانها الذين كانت لهم ظاهرة حسنة، وصلة بالناس جميلة، واتصال وثيق. وكان عمله يستظهر الشعور بالقناعة، والرضا المقسوم. وظل الشيخ عبد الرحمن في تجارته بمكة المكرمة، ولكنه اضطر إلى السفر إلى مصر أيام الأشراف الهاشميين!. وفي مصر -التي رافق أباه إليها- وَجَدَ محمد سعيد العامودي فرصة للإطلاع على المكتبات والأزهر والمدارس والكليات، وهو الشاب الذي درس في كتاتيب مكة ومدرسة الفلاح وعشق الأدب والثقافة والمعرفة، وموهبته في ذلك كله نابضة وبالأخص في الشعر، وله قصائد ورباعيات ومعارضات شعرية كثيرة. إن هذه الأجواء المعنوية الجميلة ساعدت العامودي على الرقي إلى جيل الرواد من رواد الأدب العربي السعودي، لا بحكم السن فحسب بل بالجدارة الأدبية والأهمية الذاتية والحيوية الشخصية والمسؤولية الراقية علماً وأدباً وفضلاً، فقد عاصر الأستاذ العامودي علماء أعلاماً أمثال: أحمد ناظرين وحسن يماني ومحمود شلتوت وعبد الحليم محمود ومصطفى المراغي في مصر، وعلي الطنطاوي ومصطفى الزرقاء وأمين الحسيني في الشام، وعلال الفاسي وعبد الله كنون في المغرب، ومحمد سالم البيحاني ومحمد أحمد باشميل في حضرموت اليمن. هذه الهالة العلمية من نجوم العلم والثقافة والمعرفة والدين زاملت العامودي بحكم عمله وهو رئيس تحرير مجلة "الحج" التي تصدر من أم القرى مكة المكرمة، عن وزارة الحج بها، فكان مكتبه بالمجلة محل استقبال للذين عاصروه، أو هو عاصرهم، حيث يلتقون للأحاديث الدينية والأدبية والمناقشات العلمية والثقافية وإهدائه كتبهم وبعض مؤلفاتهم الشخصية، ومصنفاتهم الدينية ودواوينهم الشعرية، ومما يشكل أهمية هذه

"الشخصانية" الأدبية المتواضعة التي تتسم بالعلم وقيم المعرفة والأدب والأخلاق، سيراً على درب الأعلام العلماء وذوي المعرفة من الأدباء، فالعصر عصر هذا العلم الديني منه والأدبي، وعصر بعث التراث المعرفي وكنوز العلوم والفنون والأدب والمعارف. وفي هذا الخصوص اشتغل العامودي مع زميله أحمد علي الكاظمي في تحقيق كتاب مختصر «نشر النَّوْر والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر» للشيخ عبد الله مرداد أبو الخير قاضي مكة المكرمة المتوفى سنة ١٣٤٣ هجرية ويقول المحققان في المقدمة:

«إن هذا الكتاب من خير ما صادفناه من كتب تراجم العلماء والأدباء، وقد استوفى فيه مؤلفه الجليل الشيخ عبد الله أبو الخير مرداد أخبار أكثر من عاشوا في أم القرى وخلال القرون الخمسة الأخيرة ومن علماء أجِلَّاء شغلوا في أزمانهم مناصب القضاء والتدريس والإمامة والخطابة وألَّفوا عشرات الرسائل والكتب، وكان من بين من ترجم لهم أيضاً أدباء وشعراء».

وهذه معالم أعلام مكة المكرمة الذين زينوا المحيط العلمي والأدبي وأشادوا بالمعرفة أن نكون مع طلب العلم والدين والفكر والثقافة الإسلامية. فمكة بالعلم والدين، وبالمعرفة والثقافة، والإيمان، نورٌ على نور.

ثم يستطرد المحققان بالقول:

«كلمة نود أن نقولها عن كتاب (نشر النور والزهر) للشيخ عبد الله مرداد -يرحمه الله- هي أننا على يقين من أن قارئه في هذا المختصر سوف يشعر بارتياح عظيم، حين يتبين له من خلال كل سطوره، أن حركة التعليم الديني في (أم القرى) لم تتوقف أو تضعف في أي عهد من العهود برغم كل الظروف وإنما ظلت مستمرة مضيئة منذ القرن الهجري الأول إلى اليوم وهذا من فضل الله -ولا شك- وحدبه ورعايته للبلد الأمين. وعلى مر الأجيال والعصور ما برح العلماء وطلاب العلم يفدون إليه بقصد الحج من سائر أقطار العالم الإسلامي ثم يقيم فيه من يقيم عاماً أو عامين لغرضٍ واحد هو التعلم أو التعليم».

فالأديب المكي محمد سعيد العامودي يقوم مع زميله أحمد علي بهذا العمل العلمي الجليل. ولقد استقبل أهل مكة هذا الكتاب بكل ترحاب فنفدت طبعته في وقت قياسي، وبيعت نسخه

من المكتبات، مما يشير إلى قيمته الأدبية والعلمية والتاريخية. وأكاد أزعم أن الكتاب «كتاب نشر النور والزهر» قيمته الاجتماعية كذلك مما يؤطر كياناً علميًّاً للمجتمع المكي خلال خمسة قرون مضت. إن قراءة للمختصر تبين المعالم العلمية والصروح الأدبية والمعاني الدينية التي زخرت بها بطحاء مكة وحرمها الأمين خلال العهود القليلة الماضية وحتى اليوم. وهي ظاهرة ثقافية جعلت أم القرى عاصمة للثقافة الإسلامية المفتوحة، غير محدودة بزمن أو مؤطرة بوقت محدد على مدى الآماد.

ومن مكة حاضرة الحجاز يرسل الشاعر الأديب محمد سعيد العامودي أفكاره ويدعم هذة الأفكار بالأشعار، فهو شاعر درس نظمه على يد أستاذه المربي المكي محمد أمين فوده في مدرسة الفلاح، ثم قال الشعر مبكراً، وها هو يقول تحت عنوان "إلى الشباب الحجازي":

هـبَّ داعـي العـلا ينـادي الأمــــاما	فأرونـــا النهـــوض والإقـــداما
واســتحثوا كـوامن الهــــمم العلــ	ـيا إلى المجـد واحملـوا الأعلامـا
نحن في عصــر نهضـة عمـت الكـون	وأضـــحت للعـــالمين لزامـــا
تلكـــمو النهـــضة الشـــريفة إنَّـــا	إن حـذونا بهـا نجـاري الأنامـا
تلـــكمو النهـــضة القويمـة إن قمــ	ـنـا بهـا نبلـغ المنـى والمرامـا
يـا شـــباب الحـــجاز بـالعلم نعتـز	فــــهلاً نعـــيره الاهتمامـــا
ساحة المجـد لا يفـــوز بهـا غيــ	ـر الـذي يسبق الجموع اقتحاما

هكذا يُشعِر شاعرُنا الشبابَ بضرورة النهوض العلمي الذي بدت نتائجه في هذه النهضة الكبرى التي نشهدها حالياً. فقد لزم الكُتّاب والشعراء خط الإقدام إلى الأمام، وخاصة جيل الرواد والرعيل الأول منهم. وكان هذا الالتزام لابد منه حيث أنه خط فكري يسير جنباً إلى جنب مع ما رسمه الملك عبد العزيز -رحمه الله- من خطة للنهوض بالمجتمع السعودي اجتماعياً وتعليمياً وأدبياً وعلمياً واقتصادياً، الأمر الذي بدأ بها ثم تحقق على أيدي أبنائه من بعده وحتى يومنا هذا.

وللأستاذ العامودي ديوان (من رباعياتي) طبع في السلسلة الشعرية التي كان يصدرها الأستاذ عبد العزيز الرفاعي من المكتبة الصغيرة. وللعامودي قصائد طويلة النَفَس كان -رحمه الله- قد أزمع على نشرها في ديوان تحت عنوان "قصائد منسية" إلا أن العثور عليها لم يتم بعد. وقد يظهر بعضها هنا أو هناك كبعض القصائد المنشورة في كتاب «وحي الصحراء» الذي جمعه الأستاذان عبد الله بلخير ومحمد سعيد عبد المقصود خوجه، أو في دواوين بعض الشعراء من أصدقاء الشاعر العامودي نفسه حيث يحييهم شعراً بشعر، كما في ديوان «أفواف الزهر» للشاعرة العراقية عاتكة الخزرجي رحمها الله.

تقول الخزرجي في تحية للأستاذ محمد سعيد العامودي:

يا أبرَّ الناس كل الناس عطفاً ووداداً

يا حميداً يا سعيداً يا عميداً يا عماداً!

يا أخي بل يا صديقي الندب، بُلّغت المراداً!

طبت نفساً يا أعز الناس منمى وبلاداً

ببيان كالصبا إن راوح النفَسَ وغادَى

ووفاءٍ كالندى رفَّ على البعد ومادا!

فأجابها العامودي -على نفس الروي- قائلاً:

أيُّ شعرٍ نابغيّ راوح النفس وغادى

إيه يا شاعرة العصر ومن عزت بلادا

أنت قد أوحيت لي بالشعر معنىً مستفادا

فإذا ما قلت شعراً قد أراه مستجادا!

هو من فنك أستوحيه أهديه معادا

فاعذري الشاعر ينقاد إلى الشعر انقيادا

ولقد ندر مثل هذا النوع من الشعر الذي يسمى بـ (الإخوانيات) لأن كثيراً من شعر اليوم يميل قائلوه الى النوع الجديد، وإليه أشار العامودي قائلاً:

الشعر فنٌّ جميل لدى الطباع الجميلة

إني أراه دواماً سر الحياة النبيلة

لكنه بات يشكو ذوي النفوس العليلة

هم صيَّروه مهاناً يحيا حياةً ذليلة

وللعامودي كتب أصدرها هي: من تاريخنا، ومن حديث الكتب، ومن أوراقي ومجموعة قصصية صغيرة عنوانها: رامز، وقصص أخرى. إضافة إلى المختصر من كتاب نشر النور والزهور، وديوانه من رباعياتي. وهي حصيلة أدبية وفكرية، طرزتها الثقافة الواعية، وجَمَّلتها البراعة الخطية البارعة، والأسلوب السهل الممتنع والرؤية نحو مجال الأدب بصفاء وتفاؤل وانشراح، وفيها فصول تاريخية وعلمية ودينية وإعلامية وتربوية متنوعة المواضيع في قوالب شتى من التناول الأدبي والفكري لها، وهي مواضيع لا يطرقها إلا كاتب ضليع ومفكر بارع، ومؤرخ منصف. فمحمد سعيد العامودي صاحب هذه السمات هو الأديب الجدير بها، والكاتب القمين بهذه القيم التي تنم عن أصالته الشخصية وجدارته الأدبية والكتابية. وكان لكتابه «من حديث الكتب» في ثلاثة أجزاء الذي أذيع جزء من فصوله في الإذاعة السعودية وجزء منه نشر في جريدة الندوة التي تصدر من مكة المكرمة، الدلالة البالغة على شغفه بالكتب قراءة واقتناءً وكتابه عنها، حيث شمل هذا الكتاب قراءات ثلاثة وستين كتاباً ومؤلفاً. منها ما هو لعلماء وكتاب وأدباء مثل الشيخ علي الطنطاوي والشيخ محمد الغزالي والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ محمود شيت خطاب والأستاذ عبد الرحمن عزام والدكتور ضياء الدين الريس والدكتورة سيدة إسماعيل كاشف، والأستاذ عبد الرزاق نوفل والأستاذ محمد عبد الله السمان والأستاذ عبد العزيز سيد الأهل.

إن هؤلاء الأعلام لهم في كتاب العامودي «من حديث الكتب» مؤلفات في السيرة النبوية الشريفة والتاريخ الإسلامي والفكر الديني والأدب العربي والثقافة الإنسانية والإسلامية

عرض فصولها واستقرا أبوابها لقرّاء العربية أدباً وثقافة وتاريخاً بأدب الأسلوب باستعراض المتأني لكن في عرضٍ جذاب وطرح خلاب فلا يمل قارئه البتّة ولا يخل المؤلف بكاتبه أبداً أو بكتابه على سواء.! لسبب بسيط هو فهم المؤلف الكاتب لكتاب المؤلف المعروض وإبداء هذا المفهوم في عرض شيق وأسلوب جيد في سطور معدودة وفصول قصيرة وهنا يلتقي الكاتب بالمكتوب والعارض بالمعروض في كتاب العامودي.

أما كتابه «من تاريخنا» فيحتوي على عشرين فصلاً تقريباً في عدد من المواضيع التي تتحدث عن تاريخ الإسلام في عصوره الأولى وتاريخ المسلمين قديماً وحديثاً وحضارياً واجتماعياً وجغرافياً كما تحدث العامودي في هذا الكتاب عن بعض نوادر المخطوطات في تاريخ أهل الحرم المكي، وهو كتاب يجمع مناقب العلماء وأهل الفضل المكيين وعنوانه بالضبط " موائد الفضل والكرم الجامعة لتراجم أهل الحرم " للشيخ عبد الستار الدهلوي. كما يتحدث العامودي في كتابه عن بعض الأدباء والشعراء من أهل المدينة المنورة مثل إبراهيم الاسكوبي وعبد الواحد الأشرم وهما من شعرائنا في الجيل الماضي كما يقول العامودي، وهو -في هذا السياق- يتحدث عن مسيرة الأدب والشعر بتاريخية وإحصائية جامعة كما نجد ذلك بإسهاب فيما كتبه أيضاً عن كتاب «طه حسين والشيخان» لزميل العامودي، الأستاذ محمد عمر توفيق الأديب السعودي المعروف ووزير المواصلات السابق. وكتاب «من تاريخنا» يعد مرجعاً بل مصدراً في التاريخ السعودي لا أدبياً فحسب بل تاريخياً وحضارياً وصحافياً وعلميّاً لأنه جمع ثقافةً تاريخية، وخصباً معرفياً في شؤون شتى تتعلق بتاريخ هذه البلاد قديماً وحديثاً ومسيرة الفكر الثقافي فيه والتطور الأدبي والإعلامي والتاريخي الذي شهدته على مدى السنين. وقد طبع الكتاب ثلاث طبعات نفدت نسخها جميعاً، وهذا يدل على نفاسه قيمته العلمية والأدبية والثقافية، وإقبال الناس عليه. وهذا يذكرني بقول الإمام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-: «كل شيء يعز إذا نزر -أي قلَّ- ما خلا العلم فإنه يعز إذا غزر». وعلم العامودي غزير وعزيز.

أما رأيت كيف يسمي كتبه: «من تاريخنا» و«من أوراقي» و«من حديث الكتب» و«من رباعياتي»،... وهكذا دواليك؛ مما يعزز هذا العلم الأدبي والمعرفة والثقافة والإنتاج الشعري.

ولعل كتابه «من أوراقي» نموذج مصغر لثقافة العامودي الأدبية وفكره المعرفي والثقافي الذي يصور كنه بصيرته، ويجمع فهمه الأدبي والعرفاني والوعي الرشيد لديه بحيث لو جمعت أعماله كلها وسميت بعنوان «من أوراقي» لما عظمت عليه بل لقاربت الحقيقة «حقيقة العامودي» العزيزة وثماره في الأدب والشعر والتاريخ والصحافة والثقافة والإعلام، ومعرفته بالنظم والتشريع الديني.

هذه المعارف معالم وصوى على طريق البناء الأدبي ودروب الحق ومعابر المعرفة، وضع العامودي -ضمن الرواد في الحجاز- بصائرها من أكثر من ستين عاماً فمهدوا للأجيال الصاعدة سبل الأدب الهادف وطرق المعرفة التي تمكنهم من السير نحو العلا والتاريخ والعلم الرشيد. إن هذا الأديب المكي له محاسن جمة ومناقب كبرى في التاريخ الأدبي لهذه البلاد ولقد أحسن ابنه المحامي الأديب في وقف مكتبة والده عامةً بجوار المسجد الذي عمَّره بمدينة جدة فله ولوالده المثوبة من الله، والله من وراء القصد.

أحمد العربي

هذا أستاذ جليل، ومن رواد النهضة العلمية والتربوية والأدبية في مكة المكرمة حاضرة الحجاز، وقبلة العالم الإسلامي العام.

والحجاز عبر تاريخه مهد العلم والثقافة والإيمان والأمن والرزق الكريم كم هز مشاعر الشعراء، وجميع العلماء، وجاور بحرمه الفضلاء، وافتن به الأدباء. ومكة المكرمة أنجبت العباقرة في فنون العلوم والآداب والمعارف. ولذا كثرت المؤلفات والمصنفات حولها تاريخاً وعلماً وشعراً وثقافة، وأحمد العربي أديب مكي وعالم حجازي ورأسٌ في الوعي والفهم والذكاء والعبقرية.

لقد تخرج في الأزهر ودار العلوم التابعة لجامعة القاهرة مبكراً في القرن الرابع عشر الهجري. وكان التمهيد لذلك في مسقط رأسه بالمدينة المنورة على ساكنها الصلاة والسلام. حيث تلقى علوسه الابتدائية في المدارس الأميرية. ولما عاد من مصر درس في المعهد العلمي السعودي.

وقد استطاع خلال هذه الحقبة من عمره المديد أن ينشئ أجيالاً من شباب هذا الوطن على حب العلم، والبحث عن المعرفة آتاهم الله من قدرات فكرية، ومدارك عقلية حتى غدوا في مستقبل الأعوام رجالاً كراماً، ومثقفين بارزين في طليعة العاملين لخدمة مليكهم ووطنهم وأمتهم.

ومن المؤكد أن في طليعة هؤلاء الرجال الذين كان لهم أدوار بارزة في الحياة الثقافية والأدبية والإدارية الإخوة والأصدقاء الفضلاء أحمد محمد جمال، وعبد العزيز أحمد الرفاعي، وسراج خراز، وعبد الله بغدادي، واللواء علي زين العابدين، ومحمد عبد القادر فقيه، -رحمهم الله- فقد أثروا الحياة الأدبية والثقافية في بلادنا بإنتاجهم الفكري والأدبي الخصب، الذي كان إحدى مراجع التوجيه اللغوي والأدب القوي، الذي حظي به هؤلاء الشباب من مربيهم الرائد الفذ السيد أحمد العربي[1].

---

(١) كتاب من أعلام التربية والفكر في بلادنا، تأليف محسن أحمد باروم، ص١٦-١٧. الناشر عالم المعرفة للنشر والتوزيع جدة.

ثم عين بعد ذلك مديراً لمدرسة أمراء الأسرة المالكة بالرياض وكان في سن حياته سالكاً مسلك الورعين، والأدباء المجتهدين ورجال التعليم الأفاضل. ولم تغره الدنيا بالجاه أو بزبرقتها الملونة، بل مضى قدماً عالماً متفهماً وأديباً شاعراً يعد لطلابه دروس العلم المفيد والتفقه الرشيد، ويطلع على الكتب ودواوين الأدب والشعر والفكر. فيصنف ويتابع الحركة الثقافية والإعلامية والصحافة الأدبية والشعرية ويكتب الشعر رصينا ماتعاً ويشارك أنداده في قرض الشعر والقصائد المتنوعة ولننتقل إلى علمه وثقافته فهو يحمل منهما الفنون والفهوم والمعارف، والدراية بالمنقول والمعقول، والتاريخ وفلسفته وعصوره، والفقه ومذاهبه، واللغة وآدابها، والنحو والصرف، والبلاغة وبيانه.

وقد أشار الأستاذ عبد العزيز الرفاعي في تقديمه لكتاب أستاذه العربي عن الإمام الشافعي، أن له محاضرات وبحوثاً علمية بين الدين والأدب تجمعها ثقافة عارفة ودراية ناجحة. فكان يتمناها التلميذ عن الأستاذ -رحمهما الله- أن يطبعها في مؤلفات منشورة، وكتب مطبوعة. قلت: وهذا من الدلائل على نبوغ الأستاذ العربي في بحر العلوم وفنون المعرفة وفهوم الثقافة والأدب والفكر. إن حجم كتابه (الإمام الشافعي الفقيه الأديب) ضئيل الوزن بورقه، لكنه عميق عظيم بموضوعاته ومعانيه ويدل على بصيرة الأستاذ أحمد العربي بالعلم النافع وفلسفة الفكر الرائع، وتاريخ الإمام الشافعي الماتع، ينقل فيه بعض أقوال العلماء في الشافعي مثل: «إن الأصمعي مع جلالة قدره قرأ عليه أشعار الهذليين»، أو قول الزعفراني: «ما رأيت أحداً قط أفصح ولا أعلم من الشافعي»، وقول ابن هشام: «كان الشافعي حجة في اللغة» ثم ينقل نبذة نفيسة في ثقافة الشافعي عن العلامة مصطفى عبد الرازق في كتابه «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية». ومثل هذه النقول الزاهرة والروايات الرفيعة والمعارف الجليلة ليست قيمتها في النقل بل لها خلفية ثقافية ودراية فكرية تمتع بها الناقل الأستاذ العربي كمؤلف ومؤرخ وعالم أديب وباحث حثيث ومصنف حصيف ولقد قيل في هذا الصدد إن أبا تمام أشعر في الحماسة "مختاراته الشعرية" منه في ديوانه. بمعنى أن الأستاذ أحمد العربي في نقله المعلومات المختارة التي تحدث أصحابها عن الشافعي، عالم فهيم وناقل أمين يعد له ذلك في حساب الفكر

والعلم والأدب، اجتهاداً وعلماً وثقافة ومعرفة بأقدار العلماء وفهم أهل الأثر والأدب والخبر والرواية والدراية والفقه والعرفان، وأعظم بها خلة وسمة، يتمتع بهما أديب مكي ومرب عالم، ومدرس ومحاضر جليل مثل السيد الأستاذ أحمد العربي.

عرض المؤلف في كتابه مواقف للإمام الشافعي، فقد أجازه الإمام مالك بن أنس -رحمه الله- في الحديث وفقهه بعد أن حفظ الموطأ، واستظهر مسائله -وهنا موقف عظيم- قال الشافعي: «لما مات مالك كنت فقيراً، فاتفق أن والي اليمن قدم المدينة فكلمه بعض القرشيين أن أصحبه -إلى اليمن- فذهبت معه واستعملني في أعمال كثيرة، وحُمدت فيها والناس أثنوا علي، ثم يستطرد أحمد العربي. وقد أخذ الشافعي عن جماعة من أهل اليمن.. ويقولون: إن الشافعي، جمع كتب الفراسة من اليمن واشتغل بها حتى مهر فيها. وارتفع شأن الشافعي باليمن، ثم إن الحساد سعوا به إلى هارون الرشيد وكان باليمن واحد من قواده، فكتب إليه يخوفه من العلويين. وذكر في كتابه، إن معهم رجلاً يقال له محمد بن إدريس الشافعي، يعمل بلسانه ما لا يقدر المقاتل عليه بسيفه، فإن أردت أن يبقى الحجاز عليك فاحملهم إليك».

وحمل الشافعي من الحجاز مع قوم من العلويين تسعة وهو العاشر إلى بغداد، ثم لما أدخلوا على الرشيد سألهم وأمر بضرب أعناقهم فضربت أعناق التسعة، ثم لما قدم الشافعي قال: يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي، وإنما أدخلت في القوم بغياً علي. وإنما أنا رجل من بني عبد المطلب بن عبد المناف، ولي مع ذلك حظ من العلم والفقه.. وهنا يعلق العربي بقوله: «وقد استطاع الشافعي بلباقته وفصاحته أن يقنع الرشيد ببراءته، فأطلقه الرشيد.. وليس هذا فحسب.. بل أكرمه».

إنه موقف مصيري عظيم بقضاء الله، وانظر إلى بلاغة الشافعي فإنها تذكر بقول النبي ﷺ: «إن من البيان لسحراً»، وتأمل دور العلم في الحياة وإنه نور لصاحبه يمشي على ضوئه مهما ادلهم الظلام.

والجمال الأدبي في النص السابق، السياق الذي تلاه الأستاذ المؤلف أحمد العربي، ببساطة تعبير وثراء علمي ومعرفة ثقافية وبصيرة نظر وعاطفة إيمان. وفي كتيب العربي عن الإمام

الشافعي، معالم رئيسية لتأريخ السيرة وفهمها على وجوه العلم وأضواء الفكر، وأنوار المعرفة، مما دعم الموضوع على صغر حجم الكتاب، بالمعاني والمعلومات وليس هذا فحسب بل ثمة وعي ثقافي واختيار الموضوع المناسب في التأليف العلمي والكتابة الأدبية سواء بالنسبة لبيئة الإمام المكية وإفتائه في حرمها وهو حديث السن مما يشير إلى عبقرية المؤلف عنه وعبقرية المؤلف كذلك. الشيء الذي اختاره العربي موضوعاً علمياً اقتداء بالعلماء الأفاضل والأدباء الأكارم المجاورين لبيت الله العتيق، ولعل في صفحاته ما يغري بطلاب العلم على ركوب بحره المعطاء معرفة وعلماً وأدباً.

وكم بالحجاز من آثار أدبية. ومعارف روحية، وقربات إيمانية، وعطاءات شعرية فمن مكة إلى المدينة إلى العالم نزل كتاب الله باقرأ، أول ما نزل من آياته البينات فكان دين العلم، وملة الإسلام، ومنهل العرفان، وحجة المولى على العالمين. هذا أولاً ثم كانت البلاغة والبيان والفصاحة والبرهان، لأنه نزل بلغة العرب وهي أبلغ اللغات وأفصحها مطلقاً هذا ثانياً. ومن هنا كان الشعر.. شعر العرب قد أضحى شاهداً بيانياً في تفسير ابن عباس، وفقه الشافعي على معاني القرآن ومقاصد الشريعة. فكلام العرب حجة القرآن عليهم، ودليلهم إلى فهمه فصحّ أن يقال هنا إن الشعر العربي حجة للقرآن، وليس هو من نوعه!.

بل اللغة التي هي لغة العرب هي لغة القرآن، حكمة الله فيها اهتداء قريش للإسلام وانتشاره للعالم إلى يوم الدين. وكم من بيان في آثار الإمام الشافعي خلاف كتبه «أحكام القرآن»، «الرسالة»، «الأم»، «جماع العلم»، «ديوان الشافعي». هو أنه حجة في اللغة كما قال ابن هشام الذي رواه الأديب أحمد العربي فتأمل فقهه -رحمه الله- وآثاره ومعارفه وعلومه من الحكمة والعلم والأدب والدين! ومن الشواهد على فصاحة الشافعي وبلاغته - والحديث للأستاذ أحمد العربي ما نورده: قال ابن هشام: «جالست الشافعي زماناً فما سمعته تكلم بكلمة إلا إذا اعتبرها المعتبر، لا يجد كلمة في العربية أحسن منها». وعن الزعفراني أنه قال: «كان قوم من أهل العربية يختلفون (أي يترددون) إلى مجلس الشافعي معنا، ويجلسون ناحية، فقلت لرجل من رؤسائهم: إنكم لا تتعاطون العلم، فلم تختلفون معنا؟ قالوا: نسمع لغة الشافعي، أي أنهم يحضرون مجالس الشافعي ودروسه لسماع لغته إعجاباً بفصاحته».

وكان ميدان المناظرات من أقوى الميادين التي ظهرت فيها بلاغة الشافعي وسحر بيانه، وقوة منطقه والتفوق على خصومه وما يتجلى فيه من قوة الحجة وبراعة الاستدلال... ولقد بلغ من إجادته للبيان أن قال فيه إسحاق بن راهويه: «إنه خطيب العلماء».

وقال له رجل: أوصني، فقال: «إن الله تعالى خلقك حراً فكن كما خلقك». وقال: «عاشر كرام الناس تعش كريماً، ولا تعاشر اللئام فتنسب إلى اللؤم». وقال: «لا تبذل وجهك إلى من يهون عليه ردك». وقال أربعة أشياء، قليلها كثير: العلة والفقر والعداوة والنار.

ولا يعني جانب اللغة والأدب فحسب هي ثقافة الشافعي نموذجاً. فثقافة الفقه والفكر الإسلامي، والدين، والمذهب المشهور والمسائل هي عالمه الأوسع. وقد تحدث الأديب المثقف أحمد العربي في هذه الجوانب مما أضفى على ثقافته وأدبه الأمر الكثير وجعل كتابه هذا نموذجاً مثالياً لأدبه وثقافته، فكان أديباً مثقفاً بحق. وكتابه «الإمام الشافعي الفقيه الأديب» نموذجاً بارعاً على ما قلناه -رحمه الله-.

ولأحمد العربي آثار نثرية أخرى مجموعة في "الأعمال الأدبية الكاملة" التي نشرها عبد المقصود خوجه ضمن سلسلة كتاب"الإثنينية" تحت الرقم (٢٢) وذلك مثل الأبحاث والمقالات التي كتبها ونُشرت في بعض الصحف المحلية وخاصة صحيفة المدينة المنورة في الثلاثينيات من القرن العشرين المنصرم، نجد بحثاً تحت عنوان أخلاقنا وعاداتنا في ميزان النقد وذلك في حلقتين بدأه في حلقته الأولى بقوله: «ما أحسب أن بيتاً من الشعر كُتب له من الذيوع والخلود ما كُتب لبيت شوقي الخالد:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هُمو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فكم عالم وأديب ومصلح وحكيم بلغ بهم الإعجاب بهذا البيت أن يتمثلوا به في كثير من المواقف والمناسبات وأن يرددوه في شتى المحافل والمنتديات مُركزاً في هذا البحث أو هذا المقال عن دور الأخلاق في الحياة الاجتماعية والإنسانية.

فإن قوماً ورثوا وطن نبي الأخلاق القائل صلوات الله وسلامه عليه: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق..» وإن أمة استوطنت مهد أولئك الأسلاف الأماجد الأُلى قد بهروا العالم

أجمع بقوة إيمانهم وسمو هممهم وأرواحهم ثم استطاعوا أن يكسبوا إلى جانب غلبهم وسلطانهم ولاء الأمم والشعوب المغلوبة وإعجابهم واحترامهم بفضل ما امتازوا به من نبل الأخلاق وصفاء العادات حتى أصبح الخلق العربي والسجايا العربية مضرب المثل في الكرم والشرف والروعة والصفاء مما جعل الكثير من قادة الفكر وعلماء الاجتماع يعزون انتصار العرب المدهش وانتصار وانتشار دينهم ولغتهم بتلك السرعة النادرة إلى الخلق العربي القويم والعادات العربية اللامعة.. ولشد ما يمتلك الناقد الأسف والدهش حينما يحاول الموازنة بين أخلاقنا وعاداتنا وأخلاق وعادات سلفنا الصالح وأجدادنا الأولين للبون الشاسع والهوة السحيقة التي تفصل ما بين أخلاقنا وأخلاقهم وعاداتنا وعاداتهم وأين تلك الأخلاق الفاضلة المتينة من أخلاقنا الواهية المتذبذبة بين الفضيلة والرذيلة وأين هاتيك العادات ذات الطابع العربي الإسلامي الناصع من هذه العادات المشوهة التي تُمثل من مجتمعنا صورةً ممسوخة تجمع بين أشتات العادات وحُثالات التقاليد ما يجعله كالثوب الخلق المتردم الذي يضم من مختلف الألوان والأصناف ما يمجه الذوق وتأباه الفطر السليمة.

إن في هذه الموازنة أولاً ثم في تضافر الجهود على تطهير أصول عاداتنا وتنقيتها من هذه الأوضار والأوشاب أنجح وسيلة لعلاج مجتمعنا وأكبر ضمان لبناء نهضتنا الفتية على أساس ثابت متين يتفق بقداسة بلادنا وعظمة أسلافنا ومجادة ماضينا».

ثم يستطرد الأستاذ العربي قائلاً في المبحث الثاني من مقاليه متسائلاً ما بين قيمة الوقت عندنا وعندهم، كثيراً ما تطالعنا الصحف والمجلات بصور عظماء الغربيين وساستهم وقوادهم وهم يتروضون على صهوات جيادهم أو يتسلقون غوارب الجبال أو يشقون بقواربهم عُباب الماء أو يتزلقون على متون الثلوج أو يزاولون إحدى الألعاب الرياضية الأخرى إلى أن يقول:

ولقد كنا نحن العرب أجدر وأحق بذلك بحكم طبيعة بلادنا وسعة أرجائها وكثرة جبالها وشهرة جيادها واعتزازها بماضيها المجيد.

ثم ينتقل إلى فقرةٍ أخرى قائلاً: يحرص الغربيون على الاستمتاع بأوقات فراغهم حرصهم على الانتفاع بأوقات أعمالهم فتراهم يمنحونها من زمنهم وعنايتهم ما لا يقل عن ما يمنحونه

أوقات العمل وساعات الكفاح، فكما تجدهم في أوقات العمل دائبين عليه منكبين عليه، تجدهم في أوقات فراغهم منصرفين إلى اللعب والمرح بملء النشاط والابتهاج فلا العمل يطغى على وقت الراحة والاستجمام ولا المرح والاستجمام يطغيان على وقت الجد والعمل.. أما نحن فكما أننا مقصرون في العمل متوانون فيه كذلك تجدنا في لهونا ومرحنا نقضي أوقات فراغنا غالباً في مجالس فاترة تبعث على الملل والسآمة وتُغري بالكسل والتثاؤب ولعلي لا أُبالغ أن أمتع اللهو في نظر الكثير منا هي لعبة الجوكر وشركاه والويلُ لمن لا يعرف أحد ث ما ابتكره اللاعبون في الميدان إذاً ستنبذه الجماعة وسيتركونه مُلقىً في زاوية من المجلس كالشيء المُهمل.

والآن لنحاسب أنفسنا أي فائدةً نفسية أو عقلية أو خلقية أو جسمية نجنيها من هذه الألعاب..؟ متسائلاً كي يطرح هذا التساؤل على الناس عامة والمجتمع خاصة مُختتماً حديثه قائلاً:

«ويا حبذا لو نُعير الأندية الرياضية والأدبية حظاً وافراً من عنايتنا واهتمامنا».

فتأمل كيف عالج الأستاذ العربي هذه الإشكالية الاجتماعية السائدة حتى يومنا هذا على وجه التحديد على الرغم من جهود المسؤولين في إعطاء الرياضة والأدب مجالات واسعة وعلى الرغم من الفراغ السائد عند كثير من فئات المجتمع إلا أن قلة قليلة نجدها تمارس هذا النشاط المطلوب الذي طرحه الأستاذ.

وهنا وفي مجموعته الكاملة نجد أبحاثاً وكتاباتٍ أخرى تاريخية وعلمية وثقافية عن بعض الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أمثال عبد الله ابن العباس وعروة ابن الزبير ناهجاً في عرضه لهذا التاريخ على الطريقة التعليمية التربوية فيما طرحه من آراء علمية.

ثم هناك مبحثٌ أخر عن أول مدرسة في الإسلام ويقصد بها "دار الأرقم ابن أبي الأرقم" الذي نشر في مجلة المنهل، جـ١١-١٢، مج ٦، ذو القعدة – ذو الحجة ١٣٦٥هـ أكتوبر – نوفمبر ١٩٤٦م موضحاً بعض المعلومات والأفكار عن هذه المدرسة الكريمة قائلاً:

«على الجانب الشرقي لهذا الوادي المبارك، الذي اختاره الله تعالى حمى لنبيه وموطناً لأكرم خلقه، ومهداً للدين الذي ارتضاه لهداية البشر، تقع دار الأرقم بن أبي الأرقم بالقرب من الصفا، يشرف عليها جبل أبي قبيس، القائم على ناحية هذا الوادي، كالحارس الأمين يحرس

هذه البقعة المقدسة، ويشيد بما لها من كرامة عريقة وعزة قعساء. وصاحب هذه الدار هو الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، شهد بدراً وأُحُداً وغيرهما من المشاهد العظام، وأقطعه النبي ﷺ داراً بالمدينة، وفيها توفي سنة خمس وخمسين من الهجرة!

دار الإسلام – أطلق هذا الاسم على دار الأرقم، إشارة إلى أنها حصن الإسلام الأول، ومعقل قادته السابقين، وإشادة بما لها من فضل في نصرة الدين وحماية دعوته، وإيواء أبطاله، فكان اسماً جديراً بماضي هذه الدار وأثرها في خدمة الإسلام».

ويصف الأستاذ العربي الدار بقوله:

«تتألف هذه الدار من رواقين وفناء وحجرة داخلية، الرواق الغربي وهو مستطيل الشكل، يتوسطه محراب في قبلته، وتعلوه قبة مستديرة وأمامه فناء مستطيل، وعلى الشرق من هذا الفناء رواق ذو سقف مجصص، تقرب مساحته من مساحة الرواق الغربي، وفي الجهة الشرقية من هذا الرواق باب يُفضي إلى صُفَّة مسقوفة أمامها أرض مكشوفة مرتفعة قليلاً، تدل أعالي "جدرانها" على قبة كانت معقودة فوقها.

هذا وصف مجمل للدار التي كان يقيم رسول الله ﷺ مع صحابته الأولين يلقنهم أصول الدين، ويثقفهم بتعاليمه، ويؤدبهم بآدابه السامية، أقام النبي ﷺ مع صحبه الأبرار في هذه الدار إلى أن تكامل عددهم أربعين، كان آخرهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان حدث إسلامه يوماً مشهوداً في تاريخ هذه الدار، كبَّر له المسلمون تكبيرة هزت أصداؤها أرجاء مكة، وما جت لها أندية قريش، وخرج الرسول على أثرها بين صفين من أصحابه في أحدهما عمر وفي الآخر حمزة، حتى دخل المسجد في ذلك الموكب المهيب فكان ذلك مبدأ عزة المسلمين، وطليعة نصرهم على المشركين».

ونحن نرى فيما نقلناه من نصوص رصانة في المضمون وسلاسة في الأسلوب واضعاً هذا الكاتب الأديب في أبحاثه ومقالاته الهدف النبيل من خلف العلم والتعليم.

وقد سُئل الأديب العربي عن الشعراء الذين تأثر بشعرهم فأجاب: «كثير هم الشعراء الذين أحببتهم وأُعجبتُ بهم ولستُ أزعم أني تأثرتُ بواحدٍ منهم تأثراً خاصاً فيما صدر عني

من شعر ونثر ضئيل المحصول زهيد القيمة.. ولعلي لا أظلم نفسي ولا أخدع القارئ الكريم إذا أنا أعلنتُ هنا بأن قرضي للشعر لم يكن سوى نزوة من نزوات الشباب كانت بمثابة صدى للمحيط الذي اندمجت فيه عندما كنت طالباً في الأزهر ودار العلوم، فقد كان هذا المحيط حافلاً بالشعراء الناشئين وميداناً فسيحاً بالادب من الطلاب المصريين والشبان الوافدين على مصر للدراسة في معاهدها العالية من أبناء الأقطار العربية».

ثم يوضح الأديب العربي أنه تأثر بشاعرٍ من قديم الزمن هو المتنبي وبشاعرٍ من المحدثين هو أمير الشعراء أحمد شوقي في بيانٍ له مُسهباً وموضحاً تأثره هذا بالشاعرين العظيمين المتنبي وشوقي.

وعلى هذه الشاكلة نرى أفكار العربي ورؤيته نحو العلم والشعر والأدب بفكرةٍ عربية إسلامية هي أفكار إيجابية وأدبية تُضيء الطريق أمام المتلقين الذين عرفوا هذا الأديب أو الذين سيعرفونه مستقبلاً بإذن الله من الشبيبة والناشئة.

وفي مبحث آخر بعنوان "العلم والعلماء في ظل الإسلام" قال المؤلف في بدايته: «استهل الإسلام رسالته الخالدة بالترغيب في العلم والتنويه بشأن المعرفة، فكانت أول آية نزل بها الوحي السماوي على أشرف المرسلين قول الله جل وعلا: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

وتواترت بعد ذلك الآيات في الإشادة بفضل العلم والعلماء، فقال تعالى في تمجيد المعرفة: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ١٦٩] وقال في تفضيل العالم على الجاهل ولفت الأنظار إلى ما بينهما من بون شاسع: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] وقال في تكريم العلماء وإعلاء قدرهم: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

بمثل هذا الأسلوب الرائع حث القرآن الكريم على العلم والمعرفة، فكان الرسول صلوات الله عليه أول من صدع بهذا الأمر الكريم وأول من استجاب لهذه الدعوة النبيلة، إذا هو يقف في مقدمة صفوف المعلمين ويضرب لهم أعلى مثل بمواقفه وكلماته الخالدة، فكان عليه

الصلاة والسلام المعلم الأول للمسلمين، يعلمهم بأقواله وأفعاله ويربيهم بسيرته وآدابه، وينفق في سبيل ذلك أثمن أوقاته، وينهج للتعليم منهجاً جديداً يخالف ما كان معروفاً في العالم من مناهج مدموغة بطابع الأثرة والاستبداد.

فالنبي ﷺ لم يُؤثِر بالتعليم طائفة دون طائفة ولا خَصَّ به صنفاً من البشر دون سواه، بل أباحه للرجال والنساء على السواء وبذله للفقراء والأغنياء بلا تمييز، وسَوَّى فيه بين الأحرار والأرقاء إن صح أن نطلق صفة الرق على أمثال بلال بن رباح وزيد بن حارثة وخباب بن الأرت وغيرهم ممن وجدوا في ظل الإسلام من نعمة الحرية والعزة والكرامة مالم يظفر به كثير من أحرار هذا العصر في ظلال حكوماته المتمدنة المتشدقة بدعوى تحرير الرقيق، الممعنة في التنافس على استرقاق الشعوب واستعباد المستضعفين، وكان لسان حالهم ينشد قول القائل:

قتل فتى في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

أما الرسول العربي الكريم صلوات الله عليه، فقد أتاح العلم للناس جميعاً وسلك في سبيل إفشائه والدعوة إليه شتى الطرق والأساليب فحض المسلمين على تحصيله بأمثال قوله: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» ورغبهم في بثه وإذاعته بمثل قوله: «نضَّر الله امرأ سمع منا شيئاً فبلغ كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع».

إن الأستاذ العربي أديبٌ حريص على تجلية معاني الروح العلمية والمعرفية لا في نثره فحسب بل حتى في شعره الذي ستأتي دراسة بعض نصوصه بعد قليل خاصةً إذا قرأنا بعد النص السابق من نثره وهو قوله: «وليس أبلغ في الحث على نشر العلم ومكافحة الأمية من المنهج الذي رسمه الرسول العظيم سابقاً».

وفي مقالٍ بعنوان: "الأدب الحديث في الحجاز"، يقول الأستاذ العربي:

يقترن تاريخ فجر الأدب الحجازي الحديث بتاريخ الثورة العربية الكبرى، تلك الثورة التي نفثت في الشعوب الناطقة بالضاد روح الحياة والتجدد فسرت فيهم سريان الكهرباء في أسلاكها وتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم، وقد يفوق أثر تلك الثورة في إيقاظ الحجازي وإذكاء مواهبه وشعوره أثرها في غيره من أبناء البلاد العربية الأخرى.

فمنذ ربع قرن تقريباً لم يكن الأدب الحجازي سوى بضع منظومات وكتابات سقيمة المعنى واهية السبك ملتوية الأسلوب يدور أكثرها في نطاق ضيق من المديح السخيف والغزل والتشطير والتخميس على نمط ليس له من مبرر سوى ذلك العقم الأدبي الذي منيت به الأفكار في تلك الحقبة المشؤومة. وإلا فأي إنتاج ينتجه أولئك الذين يتناولون بيتين أو أكثر من الشعر بالتشطير والتخميس فيعمدون إلى تمطيط معناها وتفكيك أواصرها وحشوها بما يناسب وما لا يناسب من الألفاظ المترادفة والتراكيب المرصوفة، وليت ما كان يستهوي أدباءنا في ذلك العهد شعر قيم يستحق منهم ذلك الجهد والعناء. اللّهم لا: فأي قيمة أدبية لأمثال ذينكم البيتين:

ومكاريـــاً أبصـــرتُ في وجناتـــه ... ورداً يلــوح وجلنــاراً يقطــف

أخذ الكرى مني وأحرمني الكرى ... بيني وبينك يا مكاري الموقف

فكم أديب وأديب استوقفه هذان البيتان فعالجهما بالتشطير والتخميس، بخٍ بخ لهذا المكاري الذي فتن عشرات الأدباء فهاموا به محاكاة وتقليداً وأبوا إلا أن يقفوا منه ذلك الموقف وما هو بموقف الأديب، وإن (فورد) المخترع العظيم لو علم المنزلة التي شغلها هذا المكاري من أدب الحجاز حيناً من الزمن لندب جديد سياراته، ولنعى حظ شهرته الأدبية. إن أدب التخميس والتشطير أيها السادة أدب عقيم إذا جاز لنا أن نستعير له لفظة أدب، وإن هذا النوع من النظم ينبغي أن يعتبر في نظر العقلاء سخفاً وعبثاً إن لم يكن مسخاً لصور الأدب وتشويهاً لجماله الفني.

أما أدب اليوم، فهو وإن كان أدباً فتياً ما يزال في الطور الأول من أطوار نموه ونضجه، فهو ماضٍ في طريقه إلى الأمام سائر بخطوات ناجحة موفقة لا يسع المنصف تجاهلها أو الغض من شأنها ويرجع الكثير من الفضل في ذلك إلى آثار أدباء العربية العصريين التي تجاوب صداها في الشرق العربي، فكان لها أحسن الأُثر في توجيه الأدب العربي وتلقيحه بلقاح الحياة والطرافة والتجديد. وقد كان أثر أدباء المهجر من السوريين أقوى وأظهر في أدبنا الحديث حتى عهد قريب. أما الآن فقد بدأ يتحرر قليلاً من قيود التقليد وأخذ يشتد ساعده، وإن كنا نجد لنفثات أقلام الأدباء المصريين أثراً متميزاً فيه في السنوات الأخيرة.

والملحوظ أن النصوص النثرية هذه التي استقيناها هي من الأعمال الكاملة التي أعدها وقدم لها محمد بن أحمد العربي ابن أديبنا وشاعرنا الذي نتحدث عنه.

أما الشاعر أحمد العربي فهو خصب الشاعرية ومتمكن من لغتها التي عليها نظم شعره ونسق فنه وعلى سبيل المثال يقول تحت عنوان "بين اليأس والأمل":

أرحْني ببرد اليأس إن كنت آسيا ... فإني وجدتُ اليأس أشفي لِما بيا!

تعلقت بالآمال دهراً لعلني ... أصيبُ بها ورداً من العيش خاليا!

وعللتُ نفسي بالأماني رجاء أن ... أفيء إلى ظلٍ من المجدِ ضافيا

وأنكرتُ بأساء الحياةِ وضرّها ... وأكبرتُ من يلقى الكوارث لاهيا

وأحسنتُ ظني بالليالي وعهدها ... وأحداثها تنثالُ شتى حِياليا

صمدتُ إليها رابط الجأش باسماً ... أشيم بها برقاً من السعد باديا

وأرغمتُ لوّامي وخالفتُ ناصحي ... وقلت علامَ المرءُ يلحي اللياليا؟

وأنت ترى في هذا الشعر صوراً فكرية تتجلى فيها متانة اللغة التي أصفها والتي تنطبق على شعر روادنا السعوديين بأنها صورٌ جميلة المأخذ وأنيقة المظهر في سلاسة ورصانة وعلى جوانب متعددة من هذه الصور الرائعة.

انظر إلى قوله:

فما أروع المأساة إذ تفجأ الفتى ... وغضّ الأماني حين يرتدُّ ذاويا

له الله من ذي حيرة تصدعُ الحشا ... وتتركه نهب الجوى والمآسيا

فأخلِق بذي الرأي السديدِ وذي الحِجى ... بأن يحذر الآمال ثم اللياليا!

وأحرِ به ألاّ ينيط رجاءه ... بغير مساعيه (إذا كان راجيا)!

فليست أماني المرءِ إلا غوايةً ... وليس الرجاءُ الحقُ إلا المساعيا!

فإن شئت أن تحيا حياةً قريرةً ... فلا تغترر بعدي بدنياك ثانيا!

فأنت تجد صوراً أخرى في اللغة والبيان كقوله:

فما أروع المأساة إذ تفجأ الفتى | وغضّ الأماني حين يرتدُ ذاويا

أو قوله:

فأخلق بذي الرأي السديد وذي الحجى | بأن يحذر الآمال ثم اللياليا!

هنا صورة وهناك صورة أخرى من الأسلوب الرشيق واللغة السلسة يتنقل بها الشاعر بين كل بيت والآخر.

إذاً هنا يمسح الشاعر اليأس بالأمل، والأذى بالراحة، والشقاء بالسعادة على أن قصائد الشاعر كلها تتجلى في كل قصيدة صورٌ شتى وأفكارٌ تتجلى في كل بيت من أبياته الشعرية يختار البحور الخليلية عن طواعية وانطباع لا عن تصنع وابتذال. فهو شاعرٌ مطبوع الشاعرية ومتمكنٌ في شعره من اللغة والتصوير الفني الذي يجعل من شعره كوناً معنوياً من الأدب ومعنىً فكرياً من المعاني الشعرية التي تسير في سائر الأبيات وينطبق عليها هذا الوصف لأن الشعر هنا يقوله الشاعر على طواعية مزروعة في الذات الشاعرية لدى شاعرنا العربي وهو الذي احتك بالشعراء الشباب في وقته -أيام شبابه- واستطاع أن ينظم الشعر بسهولة.

اسمعه يقول هذا النشيد:

الدين والوطن | والأهل والسكن
تحيا مع الزمن | بقوة الشباب
العلم والأدب | تراثنا المحب
نحن -بني العرب- | في الحق لا نهاب
الموت ممتهن | إذا دعا الوطن
بالروح في الإحن | نفديه والرقاب
يا أيها الرفاق | امضوا إلى الوفاق
فالذل لا يطاق | في عزة الشباب
المسلم الجريء | لن يرضى أن يسيء

لمثلـــــــــه بـــــــــريء	بالكيـــــــد والعـــــــذاب

الـــــــوطن الكـــــــريم	والبيـــــــت والحطـــــيم

شـــــــعارنا العظـــــــيم	ورمزنـــــــا المُهـــــــاب

فأنت واجدٌ هنا الشعر الإنشادي الذي يتغنى به سامعه على سهولة في اللغة والبيان وثدجين المعاني بالأفكار الواضحة والمختصرة البيان، بحيث ينشده الطلاب أو المتلقون بسهولةٍ ويُسر.

هنا إذاً ظاهرة شاعرية تنم عن مقدرة الشاعر بالقول الشعري بلا تصنع أو تكلف ولكن بها يظهره الشاعر من مكامن الذات والنفس والروح فهذه مجالات معنوية ومسارات حيوية يسير على دروبها شاعرنا المِفن[1]، بتؤده وهدوء يصور لنا شاعرنا الأبيات والأشعار والقصائد ببلاغة بيان وأسلوب بديع.

ونود أن نلقي بعض الأضواء على اجتماعيات الشاعر مع أصدقائه يقول تحت عنوان "ليلة الزفاف":

غـنِّ يـا بلبـل الهنـاء وشـارك	نبضـات القلـوب لحـن غنائـك

هـذه ليلـة تجـلى بهـا السـعد	وحفـت بهـا الأمـاني الضـواحك

شـاع فيهـا السـرور واكتمـل الأ	نـس ببـدرين أشرقـا في سـمائك

يمـلأ الأفـق واحـد منهـا نـورا	فكيـــف البـــدران لله زانـــك

لـو رأت صـاحبات يوسـف هـذا	الحفـل والموكـب الأغـر المبـارك

وتجـلى لهـن أحمـد أو لاح لهـن	محمـــــــد في الأرائـــــــك

لتمـــــثلن فيهـــــا قـــــائلات	إنـمـا هـؤلاء بعـض الملائـك[2]

فهذه نبضات شعرية وخواطر أدبية موزونة لا بالبحر فحسب ولكن بالمعنى الذي يشارك الشاعر هؤلاء السعداء في الفرحة لهم والمشاركة الإنسانية والأدبية في تصور الزفاف السعيد.

---

(١) المفن هو يعني مايقوله العامة الفنان لأنه أفصح أما الفنان عند العرب أو في لغتهم فهو حمار الوحش وشتان ما بينهما.

(٢) الملائك: إشارة إلى لقب عائلة العريسيين "ملائكة" وهما زفاف أحمد ومحمد ملائكة بتاريخ ١٨/ ٤/ ١٣٥٧هـ من الأعمال الكاملة ص١١٢.

وتأمل الأبيات الثلاثة الأخيرة كيف استطاع الشاعر أن يشبه صاحبات يوسف اللائي لو رأين هذا الحفل لتمثلن فيها قائلات: إنما هؤلاء بعض الملائك.

وانظر قدرته على هذا التشبيه والتورية لصويحبات يوسف وكيف يكدن ولكن هنا بلا كيد. إذ الفرحة تامة لآل الملائكة أحمد ومحمد رحمهما الله.

ومن الاجتماعيات أيضاً الممزوجة بالروح الإيمانية يقول الشاعر أحمد العربي في قصيدة "العصماء" ألقيت في الحفل الذي أقامه شبان مكة المكرمة في منى في موسم حج ١٣٥٥هـ ترحيباً بوفود الأقطار الإسلامية الشقيقة وتحقيقاً لبعض أسرار الحج:

أهلاً بأعلام الحجيج ومرحباً ... بسراته ووفوده الأبرارِ

وعلى الرحابةِ والكرامةِ حِلّكم ... في مهبطِ التنزيل والأنوارِ

هذا الحجاز تهللت أرجاؤه ... بوفودكم وافترّ كالنّوارِ

ومشى الشباب مردداً أصداء أمته ووحي شعوره الفوار

وهل الشباب سوى عواطف أمة ... وشعور شعب مرهف الأوتار

وهل الشباب من البلاد سوى الغوا ... د، النابض الوثاب بالأوطار

فإذا لحجاز أناب عنه شبابه ... فلأنه رمز الشعور الساري

وإذا نشيد فباسمه وإذا نحيـ ... ـي حفلكم فبوحيه الزخّار

إنها المعاني الدينية والأفكار الإسلامية اللتين بدتا من خلال الأبيات السابقة على اجتماع المسلمين على ثرى عرفات والمبيت في منى في موسم الحج الأكبر يصور منها الشاعر هذه الوحدة الإسلامية ومؤتمرها الكبير.

وعلى لسان شبان أم القرى مكة المكرمة أنشد الشاعر قصيدته المختارة منها الأبيات السابقة تحقيقاً لبعض معاني الحج والاجتماع على صعيد عرفات المؤتمر السنوي الإيماني الإسلامي الكبير كترحيب من هؤلاء الشبيبة للوفود من الأقطار الإسلامية الشقيقة.

ولقد أجاد العربي في قصيدةٍ بعنوان أيها العيد وهي المناسبة التي تُفرح الأطفال، ولكن الشاعر هنا يُقارن بين الأطفال الذين يلبسون الجديد القشيب وبين الأطفال المساكين فيقول:

أيها العيدُ كم تثيرُ شجوني ... وتوري من وجدي المكنون
فلكم خلف ثوبك الفاتن الخـ ... ـلاب من لوعةٍ وشجوٍ كمين
أيها العيد كم تخطيت قوماً ... هم من البؤس في شقاءٍ قطين!
لم تزدهم أيامك الغرُّ إلا ... حسرةً في تأوهٍ وأنين!
أبصروا المترفين فيك وللنعـ ... ـمى عليهم رواء يسر ولين
كل رهط يفتنُّ في المأكل الملـ ... ـذوذ والملبس الأنيق الثمين
لا يبالي ما أنفقته يداه ... في الملاهي في طارفٍ ومصونِ
وإذا ما دعاه للبرِّ داعٍ ... فهو في المكرمات جِدُّ ضنين

* * *

أيها العيد رُبَّ طفلٍ يعاني ... فيك من بؤسه عذاب الهون
هاجه تِرْبُه بملبسه الزا ... هي وكم فيه للصبا من فتون
فرنا نحوه بطرفٍ كليلٍ ... ليس يقوى على احتمال الشجون
ثم ولّى والحزن يفري حشاه ... مستغيثاً بعطف أمٍّ حنون
وجثا ضارعاً إليها يناجيـ ... ـها بدمع من مقلتيه هتون

* * *

أيها الموسرون رفقاً وعطفاً ... وحناناً بالبائس المحزون
ربما بات جاركم طاوياً جو ... عاً وبِتُّم تشكون بشم البطون
ربما ظل طيلة العيد يستخـ ... ـفي من الصحب قابعاً كالسجين

يتوارى من سوء منظره المز ري ومن حاله الكريه المهين!

أي فضل للعيد يستأثرُ المثـ ـرون فيه بالطالع الميمون!

كل دهر المثرين عيدٌ فما أغنى ثراهم عن عهده المضمون!

* * *

ليت شعري متى يكون لنا عيدٌ حقيقٌ برمزه المكنون

فيشيعُ الهناءُ في كل نفسٍ ويؤاسي فؤاد كل حزين

قد لعمري أنى لنا أن نرى العـ ـيد مُشاعاً وقرةً للعيون

والمتأمل لهذا القصيد يجد الروح الشفيفة التي أملت على الشاعر المقارنة بين طفلٍ أبواه يُلبسانه الجديد من الملابس وبين طفلٍ أبواه لا يملكان شيئاً من قطمير ومن هنا سرت المقارنة والموازنة في العيد وكيف أن الشاعر يطرح هذه القضية على مرأى ومسمع من المجتمع يدعوهم فيها إلى عيدٍ يحقق المعنى العادل بين الفريقين المقتدر وغير القادر.

وهي قضية لا تزال يسري معناها ما بين عيدٍ وآخر تحدث عنه الشاعر بكل اقتدار، والقصيدة من أروع ما قيل في هذا الموضوع، وهي من أروع ما قاله الأستاذ -رحمه الله- توفي في خواتيم سنة ١٤١٩هـ.

أحمد عبد الغفور عطار

هو: أبو هشام أحمد عبد الغفور عطار ؛ الكاتب الثبت، والبليغ الحجة في علم العربية، والأدب، والأديان.

عرفته -في البدء- نظراً بنظر حيث إن منزل والدي يجاور منزل الأستاذ عطار، وكانت فرصة سانحة -لهواة الأدب مثلي- أن يتعرفوا عليه؛ فبعثت إليه برسالة -نظراً لمهابته- أعرفه بشخصي. فما هو إلا يوم وليلة حتى جاءني رد منه بخطه الجميل الباهر؛ يستدعيني فيه لمقابلته؛ فذهبت إلى منزله؛ حيث استقبلني بالترحاب، وذلك كان في صيف عام ١٣٨٧هـ وكان منزله عمارة كبرى، وفي الدورين الأسفلين منها مكتبة العطار البالغة إلى السقف، وبعد تناول الشاي، قدم لي مجموعة من كتبه، إضافة إلى بعض الكتب؛ من بينها كتاب «السياسة الشرعية بين الراعي والرعية» لابن تيمية، ورواية الأستاذ محمد علي مغربي (البعث).

دلفت من منزل (العطار) إلى دارنا، وأنا متأبط المجموعة القيمة من الكتب، فإذا بي أمتلك كنوزاً أدبية ولغوية ودينية أهدانيها الرجل، منها: "كلام في الأدب" و"آراء في اللغة" و"الإسلام طريقنا إلى الحياة" فعكفت عليها أقرؤها. وكانت هذه البداية في معرفتي بالعطار، دفعة أخرى للأدب، كما دفعني إليه -من قبل- أبو محمد الأستاذ أحمد محمد جمال -رحمه الله-.

وكنت بدأت في المراسلة لجريدة "المدينة" بالكلمات وبعض المقالات، منها كلمتي "سيد قطب الأديب، لماذا لا يُلتفت إليه؟" التي نشرتها الجريدة صيف ١٣٩٠هـ، وكان الأستاذ العطار له صفحة في "يوميات جريدة البلاد" أسبوعياً، فما أن نبهته بكلمتي حتى طلبها مني، فأعطيته إياها فأعجب الرجل بهذه البادرة، وكتب في يومياته إيضاحاً وتعقيباً حول ما كتبته عن السيد الأديب قطب -رحمة الله عليه- وأن سيداً لم يكن مفكراً إسلامياً فحسب، بل هو أديب وشاعر وروائي إلخ.

والشيء يذكر بالشيء ففي وفاة الرئيس عبد الناصر، وتولي الرئيس السادات للحكم في مصر عام ١٩٧٠م أطلق مجموعة كبيرة من الإخوان المسلمين؛ ومن بينهم الأستاذ المفكر الإسلامي والأديب الشاعر محمد قطب ؛ شقيق -سيد رحمه الله- وصادف أن قدم الأستاذ محمد قطب إلى هذه البلدة الطيبة؛ مكة المكرمة؛ فما أن أخبرت (العطار) بوصول القطب إلى مكة حتى استدعاني لزيارته سوياً، وبالفعل ذهبت والأستاذ عطار إلى حيث نزل القطب بحي الزاهر، عند بعض أقاربه ومعارفه، وسررت شخصياً، لأني حظيت بمعرفة رجل مجاهد، طالما قرأت له كتباً ومؤلفات وأنهى (العطار) الزيارة بدعوة (القطب) لتناول طعام الغداء عنده وذلك في مطلع عام ١٩٧١م.

ولبى (القطب) دعوة الأستاذ (العطار) وكان يوم سبت، وهو اليوم الذي نزل لي فيه مقال بجريدة المدينة، بعنوان: "كتابان للعطار عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-" وكان أن سر العطار به ودعاني لحضور المأدبة العطارية الشهية، وقد عرف (العطار) قطباً بي، وما كتبته عن "سيد قطب الأديب لماذا لا يلتفت إليه؟!".

وقد حضر المأدبة الأستاذان إبراهيم أمين فوده، وحسين عرب وأذكر أن الحديث كان حول شخصية الضيف الأستاذ محمد قطب، والحديث عنه ذو شجون، حتى إن الأستاذ إبراهيم فودة سأل (القطب): ماذا كانت هوايتكم في الصغر، فأجابه: أن أصير "مهندساً" فقال الفودة على الفور: صرت مهندس أفكار إذن!

وأذكر - لهذا الجيل: جيل اليوم- أن الرجل -المترجم له- كان ذا شغف بمقابلة العظماء، وصادف في موسم حج عام ١٣٩١هـ حضور الزعيم والمفكر المغربي السيد علال الفاسي صاحب مجلة "العلم" الناطقة باسم حزب الاستقلال المغربي، فما أن أخبرت أستاذي (العطار) أن (علالاً) ذكرك، وذكر كتابكم «الزحف على لغة القرآن» حتى عزم على مقابلته وبالفعل رافقت (العطار) ومعه الأستاذ حسين عرب، وذهبنا معاً إلى فندق (شبرا) في أجياد بجوار الحرم المكي، حيث تمت المقابلة، مقابلة العظماء بعضهم لبعض!

وكانت فرصة حسنة لي أن أكون مع هؤلاء العظماء أتعرف على شخصياتهم، وأفكارهم، وسعة أفقهم المعنوي، بعد أن قرأت لهم الكثير من الكتب والمقالات، التي دبجوها: نشراً للعلم، ودفعة قوية لنهضة الأمة الإسلامية من طنجة إلى جاكرتا!!

ولا ننسى أن هذه السيرة التي أكتبها عمن عرفتهم إنما حدثت رواياتها في نهاية القرن الرابع عشر الهجري، ومطلع القرن الخامس عشر، حيث أحاول تقديم معارف ومعلومات عن أولئك الأشاوس الكرام.

هذا مما أعرف عن (العطار) الأديب والمثقف، أما (العطار) الصحافي فقد أنشأ -رحمه الله- في عام ١٣٧٩هـ-١٩٦٠م جريدة "عكاظ" التي تحولت مع الصحف الأخرى فيما بعد إلى مؤسسات صحافية، كما أنشأ مجلة "كلمة الحق" ولم تدم إلا حوالي ثمانية شهور.

وللأستاذ أحمد عبد الغفور عطار صفات حميدة، مع سلاطة وذلاقة في اللسان -يرحمه الله- لكنني أشهد أنه كان نعم الجار؛ فقد عادني مرة وأنا متوعك الصحة -جزاه الله خيراً- وقد زرته أنا ووالدي صالح محمد باسلامة -رحمه الله- بمناسبة حلول عيد الفطر المبارك شوال ١٣٩٠هـ، فرحب بنا (العطار) حيث وجدنا عنده الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، الذي قدم لتوه من مصر؛ عقب وفاة عبد الناصر، وصادف أن عدد مجلة "رابطة العالم الإسلامي" التي كان يرأس تحريرها الأستاذ محمد سعيد العامودي -طيب الله ثراه- لشهر شوال صدر ليلة العيد السعيد، وكانت نسخة (العطار) من المجلة على مكتبه، حيث بشر والدي بأن أكون أديباً، لأن في هذا العدد من مجلة "الرابطة" كلمة لي بعنوان «هارون كان رسولاً أيضاً» تعقيباً على برنامج من صوت العرب اسمه (في نور التلاوة) وهذا موقف عظيم لن أنساه، ما دمت على قيد الحياة.

وإذا نظرنا إلى علم العطار وأدبه نجده ذلك العالم في اللغة والتاريخ وفي الفقه والدراسات الإسلامية وله كتب في ذلك ومؤلفات عديدة في الثقافة فللعطار حوالي المائة كتاب بين التأليف والتحقيق معظمها في الدراسات اللغوية والإسلامية وقد حقق معجم الصحاح للجوهري وقدمه بمجلد للتمحيص والتحليل اللغوي. وله تهذيب الصحاح للزنجاني في ثلاثة أجزاء حققه العطار بالاشتراك مع عبد السلام محمد هارون.

ويعد العطار حجة في اللغة ودراساتها ومعاجمها ومن مؤلفاته فيها «قضايا ومشكلات لغوية» و«آراء في اللغة» و«الزحف على لغة القرآن» و«مقدمة معجم الصحاح» هذه الكتب التي عالج من خلالها دفاعه عن لغة القرآن الكريم. والذب عن بيضة الدين أضف إلى ذلك ما ألفه عن خطورة اليهودية والصهيونية والشيوعية ويرى فيه أن الشيوعية هي وليدة الصهيونية وهي مؤلفات حرص من خلالها العطار على بيان ما يواجهه فكر الأمة من هذه الخطورة في المذاهب السياسية والأيديولوجية لأنها تمس العقيدة والإيمان والدين فحلل ذلك كله بتحليلات عميقة ودراسات فائقة. وله كتاب «الإسلام والشيوعية» وكتاب «الشيوعية خلاصة كل ضروب الكفر والشرور» وله إسلاميات متعددة الفروع والفنون مثل:

١- الإسلام طريقنا إلى الحياة.

٢- الزحف على لغة القرآن.

٣- إنسانية الإسلام.

٤- الإسلام خاتم الأديان.

٥- الكعبة والكسوة.

٦- أحكام الحج والعمرة.

٧- حجة النبي ﷺ.

٨- وفاء الفقه الإسلامي بحاجات هذا العصر وكل عصر.

٩- الحجاب والسفور.

١٠- الإمام محمد بن عبد الوهاب.

١١- الإسلام دين خاص أم عام؟

فهذه الكتب تعبر عن مسار العطار الإسلامي في تأليفه وإنتاجه الديني، وهي تدل - إضافة إلى ذلك- على توسع معرفته بالعلوم الإسلامية ودفاعه عن الإسلام وذيادة عن حماه، وفقهه، وفكره وآدابه. فقد دافع عن لغة القرآن الكريم.. اللغة العربية الشاعرة كما يصفها

عباس محمود العقاد الأديب المصري المعروف، فحارب الدعوة إلى اعتماد العامية لغة للكتابة، كما حارب الداعين إلى الكتابة بالحروف اللاتينية، وكان العطار -بذلك- من المجاهدين بأقلامهم وأفكارهم. تطبيقاً للقاعدة النبوية المشرفة: المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه. كما قام العطار بالدفاع والتبيان عن فقه الإسلام وأبان في كتابة الفقهي الذي سبق ذكره عن وفاء الفقه الإسلامي بحاجات كل عصور الإسلام والمسلمين بل كل عصور الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما كتابه «الإسلام خاتم الأديان» إلا حجة على ما ذكرنا في هذا الصدد الشيء الذي يذكرنا بكتابه الموسوم: وفاء اللغة العربية بحاجات هذا العصر وكل عصر الصادر عام ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م. كما يذكر في الصدد نفسه -أي جهاد العطار القلمي والفكري- كتابه «الفصحى والعامية» الصادر في مصر عام ١٣٧٧هـ الموافق ١٩٥٧م. وكتابه «انحسار تطبيق الشريعة في أقطار العروبة والإسلام». وكتابه الآخر «الشريعة لا القانون».. هذه الكتب بصفة عامة محاولة من الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار للسير على طريقة السلف وله كتب أدبية وشعرية وقصصية ونقدية مثل:

١- المقالات.

٢- قطرة من يراع.

٣- أريد أن أرى الله (مجموعة قصصية).

٤- البيان.

٥- الهوى والشباب -شعر-.

كما أن للعطار بعض الإنتاج المسرحي:

١- الهجرة.

٢- الزنابق الحمر (مسرحية لطاغور، مترجمة عن البنغالية).

أما كتابه «كلام في الأدب» فيجمع مقالات جميلة الأسلوب وكلمات رائعة البيان. -ومن وجهة نظري المتواضعة- إن «كلام في الأدب» يعبر عن منهج أحمد عبد الغفور العطار الأدبي، لا أبالغ إذا قلت: إنه يرسم لنا صورة لفكر العطار الأدبي والله أعلم. ففيه مجموعة من

الدراسات المقالية عن الأدب والصحافة والبيان والنقد الأدبي واللغة الأدبية والأسلوب الأدبي والبياني أيضاً.

وهي كتب تعبر عن مواهبه الأدبية والشعرية على أنهما «الديوان، وكلام في الأدب» فيهما توجهات أدبية وثقافية وبيانية هي سره الأدبي وجوهره الوجداني وعرفانه الثقافي. وبعدهما توجه العطار إلى التأليف والتوثيق في اللغة ومعاجمها وضبطها والفقه ودراساته والسياسة والصحافة والثقافة والتاريخ.

ويعد كتابه «صقر الجزيرة» في سبعة أجزاء أشبه بدائرة معارف لتاريخ الملك عبد العزيز ابن عبد الرحمن آل سعود.

وإذا أتينا إلى بحثه "وفاء الفقه الإسلامي بحاجات هذا العصر وكل عصر" وجدنا له رؤية فقهية جيدة. خذ على سبيل المثال قوله: «والتفرقة بين الشريعة والفقه معروفة بعد أن أخذ الفقه معناه الذي اصطلح عليه، فقد ذكر أبو إسحاق الشاطبي (إبراهيم بن موسى الغرناطي) المالكي المتوفى عام ٩٧٠هـ في كتابه الموافقات ١-٨٨: «إن معنى الشريعة أنها تَحُدُّ للمكلفين حدوداً في أفعالهم وأقوالهم واعتقاداتهم، وهي جملة ما تضمنته».

فالشريعة -والقول للعطار- في مفهوم الشاطبي الدين وليس الفقه، لأن الفقه لا يتناول المعتقدات، ولم يكن له مفهوم في عصر الرسول ﷺ وفي عصر الصحابة ما فهم منه اصطلاحاً، بل كان الفقه هو العلم بالدين، ص٢٠، وهذا مفهوم ووعي بالفقه والدين والشرع جيد.

أما ما كتبه العطار ودرسه دراسة عميقة فهو موسوعته عن الديانات والعقائد في مختلف العصور وذلك في أربعة مجلدات ضخام كل مجلد منها يحتوي على حوالي الخمسمائة صفحة وهو عبارة عن تعريفات بعقائد الشعوب ومذاهبها الدينية على مر العصور ثم يربط الصحيح الإيمان فيما يمس ديننا الإسلامي بالبيان والتوضيح وأن الإسلام هو دين الأمم كافة.

خذ على سبيل المثال قوله: وعندما انقسمت كوريا قسمين، قسماً شمالياً يسيطر عليه الشيوعيون، وقسماً يسيطر عليه الغرب، تضاءلت البوذية في القسم الشمالي أمام قوى الهدم الماركسية، وبقي القسم الجنوبي حراً، فدخلته المسيحية، ثم دخله الإسلام منذ عشر سنوات،

وحتى كتابة هذه السطور بلغ عدد المسلمين فيها حاولي خمسمائة مسلم، والفضل في دخول الإسلام إلى كوريا الجنوبية يعود إلى جندي تركي من جنود هيئة الأمم، فهذا الجندي التركي مسلم، وهو أول داعية إسلامي فيها، وقد استجاب له كوريون من الطبقة المثقفة، وزارني رئيسهم المسلم ومعه نائبه في موسم حج سنة ١٣٧٩هـ (١٩٦٠م) ج١/ ١٩٨ الديانات والعقائد.

وهذا نموذج للفكرة التي بنى عليها المؤلف كتابه «دراسات في العقائد والمذاهب على مر العصور» وأن الدين الإسلامي هو الغالب والباقي بإذن الله. ونحن نجد للأستاذ العطار في كل شعبة وفن من المعرفة كتاباً أو أكثر كما شاهدنا في الاستعراض الذي قدمناه.

وله كذلك كتاب «قاموس الحج والعمرة» عبارة عن تعريفات ومعاني ومعالم وقيم هذه الشعيرة العظيمة كالطواف، والسعي والرمي والأضحية والوقوف بعرفات وما إلى ذلك من المصطلحات التي ألفها العطار بكل جدارة حيث لم يسبقه إلى ذلك أحد. وهذا القاموس ينم عن توجهات العطار الفقهية والشرعية في مجال الدراسات والتحقيقات في ذلك.

وإليك أمراً آخر ألا وهو في الدراسات التربوية فللعطار كتابان أحدهما محقق والآخر تأليف: أما الأول فهو بعنوان "آداب المتعلمين ورسائل أخرى في التربية الإسلامية" للأئمة (الغزالي، وابن جماعة، وابن خلدون، وابن حجر الهيثمي) والثاني هو كتاب «التربية» من تأليفه -رحمه الله-.

وكلا الكتابين مقصود فيهما أهداف التربية وأسس التعليم بالعلم النافع بناء تربوياً دينياً واجتماعياً ونفعياً، وفيهما كذلك قضايا تربوية مختلفة بحثها المحقق عبر رسائل أولئك الأئمة تربوياً وتعليمياً.

وبعد هذه الرحلة الماتعه مع اللغة والأدب والفقه والتاريخ والفكر تأليفاً وتعليماً وإنتاجاً توفي هذا الأديب في شهر رجب عام ١٤١١هـ رحمه الله الموافق شهر يوليو ١٩٩١م.

أحمد قنديل

ولد أبو أمل أحمد صالح قنديل بجدة سنة ١٣٢٩هـ وفي عام ١٣٣٦هـ التحق بمدرسة الفلاح فتخرج فيها سنة ١٣٤٥هـ فعُين بعده أستاذاً فيها، وبعد عشر سنين أي في عام ١٣٥٥هـ رأس تحرير جريدة صوت الحجاز وعمل من خلالها على تطوير الأدب الحجازي بما ينشره من آثار الرواد وإنتاجهم الأدبي والشعري والفني والنثري حيث التقت ثقافتهم في صفحاتها تُلامس كل عينٍ تعشق هذا النوع من العلوم والآداب والفنون، ثم ترك العمل الصحفي ليتقلب في عدة مناصب بوزارة المالية آخرها منصب مدير الحج العام، لكنه تقاعد فيها بعد واشتغل في الأعمال الحرة.

ويُعد الأستاذ قنديل من رواد أدبنا السعودي الذي قدم الكثير من الإنتاج والعمل والفن والبناء العلمي الثقافي وبالذات الشعر حيث أن له إنتاجاً كثيفاً منه واستطاع في هذه المسيرة الشعرية أن يبرع في الشعر المزوج عاميّه بالفصيح وله فيه ديوان "المركاز" وقد أصدر مجموعات كثيرة من الشعر الفصيح مثل ديوان "نقر العصافير" و"ديوان الأصداف"، مرجعه في ذلك موحيات الكون والطبيعة والخليقة في ملكوت الله سبحانه وتعالى، وقد نوّع في الشعر تناولاً وأسلوباً واختياراً وإبداعاً لأنه قد ملك زمامه واستطاع أن يُكثر من الإنتاج في الشعر كما أنتج في النثر مواضيع ومقالات وكلمات وخواطر وأفكاراً ومعاني وقيماً أخلاقية واجتماعية وإنسانية.

وللأستاذ قنديل ذوقٌ عجيب واستحسانٍ فريد لما يقوله في ذلك كله من البراعة والإبداع والإنتاج وكان همه قول الأدب والشعر والفن وله مؤسسة فنية للإنتاج التلفزيوني وذلك قبل وفاته في شعبان من سنة ١٣٩٩هـ واستطاع من خلالها أن يُنتج المواقف والمواضيع واللقطات والصور المزوجة بالشعر وقد انتهز هذه الفرص للإبداع الفني والفكري معاً، وكتب في صحف عكاظ والبلاد والمدينة والندوة بعد صوت الحجاز وأم القرى والبلاد السعودية وحراء، وقد نشرت له هذه الصحف الرباعيات والخماسيات والشعر الحلمنتيشي الذي أومأنا إليه بالفصيح

الذي يُمازج العامية وهو يصطاد الأفكار فيها ويضعها بمعالجة موقف اجتماعي أو وقفة إنسانية أو فكرة ثقافية أو خلجات نفسية وقد لفت نظر القراء في ذلك بمسيرته الطويلة.

والمجتمع والاجتماع هما مجال هذا التكثيف من الشعر الذي ينبع أساساً من حبه وعشقه للناس والأحياء ولعل الجمال هو أساس هذا الحب وهذا العشق لأنه موهوب به منذ ولادته ونشأته وعمله في حياته واسمعه يقول في أبيات بعنوان: "أعرني من شبابك":

أعـرني مـن شـبابك يـا حبيبـي	حيـاةً أسـتعيد بهـا شـبابي
فـما فنيـت دوافعـه بقلبـي	ولا برحـت نوازعـه صـوابي
وإني رغـم أحـداث الليـالي	جديـد العمـر موصـول الرغـاب
ولكنـي بـدونك بعـض ذكـرى	وفضـلُ ضـبابة وصـدى عـذاب

وهذا على سبيل المثال في مقدمة ديوانه "نقر العصافير" أما كلمته في ديوانه "الأصداف" فهي المقدمة الذي يقول فيها:

«تحت هذا العنوان -قالوا- وقلت.. ومنذ سنين مضت تبعثرت هذه الأصداف.. حيث نشر معظم هذه الأقوال أو الأحاديث.. في صحف الحجاز بالمملكة وخاصة في جريدة المدينة الغراء التي كانت تصدر في المدينة آنذاك..

واليوم مناسبة خاصة كذلك يُنشر ما تيسر جمعهُ منها وما استجد مما لم يُنشر من قبل في كتاب أو في "ديوان" ما اصطُلح على تسمية المجموعات الشعرية في سفر صغير أو كبير بحجمه!! خفيف أو ثقيل.. في مؤداه!!

ولعل من حسن الحظ أو من سوئه لست أدري؟ فالأمر اعتباري حسب أمزجة أهواء القراء إن بقي للشعر في البلاد العربية قراء أن تكون المجموعة البسيطة أو "الديوان" أو "المصلحة"!! "الشعرية" في حجم "الجيب" - "راجياً" أن يكون لها كذلك طعم "السندوتش" "الجاهز" مجاراة لروح عصرنا الصاروخي الطائر!!

لقد قالوا وقلت.. فماذا أنت تقول؟!) صفحة ٩ سلسلة الكتاب العربي السعودي رقم ٣٩ شركة تهامة.

وأول أبيات هذا الديوان بعنوان "قالوا وقلت":

قـــالوا وقلـــت حــــديثاً	مكــــــرراً.. مســــــتعادا
أجــــلي الحيـــاة فـــأهي	بـــــها جــــلاه العبـــادا
ولا تــــزال.. مــــراراً	ولا يـــــزال.. مُــــرادا
في رحلـــة العمـــر – مثنـــى	نجتازهـــــا – فــــرادى
تمضـــي بنـــا حيـــث نمضـــي	إلى الســـــكون – معــــادا
لا زاد للحـــــــي فيهـــــا	إلا الحـــــديث معـــــادا
أقامـــــه الفــــن صرحـــاً	عـــلى الزمـــان مشـــادا!!

وعلى غرار هذا كان شعره في هذا الديوان مرقماً من رقم (١) إلى رقم (٦٦) قصيدة تلاعب من خلالها بالنكات والأفاكيه إلى جانب الأفكار والأقوال والمعاني التي تحمل قيم المجتمع والأناسي الذين عاش بينهم في المجتمع الحجازي العريق.

وسنختار بعض هذه الأشعار الرباعية وسواها ولنبدأ من الرقم واحد:

(١)

قال: ما شعرك أسمعني.. شيئاً.. في الغرام أو فقل:... ما ناسب الجلسة... واستدعى المقام!

قلت: إني شاعر من نمط.. حر الكلام لست كالحاكي.. ولا المذياع.. داراً... لا تنام!..

(٢)

قال: هل للحب معنى.. غير لثم.. وعناق وصبابات.. ونجوى.. واشتياق.. وفراق وانطواء.. ذاب فيه.. بين سوق.. ومساق...

قلت: هذا الحب تجريداً... وماذا زاد... نفاق!!..

(٣)

قالوا: تعداك الشباب إلى الكهولة.. تستبين..

قلت: الشباب فعاله... لا العمر.. في عدد السنين!

(٤)

رنت إلي.. وقد قالت على مهل ... ما أعذب العيش نهب الحب والغزل!!

إني ليحزنني قوم تضيع سدى ... حياتهم رهن رق المال والعمل

فقلت: فات زمان الشعر من قدم ... وسرعة العصر.. باتت مضرب المثل

والناس صنفان.. مملوك لدرهمه ... ومالك رام منه زينة الأجل!!

(٥)

قال: حسبي المجد.. ماذا المال.. ماذا كان فضله؟

قلت: ياذا!!... إنما يعرف فضل المال أهله...!

وكما نرى فإن هذه الأشعار تشكل الحوار بين الشاعر وبين مُحبيه إن جاز لنا أن نُعبر ليتلاقى القول بالعمل أو الرواية بالفعل وكلما قالوا هم قال هو، لكأن ما قاله شاعرنا إنما هي حوارات اجتماعية وإنسانية بينه وبينهم حيث يشكل ذلك كله الرؤية الشعرية للطبيعة البشرية أما مع المخلوقات فلنستمع إلى هذه الأبيات:

قالت الظبية للقرد – ابتعد عني – هنالك

وأربني بدل الوجه – على السوء – قفاك

أنت للفردة هذي!! وأنا المظبي... ذاك

إنما بَثُّ الظباء الحبَّ ملكٌ لسواك!!

قال: للغابة قانون – وللناس امتلاك

بيد أن الحب ميل... انطلاق.. وشباك

فاصبري.. أو فاذكري.. بعد لأيٍ واشتباك!!

قلت: حقاً.. فقلوب الغيد في الناس كذاك

يا ربيب الصخرات.. القبح والحسن احتكاك

كم رأينا.. كيف بات الحسن يسترضي أخاك

رُبَّ شيطانٍ... بما دق... سبى قلب ملاك..!

هذه الأقوال الشعرية المصوغة بفن الشعر وأدبه وأسلوبه وتفكير الشاعر إنما هي أصداف نُشر مُعظم هذه الأقوال أو الأحاديث في صحف الحجاز وخاصةً في جريدة المدينة المنورة التي كانت تصدر في المدينة المنورة آنذاك.

وكما أشرنا إلى ذلك في كلمة الشاعر أو المؤلف لكننا نُريد هنا أن نصل إلى هذه المكنونات الجميلة التي صاغها أحمد قنديل في هذا الديوان اللطيف ديوان الأصداف، الذي رأى الناشر لهذا الديوان أن يُلحِق بأخر الأصداف خمس مراثي شعرية كي يُصبح أكبر حجماً نظراً لأن ثمّة قصائد رثى فيها الشاعر ابنته حكمة ذات الثلاث سنين وصديقه السيد عُمر السقاف وصديقه الشاعر حمزة شحاتة ثم والد الشاعر صالح قنديل عليهم جميعاً رحمة الله.

ونريد أن نختار بعض ما قال شاعرنا في والده بعنوان "الأب الغالي":

في صدر.. هذا اليوم..

بين الضحى.. والقائلة..

والأم تبكي.. ثاكلة..

والأخت تجري ذاهلة..

وأخي الكبير... وأخي الصغير..

وأنا.. وكل العائلة..

كلٌّ يُحوقل.. أو يُهمهم.. أو يصرخ..

في نحيب.. أو عويل..

مات الأب الغالي العزيز..

مات الأب الغالي العزيز الشاعر..

الطيب.. الفكه.. الحنون.. الساخر..

المالئ البيت السعيد.. سعادة للسامر..

والقارئ القرآن منغوماً.. بصوت ساحر..

ربُّ الإمامة.. والصلاة جماعةً.. في كل فرض..

أستاذُ أجيال.. توالت.. الفلاح وكيدة[1]..

في جدةٍ.. من كل بيتٍ.. بينها من كل أرض..

إلى أن يقول:

لكنهُ.. في سمعنا.. حِسٌّ أليفٌ.. صائت..

ما زال حيّاً بيننا

مُتنهداً متوعداً متودداً متوسدا

في كل عادات له ما بيننا لم ننسها

لكنه فوق السرير الآن جسمٌ لا يُجيب

وعلى الفراش عبارة عبر الأثير

ضاقت بها الأجيال خاضعةً لأحكام المصير

وعلى السرير حمامةٌ بيضاءُ.. تنظرُ في وجل

وتمد جِيداً نافراً وتعود ترمق في خجل

من كان يُطعمها النّثار بوقته من كفه

جاءت إليه كسربنا قد حوّمت في صفّه

من عاد فوق فراشه ذكرى حياة حولها

جسداً تُغطّيه الملاءةُ والملاءة مثلها

بيضاء طالت في الجوانب كُلها

غطّته إلا وجههُ مُتهللا

---

(١) كيدة: من ضواحي جدة.

هذا نموذج من مرثيات الشاعر لأعز عزيز ألاَ وهو أبوه ولكننا سنُلقي إطلالة على بعض ما قال من رثاء في أخيه كما يقول عمر السقاف[1]:

مضى مثلما يمضي السحاب رفيقه | لدى رحلات الخير والعز والمجد
فقد عاش رفراف الجناح محلّقاً | كما الطير في الجو الفسيح بلا حدّ
يجوب بلاد الله بالكون كله | مراحاً ومغدى لا يُقاسان بالجهد
أداء لأهداف الرسالة صاغها | من القلب بالإيمان صادقة الوعد
مليكٌ أطال الله فينا حياته | أعاد إلى الإسلام سالفة العهد
وقاد سرايا العُربِ خفت رجالها | فسار بها بندا تآزر بالبند
فكان أميناً للرسالة صانها | وأعلى بها قدر المفاهيم والوكد

أما ما قلناه آنفاً عن اجتماعيات الشاعر وحيويته في الدنيا والحياة نجد لذلك أصداءً كثيرة كقولِهِ في الصداقة والصديق:

وما الود إلا نفحة قُدسية | بها نجتلي سر الصفا ونسعد
وما هو في قلب الخدين لخدنه | على ما به إلى صداه المردد
فإن عاد أمراً في الكثيرين زائفاً | ومظهر أوضاع بها يتقيد
فما زال عند الطيبين مقدساً | يؤكده في القلب حبٌّ مؤكد

* * *

ويا صاحبي ما أنت إلا الذي له | بقلبي مكان بالجنان ممهد
وما أنت إلا فكرة مازجت دمي | ولابست الروح التي بك تسعد
يمثل معناها لعيني هيكل | تصافحه في شخصك الطاهر اليد
فإن تهنا أو تحزن يجيك بمهجتي | هناك المواتي أو أساك المبعد
فخل فؤادي كيفما شاء يصطفق | بذكراه أو موج المنى فهو موقد

(١) كان وكيل وزارة الخارجية السعودية في حكومة الملك فيصل بن عبد العزيز طيّب الله ثراه الذي رقاه فيما بعد إلى درجة وزير دولة للشؤون الخارجية.

ودع لخيالي فسحة في سمائه | يطوف بروحي هائماً لا يقيد
ودونك جَدِّد كل حين خواطري | بما تشتهيه فالحياة تَجددُ

وهي أبيات في الحكمة عن الصداقة والصديق تناولها شاعرنا بتؤدة وإحسان ورصانة ولا شك أن ذلك يشكل جانباً من الرؤية الحياتية عند الشاعر وانظر مطلع الأبيات السابقة وهو قوله:

وما الود إلا نفحةٌ قُدسيةً | بها نجتلي سر الصفا ونسعدِ

وإذا تعمقنا النظر إلى هذا البيت عرفنا كيف أن الشاعر يقدر الصداقة وقيمة الصديق الذي هو كالأخ الذي ينتمي إليك أماً وأباً، ثم انظر للبيت الذي بعد ذلك:

فإن عاد أمراً في الكثيرين زائفاً | ومظهر أوضاعٍ بها يتقيد
فما زال عند الطيبين مُقدساً | يؤكده في القلب حبٌ مؤكد

وهنا التأكيد على أهمية قيمة الصداقة والصديق وللإخاء والشقاقة إذا جاز التعبير وهو يذكرنا هنا بما قاله الإمام الشافعي عليه رحمة الله:

إذا المرء لا يرعاك إلا تكلفاً | فدعه ولا تُكثر عليه التأسفا
سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها | صديقٍ صدوقٌ صادق الوعد

فالقنديل أخذ جزءاً من المعنى وصاغه في أبياته السابقة وما ذلك إلا مشاركةُ منه في حكمة الصداقة والصديق.

أما ديوان "نقر العصافير" للقنديل فيحوي أبياتاً في قصائد شتى من الوصف والحكمة وحُب الحياة، وقد صدر بعد وفاته رحمه الله، وبه أي الديوان يفتح لنا الشاعر شراعاً جديداً في بحر الشعر الذي يغرف منه بلا حدود أو قيود بل راح يُعبر في أبياته عن الحب ووصف الطبيعة، الشيء الذي يزين آثار الشاعر من فكرٍ وأدب وشعرٍ وفن، اسمعه يناجي الليل تحت عنوان الأفلاك والإنسان:

سألته..

يا ليل ما شأنها؟؟

النجمة الحيرى وما كونها؟؟

أجابت الأفلاك في دهشةٍ..

دعها!!

فقد يُلهيك.. مضمونها..

عن أُمك الأرض..

وأنت ابنها..

وأنت فيها..

بل بها حُسنها!!!

أو اسمعه يقول في أبيات أخرى:

جلت عن الوصف آمالي.. وآلامي..

وقصرتُ عن منال القصد أيامي

فبتُّ تنزح عن نفسي.. مطالبها

وليت يهجع.. يأساً.. قلبي الدّامي

يا صاحبي!!

ألا قُولاً لِمُرتقبٍ..

ما أصعب الهدف النائي

على الرّامي!!

ومن الأوصاف والتعابير الأخرى التي تدل على انسيابية القول الشعري عند شاعرنا وفنيته مثل هذه الأبيات تحت عنوان "اليراع الحر":

يراعُ الحُر.. في العالم.. نبراسه

وللمجد.. إذا ما قيس بالأمجادِ مقياسه..

وللفن.. وللعلم.. هُدى صانته أطراسهُ..

أجل!! فالصيحةُ الأولى..

لدى الفرقان.. آساسه..

علت ببيانها.. اقرأ.. بياناً.. ضل! خنّاسه..

حُماةُ القلم الفذّ... بكون الناس.. سوّاسه..

فإن قيد.. واستخذى..

فما الكون؟؟

وما ناسه؟؟

هذه الأبيات تحمل فكرة الكاتب الذي يحمل قلمه والذي يؤمن بما يطلع عليه مُشيراً في ذلك إلى أول ما نزل على رسول الله عليه الصلاة والسلام من وحي وهو قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ صدق الله والرسول.

وجميعها نصوص في غاية السهولة في الأسلوب والعذوبة في الديباجة التي عبّر بها الشاعر عن ما أوحاه اقرأ والقلم من معاني قصيرة لكنها عريضة المعنى والقول والفكر.

ونكاد نجد أن شعر الأديب أحمد قنديل أكثر بكثير من نثره وكتابته الفنية من رسائل أو خواطر أو أفكار أو قيم أو معاني شتى في الإنسان والمجتمع والعلم والتربية والأدب والدين.. كل ذلك صاغه فيما أرى شعراً وإن صاغه في بعض الأحيان نثراً.

وإن دل ذلك على شيء فعلى غرامه بالشعر ووقوفه عنده وكأنه لم يكتب بالنثر شيئاً، هذا الشعر الكثير وزناً وقافيةً وموضوعاً ومحتوى هو الذي يدلنا على حقيقة الأديب قنديل، فإن نثره لا يكاد يقاس بجوار شعره لأن القنديل هو هو شاعرٌ غريب ومُكثر بنفس الوقت وهو الذي يذكرنا بقول الناقد القديم عن الشاعر العباسي أبي العتاهية عندما قال فيه: لو أراد أن يتكلم أبو العتاهية بالشعر لتكلم. وهو معنى ينطبق على شاعرنا القنديل.

وغنيٌ عن البيان أن ما أنتجه القنديل من شعر هو الغالب على كتاباته ومؤلفاته ودواوينه فهو شاعرٌ وحسب.

ولعل أحسن مقارنة بين شاعرنا أحمد قنديل والشاعرين محمد حسن عواد وحمزة شحاتة هو ما كتبه الأستاذ عبد السلام الساسي في كتابه "الشعراء الثلاثة" حيث درس فيه المواهب والفكر الشعري عند هؤلاء الشعراء بدراسة نقدية وبحثية. والكتاب هذا من الكتب النادرة في تاريخ الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية فقد كان عبد السلام يحفظ أشعار هؤلاء لمعاصرته إياهم وعشقه لأدبهم وحبه لشعرهم، فانطلق هذا الناقد الدارس يبحث وينقب بعفو الخاطر وسهولة المعنى في أشعارهم حتى استطاع أن يخرج هذه الدراسة إخراجاً جميلاً. ويدرس فيها شعر هؤلاء الأدباء الفنانين الذين يشكلون الرواد الأوائل للشعر السعودي الحديث أضف إليهم الأستاذ أحمد إبراهيم الغزاوي والأستاذ محمد سرور الصبان والشاعر فؤاد الخطيب فهؤلاء الستة هم رواد الشعر والسباقون إلى طرحه في المسيرة الأدبية السعودية.

أما ديوان المركاز للشاعر القنديل فإنه مهمٌ جداً في الأدب السعودي الشعبي وفي أجزائه عَبّر بطلاقة لسان وانطلاقة بيان متناولاً المواضيع الاجتماعية والصور الشعبية والأفكار الإنسانية وقد اهتم به النقاد ومؤرخو الأدب نظراً لما تناوله قائله للأمراض الاجتماعية والسلبيات الشعبية محاولاً في ذلك أن يعالجها ويبحث عن الدواء المناسب.

كما أن له كتاباً بعنوان «كما رأيتها» في سردٍ قصصي ورؤية فنية، وهذا الكتاب من أقدم كتب الأستاذ قنديل الذي نشره في الستينيات من القرن العشرين المنصرم.

وفي "وحي الصحراء" أشعار مختارة لهذا الأديب وهي من أقدم شعره على الإطلاق وقد ساعد ذلك مؤرخي أدبنا السعودي لا بالنسبة لشاعرنا وحده بل لكافة الأدباء والشعراء الذين اختار من شعرهم وأدبهم المؤلفان عبد الله عمر بالخير ومحمد سعيد عبدالمقصود، أما الأستاذ عبد السلام الساسي فإلى جانب كتابه السابق فقد أرخ وترجم لحياة أدبائنا في كتابه المشهور «الموسوعة الأدبية لتراجم الأدباء السعوديين».

كما لا ننسى ما سطره قلم البحاثة الأكاديمي الدكتور بكري شيخ أمين في كتابه الدارس «الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية» وهو من أوائل الكتب في موضوع أدبنا بصفة عامة.

أما من الباحثين المتأخرين الذين أرخوا كذلك للأدب السعودي الأستاذ الدكتور عمر الطيب الساسي وهو دراسة بعنوان "الموجز في الأدب العربي السعودي".

وهؤلاء جميعاً كان أهم مصدرٍ لهم فيما كتبوه هو عدد مجلة المنهل الخاص بتراجم وأدب أدباء المملكة العربية السعودية المعاصرين لصاحبها الأستاذ المؤرخ البحّاثه عبدالقدوس الأنصاري رجب ١٣٨٦هـ نوفمبر ١٩٦٦م، وكل هؤلاء المؤرخين والباحثين عالة على هذا العدد لأنه فعلاً قد حوى زبدة الأدب السعودي الحديث والمعاصر.

وهذه المصادر والمراجع كلها هي التي نواكبها ونحن نكتب عن بعض رواد الأدب السعودي في العصر الحديث.

والله ولي التوفيق.

أحمد محمد السباعي

هو أبو أسامة أحمد محمد السباعي وعلى بساط البطحاء في مكة المكرمة وفي سنة ١٣٢٣هـ -١٩٠٥م ولد أحمد السباعي، المؤرخ والأديب الظريف الساخر، ومهنته: التربية والتعليم، والطباعة، والكتابة، والصحافة، فقد اشتغل في تلك الشؤون طوال عمره، ودهره، فقد كان لا يفتأ يكتب، ويحاضر، ويصدر الكتب، ويدبج المقالات والكلمات والمحاضرات، في نادي مكة الرياضي، على عهد رئيسه الأستاذ عبد الله عريف -رحمه الله- ورابطة العالم الإسلامي، على عهد أمينها العام، الأديب محمد سرور الصبان، وإدارة التعليم بمكة المكرمة، على عهد مديرها الأستاذ مصطفى عطار، فتراه ينتقي مواضيع ساخرة في قوالب التاريخ والأدب والفروسية والمسرح والصحافة، بأسلوب مازني[1] أدبي ولغوي ساخر!.

إن أحمد السباعي، وأحمد جمال، ومحمد سعيد العامودي، وعبد الله عريف، وأحمد عطار، يشكلون مجمعاً من الشخصيات المكية المثقفة الظريفة، فعلى الرغم من قلة ذات اليد المادية، والسيولة النقدية الشحيحة، إلا أن هؤلاء كانوا يركبون التيار، والمزج يكاد يرميهم ذات اليمين وذات الشمال، فيتمسكون بالمعنى والأدب والفكر والثقافة وينتجون النتاج الصحفي الأدبي الجاد!

ومن هنا كان لمكة المكرمة، في ظل هؤلاء الأدباء الظرفاء، صيت ثقافي ذائع.

وأحمد محمد السباعي أحد هؤلاء البارعين الباهرين، انتهز فرصة العمل الطباعي في دار قريش، الصحيفة الاجتماعية والفكرية (وكان هو رئيس تحريرها وصاحب امتيازها) بأسلوب (ديبلوماسي) ثقافي رفيع.

---

(١) نسبة إلى الأديب المصري إبراهيم عبد القادر المازني الذي عرف بالسخرية في أسلوبه الأدبي.

ونجد ضمن هذا الإصدار: المقال، والدراسة، والتأريخ، والقصة والمسرحية، التي تستمد جميعها من معين الفكر الإنساني، المكي الإسلامي، والعربي الممتاز، فكان السباعي ركناً عظيماً في سيارة الكتابة والثقافة والنتاج الأدبي، والتفكير الاجتماعي، في البلد الأمين.

وكان يستكتب الأدباء من داخلها وخارجها من مدن المملكة ومناطقها الفسيحة، فكان – بحق – ركناً قيادياً قوياً في مسيرة الفكر الاجتماعي، الذي طالما شرح السباعي مجتمعه كدعوته الأدبية الاجتماعية الرائعة "دعونا نمشي" بالإضافة على ما دبجته براعته في أسلوب قصصي كـ"خالتي كدرجان" و"أبو زامل" و"قال وقلت" وغيرها من مؤلفاته، ذات المنحى الاجتماعي والشعبي.

وأحمد السباعي أديب ذواقة، مرة ذهبت إلى دارته "بجرول/ القشلة" لمحاورته ولقائه الأدبي، ونشر في العدد ٢١ من مجلة اقرأ، على عهد رئيس تحريرها الدكتور عبد الله مناع في أوائل عام ١٣٩٥هـ وفي أثناء الحديث نَدَّتْ من لساني كلمة "المنتزهات" وصحح الكلمة.

ولا يغيبن عن بالنا أن السباعي –رحمه الله– كان يتحدث بالفصحى في أغلب حديثه، مشوبة باللهجة المكية الدارجة، مثله في ذلك مثل قرينه وزميله الأستاذ محمد عبد الله المليباري، يصعد الكلام من فيهما، جُملاً ظريفة. وهذا يعود –أقصد التحدث بالفصحى– إلى ممارسة السباعي للتدريس، وكان يحفظ القرآن عن ظهر قلب، وأرى من آثار ذلك تربيته اللغوية لابنيه الأستاذين "أسامة" و"زهير" حيث نجدهما على باع طويل، وقدم راسخة، في اللغة العربية، نحواً وصرفاً، وبالذات "أسامة" باعتباره مثل أبيه صحفياً وإعلامياً.

وأود أن أضيف –والشيء يذكر بالشيء– نبوغ الأستاذ أحمد السباعي في الأدب والقصة والصحافة، بعد الأربعين من عمره، والعرب تقول في لغتها على من حاله في هذه السن مثل حال أحمد السباعي: "نابغة"، وقد لقب أكثر من شاعر بهذا اللقب، كالنابغة الذبياني، والنابغة الجعدي، إذ لم يتصل الأستاذ السباعي بالأدب والصحافة – أول صلته بها إلا في "صوت الحجاز" على عهد رئيس تحريرها الأستاذ محمد حسن فقي!!.

وكنت قارئاً للسباعي، وعارفاً به، منذ عام ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، حيث أمشي ماراً أمام دارته، القريب منها، منزل والدي صالح محمد باسلامة -رحمه الله- وكنت -آنئذ- في الصف الأول بمدرسة مكة الثانوية على عهد مديرها -المرحوم- عبد الحميد فلمبان، ووكيلها الأستاذ المربي عبد الله باحاوي، المشرف التربوي على مدارس الفلاح بمكة المكرمة -مد الله في عمره-.

نعم كنت أمر أمام دارة السباعي، وأنا قادم من المدرسة إلى المنزل، أو أمشي ماراً أمامها، وأنا ذاهب إلى زيارة الأستاذ محمد سعيد العامودي -رحمه الله-.

ومرة وجدت الأستاذ عبد السلام الساسي -رحمه الله- عند الأستاذ السباعي جالسين على الأريكة السباعية الوثيرة، وكان الساسي منشغلاً بنشر موسوعته الأدبية الشهيرة. وكنت أزور السباعي غِبّاً، وأزور الأستاذ العامودي حباً!! ففي إحدى تلك الزيارات الأثيرة على نفسي وأنا في سن اليفاعة، كنت رسولاً أدبياً بين الرجلين في مسألة من تأريخ مكة، كتبها السباعي في كتابه «تاريخ مكة المكرمة» ولاحظ فيها العامودي غموضاً، فقمت بنقل الملاحظة إلى السباعي، الذي بادر بتقبلها مقدراً ذلك لزميله العامودي.

وقد يرجع ذلك إلى ما ذكره الأستاذ محمد علي مغربي في تعريفه لكتاب السباعي، خلال ترجمة المغربي له في كتابه «أعلام الحجاز» (ج٣) من أن كتاب تأريخ مكة للأستاذ أحمد السباعي، يعتبر متناً مصغراً لتاريخ أم القرى، أو فهرسة لجذور هذا التأريخ، لاختصاره الشديد، مع التأصيل البحثي فيه، على الرغم من أنه لا يفصل ولا يشرح في تأريخ مكة المكرمة شرحاً مفصلاً.

والشيء يذكر بالشيء -أيضاً- ما أود الإشارة -هنا- إلى ذكر الأستاذ المغربي للتحليل الميداني لتأريخ مكة للسباعي في صفحات كثيرة من موسوعته المهمة «أعلام الحجاز» فكان ذلك قراءة استقرائية سريعة لأهم ولأظرف ولأشهر ما ورد في تأريخ مكة للسباعي رحمه الله.

وللأستاذ السباعي طموح أدبي واجتماعي وثقافي متزايد فقد أنشأ أول مسرح في المملكة، خلال الستينيات الميلادية الماضية، وكان -رحمه الله- يرى في ذلك ويردد ما قاله (شكسبير) شاعر ومسرحي الإنجليز:

«أعطني مسرحاً.. أعطك شعباً»

تلقى التعليم في المدرسة الهاشمية بمكة وتخرج منها ثم كان من المتقدمين في سلك التعليم. وقد تخرج على يديه كثير من الأبناء رواد العلم والمثقفين. ويعد السباعي أول من كتب المقررات المدرسية في الحجاز وناهيك كتابه (سلم القراءة) الذي أصدره في ٦ أجزاء معياراً للمعلم الأديب ونبراساً لتعليم الأجيال والشبيبة. أسس معالم العلم والتربية واللغة والحساب في وقت لم ينتشر التعليم بعد ولم تُرسَ قواعده إلا في العهد السعودي وبالذات في الحجاز ومدنه مكة المكرمة والطائف وجدة، والمدينة المنورة.

إن مدارس هذه المدن وبالذات في مكة المكرمة مثل "الفلاح" و"الصولتية" و"الفخرية" وسواها لهي معالم لمدارس المستقبل وصروح العلم وبنيان المعرفة لا في الحجاز وحده بل في نجد والأحساء عسير والقصيم التي جاءت معالمها لتصب في جوهر الفكر التعليمي والتربوي في المملكة العربية السعودية.

وظل التعليم هاجس الأستاذ السباعي طول سنيّ حياته حتى عندما صدرت صحيفة "صوت الحجاز" في شهر صفر سنة ١٣٥٠هـ بمكة المكرمة نشر السباعي مقالات في التعليم فأسند إليه الأستاذ محمد سعيد العامودي رئيس التحرير -في إحدى رئاسات تحرير صوت الحجاز- كتابة الموضوعات الخاصة بالتعليم بل ألحقه محرراً بها. فأبدع السباعي في هذا المجال ومضى قدام ما وسعه ذلك خاصة عندما تولى رئاسة تحرير هذه الصحيفة ذاتها وللأسف لم تطل مدته فيها.

وواصل الأستاذ السباعي طموحاته الصحافية والأدبية فأصدر جريدة "الندوة" وأنشأ مطبعة باسمها فكان ذلك مجالاً علمياً في خدمة المجتمع المكي آنذاك -الثمانينيات الهجرية من القرن الماضي- لكن ملكية الندوة انتقلت إلى الاستاذ صالح جمال. ولم يفتَّ ذلك في عضد السباعي بل اصدر مجلة "قريش" فكانت بمثابة منبر صحافي وللأخبار الاجتماعية والأدبية، والحوارات وأنشأ مطبعة لها باسم قريش أيضاً فكان ذلك داعياً للإبداع الصحافي والإمتاع الأدبي والشمولية الثقافية وقد لقب الأستاذ أحمد السباعي بشيخ الصحافة السعودية كفئاً لمقامه

الصحافي ورسوخ قدمه في أعماله الصحافية والإعلامية وهو لقب ما لبث أن تمت تثنيته بجائزة الدولة التقديرية في الأدب قبيل وفاته -رحمه الله- بأشهر من عام ١٤٠٤هـ، التي نالها بجدارة.

والسباعي يحمل فكرة فلسفية في أدبه وقيماً فكرية في نتاجه خاصة في روايته «فكرة» وكتابه «قال وقلت» وعلى الرغم من بساطة الأسلوب الكتابي لديه فإن لغته قوية ومعجمه ثري وبالأخص في قصصه وإنتاجه الروائي لأنه فيها يستخدم الألفاظ والكلمات بانتقاء وبرؤية حصيفة وتذوق لغوي متين. وهذه الميزة تجعله يغوص في بحر الفصحى وينابيعها الفياضة حيث يعود إلى لسان العرب والقاموس المحيط يغرف منهما ما بدا له من فصحى العرب العاربة ولغتهم الثرية وأدبهم الحي. ولعل هذا التوجه اللغوي في الإنتاج الأدبي لدى السباعي هو نفس التوجه من حيث القوة عند الرواد من الأدباء أمثاله: "أحمد عبد الغفور عطار"، "حمزة شحاته"، "أحمد إبراهيم الغزاوي"، "حسين سرحان" إلخ.

وهكذا نجد أدب السباعي يتميز بسمات التأصيل الأدبي واللغوي والثقافي في مسار المعرفة والثقافة والصحافة والأدب واللغة والتعليم والتاريخ والتراث؛ كل هذه المجالات خاضها وقرأها واستقرأها وكتب فيها مواضيع وكتباً ودراسات وبرز بها على صفوف الرواد وقمم الريادة وأساطين البيان خاصة في الأدب العربي السعودي الحديث، ومن أهم هذه الكتب «تاريخ مكة» في جزأين يتناول مكة المكرمة جغرافية وأرضاً ومساحة وألف كثيراً من الكتب والمؤلفات أمثال: قال وقلت، - فكرة - أوراق مطوية - الأمثال الشعبية في مدن الحجاز، وعلى تعدد هذه الكتب المؤلفة فإنها ذات تعدد أيضاً في التناول الفكري لا الموضوعي فحسب وللأستاذ السباعي آراء في مسرح الحياة عامة وفي الاجتماعيات بصفة خاصة وقد صبها في كتبه وبالأخص كتاب «قال وقلت» الذي يحمل أسئلة من القائل وأجوبة من المخاطب الذي يجيب على تلك الأسئلة. وعلى الرغم من صبغة الكتاب الاجتماعية فإنه حوى أفكاراً أدبية وثقافية ودينية واقتصادية من خلال فكرة المؤلف الإنسانية وتوجهاته المعرفية.

احتل أحمد السباعي مكانة بين أعلام مكة من الأدباء والكتاب والمعلمين والروائيين؛ الذين أنتجوا أعمالاً ثقافية وأدبية، وهو من أصحاب الطموحات وقد أنشأ أول مسرح في

البلاد إلا أنه أُقفل قبل البدء فيه. وله نشاط منبري يلقي من خلاله المحاضرات في نادي الوحدة أول ناد رياضي تقام من خلاله المحاضرات الأدبية والثقافية والدينية على مستوى المملكة العربية السعودية، على عهد رئيسه الأديب المكي عبد الله عريف. كما ساهم الأستاذ السباعي بمحاضرات على مدرجات رابطة العالم الإسلامي أيام موسم الحج يتناول من خلال ذلك كله مواضيع جيدة في أسلوب أدبي رشيق؛ ورأي ديني عميق عن العبادة في الإسلام وفهم التشريع، كما يتناول الآراء الأدبية والقيم الفكرية في نادي الوحدة؛ وكان لهذا النشاط المنبري رواد كثر وحضور غفير، خاصة وأن ثمة أدباء مكيين مثل الأساتذة أحمد محمد جمال وعبد السلام الساسي وأحمد عبد الغفور عطار يحضرون هذا المنتدى ويسهمون في نشاط النادي وأمسياته. والأستاذ محمد حسن عواد والأستاذ محمد حسين زيدان وسواهما يأتون من جدة ليشاركوا بمحاضراتهم القيمة في إثراء هذا النشاط الثقافي والأدبي والتربوي في أمسيات جميلة، بديعة، خيرة.

انتهى السباعي عن الدنيا ولكن أعماله وما قدمه تظل حية في دولاب الحياة والوجود من آداب ومعارف وفنون ومعالم وسواها من الأعمال.

رحم الله الأستاذ السباعي إنساناً قدم الكثير لمجتمعه وشعبه وأمته.

حسين عرب

نشأ حسين علي عرب على حب التعبير وهو الذي ولد بمكة المكرمة سنة ١٩١٩م وقد تخرج من كتاتيب مكة ثم ألتحق بالمعهد العلمي السعودي وتخرج في عام ١٩٣٧م.

ولا يتصور هذا الفتى كيفية التصور الشعري والأدبي للفن الشعري والفن النثري فهو يحيى بموهبته الأدبية ليصور ويرسم بيئة أم القرى في الحجاز الأغر.

إنه التصور الذي تدعمه الثقافة والاطلاع والقراءة. وحيثما درس وتعلم فن الشعر انطلاقاً من تلك الموهبة ويكتب الشعر من ناحية ويكتب النثر من ناحية آخرى. وهكذا دأبه يعبر عن وجدانه حينما يتطلع في الحياة على أكوان معنوية ومعالم فكرية.

أما في المعهد فإنه يكرس جهده من أجل نيل المعارف والأفكار والمعاني والقيم الحميدة. إن حسين عرب شاعر منذ فتوته، هذه الفتوة وهذا الشباب ما يزيده إلا تمثلاً للشعر وتعبيراً عنه والتياعاً مع الحب والجمال والحقيقة.

إنه يصاحب في هذا المعلم شباباً مثله، أحمد عبد الغفور عطار وأحمد محمد جمال اللذين يملكان موهبة الشعر والفن الأدبي والتصور الثقافي والفكري والمعنوي.

لقد عمل موظفاً بعد التخرج بجريدة صوت الحجاز ثم ناباً لرئيس التحرير وكان لهذا العمل أثره النفسي في كيانه إضافة إلى الأثر الفكري وهما أثران جديران به .اسمعه يقول أبياتاً بعنوان قالت وقلت:

قالت: أفي الناس شر؟ قلت: شَرُّهمو	من غره المال والسلطان والخدم
ما في يديه سوى الأحزان	وليس في أصغريه غير ما يصم
وخيرهم من جنى المعروف	وصان قيمته إن هانت القيم

تـــراه كـــالطود والـــدنيا تـــدور بـــه ... منظـــر الوجـــه في عرنينـــه شـــمم

قالت: أرى المجد في الأسراب خافقة ... فـوق الحصـون استكانت تحتهـا القمـم

وفي المـــدائن كـــالأعراس راقصـــة ... وفي التماثيـــل تســـتحي بهـــا الأمـــم

فقلــت: زيفــاً أجـاد النـاس صنعته ... لمـــا تجـــافتهم الأخـــلاق والـــذمم

المجــد في الخـــير تســـديه وتنشـــره ... نفســـاً تقمصـــها الوجـــدان والكـــرم

بمثل هذا القول يمضي شاعرنا المكي لكي يتمثل الحياة في الربوع المقدسة وفي عالم المعرفة. وقد شارك هذا الفتى الشاعر في مسابقة نشيد الطيران وفاز بجائزتها سنة ١٩٥٢م.

فهو متمكن من فن الشعر وقوله ونظمه، يقول في قصيدة موكب النور:

موكـب النـور، أم هــلال العيــد ... يـــتجلى لنـــا بفخـــر مجيـــد

تـــتملاه في جمـــال الصـــبايا ... مســـتهلاً، وفي ابتســـام الوليـــد

في هـــوى الأمهـــات، يغـــزلن ... للأطفـال ديباجـة الحفـاظ التليـد

في دعـــاء الشـــيوخ، يســـمو إلى ... الأفـق تنـزت بـه جـراح الكبـود

في نشـيد الفـداء، تصـغي السمـ ... ـوات إليـه، فتحتفـي بالنشـيد

في ضـــياء الشـــباب، يمشـــي إلى ... الميـدان مستبسـلاً، لفـك القيـود

وهو يقصد بالنور هنا نور مكة المكرمة ونور المدينة المنورة وكيف يكون موكبه بين الحرمين والأرضين المقدستين التي انبلج فيهما نور الإيمان والإسلام والدين، إنه يخاطب مكة قائلاً:

أوبي يـــا جبـــال مكـــة، للذكـــ ... ـــرى جـــلالاً وكـــبري للعيـــد

واذكـري كيـف أشرق النـور مـن ... غـار بعيـد في الأفـق، غـير بعيـد

وأَطـلِّي، عـلى حمـى الكعبـة الـ ... ـغراء، إطلالـة الرفيـق الـودود

ثم يدير قوله شعراً إلى المدينة المنورة:

كـــبري يـــا جبـــال طيبـــة، للـــ ... ـعيد، وهـزي الجبـال بالترديـد

واذكـري، مطلـع النبـي بناديـك ... - طريـداً - أَعظـمْ بـه مـن طريـد

طلع البدر، من خلال الثنـ ـيات، فكانت مطالعاً للسعود

بوأتـه، منازل الأوس والخز رج منهـا، مباءة التمجيد

وبهذه الروح الإيمانية يمتطي حسين عرب صهوة الشعب الإيماني والأدب الإسلامي بلا مزايدات في القول أو أبيات في النظم، وإنما يقول ما قال، لفظاً عفوياً وقولاً خاطرياً كي يعبر عن هذا الإيمان الذي يحتويه على ظهرانيه.

وعندما قدم الملك فيصل من أمريكا وأوروبا عام ١٣٨٧هـ قال فيه حسين عرب قصيدة عصماء:

ملك شع بمرآه الضياء غـ إذا البيد نشيد وغناء

تحسب الآمال في غرته فلق الصبح، إذا الصبح أضاء

ملأ الغرب دوياً عالياً وحبا الشرق جهاداً وفداء

ثم يصف ديار الغرب بقصورها وأُبَّهاتها ومصانعها قائلاً:

أيها القادم من أقصى الدنا من بلاد تتجلى خيلاء

القصور الشم في أحيائها فاقت السحب صعوداً واعتلاء

والصناعات خضم ثائر زادها العلم نفوذاً ومضاء

فإذا الذرة منها صاعق ينشر الرعب جحيماً وبلاء

ويستطرد قائلاً:

حدث الشعب، وبارك عهده عن حياة ملأت عرض الفضاء

عن علوم، كالأعاصير مدى فترامت بين أطباق الجواء

ضاقت الأرض بها فانطلقت تصل الأرض بأسباب السماء

* * *

يا مليك العرب والعهد هدى والمرائي كمحياك سناء

مرحباً من كل قلب وفم بعظيم أكبرته العظماء

قــدرت فيــه زعــيماً نابغــاً ... ناصــح الحجــة بــين الــزعماء

مــن أبــوه سـيد العــرب الــذي ... أبــرأ الله بـــه الـــداء العيـــاء

إنـــه عبـــد العزيـــز المعـــتلي ... صـهوة الهيجـاء إن جـد اللقـاء

هــذه الصــحراء مجــلى بأســه ... ســجلت ذكــراه فخــراً وإبــاء

وبنــوه الصــيد آســاد الشــرى ... أمـل الشرـق وعنـوان الرجـاء

بأسهم بأس الضواري في الـوغى ... وهــداهم فضــل علــم وذكــاء

هم مناط الأمـل السـامي الـذرى ... ولهـــم يعـــذب في الله الفـــداء

إنها آمال كانت معلقة في هذا الزعيم الذي صنع لشعبه وطناً قوياً ثرياً، ظل يرعاه بإذن الله ومضى وهو يعمل من أجله، إلى أن قضى ولله في خلقه شؤون.

وتأتي فلسطين في مقدمة القضايا التي عالجها حسين عرب في المجموعة الكاملة من ديوانه، يقول مخاطباً فلسطين:

يــا فلســطين ســلاماً وأســى ... من فؤاد، كم بكـى، حتـى انـبرى

مــن عيــون، أصــبحت دامعــة ... حجـب الـدمع عليهـا، النظـرا

مــن قلــوب، لم تــزل خفاقــة ... بـك، حتـى لـو يواريهـا الثـرى

مـن شـعوب، شـفها الوجـد إلى ... ثـورة، تشـعل حتـى الحجـرا

تنشــد الحــرب، ضرامــاً دائبــاً ... يلهــب الغاصــب والمســتكبرا

تنــزع الباطــل مــن أركانـــه ... ثـــم تـــذروه هبـــاء نثـــيرا

ثم يتحدث عن القدس ومسجدها الصخرة قائلاً:

(يـا ربـوع القـدس) حيـاك الحيـا ... ينبـت الـزرع، ويرعـى الثمـرا

كــذبت أســماعنا، مــا ســمعت ... وجــرت أدمعنــا، ممــا جــرى

مسـجد الصـخرة، قـد عـاث بـه ... أخبـث النـاس جميعـاً عنصـرا

والقصور النضـر، أمسـت بلقعـا ... والبـدور الحـور، باتـت في العـرا

والصبايا، نافرات كالظبا — يتلاحقن أماماً وورا

مادت الأرض بهم وانفجرت — بالصواريخ عليهم شررا

فشهدنا الورد، جرحاً دامياً — وشهدنا الزهر، جمراً أحمرا

إنها مأساة فلسطين بل مأساة الإسلام والعرب أجمعين..

وانظر كيف شبه الورد بالجرح الدامي والزهر بالجمر الأحمر، إنها بلاغة الشاعر وتمكنه من ناصية البيان ليواصل بعد ذلك شعره قائلاً:

(طيبة الغراء) أنت عزنا — وبكت، مما جرى (أم القرى)

أخوات، ضمها الوحي إلى — قلبه، وانساب منها خيرا

والنبوات، على أفيائها — قد توالت في رباها زمرا

تنشر النور وتستوحي الهدى — ويفيض الخير فيها، أنهرا

هطلتْ تبراً، فكانت خيراً — وسرت شعراً، فكانت قدرا

والضحايا عبرت، في أرضها — تصنع المجد، وتروي العبرا

والدم الزاكي، جرى في دربها — فاض مسكاً وتندى عنبرا

أبقت البلقاء، منه أثراً — وروى اليرموك، عنه خبرا

وهكذا يمضي في حياته الأدبية بين الفن والشعر والنثر والأدب ومع ذلك فإنه يطلع ويقرأ كثيراً في مصادر هذا الأدب والتاريخ والدين والشعر والنثر لقد قرأ حسين عرب للجاحظ كتابه «الحيوان» و«البيان والتبيين» كما قرأ في ذات الوقت تفسير الطبري وتاريخه، وهذا نموذج مبسط لما كان يطلع عليه حسين عرب هذا الأديب والشاعر الكبير.

ولا يزال يعمل حتى بعد أن ترك العمل الصحفي حيث التحق بوزارة الداخلية حتى استقال من عمله ١٩٦٠م ليدخل بعد ذلك مجلس الوزراء حاملاً حقيبة وزير الحج والأوقاف لكنه استقال منها بعد ثلاث سنوات ١٩٦٣م. وهكذا عرف حسين عرب الحياة العملية والإدارية وخبرهما أيما خبرة ليتفرغ بعد ذلك للأدب والشعر اطلاعاً وتعبيراً مما جعله رائداً في الشعر والأدب.

عني حسين عرب بالأدب عناية فائقة وذلك باطلاعه ووقوفه على تاريخ الأدب العربي في مؤلفات مصطفى صادق الرافعي وجورجي زيدان وأحمد حسن الزيات وشوقي ضيف، والتاريخ العربي الإسلامي في مؤلفاته القديمة مثل: «تاريخ الطبري» و«ابن كثير» و«ابن خلدون» و«السخاوي» و«ابن الجوزي». كما اطلع على التاريخ الحديث لحسن إبراهيم حسن والتمدن الإسلامي لجرجي زيدان وسواهما. فتسنى له معرفة الكثير من تاريخ الإسلام والمسلمين من عهد النبي محمد صلوات الله عليه مروراً بعصر الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والعثمانيين. كما تسنى له الوقوف على أسرار اللغة العربية وآدابها فهو يقرأ لامرئ القيس كما يقرأ للفرزدق ويقرأ للمتنبي كما يقرأ لـ أحمد شوقي ويحفظ من دواوينهم الكثير من القصائد والأبيات الشعرية.

هذا الموروث الذي اطلع عليه هذا الشاعر إنما يزيده قوة في القول في كثرة في القصيد. إنها حالة من الثقافة يترنم من خلالها بفصيح العرب وبلاغتهم الأدبية.

وكان لا بد له من أن يقف ويغرف من هذه الآداب كي يكون شاعراً مطلعاً على أبواب الأدب العربي وفصوله، ومن الصفات الأدبية التي تحلى بها سرعة البديهة في الكلام وعفو الخاطر في القول، وكان يعتمد في ذلك على حفظه لأقوال العرب وأخبارها وهي صفة أو صفات قل نظيره فيها وإنك لتجده في المحافل الأدبية والمسامرات الثقافية يبدع ويشعر بفكره الأدبي وفنه الشعري ما لا يستطيع أحد أن يجاريه في ذلك.

وكان مجلسه في حي النزهة مجمعاً لأقرانه أن يسامروه فيه فتجد أحمد عبد الغفور العطار وعبد السلام الساسي وعبد القدوس الأنصاري وحامد مطاوع وغيرهم الذين يغشون مجلسه بالمعلومات والآراء والأفكار والقيم الحميدة.

هذا المجلس يُكوّن هالة من نور الأدب في أم القرى وثقافة أهلها ممثلاً في هؤلاء العباقرة الذين أثروا مجال الأدب وعالم الثقافة بالعلوم والفنون والآداب. وكما أحب حسين عرب أم القرى وحرمها الطاهر المبارك أحب أمته ووطنه ومجتمعه فيقول الشعر في ذلك عن حبه للوطن وعن حرم الله مكة المكرمة وعن التراث العربي الإسلامي وهي معالم في قصيده وشعره وفكره وفنونه الأدبية.

من ذلك أيضاً تعبيره عن قضايا أمته وفي مقدمتها قضية فلسطين والقدس كثيراً ما شَدا وعَبَّر. كل ذلك محفوظ في ديوانه الشعري الذي يضم مجلدين من القصائد والأشعار والأبيات.

هذا الديوان ضم كل قصائد حسين عرب الشعرية وفنونه الأدبية بما في ذلك الأناشيد الوطنية في المملكة العربية السعودية وكم شَدَت بها الأجيال الصاعدة من منابر العلم والدين والأدب، معبراً في ذلك بالقيم والأخلاق والمعاني الجميلة لترسخ في ذاكرة الأجيال تلو الأجيال المعاني والآراء والمواقف كل ذلك مواضيع للتعبير من شاعرية حسين عرب نحو الأمة وأُناسها. ونحو المجتمع الذي يعيش في وسطه الكبير والصغير والذكر والأنثى ليصلح منه ما اعوجَّ من رؤيته أو انحلَّ من عقدته وهكذا مهمة الشاعر في الحياة كما يقول سيد قطب الأديب في كتاب بهذا العنوان.

لا بد إذن من ثقافة لكل شاعر أو أديب أو فنان يتزود بها في شعره أو فنه أو أدبه إتاحة للفرص الشعرية والمواقف الأدبية والأقوال الفنية. وهذا هو ما سار عليه شاعر مكة حسين عرب منذ أن بدأ قول الشعر في صباه مروراً بعمر الشباب والكهولة والشيخوخة الشيء الذي مد الله له من العمر حافظاً ذاكراً خطيباً متحدثاً.

وهي ظاهرة كما عرفناها عند المعمرين من الشعراء كـ الزهير بن أبي سلمى وحسان بن ثابت والفرزدق وأحمد الحضراني ومحمد عبد المنعم خفاجي وعبد الله عبد الجبار. هذه العبقرية موهوبة من الله الخالق جل وعلا تهذبها الحياة التي تكسب صاحبها بهذه الطاقة المعنوية الجياشة التي يعبر عنها صاحبها عن شؤون الحياة وشجونها. ولا غرابة على شخصية شعرية وأدبية مثل حسين عرب الذي كان يعمل في صمت ويعبر عن هذا الصمت بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولقد حضرت بعضاً من مجالسه عليه رحمة الله فكنت كل مرة أخرج منها وأنا أشعر برباطة جأشه وسرعة بديهته وحضوره المتمكن من العلوم والمعارف والفنون والآداب. إذن هي ميزة من مزايا شخصيته وصفة من صفاتها التي كان يتحلى بها في حياته المديدة وسمة من السمات العبقرية ذات الغنى الروحي والمعنوي والأدبي.

ولقد ضمت أم القرى أمثالاً من حسين عرب كـ أحمد جمال وحسين سرحان وأحمد عبد الغفور عطار وعبد السلام الساسي ومحمد عبد الله مليباري وإبراهيم خليل علاف ومحمد سعيد العامودي.. هؤلاء وأمثالهم من الأدباء والشعراء المكيين أثروا مجال الأدب وعوالمه ثقافة وأخلاقاً وأدباً وفكراً ولغة اكتسبوها في ظلال الحرم الآمن وربوعه وبطحائه الطاهرة. ومن كتاتيبها ومعاهدها العلمية كـ المعهد العلمي السعودي رحمهم الله أجمعين.

أحمد محمد جمال

أبو محمد أحمد بن محمد جمال: الأديب، والشاعر، والمثقف النابه؛ استضاء بنوري الكتاب والسنة عن طريق وعي اللغة الفصحى. أعجبت بتألقه الفكري والإعلامي في أواخر الستينات الميلادية؛ وأنا بعد في اليفاعة؛ أدرس بثانوية مكة المكرمة المقابلة لميدان دار أحمد جمال. بعثت إليه رسالة على عنوان مكتبة الثقافة بسوق الليل، قرب الحرم المكي الشريف، أطلب فيها منه بعض مؤلفاته، وما هي إلا بضعة أيام حتى وصلني منه عدد من كتبه؛ منها: «على مائدة القرآن» و«مبادئ ومثل» وكتاب ثالث عن مجريات السياسة العربية؛ وقد أعجبت بعد قراءتي لها بالمبادئ والمثل؛ لأن فيه أدبيات إسلامية منها: ذكره لقصة مقدم طه حسين إلى مكة المكرمة، وحضوره في جدة لأحد الاجتماعات الثقافية تحت إشراف الجامعة العربية في خواتيم الخمسينات الميلادية وكان برفقة هذه الكتب رسالة جوابية من الأستاذ أحمد يشجعني فيها على المضي قدماً في سبيل الأدب والثقافة الإسلامية. وقد دعاني لزيارته، وفعلت فإذا برجل وسيم الطلعة، حيوي الروح، تزدان ملامحه بحسن صوته وجهوريته، وبقدر شعوري فرحاً بهذا اللقاء كانت مهابته في نفسي بنفس المقدار، ثم انصرفت وأنا على أمل التواصل الفكري معه.

كان الأستاذ أحمد يتابع ما أكتبه، بداية من عام ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م. ومن أصالة اتجاهه الفكري في حياته الثقافية والاجتماعية إقدامه على خوض الكتابة والتأليف في اتجاهات عديدة، وبأساليب عجيبة؛ خذ مثلاً كتابه «كرائم النساء» أو «ماذا في الحجاز؟» تجد أبا محمد ذلك الكاتب البارع في التقاط القيم في السيرة التاريخية واغتراف المعاني من صميم الشخصيات، التي يكتب عنها، ولا أدل على ذلك من رسمه لصورها في مجال يحوطه الإتقان وحسن التناول في السيرة، بأدبيات من عنده: لغة وبياناً وأسلوباً، وهذه من المزايا الكريمة لرجل ثقف ذهنه، وهذب نفسه، وصان قلمه. ناهيك عن اتخاذه في رسم الصور المعنوية، بألفاظ مترادفة،

وجناس غير مفتعل، وسجع جميل؛ غير ممل أو مخل، هذا جانب وجانب آخر الأصالة الثقافية تنغمس بها حياته الكتابية في أعماق الأدب والثقافة الإسلامية، والتفسير القرآني، والحديث النبوي، هو في ذلك كله العَلَم، والشخصية ذات الصورة الناصعة، والملامح التي تنم عن فكر عميق ورأي حصيف، وكلمة متزنة، ومذهب واضح وأصيل.

وهنا نشير إلى كتاباته القرآنية بدءاً بكتابه «على مائدة القرآن» ومروراً بكتابه «مأدبة الله في الأرض» حتى نصل إلى كتابه الأخير «القرآن كتاب أحكمت آياته» في هذه الكتب خلاصة لفهم مثقف عصامي، للقرآن الكريم، بناء على الحفظ والدراسة، والوعي والإدراك، يشرح آية، فيفسرها بتناول الصحابة في ضوء ما فهموه من الرسول الكريم، فيأتي مستشرق أو مستغرب يرد عليه أبو محمد رداً ليس فيه قسوة، ولكن فيه بيان، ويوفي الموضوع بحزم، ويستطرد في ذلك باستنباط الآيات المتقاربة في الموضوع نفسه، وما أجدره مثقفاً يستأنس بالحديث الشريف، والأثر الكريم، مواصلاً تفسيره للآية أو الآيات.

ومثل آخر في هذا الصدد: موقفه من آراء بعض الكتاب في الدراسات القرآنية، فيتتبعهم سواء في الناسخ والمنسوخ، أو القصص القرآني، أو الإعجاز العلمي، وغيرها مما ينم عن إدراكه لأصول التفسير، ومواقع موضوعاته في الكتاب والسنة، والرجل لا يمل من الردود بدءاً بمصطفى محمود، ومحمد أحمد خلف الله، وكذا جولد تسيهر، وغيره من أذناب الاستعمار، يتقصى في حواره معهم بالكلمة الرشيقة، والبيان الحاسم.

ويبدو لي أن انشغاله في هذا التبيين، والرد على المفسرين كامل للقرآن الكريم، ويروي الأستاذ مصطفى عطار عن الشيخ علي الطنطاوي أنه قال: لم يدرك مفكر مثقف سعودي ما أدركه أحمد جمال في فهم القرآن أو ما معناه، وانظر في هذا الصدد ما كتبه عن كتاب تعريف عام بدين الإسلام للطنطاوي. في كتابه «القرآن كتاب أحكمت آياته».

هناك المنابر لإلقاء المحاضرات الإسلامية والأدبية، يدأب عليها في الداخل والخارج، وهنا يبرز خطان عريضان.

الأول قضايا الشباب والطلاب.

والآخر قضايا الثقافة والدين والمجتمع والاقتصاد والسياسة، وله في كلا الموضوعين كتب عديدة بداية من كتابه «محاضرات في الثقافة الإسلامية» ونهاية بكتابه «أوصيكم بالشباب خيراً» وأعده أكبر محاضر في مكة المكرمة، والمحرك لبرامج الإدارات العامة، والأندية الرياضية، في مواسمها الثقافية، وبالذات نادي الوحدة، على عهد رئيسه الأستاذ عبد الله عريف، ورابطة العالم الإسلامي، على عهد أمينها العام الشيخ محمد سرور الصبان، والشيخ محمد صالح القزاز -رحمهما الله-.

كان أحمد جمال هو الفارس الوحيد في الميدان يصول في الأدب، ويجول في الدراسات القرآنية والسنية.

وجانب ثالث؛ السياسة العربية والفكر الإسلامي، أفاض فيهما بكتابات وتأليفات وتعقيبات وردود، ولا يخشى لومة لائم في نقد هذين المجالين بتناول صحفي وإعلامي صريحين، وما كتبه في ذلك عن فلسطين يكفي.

هذه جملة، من أصول فكر أحمد جمال، وثقافته، وشخصيته، وملامح من جهود وجهاده؛ التي كرسها للمجتمع والأدب والدين والشباب والاقتصاد واللغة.

وما أروع قول أبي العتاهية:

وليس على الله بمستغرب ... أن يجعل العالم في واحد

وأحمد محمد جمال علم من أعلام أم القرى، أستاذ التفسير القرآني في جامعتها وأستاذ الثقافة الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة وعضو مجلس الشورى العربي السعودي. ولد سنة ١٣٤٣هـ-١٩٢٥م وتوفي عام ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

إنه أديب مجدد ومثقف ديني قدير شارك في مؤتمرات ثقافية وطلابية وتربوية وإسلامية عديدة في الداخل والخارج وألقى الكثير من المحاضرات في الأدب والسياسة ومشكلات الأمة والتحديات التي تواجه هويتها ودينها ومجتمعاتها. وكتب ودبج المئات من المقالات الصحفية والإعلامية والثقافية والأدبية والفكرية في مختلف مجالاتها والمتعلقة بالشؤون والشجون الاجتماعية والإنسانية والإسلامية والمعرفية.

كان أحمد جمال يحمل الروح العالية والهمة النشيطة مما ينم عن خلق طيب وجهاد صادق بالنفس والعلم والقلم، ويعد نشاطه العلمي والثقافي من أبرز معالم شخصيته الأدبية وهويته الشخصية ومرجعه المعرفي وتفكيره الإسلامي.

كان يحمل الجرأة الشخصية في نضاله القلمي سعياً منه إلى مناصرة الدين ومكافحة الجهل الخلقي ومصاولة دعاة الإنحراف الاجتماعي والأدبي. فكتب كتابه «مكانك تحمدي» دراسة عن المرأة والأسرة في ظل الإسلام الحنيف وتعاليمه النقية وإرشاداته الصافية. كتبه وأعده من أجل الفتاة السعودية بخاصة. رسم من خلاله صورة المجتمع الإسلامي ونموذجه وكيانه الكبير، قلباً وروحاً وقالباً من تمسكٍ بالآداب والتربية والأخلاق في سبيل الحياة الإنسانية والاجتماعية وفي مجال المعاملات الحياتية مادياً وأدبياً واجتماعياً ودينياً، ومن هذا كله يسير المجتمع أفراداً وجماعاتٍ صفاً واحداً في هذه الحياة الكبرى. ولعله بهذا الكتاب سجل نقطة تحول إلى التعمق في دراسة الدين.

وكتب كذلك كتابه «على مائدة القرآن» دراسات في الدين والدولة ومناقشات مع المفسرين والكتّاب والقصص الرمزي في القرآن الكريم. وهي مجموعة من ثمرات الوعي القرآني والفهم والتفسير لكتاب الله. كل دراسة تبحث في موضوع وتناقش قضايا متنوعة، في أبواب وفصول عديدة. فعلى سبيل المثال كتابه «دين ودولة» يبدأ فيه المؤلف أحمد محمد جمال بفصل عن العبادة والتطميع فيها ويستند في ذلك على الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. ثم يتحدث عن بر الوالدين بأفكار حسنة ونصوص جميلة وبديعة ومن ثم منهاج التربية والتعليم في القرآن، التربية قبل التعليم، ضرورة التنبيه والتوجيه، مقاومة اليأس في التربية الإسلامية، والأنانية كما يمقتها القرآن، ثم فكرة الفضيلة تشريف بعد تكليف، وحرمة الأعراض داخل البيوت وخارجها. والمجتمع الإسلامي حكومة وشعباً في القرآن، والحاكمية الإسلامية: عدالة وشورى. ووحدة المحكومين وحريتهم، وقواعد الأمن العام في المجتمع الإسلامي، والعدالة الاجتماعية والاقتصادية كما يقررها القرآن.

وعلى هذا المنوال يأخذ الأستاذ أحمد محمد جمال قلمه ليصور أفكاره الأدبية والعلمية والمعرفية في ضوء التشريع الإسلامي والمنهج القرآني وبأسلوب الأديب المتمكن من لغة القرآن الكريم.. اللغة العربية، بيانها وبلاغتها وفصاحتها، وأصولها النحوية والصرفية. هذه الإضاءات المشرقة من الأفكار والصور نجدها تطبيقاً وتعليماً وتأديباً في سائر كتب الجمال؛ كيف ينفي أحد ذلك وهو أستاذ الثقافة الدينية والكاتب الإسلامي والأديب الملتزم والمربي الفاضل والإعلامي والصحافي الكبير الشهير!!

لقد أصدر كذلك «كرائم النساء» عن مجموعة من أمهات المؤمنين كالسيدة خديجة بنت خويلد والسيدة عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما وغيرهما فكان كتاباً بمقاس الكف لكنه عظيم بمعانيه وقيمه. كما كتب عن نساء فضليات أُخر. ودرس قضايا أخرى عن المرأة تحت عنوان "نساء وقضايا" وهذا توجه اجتماعي ديني أدبي كان أبو محمد رحمه الله قد سنه لتفكيره وقلمه في معالجة شؤون وشجون المرأة المسلمة المؤمنة في الحياة العصرية.

وليس من ريب في أهمية هذا الشأن لمكانة شقيقة الرجل ودور المرأة في المجتمع من النواحي الإجتماعية والدينية والتربوية والإنسانية، وماتقوم به من مهمات تتعلق بحياتها وحياة الأسرة الانسانية في كل زمان ومكان ؛ كالأطفال وآبائهم. حيث تقوم بالدور الكبير في تربية الأطفال ورعاية الآباء كما أن للرجل دوراً كبيراً ومهماً في رعاية الجانبين الأبناء والبنات وأمهاتهم ؛ كما لايخفى، وهو أمر يركز عليه الأستاذ جمال حين تحدث عن التربية، وذلك في كتبه أو مقالاته أو محاضراته.

لا يألو جهداً في ربط الأمر الثنائي بين الذكر والأنثى نشأةً وتربيةً وتعليماً وعلماً وعملاً أدباً وتفكيراً.. بحيث يصنف واجبات كلٍّ منهما، شرعاً وديناً واجتماعاً في الحياة الزوجية والأسرية.

وهناك رؤية أو توجه آخر عن الأستاذ أحمد جمال ألا وهو معالجة قضايا الشباب في النطاق المحلي والعربي والإسلامي، وكتب في ذلك ثلاثة كتب وهي: «من أجل الشباب» و«حوار مع الشباب»، و«الشباب دراسات ولقاءات». نشرتها دار الرفاعي في سلسلتها «المكتبة الصغيرة» وهي الكتب الصغيرة حجماً والكبيرة قيمةً كما يقول الشيخ عبد الله عبد الغني خياط إمام وخطيب الحرم المكي رحمه الله حينما كتب عنها في إحدى كلماته. ولا يخفى أن الناشر أو صاحب هذه السلسلة هو الأديب الفاضل عبد العزيز بن أحمد الرفاعي رحمه الله.

وتناول الأستاذ جمال في الكتب الثلاثة المذكورة أهم مايتعلق بالشباب من أمور وشؤون وموضوعات في المجتمع وهي جمة وعديدة نظراً لسن الشباب ودوره في المجتمع حاضراً ومستقبلاً، وحساسية هذا الحمل والشأن والدور الحياتي بوجه عام.

وقد كتبها انطلاقاً من مدارسته لهم ومناقشاته معهم ولقاءاته إياهم. وإنه قد خبر الشباب بعلمه وتبصُّره وتدريسه واهتمامه الشيء الذي ينم عن دراية ومعرفة وخبرة.

لذلك كتب كتابه الرابع: «أوصيكم بالشباب خيراً» وهو عبارة عن علاجات معنوية وأفكار أدبية مهداة لمعرفة الشباب المسلم في كل مكان ذاتياً ونفسياً وطموحاً وعلماً وأهدافاً في حياته.

وأستاذنا أحمد محمد جمال يرحمه الله مثقف إسلامي كبير وأديب عربي شهير وكاتب سعودي لا يشق له غبار في الثقلفة الإسلامية والأدب العربي والإعلام السعودي، فقد ألف محاضرات رائعة وجمعها في كتاب باسم «محاضرات في الثقافة الإسلامية» طبعت أكثر من خمس مرات، ومن هذه المحاضرات:

اهتمام الإسلام قرآناً وسنةً وتاريخاً بالشباب.

مسؤولية العلماء في الإسلام.

العلاقة الوثيقة للغة العربية بالإسلام.

عسكرية الاسلام.

الإسلام حضارةً وتاريخاً.

وكما ترى -أخي القارئ- مواضيع عميقة المغزى، وبادية المعنى وعظيمة الجدوى خاصة وهي توجه للشباب المسلم والطلاب الجامعيين الذين هم بحاجة ماسة إلى مثقف مثل الاستاذ جمال ليوضح لهم هذه الأفكار المهمة والمواضيع العميقة؛ فهو يرى أن الثقافة الإسلامية ضرورة اجتماعية للمسلمين عامة، وللجيل الناشئ الصاعد بصفة خاصة. فهو يتحدث حول الثقافة الإسلامية على أساس أنها المفاهيم الصحيحة عن الله والكون والإنسان كمستخلف في الأرض لاستعمار الكون، ومسؤول عن تصرفاته الحسنة والسيئة، وعن الحياة كمجال للعمل الإنساني على أسس إسلامية. فهذا كما ترى فكر إسلامي في إطار الثقافة النافعة التي تؤتي ثمارها العلمية والنتائج الفكرية والمعاني الحيوية في فكر الشباب المسلم خاصةً منهم الطلاب الجامعيين.

ومن يطلع على هذه المحاضرات المجموعة في كتاب يجد جملة من المواضيع الجمة التي تعمق فيها الجمال فكراً وثقافةً وأدباً ولغةً على ضوء الفكرالإسلامي والثقافة الدينية والأدب العربي واللغة الفصيحة. وإني لأرى أن القراء من هم أساتذة ودكاترة وباحثون ينتفعون به كذلك نظراً للمستوى الجيد للكتاب علمياً وثقافياً وأدبياً؛ إذ إنه في طياته يحمل سلسلة من الفصول الثقافية المهمة، والصور الأخلاقية الحسنة، والأفكار الموضوعية الجمة النافعة فيها رشد الدين وعمق الفكر وسلاسة الأسلوب اللغوي. فإن النقاط الفكرية التي تناولها أحمد جمال وبالذات في هذا الكتاب ذات توجهات متشعبة. ولنضرب مثلا بمحاضراته "أخلاقية الإعلام" ففيها يأخذ الحديث عما يأتي من الأفكار:

العبادات ترشيد للخلق.

الإنسان بفطرته يغرق بين الخير والشر.

حسن الخلق في المطالبة بالحقوق.

الرسول ﷺ قدوة أخلاقية.

الجرائم الخلقية.. وعقوباتها.

مكارم الأخلاق في القرآن والسنة.

فأنت ترى أموراً راشدة وأفكاراً سديدة ومعاني شيقة من أمور الدين والأخلاق والقيم والشيم الحميدة والمحمودة الشيء الذي يستجيب له الفكر.. فكر المسلم وأدبه وأخلاقه سيما أن ذلك يقوله المؤلف في ظلال الدين الإسلامي الحنيف والإقتباس من نور القرآن الكريم وسنة النبي عليه الصلاة وأتم التسليم. وكذلك محاضرته عن الإدارة في الدولة الإسلامية يقول في ثناياها:

«الإدارة في الدولة الإسلامية هي نتيجة لمقدمة، وهذه المقدمة هي التربية الإسلامية، ةالتربية في منهاج الإسلام تقوم أساساً على مبدأ القدوة الحسنة من الكبير للصغير، ومن الرئيس للمرؤوس، ومن الحاكم للمحكومين وعلى الاتصال الطبيعي بين العلم والعمل، أو بين العقيدة والسلوك.. إذ لا قيمة (لتوجيه) لا (تنفيذ) له، ولا تأثير لموعظة من واعظ لا ينتفع هو بها، ولا تظهر على سلوكه الذاتي».

«إذن فالأساس الأول لصلاح الإدارة -في منهاج الإسلام- أن يكون الرئيس قدوة صالحة لمرؤوسيه، والحاكم أسوة حسنة لمحكوميه.. والمعلم نموذج كريم لطلابه إلى آخره».

ولا شك في أن الاقتصاد ومعه التجارة ورأس المال والبيع والشراء أمور اجتماعية وأريد أن أصل هنا إلى المجتمع الذي خصصه الاستاذ جمال بكتابٍ أسماه: «مجتمعنا كما ينبغي أن يكون».

ولا أعني -هنا- أن الكتاب فيه اقتصاد.. الخ، أو علم من ذلك وإنما المقصود نظرة الأستاذ المستقبلية لمجتمعنا الذي نرقب من خلال: كيف ينبغي أن يكون، كما هو واضح من العنوان. بل إنه رحمه الله قد عايش جزءاً كبيراً من حياتنا الحديثة. ومن هنا عمد إلى ترسيم المستقبل الإسلامي والأدبي والاجتماعي لهذا المجتمع الكريم مؤملاً التركيز على إصلاحه وترشيده وتخصيصه بدراسة فكرية دينية ثقافية كَدَيْدَنِهِ في سائر كتبه ومؤلفاته ومحاضراته ومقالاته لإلقاء دراسة نموذجية لهذا المجتمع العربي الإسلامي العريق؛ مستقبلاً وحاضراً وعلى تطاول العهود والعصور إن شاء الله.

إن الاستاذ جمال متقن بل خبير في هذا المجال خاصة إذا ما عرفنا أنه من رجال التربية الإسلامية الحديثة وأستاذ الثقافة الإسلامية والأديب الملتزم والكاتب الديني، والمفكر الاجتماعي والصحافي والإعلامي الذي طالما شارك في الطروحات الأدبية والدينية في ما له علاقة بمجتمعه المحلي والعربي والاسلامي والدولي الذي يقوم به أمثاله من الكتاب والأساتيذ والمثقفين في إحداث مستوى قوي من التفكير الاجتماعي لمواجهة التحديات أو العراقيل أو المثبطات في الحياة الاجتماعية الحديثة بإيمانٍ وإحسانٍ ووعيٍ وتفهم لذلك كله. إن الجانب المادي لا يكفي إلا ومعه القوة الذاتية ورباطة الجأش وحسن التصرف والإيمان العميق والثقة المستقرة في الدواخل.. دواخل المجتمع لصلاحه وتأصيل فعله وتفعيل القدرات المعنوية والتربوية والعلمية والثقافية، وهذا ما ركز عليه أمثال أحمد جمال، وأراده لمجتمعه أحمد جمال نفسه، عليه رحمة الله، وبالذات في هذا الكتاب «مجتمعنا كما ينبغي أن يكون».

وفي مثل هذه الاجتماعيات كتابه «نحو تربية إسلامية» وإن يكن تربوياً بحتاً فهو تمهيد لعلم التربية الإسلامية الذي يراد منه تعليم النشء والشباب في ظل المنهج الإسلامي الأمثل في

هذا المجال؛ أطفالاً وصغاراً ذكوراً وإناثاً، بنين وبناتٍ. كما أن الاستاذ جمال شاعر له ديوان "الطلائع" أصدره في صدر شبابه ثم أصدره بعنوان "وداعاً أيها الشعر" زهداً وتفضلاً. وقد أصدره نادي مكة الأدبي الثقافي في سنة ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م. ولغة شعره متينة، وأسلوبه سلس وأفكاره صافية وحواشيه بديعة دالّة على الأدب والإبداع. ومن آثاره الأدبية كتابه «ماذا في الحجاز» تناول في صفحاته التعليم والأدب في الحجاز؛ تراجم ونماذج أدبية. كانت طبعته الأولى في سنة ١٣٦٤هـ-١٩٤٥م. أما طبعته الأخرى ففي سنة ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م والناشر دار الثقافة بمكة المكرمة.

حسين سرحان

هو أديب ظريف ساخر، وكاتب نثري ساحر البيان، وشاعر عملاق فحل، وتعود فحولته إلى عروقه العربية البدوية الأصل، حيث يغترف من بحر، وينحت من صخر.

عرفته أم القرى بشاعريته الإبداعية الثرة، وعبقريته اللغوية: نثراً وشعراً، وإليه يرجع الشعر الغزلي الساحر، والسخرية والعناد المعنوي في القول عموماً.

درس في "الفلاح" بمكة؛ فكان من أنجب تلاميذها، واطلع كثيراً في كتب القدماء، كابن المقفع، والجاحظ، وابن قتيبة، وقرأ واستظهر دواوين امرئ القيس، وزهير، والنابغة، والمتنبي، والمعري، وابن الرومي، التي شكلت تراثاً أدبياً عبقرياً في نواة مكتبة حسين سرحان المنزلية العظيمة، فحفظ كثيراً من نثرهم وشعرهم، واستفاد وعياً من فصاحتهم وبلاغتهم، فكان نعم القارئ للنثر، وخير الحافظ للشعر، وأحسن واع لهما.

نشأ على الأصالة في البلاغة العربية، والبيئة البدوية في ربوع الحجاز، ولعله تعلق بنجد واليمامة، وأولع بشعرهما ولعاً هائماً، وكأني بحسين سرحان وهو يكتب عموده الأدبي في الملحق الثقافي بجريدة (الرياض) قبيل وفاته، كأني به ينشد قول الشاعر العربي:

دعاني من نجد، فإن سنينه ... لعبن بنا شيباً، وشيبننا مردا

ولكنه أصر على الكتابة في صحيفة (الرياض) يبث ما بنفسه من الخواطر والأشجان، ويتشكى، ويعبر عن ظلامته في الحياة، وشكواه من الزمان.

ويبدو أنه عانى نفسياً من مشكلات هذه الدنيا، مع حبه لها فآثر الانطواء والعزلة والبعد عن الأضواء الفنية والإعلامية والأدبية، فكان لا يلقاه الصحفي أو الإذاعي أو المحاور التلفازي إلا بصعوبة.

يقول في ديوانه "أجنحة بلا ريش":

لا شيء يُغرينـــــي بأبهاجـــــهِ ... مللـــت هـــذا العـيش كـلّ الملـــل

مـا وقعـت عينـي عـلى مونـق ... إلا ومجتـــــه رخيصــــاً مــــذل

نسـخاً ومسـخاً كلـما أبصـرت ... حسـناً أعادتــه دمـيم الخــلال

أصـبح إحسـاسي مريضـاً عـلى ... عكس يرى في الصّاب طعم الـزلال

أشــتهّهُ حتـــى إذا مـــسَّ مــن ... قلبـي مكانــاً عــاد مثـل النصـال

مذاقـــــهُ يُحمـــــدُ لكنَّـــــه ... أذمُّ مـــا كـــان، ذمـــيم الفعـــال

ثم يقول في نفس المعنى والمسار:

لقـــد مللـــت العمـــر الملفقـــا ... مللتـــه فـــلا تـــزدني رهقـــا

أسـعد حينـاً ثـم يبلـوني الشـقا ... حتى أرى في الثلج ما قـد أحرقا

وفي المـوامي الفـيح مـا قـد أغرقـا ... تناقضــاً لـــيس لـــه مـــا سـبقا

فهي معاني عميقة في مصدرها الشعوري الذي أحس به الشاعر خلال حياته الدنيوية وحيثما كان في الحل والترحال فهو ملول الحال وفي ديوانه" شجون لا تنتهي" يقول:

يا دروب الهـوى تغطيت بـالورد ... عـلى الشـوك، غارقـاً في الـدماء

الضحايا –من تحته– مهجٌ حرى ... ومـــن فوقــــه رؤى شــــعراء

هكذا أنتِ والمحبّون – من قبلُ ... فـــــراشٌ مســـــيّرٌ للفنــــــاء

رحلةٌ تُثمر اللغوب، وخيطٌ من ... حريــــر، يقتادُنـــــا للشــــقاء

وشـــجونٌ لا تنتهـــي، وصراعٌ ... يســحقُ الصـبر، دائـم الغلــواء

الحجـى فيــه حـــائرٌ في ظـلامٍ ... والأمــــاني مـــؤودة الأصـــداء

وقريبٌ من هذا المعنى قوله:

تعبــت في المســير أقــدامُ قــوم ... أزجت العمر كالضحايا الطريدة

أي نـــار لم يصـــطلوا بلظاهـــا ... أي لحـــنٍ لم يســـأموا ترديــده

كـل مـا جـد مـن مرير وحلـو ... طعمـوه ثـم اسـتلذوا جديـده

ثــم دار الزمــان حتـى طـواهم ... قــدرٌ مـــا يـــزال يُمـــلي نشـيده

كـل امـرئ يفنـى وتبقـى أمانيـه ولـو فـاز بالحيـاة الرغيـده[1]

وعلى هذا المنوال سار حسين سرحان في دواوينه التي تحمل الشعر العاطفي والشعر الرومانسي الذي أحسنه ولكن بأسلوبٍ قوي المأخذ والتناور كما رأينا في أشعاره السابقة.

وقد طلب مني الأستاذ علوي طه الصافي مرة، عندما كان يرأس تحرير مجلة (الفيصل) أن أجري مع السرحان لقاء أدبياً وثقافياً وشعرياً، فذهبت إلى دارة حسين سرحان بالملاوي المعابدة بمكة المكرمة، وكان ذلك عشية يوم من صيف عام ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، فجلست إليه بعد التحية مني، والترحيب منه، وقرأت عليه أسئلتي، فو الله ما أجاب على كل سؤال إلا بسطر أو سطرين فحسب وكنت أتعشم منه بإجابات فياضة، وبكلام نثري مرسل، لكنه لم يفعل.

ولما أبلغت الأستاذ علوي الصافي بما عثرت من الإجابات السرحانية المقلة أجابني قائلاً عبر الهاتف: «دعه، فإن الأستاذ السرحان رجل عنيد»!!.

ومن طبيعة الشعراء أنهم ذوو آمالٍ وأماني عريضة في الحياة التي يعيشونها بالشعر والخيال والأمنيات اسمعه يقول:

اسمعي اسمعي حفيف غصونٍ لطمتهـا الأريـاح لطـماً عنيفـا
إنهـا تبتغـي الربيـع الـذي ولى وألقـى عـلى ثراهـا الخريفـا
فهـي تبكـي بحرقـةٍ مثلما يبكـي أليـفٌ -بعـد الفـراق- الأليفـا
كلّ غصنٍ منها ينوح كـما ناحـت بنـاتُ الهـديل نوحـاً خفيفـا
ودَّ لـو مـن سـمائه يتعـرّى مثـل أفعـى تنضـو الإهـاب الكثيفـا
إن هذي الأيام لا ترحم الغصـن إذا مـا اغتـدى رشـيقاً لطيفـا
وهبتـه الحيـاة ثـم نضـت عنـه الهـوى والشـباب والتفويفـا
وهـو أولى برحمـةٍ مـن جبـالٍ جامـداتٍ تحسـو النعـيم صـنوفا
لا تنـاجي ولا تـرد صـدى النّجوى ولا تحمل الفـؤاد العطوفـا[2]

---

(١) نقلاً عن شعر حسين سرحان لأحمد المحسن.

(٢) ديوان الطائر الغريب.

وفي إحدى المرات تذكر فكرة أثيرة عليه ومُحببة إليه فصاغ ذلك شعراً يقول فيه:

لقد نسي العهد الذي كان لا يُنسى ... فتى بات لا يبكي عليه ولا يأسى
وما جلدٌ أنساه عهداً محببا ... ولكنه همٌ على قلبهِ أرسى
كأنّ الأفاعي جُثمٌ في طريقهِ ... إذا ما مشى أو رُصّدٌ كلّما أمسى
فتاةُ يرف الحسن في قسماتها ... فتبدو به بدراً وتطلعه شمسا
وما البدر والشمس اللذان نراهما ... سوى من عشقنا واستطبنا به الأنسا
يُذكرنا منه ومنهما سناهما ... أفاويق وصلٍ أو كؤوس هوىً تُحسى
لقد مد حبل الودّ بينهما مدّى ... فقرَّ بها عيناً وطاب بها نفسا
تمتع منها ثم ألقى رميمها ... إلى الرّمس أحبب بالذي سكن الرمسا
وكيف يذود الموت عنها وإنه ... لمرتقبٌ يوماً يُماثله نخسا
فيالك من حولين حولين كالمبنى ... وكالفجر تندى أعطافه ورسا
غفا زمني فيها كإغفاء مُجهدٍ ... فأمست حواشيه منظرةً ملسا
ولما صحا كان ادّكاري وصبوتي ... وحُبي خيالاً لستُ أثبته حدسا

ويمضي في حبه هذا لتلك الفتاة معبراً عن شجونه وما يعانيه فيقول:

أأيتها المُلقاةُ في قاعِ حُفرةٍ ... من الأرض لا تبدي لمستمع جرسا
كليني لهمّي قد خلوت من الهوى ... تقاضيت في استبداله الثمن البخسا
وأدت شبابي وهو في أوج روقه ... وأسلست من غلوائه النفر الشمسا
تشبثت بالسلوى وكنت أذمها ... فقد طمست بيني وبين الهوى طمسا
فبي من هموم العيش ما قد يذودني ... ويشغل عنه الذهن والقلب والحسا
عذتني عن الذكرى همومي وأغلقت ... منافذ من سمعي لمن لجّ بي همسا
وما ينفع الجسم المرمّ بقبره ... وفاءٌ ولا يستشعر السعد والتعسا
وفي الهوى أو من يخون كلاهما ... إلى غاية ذاقا النعيم أو البؤسا
فإن كان غرسي صوّحت زهراته ... فإني لمعتاضٌ بأمثاله غرسا

وهي وإن كانت ذكرى حبيسة الفؤاد إلا أن الشاعر يبديها هنا ويكشف عن ستارها قائلاً:

أكنـتُ أمينـاً؟ أيـن منّـي أمانـةٌ؟ خؤونـاً؟ فـإني لم أخـن زمنـاً خلسـا
مضى كالرّؤى تستغرق الطرف لحظةً وتقصـي النـوى إمـا تَقَرَّيتهـا لمسـا
لقـد كـان عهـداً كـل عهـد مناحـة بجانـب عهـدٍ بـزّ في طيبـه العرسـا
خذيني على العلات -صاحبتي- فلو وفيت إذن لازددت في صبوتي مسّا
لقـد كـان ذاك العيش مغنى صبابةٍ فوليـت عنـه ثـم غادرتـه درسـا

ويرسم الشاعر هنا صوراً من حبه الذي يُكنه لصاحبته صبابةً وشوقاً وحُباً فيمضي إلى أن يُنهي هذه الذكرى المنسية بكل ما أمكنه من التعبير الجميل عن حبه النبيل.

وفي التأملات والآراء والأفكار له شعرٌ حسن كقوله عن الشعر:

الشعر يبعث في الأرواح عاطفة كبرى ويـذكرنا بالغـابر المـاضي
يهدي النفوس على النهج السواء فلا تـرى مـن الغـي إلا شـبه أنقـاض
إن ردد الشـعر شـادٍ بـات يـذكرنا عـزم القلـوب لآمـالٍ وأغـراضِ
إن كـان للشـعر ذل بـالغٌ فـإنما بـه -وإن جبنـت آسـاده- راضي

فالشعر شعورٌ وتعبيرٌ عن هذا الشعور ومع ذلك ساقه الشاعر نظماً في فكرته ورأيه وتأمله.

ثم يقول عن الله جل جلاله:

الناس لو فكروا فيما يرون على وجه الوجد من الآيات والعبر
قالوا إذن: جلّ بارينا وخالقنا سبحانه صاغنا في أبدع الصور
كم قد رأينا من الآيات ظاهرةً لكن بأفكارنا ضربٌ من الزور
رُحماك إنا على الإيمان ثابتةً قلوبنا لو رأيت الفكر في بطر

وهذا تصورٌ للإيمان والعقيدة جدٌ رائع الشيء الذي يدخله في شعر التأملات والآراء والأفكار. وشعر التأملات ليس بغريب في شعرنا العربي القديم منه والحديث وذلك مثل ما نعرفه في شعر أبي تمام والمتنبي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم فقد قال هؤلاء في التأملات شعراً.

ومن طريف ما قاله شاعرنا حسين سرحان قوله في ابن جلاّل:

الأمر لله لا لي يا ابن جلال ... ما كان يخطر لي (شيني) على بالي
فكر إذا كنت شين الوجه هل ... يداك في خلق أعضاء وأعضال؟
وإن تكن شين خلق هل يسرك أن ... تعتاض أثواب أجواد ببخّال؟
هل كان ذلك من وكدي وهل ... بذاك نفسي.. وهامت فيه آمالي؟
وإن تكن تبتغي نهج الهدى.. فعثت ... بك الرياح فأمسى نهج ضلاّل
صلحت نيّة نفس فانبعثت بها ... قسراً بأحبط أقوال وأفعال
ماذا تحاول؟ هل يختار من قصدت ... يداه أيسر حالٍ عسر أحوال؟
الناس أجمع حيرى لا ضياء لهم ... في ظلمة ذات أغوال وأدغال
الشمس أكسف من عينٍ على رمدٍ ... والبدر يرقل ذعراً أيّ إرقال
لا يستقر بأعنان السماء ولا ... يبهي لحلال أقوام وقفّال

ويمضي قُدماً في مخاطبة إبن جلاّل مُصارحاً إياه بعد كلمته: أنت شين:

والشهب في الجو – مثل الماء أخيلة ... موهومةٌ فهي تسعى سعي أوعال
فكيف يرغب إنسانٌ على مقة ... لنفسه شقو آبادٍ وآزال؟
في (العقل) شيءٌ عجيبٌ لست أفهمه ... فقد يؤدي إلى ما لا يُؤَدَّى لي
كم رمت حلّ أمور ثم (أعقها) ... عمداً بأشنع ضغث فوق إبال
وكم توخيت عدلاً فانقلبت (به) ... جوراً إلى جرفٍ في الرمل منهال
والعقل مشترك ما بين عاطفةٍ ... تصبو.. وعزم يخوض البحر كالآل
فأنت بالعقل أو بالنفس ممتهنٌ ... أي امتهان جهولٍ بين جُهّال

فأنت ترى هذه المقاطع موزونةً تلقائية لأنه قالها شاعرٌ بالظلم من ابن جلال حين اتهمه بالشين فما كان من الشاعر إلا أن رد عليه رداً شديداً قاسياً نوعاً مّا.

ونمضي مع شاعرنا وهو يرثي زميله الشاعر حمزه شحاته بعد أن سمع نعيه فقال:

ليس يومي عن يومه ببعيد ... كم قديم حكى رواء الجديد
كان أزكى مني فذاذة قلب ... وبقايا مني وطيب عهود

عبقـــري الـــرؤى فريـــد المزايـــا ... راســـياً مثـــل صـــخرةٍ صـــيخود

يـــا أليـــف الأحـــلام يـــا ردة الغـــائص ... يـــا فلتـــة الزمـــان الشـــرود

كـــم تمنيـــت أن تكـــون تـــوأمي ... في نحـــوس موصـــولة وســـعود

ثـــم غربـــت حيـــث شرق روحـــي ... في مكـــان مـــا كـــان بـــالمهود

أفأنســـى لســـانك العـــذب يســـمو ... بطريـــفٍ مـــن فكـــره وتليـــد؟

والرفيعـــات مـــن معـــان حـــوالٍ ... ســـاخرات... شـــتيتها كالنضـــيد

ولقـــد تـــزرع المنـــى ثـــم تلغـــي ... درســـاً.. بـــين قـــائم وحصـــيد

إن نحبـــاً وإن تـــأخر هـــو النحـــ ... ـــبُ غـــير الكـــريم والمحســـود

ضُـــلّةٌ للحيـــاةِ نســـعى إليهـــا ... خُسّـــراً بـــين أكبـــلٍ وقيـــود[1]

ثم يتذكر وهو في مرثاته لحمزة أحباءهما من الشعراء والأدباء الذين خلوا من قبل فيقول:

وأحباؤنـــا القـــدامى مضـــوا وفـــ ... ـــداً تتـــالى إلحاقـــهُ بوفـــودِ

عمـــرك الله كيـــف يتفـــق اللفـــ ... ـــظُ ومعنـــاهُ فيـــه غـــير أكيـــد؟

لا يحـــولن بعـــد عـــاميَ حـــولٌ ... لا ولا أغّـــــرين بالتمديـــــدِ

قد خلا الروضُ من صحابي وتاهتْ ... ســـبلي حـــين ضـــل فيهـــا رشـــيدي

يـــا نجـــوم الـــدُجى، أفيكن نجـــمٌ؟ ... حيـــثما أرتمـــي يكـــون شـــهيدي

زخـــرت حـــولي المعـــاني ولم أظفـــر ... عـــلى وفرهـــا ببيـــت القصـــيد

فهذه المرثاة ملأى بالعظات والعبر الأدبية التي بثها سرحان خلال أبياتها ونادراً ما نلقى أو نلتقي بشعراء أمثال حسين سرحان وحمزة شحاته وحسين عرب ومحمد حسن عواد الذين شادوا قصورهم الأدبية والفنية بالشعر لغةً وأسلوباً وبلاغةً وبياناً.

---

(١) شعر حسين سرحان لأحمد المحسن ص٤٧٤ الناشر نادي جدة الأدبي.

والذين بلغوا هذه المنزلة من الرواد بل إنما بلغوها بمواهبهم وقراءتهم وحفظهم للنصوص البلاغية ومن ثم أدركوا كيف يحتذونها بحسب المقدرة والموهبة والاطلاع.

واستمع إليه وهو يُلقي تحية شعرية لسمو ولي العهد سعود بن عبد العزيز آل سعود "ملك المملكة العربية السعودية سابقاً" يقول حسين سرحان:

حي الأمير اليعربي المجتبى	وانشر عليه المدح ثوباً مذهبا
رب الحسام إذا تلألأ متنهُ	وأراغ مرفض الدماء لا يشربا
أرويته وأنلتهُ ما يشتهي	لا أنت تغمده ولا هو قد نبا
أنت الغيام، وكأن برقاً صادقاً	فاضرب به ماكان برقاً خلبا
الحق يبعد عن أنامل طالبٍ	حتى إذا حمل الحسام تقربا
سقياً له من مسعف لصديقه	ومسهل من أمره ما استصعبا
يا آل مقرن ما يفي بحقوقكم	شعب إذا سيم الهوان تنكبا
أيقظتموه من عميق سباته	حتى انتحى بين المذاهب مذهبا
العرب، تعمل ما تقول فخل من	شاء التمهل أن يقول ويخطبا
أنتم لهم كالتاج فوق رؤوسهم	تاج لعمرك ما أعزَّ وأرهبا[1]

وهذه الأبيات الشعرية تحفيزٌ فني من خلال الشعر وليس من خلال الفكر فهي تعبر عن تقدير الشاعر لهذا الرجل العظيم الذي تولى من بعد مُلكَ المملكة العربية السعودية وسار بها إلى الرقي والتقدم.

على أن سرحان له ذائقةٌ شعريةٌ قويةُ المزاج وعذبة المذاق بحيث يستطيع أن يتحدث شعراً كلما أراد ذلك انتقاء منه للعبارات البليغة ذات الحشو اللغوي الذي يعتمد على البيان والمعنى والبديع.

---

(١) نفس المصدر ص٤٦١.

إن حسين سرحان شاعرٌ فحلٌ من شُعراء الحجاز المعاصرين المحدثين الذين أمسكوا بالأدب والشعر والفن ليكون واحداً من هؤلاء الشعراء الفحول فاستطاع أن يكوّن لهذا الأدب جزءاً من التاريخ الشعري والفني الحديث.

كما اقتدر واستطاع تكوين جو من الشعر العمودي الذي يتمسك بالتقاليد الشعرية القديمة لكنه ليس مُقلداً بالمعنى الظاهر وإنما كان مُتمسكاً بأصول الشعر العربي وعموده الجزل الذي سار في ركابه الشعراء الأولون والمتأخرون.

وله شعرٌ وصفيٌ جميل تعبر عنه خطراتٌ ومشاعرٌ، يقول في الربيع:

في خرير الجداول ورفيف الأصائل

ووضوح الدلائل وصياح البلابل

تجد الفكر سامياً تجد الروح ناميا

آه والقلب ويلتا تجد القلب داميا

فإذا ما أتى الربيع وزُفّت بشائره

وبدا فجره الجميل وزفّت أزاهره

فهناك الحياة يزخر منها خضمها

كل من دبّ كل من هبّ أضحى يؤمها

أشرقت شمسها فكل مكانٍ تظله

وسرى بدرها فكل فؤادٍ يجله

حببت للأنام وهي حياةٌ متبه

ما بدا غير لفظها والمعاني محجبه

كل شيءٍ مُسير كائنٌ من طبيعته

فاسعدوا بالحياة واشقوا وغنوا وعربدوا

واعلموا بعد ذاك إن التلاشي مؤكد[1]

---

(١) شعر حسين سرحان لأحمد المحسن.

وكما ترى هنا فالوصف شاملٌ لفصل الربيع الذي يحلُ في الأرض والجو ويجعل من ذلك جنةً خضراء ومزارع يعمها الرواء الشيء الذي يعبر عنه الشعراء في مثل هذا الوقت من السنة.

ولا بأس أن نمُر بقصيدة عن الأطلال بعد الربيع حيث يقول:

أين أفناؤهم، وأين المغاني ... طمستها نوائب الحدثان

لا بنجمِ هوى، ولا انصدع ... ولا بالمزون جد رزان

لو فراقٌ أجدَّ بعد تلاقٍ ... أو بعادٌ ألحّ بعد تدان

ما مضوا كل غايةٍ تحتويهم ... مجتواة إلى العيون الرواني

زلق نهجهم تنوش الثريا ... منهم ما رمى سهيلُ اليماني

غير أن الحياة نكداء، ما تمضي ... بساعٍ ولا تخفّ بوانِ

أنت منها على النقيض إذا رمت ... الليالي أين منها الثواني

وأنت كما ترى وصف الشاعر هنا لأطلال الأحباب الذين غادروها ويعبر عن أثارهم فيها كما يقول بعد ذلك:

جيرة العمر دورهم صدد بين ... قرينَي هوى رضيعي لبان

كم توافوا على سراة أديم ... جامعٍ منهم شتيت المكان

نشأوا فيه رتعاً واستراحوا ... في ثراه كالطير في الأكنان

كلما ثار تربه حسبوه ... أَرجَ المسك أو شذى الريحان

وإذا سافروا وعادوا إليه ... فاض جم الهوى غزير الحنان

قلبه قلب عاشقٍ وهو معشوق ... فسقياً لطيِّب الأوطان

لو تزور النجوم أترابها لم ... تكُ أحلى من زورة الجيران

الصبايا مع الصبايا على البر ... وفتيانهم مع الفتيان

وإذا رابهم من الأمر ريب ... وقسا الدهر بعد طيب لبان

أجمعوا أمرهم وشدوا على ... اللأواء منهم خناصر الأيمان

وكان -رحمه الله- قارئاً متابعاً لما تبثه وسائل الإعلام الثلاث: الإذاعة، والتلفاز، والصحافة، فهو يستمع محمد حسين زيدان -في الإذاعة- برنامجه اليومي "كلمة ونص" ويقرأ له "تمر وجمر" ويشاهد في التلفزيون التمثيليات اللبنانية التي تبث بالعربية الفصحى، وهو يقرأ في الصحف لعزيز ضياء عموده في "البلاد" (نشر وطي) كما يقرأ قصائد محمد حسن فقي ورباعياته في صحيفتنا الغراء (المدينة) كما يقرأ في الأهرام والأخبار المصريتين.

وكان يجلب الكتب من مصر مراسلاً أو موصياً، كما كان شباب الأدب والشعر في جدة ومكة يوصون السيد الوراق أحمد الحلواني أن يجلب لهم أعداداً من (الرسالة) لأحمد حسن الزيات، و(الثقافة) لأحمد أمين، كما يطلع على إصدارات محمد حسين هيكل، وأحمد لطفي السيد، وسلامة موسى، ويعقوب صروف، وغيرهم من أدباء القطرين المصري والشامي، وكذلك من لبنان.

ومرة كنت عنده -لأول لقاء بيني وبينه- فلما عرفته بنفسي قال لي: تعرف الأديب الحضرمي الذي يقرأ بنهم؟ قلت له: من تعني؟ فعرفت -بعد- أنه يقصد الأديب السعودي الحجازي المكي الكبير محمد سعيد العامودي.

رحم الله حسين سرحان شاعراً فحلاً عظيماً -وبالأخص- حينما يطرق بابي "الغزل" و"الإخوانيات" واقرأ له في شعره بالصحف وديوانه "أجنحة بلا ريش" فستجد ذلك حقيقاً وصريحاً، وكذا كان في نثره بليغاً فصيحاً.

وقد كان محباً لشبيبة الأدب وشيوخه وكهوله بخاصة حين يتتبعهم في الصحف، كأن يقول عن عمود (ظلال) للأستاذ عبد الله عبد الرحمن الجفري، إن صاحبه فيه بقية من الطفولة، وكان ذاك في أوائل السبعينيات الميلادية.

ولد حسين بن علي سرحان بمكة المكرمة سنة ١٣٣٢هـ وتلقى التعليم الابتدائي في حي المعابدة ثم في المسجد الحرام على يد الشيخ محمد العلي التركي. ألمّ في ذلك بالفقه والتفسير والفرائض وعلوم اللغة العربية وآدابها ثم انتقل إلى مدرسة الفلاح وبقي بها لمدة عام ونصف العام وترك المدرسة وهو في الصف السابع الابتدائي سنة ١٣٤٩هـ. وصفه الأستاذ محمد علي

مغربي قائلاً[1]: بدوي الطلعة، أصفر الوجه، نحيف البدن، كبير الرأس أقرب إلى القصر منه إلى الطول تبدو على ملامحه سيماء الشموخ لكنه ليس بالمتعالي بل لا يحفل بما تعارف عليه الناس من احتفاء بالمظاهر والإكبار للمناصب، فهو يعيش في دنيا خاصة من أفكاره.

قرأ حسين سرحان كتب اللغة العربية وآدابها ودواوين الشعر العربي قديما وحديثاً، فصقل موهبته الشعرية بقراءة هذا التراث العربي الإسلامي بداية من امرئ القيس إلى حسان بن ثابت إلى الفرزدق وجرير فأبي تمام والبحتري والمتنبي ومحمود سامي البارودي وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم في الشعر، ثم كتب الأدب للجاحظ والثعالبي وابن عبد ربه وابن كثير وابن الأثير إلى الشدياق والبستاني والرافعي والمنفلوطي وأحمد حسن الزيات ومارون عبود وسواهم من الكتاب والأدباء في القرن العشرين الميلادي.

ولا شك أن حسين سرحان قد صقلته هذه الاطلاعات والقراءات، صقلت من تفكيره وموهبته واطلاعه فقال الشعر مبكراً والنثر الأدبي كذلك، عمل رحمه الله في وظائف حكومية مختلفة بمكة المكرمة حيث راسل باسم التحرير في مطابع الحكومة إحدى عشر سنة من عام ١٩٦٢ حتى أحيل للتقاعد ١٩٧٣. وقبل هذا التاريخ كان له علاقة وثيقة بالصحافة شاعراً وكاتباً وقاصاً في أم القرى وصوت الحجاز والبلاد السعودية والمنهل والرياض. ولقد كان واسع الاطلاع وله مكتبة عامرة وزاخرة بأمهات كتب التراث القديم والتراث الحديث جاء في قاموس الأدب العربي الحديث[2] لمحرر ترجمته الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الحيدري قوله: وهو شاعر محافظ لكن ذلك لم يمنعه من التحليق في آفاق النفس ونوابض الحس. وهو من أصدق الشعراء تعبيراً عن مشاعره ووجدانه. ويعد حسين سرحان من أوائل المجددين في المضامين للشعر السعودي، وله صوته الخاص الذي يجمع بين قوة الشعر القديم وجزالته ورقة أشعار المدارس الحديثة وسهولتها خاصة الرومانسيين في الشعر أما شعره فمعظمه في إطار الذاتية والوجدان وكثير منه يتناول قضية الحياة والموت ومصير الإنسان ولا يخلو شعره من

---

(١) "أعلام الحجاز" محمد علي مغربي.

(٢) "قاموس الأدب العربي الحديث" د. حمدي السكوت.

الرمزية خاصة في قصيدتيه "الدودة الأخيرة" و"الحديثة" ويحفل شعره بنزعة من التأمل والخطرات الفلسفية وتصطبغ بعض قصائده بالحزن والأمل؛ حيث تستحوذ عليه فكرة الموت على كثير من أشعاره.

وذكر محمد علي مغربي أيضاً: كان أبوه على حسن سرحان من حاشية سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز النائب العام لوالده الملك عبد العزيز في الحجاز ملك المملكة العربية السعودية فيما بعد. وكان يسكن في محلة المعابدة وهي محلة بظاهر مكة المكرمة تتميز بالسمات البدوية لسكانها الذين يأخذون بأسباب الحاضرة ومظاهرها ويحتفظون في نفس الوقت بإباء البادية وخشونتها. وكان جده عمدة لمحلة المعابدة وكان في نفس الوقت يتجر في الماشية وله أغنام يشرف على رعيها وبيعها، ونشأ الشاعر في هذه البيئة البدوية فمارس في صباه ما كان يمارسه جده وتمارسه القبيلة من رعي الأغنام والاتجار فيها بيعاً وشراءً. وكان جده لأمه عبيد الله بن سرحان ينتجع الرصيفة وهي في الجنوب الغربي لمكة فيقضي مع أسرته ومن يلوذ بهم شهوراً عديدة يصيفون بها. وقد استمر يحيا هذه الحياة البدوية معهم إلى ما قبل البلوغ بقليل ووجد الوقت أمامه فسيحاً للقراءة والاطلاع والتفرغ للأدب والشعر.

وفي عام ١٣٦٢ وحسين سرحان في الثلاثين من عمره التحق بأول عمل رسمي له فقد دعاه الشيخ عبد الله السعد ليعمل في فرع مصلحة اللوزام العامة بالطائف ومن اللوازم العامة انتقل إلى الإدارة العامة بوزارة المالية بوظيفة سكرتير سنة ١٣٧٠هـ. ويقول الأستاذ المغربي: وربما كان لصفته الأدبية دخل في اختياره هذا العمل. وبعد العمل في وزارة المالية انتقل إلى إدارة شؤون الحج تأثراً بصديقه الشاعر الأستاذ أحمد قنديل، فقد كان القنديل مديراً لشؤون الحج ثم انتقل إلى مشروع توسعة الحرم المكي الشريف وبعدها إلى مطبعة الحكومة كما سبق ذكره.

لم يحقق حسين سرحان في عمله الوظيفي ما كان خليقاً بمثله أن يحققه كالمركزية ونباهة الذكر وخفض العيش فلم يكن مهيئاً للعمل الوظيفي ولولا نظرة كريمة من أولي الأمر نحو حالته لعاش عيشة فقر وبؤس فقد أكرموه أكرمهم الله بزيادة راتبه التقاعدي وبقضاء دين لحقه حين بنى بيتاً كما يقول الشيخ حمد الجاسر.

أما مؤلفاته الشعرية فهي ديوان "أجنحة بلا ريش" وديوان "الطائر الجريح" وديوان "الصوت والصدى" وله في الأدب مجموعة مقالات أصدرها النادي الأدبي بالرياض في كتاب، وكتاب "الأدب والحرب" مجموعة مقالات أصدرها النادي الأدبي بالطائف. ويقول الأستاذ المغربي إن هناك مجموعة أخرى من المقالات والقصائد يجري إعدادها للطبع.

قلت: ثم جمع آثار حسين سرحان النثرية تصنيفاً ودراسة الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الحيدري سنة ١٤٢٦هـ الموافق ٢٠٠٥م في ثلاثة مجلدات، ويقول هذا الدكتور: إن إنتاج حسين سرحان النثري يفوق ٣٠٠ مقالة وقصة. وتقديراً لمكانته الأدبية كرمه نادياً مكة وجدة الأدبيان وأطلق اسمه على أحد الشوارع في مكة المكرمة وكتبت حوله وحول أدبه رسائل ماجستير ودكتوراه في جامعات الأزهر والملك سعود والإمام محمد بن سعود. ويراجع ذلك في معجم المطبوعات العربية لعلي جواد الطاهر، والموجز في تاريخ الأدب السعودي لعمر الطيب الساسي، وشعر حسين سرحان دراسة نقدية لأحمد بن عبد الله المحسن، والمقالة في الأدب السعودي الحديث لمحمد عبد الله العوين.

توفي حسين سرحان يوم الثلاثاء السادس من ذي القعدة سنة ١٤١٣هـ عن ثمانين عاماً وفقدت البلاد بوفاته شاعراً كبيراً تميز من بين شعراء المملكة العربية السعودية بأسلوبه الذي هو جزل بليغ وكان سرحان بذلك نمطاً فريداً بين شعراء عصره تغمده الله بواسع رحمته.

إبراهيم أمين فودة

هذا شاعر وأبوه شاعر وابنه شاعر لكنه مُحبٌ في شعره لقول الحكمة والتجربة الحياتية والقول الحكيم.

ولد شاعرنا إبراهيم أمين فودة سنة ١٣٤٢هـ الموافق لسنة ١٩٢٤م بمكة المكرمة التي درس في مدارسها وكان أبوه الشيخ أمين فودة أستاذ إبراهيم الأول حيث علمه ودرّسه وجعل من موهبته شاعراً حاضر البديهة عميق الحكمة مُفكراً وفيلسوفاً، وكان الشيخ أمين مديراً عاماً للمعارف في بداية تأسيس المملكة العربية السعودية حيث نشأ الابن إبراهيم على يد والده الذي كان يمتلك مكتبةً حافلة بالتراث والعلم والفقه والأدب والشعر والتأريخ.

ثم درس بالمعهد السعودي وبعد تخرجه من التعليم اشتغل إبراهيم فودة بالعمل الحكومي في وزارة المالية ثم مديراً عاماً للإذاعة بمكة المكرمة فاستكتب لها الأدباء والعلماء ليسهموا عبر هذه الإذاعة بكل مفيد وجديد.

بالنسبة لتجربته العملية الأولى سكرتيراً لمستشار وزارة المالية العام الشيخ محمد سرور الصبان. هذه التجربة علمته الإدارة والتنظيم والسكرتارية الإدارية حتى عندما بدأت الإذاعة السعودية في مكة المكرمة كان الشيخ الصبان هو المشرف العام عليها، فعين إبراهيم فودة مديراً لها.

وهو يعترف لأستاذه محمد سرور الصبان قائلاً: «وهنا يطيب لي أن أعترف بأستاذية واحدة عليّ في فن الإدارة لمعالي الشيخ محمد سرور الصبان -رحمه الله- أسجل هذه الحقيقة بامتنان وهو في غيبة عن عالمنا.

فماذا نريد من المعلمين أن يفعلوا لتخريج أجيال من الشباب تحمل رسالة العلم بقوة ووعي وأمانة ورضا؟ ذلك هو سر "المهنة" يكمن في ذات المعلم ثم ينتقل به إلى طلبة العلم على يديه، لذا أعرض في إيجاز صوراً من تجربتي مع أستاذي المشرف فإن مثل هذه التجارب

هي التي بنى عليها علماء التربية نظرياتهم وهي سُنَّة سلفنا الصالح التي أخذوا بها العلم خلفاً عن سلف وأحب أن أشير مقدماً إلى أن أستاذي قد لقي ربه قبل ثمانية وعشرين عاماً ليكون لبعض هذه الصور مفهومها الكامل إلى زمانها وسأحلل على ضوء هذه الصور "إكسير سر المهنة" لأحونه إلى مواده الأولية».

وذكر من هذه المواد (العلم غاية، والعلم هواية، والعلم رواية ودراية، والعلم هداية، والعلم أمانة كذلك هو كرامة وفضيلة ورسالة).

ويُعجبك في هذا الطرح أنه يبدأ بأصول العلوم والتربية والتعليم والتأديب العلمي والتعليم الأخلاقي ثم يُحللها ويتحدث عنها معاني وغايات ووسائل وأهدافاً.

وهذا في الحقيقة هو إضاءة أو إضاءات نحو طلب العلم أو تعليم الطلاب الذين بدؤوا دراساتهم وانتظموا في التعليم العام سلوكاً وغايات وحركة فكرية وفسيولوجية لتحريك ذلك في كيان الطالب كي ما يدرك الهدف كما أنه يؤثر على المعلم الذي يقوم بتعليم هذا الطالب.

والجميل في هذا الموضوع أن المؤلف الأديب يؤرخ أحياناً في تلافيف هذا الحديث عن الأعلام وذكرهم ويتحدث عن فكرهم كذلك مثل ما فعل مع الصبان ومحمد علي زينل وحافظ وهبه وآخرين الذين ساهموا في تأصيل وتحقيق وإنشاء المدارس التعليمية والتربوية في البلاد العربية السعودية.

وكان الفودة شاعراً كبيراً تعلم نظم الشعر على يد والده وبالتالي استطاع ابن إبراهيم وهو حمزة أن يشق طريقه في دنيا الشعر والأدب كوالده وجده. كما أن هؤلاء الثلاثة ناثرون بالأدب والعلم والثقافة وأدباء فيها.

إن أردته في الشعر فهو شاعر وإن رغبت في نثره فهو كاتبٌ وأديبٌ ناثر، كاتب في ذلك كله وشاعرٌ في دواوينه الشعرية فكان الفيلسوف والمفكر الذي جمع بين الشعر والنثر، ولا أدل على ذلك كتابه الذي شمل حديثه إلى المعلمين، ومحاضرة المهمة الصعبة، والرياضة والهدف، والشاعر المُحسن جران العود النُميري الذي يُشبعه الشاعر فوده بحثاً عن شاعرية جران ونفسيته وعقليته وثقافته في البيئة، بيئة الجزيرة العربية وما حولها، وقد عرض بعض أشعاره في الخصومة والهجاء

والغزل والوصف في صورٍ شعريةٍ استحسنها المؤلف الفودة، كما استحسن لقب الشاعر المُحسن على جران والذي وصفه به فيلسوف المعرة وشاعر العرب أبو العلاء المُعري.

هذه البحوث أدبية الأسلوب فكرية الطرح فلسفية المضمون.

تحدث في "حديثه إلى المعلمين" في أصول التدريس والتربية التعليمية وقواعد الفكر العلمي.. هذه الأصول العلمية والتعليمية يدعو فيها إبراهيم فودة إلى تأصيل التعليم وتربية الشباب والنشء بالقدوة الحسنة في ريادة معلمة التربية والتعليم وعدم كتم العلم قليلاً أو كثيراً سيان والأمانة في أداء ذلك كله بالفهم والتدبر، وتحضير المعلم لدرسه بسعة الاطلاع والمطالعة الحرة ويستشهد على ذلك بحديث الرسول ﷺ حيث جاءه رجل يسأله: أي الناس أعلم. قال: من جمع علم الناس إلى علمه. وهل بعد هذا الجواب من دعوة إلى سعة الاطلاع ومداومة القراءة، وهل شيءٌ يدومُ مع طالب العلم يُعطيه استمرارية في مستواه الفكري غير ذلك فعلى المعلم أن يكون هذا شأنه وهذا وعيه يُلهمه إلى تلامذته ويوحي به إليهم.

أضف إلى ذلك المحافظة على قيم العلم وإخلاص النية في المعلم ليعلم مسؤولية العالم وتجريم العبث في العلم أو كرامة العلم والمعلم بلا غرور أو صلف أو ضلال لأن ذلك من العلم غير النافع والرسول ﷺ يدعونا إلى أخذ العلم النافع وترك العلم الذي لا ينفع، كما يجب على المعلم تحري الحقيقة العلمية وهناك دعوة في هذا البحث للفودة إلى البحث العلمي لالتقاط الآراء والأفكار والمعلومات والقيم العلمية والأدبية.

كما نجد في هذا البحث المطالبة بوضع المناهج التعليمية على النظام الديني والدنيوي والأدبي والعلمي والعملي والفكري والفلسفي بحيث تنتظم مسيرة التعليم وترشد مطالبه وتثمر أفعاله في أذهان الناشئة والأجيال الصاعدة.

كما يطرح الفودة في هذا البحث الدعوة إلى استخدام الوسائل التعليمية والتجارب التعليمية.

يقول الرسول العظيم.. "ليس الخبر كالمعاينة إن الله أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلقِ الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت". ولقد فهم رجال الحديث هذا النص على ما يدل عليه من إمكان الاستعانة بوسائل المَرْئيات والتجارب في سبيل تعزيز

النظريات العلمية وليس أدل على حساسية الفهم المبكر لهذا المعنى من وضعهم لهذا النص في كتاب العلم. كأنَّ تأثر موسى عليه السلام بمشاهدة الواقع أو المعاينة كان أشدّ وقعاً في نفسه من تأثره بالخبر على تصديقه. وعلى هذه الوتيرة سار الفودة في هذا البحث سيراً تربوياً ومعلماً لصوى المعرفة والعلم والأدب والثقافة وقيم ذلك كله.

أما البحث الآخر فعنوانه "المهمة الصعبة" أهداه إلى الإخوة والأبناء في الله المسلمين في كل مكان أقدم هذه المحاولة المتواضعة في مهمتنا الصعبة مفهوماً وتطبيقاً. يطرح من خلال ذلك موضوع الدعوة الإسلامية وهي الفكرة الدينية والإنسانية لمعرفة الحياة الدنيوية والحقيقة العلمية وعبادة الله فيها.

يقول الفودة: «إذا نظرنا إلى الحقيقة في صميم جوهرها وكريم معانيها وما ينبغي لها أن تكون عليه، مع الاحترام كله والتقدير لما هو كائن عملاً وأشخاصاً، فإنه لشرفٌ عظيم للإنسان أن يعطي الكلمة يقولها من فوق منبر رابطة للعالم الإسلامي ترتكز دعائمه على أرض أم القرى.

وإن الأرض كلها لله، خلقها وصنعها، فلا أفضلية للتراب ولكن التراب يتفاضل بما ينسكب عليه من المعاني، والله الذي خلق الإنسان من تراب يعلم "بسر الصنعة" حنينه إلى التراب، بل لقد أودع فيه من "جاذبية الأرض" ما يتداعي له بالطبع مهما تشامخ أنفه في الهوى، وبسر الحياة الكامن في التراب تتلاقى المخلوقات، حيواناً ونباتاً وجماداً بها يعمر هذا الكوكب.

هذا البحث المحاضرة التي ألقاها في رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في موسمها الثقافي للعام ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، مؤصلاً في ذلك ومنظماً للأفكار والمعاني والحقيقة الفكرية التي حللها في هذا البحث عن الدعوة، دعوة الإسلام الخالدة وعما يحتاج إليه المسلمون اليوم وفي كل يوم هو: الاتحاد "جنة الدنيا"، التي يحلم بها المسلمون في كل مكان. وكلما نزلت بهم طامة حاولوا أن يلملموا شملهم ويدخلوا هذه الجنة فإذا هم يقفون على عتباتها، لأن الشهادة التي يحملونها تجيز لهم الدخول، ولكنها لا تزيد بحال من أحوالهم عن درجة القبول، التي لا تعدو بهم أدنى درجات السلم، ولا تؤهلهم للمسؤوليات العليا، فإذا بهم يجدون الجنة قد

حُفَّت بالمكاره ويقفلون راجعين وعلى شفاههم ابتسامات لطف يردون بها شماتة الشامتين ويرضون بها عيون المحبين، وبين جوانحهم حسرة مهما اختلفت نسبتها في نفوسهم، باختلاف درجات الصدق في النفوس، في حسرة. ولكننا بعد ذلك لا نناقش الأسباب العميقة وإن ناقشنا الأسباب الطافية على السطح، ومن ثم لم نكن قد عرفنا حقيقة الداء. وحتى حين نحاول له دواء فإنه سيكون نوعاً من المراهم الخارجية قد تعالج الأطراف والجلد والحساسيات ولكنها لن تعالج الأمراض الباطنية المستعصية.فالمسلمون يحاولون أن يعالجوا مشكلة اتحادهم على مستوى القمة ومستوى الدول ومستوى الحكومات ومستوى السياسة، وهم بذلك كالذي يحاول أن يبني البيت من أعلى طبقة في المخطط. ولو حاولوا أن يبنوا البيت من القواعد على مستوى الأفراد ومستوى الشعوب ومستوى العقيدة ومستوى الثقافة، لأفلحوا ولوضعوا الأساس السليم للبناء، ولا ضير عليهم بعد ذلك أن تقوم مع الزمن بقية الطبقات. ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾ [البقرة:١٢٧] ولعلها إشارة إلى أن امتداد البيت أكثر مما نراه وأن ما نراه ليس أكثر من القواعد أما الامتداد الحقيقي له فربما كان متصلاً بالبيت المعمور ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾ [البقرة:١٢٥] فالقواعد مادية ومعنوية بناء وطهارة ثم هي تمتد بعد ذلك إلى البيت المعمور في السماء ففيها مبنى نراه ومعنى نحسه.

هذا من الجانب الإيجابي في المشكلة، جانبنا نحن المسلمين أصحاب القضية. ومثله في الجانب الآخر جانب الخصوم وجانب الشهود،القمة والدولة والحكومة ومن ثم السياسة الوليد الطبيعي لأممهم كل في مجموعها، فالذين يطلبون في القمة والدولة والحكومة والسياسة في العالم الإسلامي اليوم أن تحقق أحلامهم يغطون في نوم عميق لا لأنهم يطالبون بغير الحق ولكن لأنهم لا يتيقظون للمسؤولية وإنما يريدون أن تمطر عليهم السماء أمانيهم يقفون موقف المتفرج لا يدركون العوائق ولا يشاركون في العبء مثلهم مثل الأطفال الذين يظنون أن آباءهم الكبار على كل شيء مقتدرون.

والذين يطلبون من القمة والدولة والحكومة والسياسة في العالم الآخر أن تنتصر لهم وتؤيد حقوقهم وتؤمن مصالحهم يتمتعون بنعمة النسيان، لا لأن قضاياهم غير عادلة، ولا

لأن حقوقهم غير صحيحة، ولا لأن مصالحهم غير شرعية، ولكن لأنهم ينسون حقائق الأمور وطبائع الأحوال وجاريات الحوادث وتسلسل التاريخ»[1].

بكل العمق في الفكر والبساطة في الطرح والسهولة في الأسلوب الأدبي الرصين، يقول الفودة:

«أما القوة المعنوية فتنمو بنمو الهدف. وذلك ما تلاشى في النفوس أو كاد حين فقد الدين سلطانه وتأثيره كوازع ودافع بالعقيدة، لأنه افتقر إلى القدوة الحسنة والقلب السليم والعقل السليم، وفقد الحكم سلطانه وتأثيره كرادع بالهيبة ودافع بالتقدير لأنه افتقر إلى كل ذلك، وفقد القانون سلطانه وتأثيره كوازع بالفعل ورادع بالقوة، لأن المذاهب الاجتماعية والاقتصادية قد افتقرت هي الأخرى إلى القدوة الحسنة وروح العدل وحمايته، فإذا الناس يدارون سلطان الدين بالرياء، ويدارون سلطان الحكم بالنفاق، ويدارون سلطان القانون بالزندقة. أما القوة وحدها فإن سيطرت على الأجساد فلن تسيطر على الأرواح. وهذا الذي نقوله ليس حديث اليوم ولا حديث البارحة ولكنه حديث تاريخ طويل من عمر الإنسان».

ويستطرد قائلاً:

«ذلك أن الله منذ خلق الإنسان ألهمه النجدين فهو مهما عمل ومهما فلسف يتيقن الخير والشر ولا يجهل في دخيلة نفسه أحدهما وأودع فيه إحساسه بالقوة المدبرة للكون مهما اختلف في تسميتها ثم واتاه بالرسالات وليعرفه عليها وليؤكد له البعث والحساب والجنة والنار ليقنن بذلك أفعاله ومنحه من قبل العقل فكلما نماه كان أقدر على الاستجابة وإن خالفها بالعمل».

ومن المعاني البديعة في هذه المحاضرة أو البحث قول المحاضر:

«هذه هي الإيجابيات والسلبيات في حياة الإنسان اليوم وأفكاره. ومن خلالها نراه في كل مكان يقف على ربوة يجري فيها بين المشرق والمغرب كما جرت هاجر بين الصفا والمروة تتطلع إلى الرِّيِّ وتستشرف. وإذا كانت السماء قد أمدتها بطلباتها فهذا أوان مدد السماء أن يبدد حيرة الإنسان ويسبغ عليه طمأنينة وهداية ونوراً يسعى بين يديه. فلا أجدر ولا أجدى من هذا الظرف أواناً لهذه الدعوة تنطلق من هذه الرحاب».

---

(١) الجزء الرابع – النثر – المهمة الصعبة، ص١٢١ و١٢٢.

أما الرياضة والهدف فهي محاضرة ألقاها إبراهيم فودة بنادي الوحدة الرياضي بمكة المكرمة عام ١٣٩٠هـ الموافق ١٩٧٠م ركز فيها على الهدف من الرياضة.

فقبل أن يخطط الإنسان لنفسه وقبل أن يتخذ الرياضة عامداً فقد زاولها بفطرته بطبيعة حياته وعمله وباعتبارها وسيلة عيشه صياداً ومزارعاً وراعي غنم. مارس وسائل الرياضة من وثبٍ وقفز وجري وشد وسباحة. كما يمارسها على هذا النحو بعض ذوي الأعمال المشابهة إلى هذا اليوم.

ويستطرد الفودة قائلاً: «وحين تدرج الإنسان إلى الأعمال التي اقتضت وجوده داخل جدران منزله أو معلمه.. وكلما تقدمت به الحضارة والمدنية وجد نفسه داخل الجدران.. ووجد نفسه محروماً من التمتع بالشمس والهواء الطلق وحرية التحرك في جو صحي.. وجد حاجته إلى تعويض الرياضة الفطرية التي كان يزاولها برياضة علمانية»[1].

وكلما استعمل الآلة في عمله كلما زادت حاجته إلى الرياضة العلمانية يُعوّض بها جسمه عن نقص الحركة ويملأ فراغه من الوقت. فينشئ الأندية ويتجمهر فيها الناس.

كما ينبغي الاعتدال في الرياضة وإلا أدت إلى عجز عن الأعمال الأخرى وهذا واضح في الجانب النظري ولكن الرأي العلمي أيضاً يؤكد أنها تؤدي بالإسراف فيها إلى عجز في الأعمال الأخرى البدنية وتؤثر عجزاً في الدماغ وتتزايد الدورة حتى تورث الحميات ويضطرب الهضم ويقع معظم الضرر على الأعضاء الصدرية. وكذلك ينبغي أن تتوقف مزاولة الرياضة في حالة المرض على رأي الطبيب لأنه يُخشى منها مثلاً في حالات العلل المزمنة والعصبية والدماغية وبعض التشويهية. وهذه جملة معترضة أوردتها لأدلل على أن الاعتدال واجب طبياً كما هو واجب نظرياً واجتماعياً يتلاقى مع المأثور عندنا «خير الأمور أوسطها». وما زال الناس يخترعون ألواناً من الرياضة والألعاب حتى ألف بعضهم كتباً عن خمسمائة لعبة مختارة ونحو ذلك.

ويرى الفودة أن الرياضة تربية عقلياً وجسمياً وخلقياً واجتماعياً وعلمياً وعملياً، ثم يطرح على بساط البحث اسئلة من مثل قوله: كيف تحقق الأندية الرياضية ذلك؟ إدارة ووسيلة؟ وكيف تشيع الروح الرياضية بين الشباب المسلم وكيف نوحد بين هؤلاء الشباب في كل آفاق

---

(١) لا يقصد الفودة بلفظة العلمانية هنا النظرية المعروفة وإنما قصد في ذلك فصل الرياضة عن الجسم بالحركة والتريّض.

الأرض؟ وكيف يكون للشباب الرياضي المسلم شخصيته المميزة؟وكيف يجوز للشباب المسلم الرياضي وعلى أي نحو ولأي مدى التعاون مع الشباب الرياضي في كل أنحاء العالم؟

وقبل أن يُجيب المحاضر يطرح سؤالاً من باله: لماذا لم يستعمل القرآن الكريم كلمة رياضة ولا مشتقاتها قط وإنما استعمل كلمة جهد وجاهد وتجهد وجهاد ومشتقاتها أكثر من أربعين مرة؟ وكذلك حديث رسول الله ﷺ. ووجدت السر في اللغة:

فمادة: راض وروّض وراوضه على الأمر تعني خاتله وداراه حتى يدخل فيه. وتراوض الرجلان في البيع تجاذبا، وهو ما يجري بين المتبايعين من الزيادة والنقصان كأنّ كل واحد منهما يروّض صاحبه، وتراوض القوم في الأمر تناظروا فيه. والرّيض: لدابّة أول ما تراوض يستوي فيه المذكر والمؤنث. وأمر ريّض لم يُحكم تدبيره. ومنها جاءت الرياضة: (إعمال عضلات الجسم لتقويتها).

هذه النظرة الإنسانية والإسلامية للرياضة يعززها فكر المحاضر بثقافته وحسن أسلوبه ببلاغة القول وحسن اللغة التي تحدث بها في محاضرته إنها تُلفت الانتباه إلى العمق والروح الرياضية في ذاته وفكره. إنها أفكار فيها لماحية النظر وذكاء الطرح وغنى اللغة التي يتحدث بها في محاضرته على استطراد واسترسال بحيث لا يعوزه التعبير إلا ببلاغته وحسن اللغة إلا بأسلوبه.

وهذا يتناسب مع تعريفه الآخر للرياضة بأنها ليست فقط صوراً محددة من الألعاب أو التمرينات البدنية فتلك هي الرياضة البدنية ولقد تلاقى العرب مع الإغريق والإنجليز في فهم رائع للرياضة حتى عرفها أهل اللغة بأنها (استبدال الحالة المذمومة بالحالة المحمودة) وأي روعة في هذا التعريف الجامع على اختصار ألفاظه وتعدده وضخامة وارتقاء معانيه، والرياضة في الاصطلاح الديني هي (رياضة النفس عن متابعة الأهواء وتسخيرها إلى ملازمة الشرع) أما الرياضة الروحية فهي في تعريف المحاضر (حرمان النفس من مشتهياتها لتصل إلى درجة الصفاء وغلبة الروح على الجسم حتى تظهر قواها العجيبة، والرياضة العقلية أو الذهنية: هي إعمال الفكر في إدراك الحقائق).

ثم يوضح ما يلي: وأنا أضع لها هذا التعريف تبسيطاً للتعريفات اللغوية والفنية الدقيقة فهي معقدة ومتعددة وطويلة وخارجة عن الموضوع هنا. وتشميلاً بهذا التعريف البسيط لكل أنواعها ونواحيها الفنية والعلمية والتطبيقية.

والإسلام شريعة خالق العقل والنفس والجسد جاء محركاً للقوى الثلاث ومروّضاً لها.

فلفت العقل: إلى التاريخ والأمم من قبل، وهي طريقة الملاحظة والاستقراء العلمية في البحث العلمي الحديث.

وإلى الكون وعظمته وآياته وهي طريقة الاستدلال والشواهد والبراهين في البحث العلمي الحديث.

وإلى النفس البشرية ذاتها وأسرارها وهي طريقة التجريب في البحث العلمي الحديث.

وإلى التفكر والتدبر في كل ذلك وهي الطريقة المنطقية بالمقدمات والفروض والنتائج في البحث العلمي الحديث، مروضاً بذلك كله العقل البشري وفاتحاً له أبواب ومناهج الحقيقة عظة لأولي الألباب ولأولي الأبصار. للذين يعلمون والذين يفقهون والذين يتفكرون، وردد هذه الكلمات ترديداً كثيراً وفضل العالمين على الجاهلين. ونوه بالعالمين كثيراً وذم المعطلين لحركة العقل والمعوقين له عن التفكير وعاب عليهم ذلك كثيراً.

ولقد ربط الإسلام بين الأجهزة الثلاثة في الإنسان؛ العقل والنفس والجسد باعتبارها وحدة لا انفصام لها لا يمكن الفصل بينها ولا يمكن لأحدها الانفصال أو ممارسة عمل بصورة مستقلة استقلالاً تاماً وهذه هي الحقيقة.

فإذا كنا الآن بصدد الرياضة البدنية فلنذكر قوله ﷺ: «روحوا القلوب ساعة فساعة» ووجدته في بعض الكتب هكذا «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كَلَّتْ عَمِيَتْ» ولكن لم أجد هذا النص الأخير بحرفه في كتب الحديث ونسبه بعضهم للإمام علي رضي الله عنه ربما كان تفسيراً منه، وما روته السيدة عائشة رضي الله عنها من أنه ﷺ قد سابقها فسبقته ثم سابقها فسبقها وقال: هذه بتيك.

وأنه ﷺ صارع بعض شباب قريش قبل الإسلام وبعده، بل قيل أن ركانة بن يزيد وكان مصارعاً ماهراً قوياً لم يقدر أحد من العرب أن يصرعه تحدّى الرسول ﷺ فصرعه رسول الله ﷺ مرة وثانية وثالثة وقيل ذلك كان سبباً في إسلام ركانة.

وأنه سابق بين الخيول المضمرة في موضع يسمى الحيفاء إلى ثنية الوداع خارج المدينة المنورة وبينهما خمسة أميال أو ستة، وسابق الخيل التي لا تضمر فيما بين ثنية الوداع ومسجد بني زُريق وبينهما ميل واحد، وسابق بين الخيل مرة على حلل آتية من اليمن فأعطى السابق الأول ثلاث حلل والثاني حلتين والثالث حلّة والرابع درهمين والخامس درهماً والسادس والسابع مكافأة.

ويستبين في هذا المبحث أو المحاضرة أن حظ عرب الجزيرة من الرياضة البدنية هو يتمثل بالسباحة والصيد والرماية وركوب الخيل والهجن وهي تمثل أهم ملامح المنحى الرياضي. فكأن الرياضة مداراة النفس لدخولها في أمر وتعويدها عليه بطرق التآلف والمراضاة والمداورة.

بل إن المبادئ الحديثة في التربية هي: مبدأ اللعب، مبدأ تحقيق الذاتية. مبدأ تعليم الحياة بالحياة أو التعليم عن طريق النشاط.

وكل هذه المذاهب على بعض الفروق بينها يظل مجرد تسميتها على ما يمكن أن تؤديه الرياضة في ظلها من خدمات للتربية والتعليم وما يمكن أن تقدمه الأندية الرياضية من مجال لتحقيق هذه المذاهب.

هذه الطروحات من خلال فكر الأستاذ الفودة وزملائه أمثال أحمد عبدالغفور عطار وأحمد محمد جمال وأحمد السباعي وعبد الله عْريف وعبدالسلام الساسي وحسين عرب هي التي جمّلت جزءاً من الحركة الأدبية في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين في الحجاز وبالذات في مكة المكرمة سواء بالمحاضرات أو بالكتب والمؤلفات والدواوين الشعرية والدراسات اللغوية والأدبية هي حركة طبيعية للأدب أن ينمو وللفكر أن يستمر وللثقافة من أن تسير.

كان نادي الوحدة الرياضي هو الذي أقام هذا الجزء من النشاط الثقافي في محاضرات الرواد وأفكارهم وثقافتهم ومعارفهم وأدبهم بحيث نشط هؤلاء الأدباء الرواد في إلقاء المحاضرات، وكان إبراهيم أمين فودة ضمن هؤلاء الرواد الأخيار. يذكرنا ذلك بأيامه في مصر حيث انشأ الذهبية على النيل يقيم فيها الأمسيات الأدبية والثقافية والدينية التي يحضرها من

هناك الأدباء أمثال أحمد رامي وأنيس منصور وأحمد الشرباصي ومحمد رجب البيومي ومحمد عبد المنعم خفاجي وفاروق شوشه ومن الحجاز كان يحضرها الأستاذ محمد سرور الصبان وحسين عرب وعبد الله عبد الجبار وأحمد عبدالغفور عطار، فيتداول هؤلاء الأحاديث في الفكر والأدب والثقافة والفن والدين والفكر الإسلامي على ضفاف النيل بل على أركان وحضن ذهبية إبراهيم فودة التي يُهيئها لتلك الأمسيات الفنية الجميلة والفكرية الثقافية والدينية والأدبية، إنها تشي بالكرم والمروءة والإنسانية الاجتماعية في حضرة هذه الشخصيات اللامعة والمفكرين العظماء والأدباء الشعراء.

ونكتفي من نثر الفودة بما عرضناه لننتقل إلى التعرف على شعره المدون والمنظم في ديوانه أو لنقل الأعمال الكاملة للشعر في جزئها الثالث ورقمها الثلاثون من كتاب «الإثنينية» التي نشرها عبد المقصود محمد سعيد خوجة.

والذي نصادفه هنا بدايةً تعريف الفودة للشعر بالشعر يقول:

الشعر: تسبيح القلوب	ونبضها في المشكلات
الشعر: أنسام المشاعر	والصدور الخيّرات
الشعر: نجوى المرور	في عُمق الصلاة[1]
الشعر: من نسج السماء	وغزلهُ خير الصلات

فأنت ترى هذا الشعر الفلسفي لتعريف الشعر الحكيم والرصين انظر إليه يقول تحت عنوان "نظر الحبيب":

ربّي.. إليك لجأتُ في ضرّائي	وأنا الذي أرجوك في سرائي
عوّدتني: منك الجميل تكرّماً	ووهبت لي الشكران في النعماء
وأظلّني السِّترُ الذي أضفيته	دوماً عليَّ فكان خير رداء
ومنحتني ما لا أبوح بسرّه	للعالمين فذاك سِرُّ عزائي
فامنُن عليَّ بنظرةٍ في محنتي	نَظَرُ الحبيب، لُبابُ كلّ دواء

(١) المقصود بالصلاة هنا الدعاء. كاتب هذه الترجمة.

وانظر إليه وهو يرثي الأمير عبد الكريم الخطابي في ذكرى مرور عام على وفاته:

مضى العام يا عبد الكريم.. وليته ... تحقق فيه ما صبوتَ له دهرا
وما متَّ يا عبد الكريم، وإنما ... غدوت لنا من خلف أظهرنا ظهرا
تجدد ذكراك اللهيب بأضلُع ... تحِسُّك في عُمْر النّضال كما البُشرى
نعم كنت أرجو أن نراك بأرضنا ... رضياً كلانا: ما أبرَّ وما أحْرى
وقد كنت ترجو أن تُعَمَّر كي ترى ... بعينيك هذا اليوم أكرمه عُمرا
ولكنها الأقدار تختار دوننا ... وما اختارت الأقدار تجري به أمرا
رضينا قضاء الله فينا وبيننا ... وللصابرين اللهُ ما زادهم صبرا

إلى آخره..

ولعلنا بعد هذه الإطلالة على شعر الفودة والوقوف عليه نتبصر الحكمة في ما قال من الشعر الرصين والذي ينبع من العقل قبل القلب ومن الروح قبل المادة ومن العلم قبل العمل.. كل ذلك يُشير إلى طول باع الفودة في الشعر الفكري إن جاز التعبير على مثل شعره وعلى مثاله هو كشاعرٍ حكيم.

أولاً: الرصانة في الفكرة هي التي توحي بمثل هذا الشعر المنظوم للشاعر الفودة وأمثاله في القديم نذكر أبا العلاء المعري والمتنبي، ومن المعاصرين محمود سامي البارودي وأحمد محرم وبدوي الجبل.

ثانياً: هذه الانسيابية الفلسفية للألفاظ المختارة لنظم البيت توحي لنا بعمق فكر هذا الشاعر الناظم إبراهيم أمين فودة الذي تشبّع بالحكمة والرصانة في شعره.

ثالثاً: العمق الروحي والمسار النفسي اللذان جعلا من شعره فلسفياً جداً.. الأمر الذي كان نظم هذا الشعر قوياً ورصيناً وجميلاً في نفس الوقت. وإلا لا يبقى هذا الشعر شعراً وإنما نظمه قائله بعقله وفكره وفلسفته.

رابعاً: الدرس والنفس هما اللذان جعلا شعر الفودة الحكيم ونظمه الرصين في ديوانه المترامي الأطراف والعمق والأسلوب والفكرة والحكمة، وبذلك يسهل علينا الوقوف على سائر الديوان

الذي بلغ الخمسة مجلدات كتسبيحٍ وصلاة في "بالله عزتي"، "وجهت لله وجهي"، "آفة العقل"، "إلى الله"، "دعاء إلى الله"، "قسمٌ عظيم"، "لذة المعنى"، "لبيك"، "إليك".

هذه القصائد التي ترنم فيها قائلها الفودة بحكمةٍ ورصانةٍ وأسلوب فكري جميل.

إن الشاعر إبراهيم فودة متعمق القول الشعري والحكمة الشعرية والرصانة الأدبية بحيث يقف عندها القارئ لنظمه وهو يخرج بحِكَمٍ ومعانٍ وقيم كثيرةٍ وأفكار ورؤية فنية وجمال الطبع والتطبع في حكمة الشعر ورصانة أسلوبه وجميل مأخذه الشيء الذي يعطينا مجدداً المعرفة والنظم الحكيم والثقافة الشعرية.

والشعر بحر عميق يغوص في مثل ما نواجهه من ديوان الشاعر الفودة الذي سرنا معه ونحن نفكر ونحتكم إليه الأمر الذي يجعلنا نتفقه بعلم الشعر لا بغزله فحسب وبفكر الشاعر وعقله وحكمته؛ كل ذلك من أجل عدم التكلف في شعر الفودة المنظوم حكمةً ورصانةً ومواضيع.

إن الشاعر إبراهيم أمين فودة مثله في شعره مثل الواقف على بستان كل ما فيه حسن ومن مواقع الشعر التي تتشكل لنا في الأعمال الكاملة رأياً ورؤية وحكمةً وبصيرة وأسلوباً ورصانة. هذه هي معالم الشعر المنظوم عند شاعرنا الذي طالما رحل في الأدب مع الشعر المُحكم والقول المنظم في الحياة والدنيا والدين والتأمل والحكمة والتعمق بالفكرة. ونستطيع أن نجزم أن كل شعر الفودة هو فكري الطبع وعقلي القول ولا يعني ذلك أنه غير مستساغ بل على العكس من ذلك هناك قراء ومتلقون يميلون إلى مثل هذا النظم المحكم والأسلوب الفكري خاصةً عند الأدباء المفكرين والمثقفين العقليين والشعراء الحكماء.

وانظر في ذلك قصائده "الناس بالناس"، "الذكاء والعقل"، "ياصفاء القلوب"، "هو الله"، "قلب أيمن"، "صلاة الفجر"، "الأمر لله"، "حكمة الله"، "سامحه الله".

هذه القصائد يُشتفُ منها الحكم والأمثال والأفكار التي تستجمُّ في ديوان الفودة الفكري والمعنوي والفلسفي وكثيرٌ من أمثالها في بقية أعماله الشعرية التي لا يستغني الدارس عنها في مواكبته للشعر في الحركة الأدبية العربية السعودية التي يُشتم منها رائحة الحكمة في مثل شعر العواد والغزاوي والعامودي وإبراهيم خليل علاف ومحمد علي السنوسي والفودة معهم إن لم

يكن رائدهم إلى الحكمة وفصل الخطاب الشعري الذي تبين لنا من خلال هذا القول أنه حكيمٌ وشاعرٌ مثالي انظر إلى قوله عن العلم العقيم حيث قال:

بحثنا أموراً طال تكرار بحثها ... فلم يُجدِ إلا أن أحطنا بها علما

ولا خير في علم إذا لم تكن له ... عواقب تنفي له تعلمه العُقما

ومهما يكن عذري وعذرك بالغاً ... فإن كلا العذرين يستوجب الحزما

وعذرك عذر لي - إذا صح منطق - ... ولكنها الأهداف تلهمنا الحكما

أو قوله: عودٌ على بدء.

عُدنا على الذل، أم عدنا على الألم ... كلاهما واحد، في منطق الأمم

ضاعت سنون، وضاع العمر سُدى ... خلالها ورجعنا - بعدُ - بالندم

مضى بعيداً بنا ركب وخلفنا ... ركب ونحن حبالى عشن في وحم

يا لائمي في هوى ما ذقته أبداً ... لو ذقت منه الذي قد ذقت لم تلم

حسبي من الأمر أني قد بذلت له ... جهدي وعمري، ولم أبخل ببذل دمي

فهذه الأقوال هي أشعار منظومة فكرياً وعقلياً وحكمياً وإذا شئنا أن نقول إن وجدان الشاعر هنا وروحه تتجليان على أرضية العقل والفلسفة ونحو ذلك من نظم الشعر الذي نظمه شاعرنا بحكمةٍ وبصيرة لا تكلفَ فيهما لأنه شعرٌ تأصيلي للحكمة والبصيرة والمُثل العليا في رؤية الشاعر إلى الحياة بالروح والعقل والفكر والوجدان.

وقد طرق الفودة عناصر شتى في الشعر كالوصف والحكمة والغزل من ذلك خُماسيته بعنوان "ولا رضي العقلُ" وفيها يقول:

كلا جانبي أمري مرير وإن يحلو ... أمرهُما الأحلى وأشقاهما الوصل

فلا الهجر يشفي ولا الوصل ... ولا شاقني فجر، ولم يرحم الليل

وأبلغ ما عانى الفتى من شؤونه ... غرام تساوى العلم فيه أو الجهل

فلا العذلُ مقبول ولا الصمت عاذر ... ولا منقذي فعل ولا مسعفي قول

لك الله من قلب أضرَّ الهوى به ... فلا نعمة تمّت ولا رضي العقل

وفي قوله في البيت الأخير (ولا رضي العقل) إيمانٌ منه ووقفةٌ تُشبه الاعتقاد التي جعلته يوافق العقل على إنهاء هذا الغزل أو هذه المحبة كأنه يخطو فيها خطوة أبي فراس الحمداني في قوله المشهور (أحلاهما مُرّ) فانظر هذا التوفيق في الوقوف والانتهاء.

كما يستوقفنا قوله في خُماسيةٌ أخرى بعنوان "ثقافة الشعراء" يقول فيها:

وثقافــة الشـــعراء قـــوتُ الفكـــ	ـــر في طبـــق الشـــعور الســـاخن
فـالعلم مـن غـير الشـعور حقيقـة	جـرداء مـن معنـى الحيـاة الكـامن
والحـسُّ مـن غـير العلـوم مشـاعر	عميـاء تسـبح في الظـلام الـداكن
فـإذا التقــى لــُبّ امـرئ بجنانـه	وجرى اللقـاء عـلى اللسـان الفـاطن
رقصت عقول الناس خلف قلوبهم	وجرت قلوب الناس خلف اللاحن(١)

فانظر كيف جعل ثقافة الشعر وقوداً للشعور أو زاداً للحس لأن العلم في نظر الفودة بل هو كذلك حقيقةٌ جرداء إذا خلا من الشعور، فلكي يوصل أي عالمٍ بالمعرفة علمه ومعرفته ينبغي أن يسبغ ذلك بالإحساس والتحسيس للآخرين كي يدركوا علمه ومعرفته، هذه هي طبيعة الأشياء في الحياة بصفةٍ عامة ولكن الشاعر الفودة خصص حكمته هذه وجعلها في ثقافة الشعراء الذين يودون إلقاءها للمتلقين، وهنا نعود لحكمة الفودة عندما نقرأ له خُماسيةٌ ثالثة بعنوان "جوهر السعادة" وهذه الأبيات هي:

لـيس أن نبلـغ الأمـاني دومـا	جـوهراً في سـعادة الإنسـان
إنـما جـوهر السـعادة في النفـ	ـس ضـياء يشـع بـالإيمان
يجعـل النصـر والهزيمـة في الحـق	سـواء في كفتـي ميـزان
لـذة الصـبر في الهزيمـة كـالفوز	انتصـار يعـفُّ عـن طُغيـان
ربـما أفسـد الغـرور مـن النصـ	ـر وكـم علّـم الأسـى مـن معـان

(١) اللاحن العالم بعواقب الكلام والرامز لمعانيه.

وليس إيرادُنا مثل هذه الخُماسيات للحكمة فحسب ولكن لأن شاعرنا بصيرٌ بالشعر نفسه وليس بالنظم فحسب، فهو شاعرٌ متمكن من قول الشعر وناظمٌ قوي حين ينظم وإنما أردنا من شعر الحكمة والعقل والفكر والفلسفة أن يكون زاداً للمتلقين الجدد في هذا المجتمع الذي يُعد أكثريته من الشباب والناشئة والأجيال الصاعدة.

نقرأ ذلك في كل قصيدة على وجه التقريب لأن أسلوب الرجل هو الرجل كما يُقال، والفودة هنا زارع الحكمة في شعره وصانع الفكرة في نظمه وبين هَذين النمطين يقف شاعرنا شاهراً شعره على نحوٍ فكري وتأملي وحكمي.

خذ على سبيل المثال هذه الأبيات في قصيدته "نزيف نفس":

ضـاع عمـري بـين النزاهـة والجـد	فلـم يبـق منـه مـا يُفيـد ومـا يُجـدي
ويا ليتني مـا عشـتُ حتـى وجـدتني	حديث شفيعٍ يجرح القلب مـا يُبـدي
هـو العـذر لكـن لطـّخ العُـذرُ لحيـة	تُفادي هوان العـذر في حُفـرةِ اللحـدِ
لحـى الله أيـامي، فـلا الخـير شـافعاً	عليهـا، ولا عِـزُّ النزاهــة، والجـد
أسالت فؤادي - آخر العمر - أدمعا	أحـر مـن الجمـر المُحـرق في الخـد
رأيــتُ دمــي المطلــوِل في عبراتهــا	نزيفهـا لنفسـي نـزٌ مـن كبـد الكبـد
فلــولا حيــاءٌ يُبصــر الله فوقنــا	كرهـت المعـاني والمعـالي ومـا تسـدي

فهذا نظم محكم في شعر نفسي وآخر وجداني تُضمّده العقلية عند شاعرنا الفودة الذي يكاد أن يُقال أنه يتكلف وليس هو كذلك وإنما يغرف من بحر نظمه وينحت من جبال شعره العقلاني الرصين الذي نتملكه الحكمة دوماً في كل ما يقول نظماً وشعراً محكمين وهذا لعمري يقال لا لشاعرٍ كالفودة لوحده وإنما لكل من سلك في الشعر مسلكه وسار على درب ذلك من الأقوال الشعرية والمنظمة في دواوين شعراء آخرين أمثال الفودة.

إن إبراهيم فودة ناظمٌ مكثار وشاعرٌ مقوال لكنه في كلا الحالين يبقى المفكر الأديب والفيلسوف والحكيم العاقل بغير هذه الصفات لا نصل إلى حقيقة نظمه وشعره وإنما تلازمنا

أينما كنا معه في أي ديوان من دواوينه وأي قصيدة من شعره وأي شعرٍ من أشعاره كل ذلك يعود إلى أصالة رأيه وحكمة قوله الذي يصر أو هكذا يتراءى لقارئه على أن ينظم الحكمة بالروح والعقل دائماً.

فهذه هي معالم القول الشعري عند الفودة بدواوينه المكثفة علمياً وعملياً وفكرياً وأدبياً وفلسفياً وعقلياً وشعره المكثف بالحكم والمحشو بالقيم التي تنبع من حكمته وفلسفته وأفكاره.

عليه رحمة الله تعالى

أمين مدني

أبو أياد أمين عبد الله مدني ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٨هـ الموافق ١٩٠٩م وفيها نشأ يتيماً حيث مات والده عبد الله مدني وترعرع عند أخواله من آل البرزنجي وهم من علماء المدينة المنورة (هذا ما قاله الساسي) أما مجلة المنهل ففي ترجمة أمين مدني أن أباه أخرجه إلى ضواحي المدينة عند أظاره من قبيلة عوف فأتم رضاعته فيهم وأحضر له أستاذاً خصوصياً يعلمه مبادئ القراءة والكتابة حتى استطاع أن يدرس بالمدرسة الابتدائية وحاز الشهادة منها.

درس أمين مدني في كتاتيب المدينة ومدارسها وتعلم في حلقات الدرس والعلم بالمسجد النبوي الشريف الفقه والتفسير وا-لحديث واللغة العربية والتأريخ وعلميّ الفرائض وعروض الشعر.

كما درس على يد فضيلة الشيخ محمد الطيب الأنصاري وتخرج على يديه.

وهو أول من ترأس تحرير جريدة المدينة المنورة وانتُخب عضواً في عدة وفود رسمية عن المدينة المنورة.

واشتغل في المدينة المنورة ببعض الوظائف الحكومية متدرجاً أعماله فيها حتى وصل إلى رئاسة بلديتها.

وكُرّم أمين مدني رائداً أدبياً في مؤتمر الأدباء السعوديين الأول الذي عقدته جامعة الملك عبد العزيز في مكة المكرمة سنة ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

وقد جعل أمين عبد الله مدني ديدنهُ البحث والاطلاع والقراءة من العلوم والتربية العلمية وآدابها إلى ميادين العمل والاشتغال بالتاريخ.. تاريخ العرب والجزيرة العربية بالتحديد فألّف عن ذلك كله كُتباً أو موسوعات تحت عنوان «العرب في أحقاب التاريخ» في ثلاثة مجلدات.

الأول: التاريخ العربي وبدايته.

الثاني: التاريخ العربي ومصادره.

الثالث: التاريخ العربي وجغرافيته.

وفي هذه الموسوعة أختط أمين مدني لتاريخ العرب منهجاً تعريفياً ومساراً علمياً في سبيل تأديب تأريخ الجزيرة العربية.

وأول ما يتحدث عنه في ذلك هو الفصل الذي عنونه بـ قلب البلاد العربية المهد الأول للإنسان وحضارته التي زخرت بعلوم العربية الأولى وإن لم يكن هناك سوى التركيز على هذا الشعب أو المجتمع من العرب العاربة.

وثم دولٌ وسُلطات ذات صبغةٍ قبلية وأخرى مدنية استطاعت أن تصمد بعد الطوفان وهي ما تسمى دول ما قبل التأريخ، وهنا يقول أمين مدني أنها بداية التأريخ لأن الجزيرة العربية قد تمتعت بألوان من الحياة الزراعية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية.

وفي هذا الصدد هناك اختلاف بين المؤرخين المعاصرين ففريقٌ منهم يقول: إن ثمة حضارة وصناعة ومجتمع مدني في حين يقول فريقٌ آخر إن ذاك التأريخ متخلف وليس له أي إشارة علمية.

ثُم يتحدث المؤلف عن الأديان في جزيرة العرب من قبل التأريخ ليبحث في هذا الحديث عن أن آدم هو المؤسس الأول للحضارة الإنسانية على الأرض.

وأن الأديان التي ذكرها المفسرون للقرآن الكريم والتأريخ العربي موجودة منذُ إبراهيم وموسى وعيسى إلى محمد عليهم الصلاة والسلام ويستشهد المؤلف أمين مدني بالبيت الحرام أو الكعبة المشرفة بأنه أكبر دليل على وجود الأديان في هذه الجزيرة بل يذهب بعيداً في الحديث عندما يقول: إن الإنسان العربي في هذه الجزيرة سبق غيره من خارجها إلى التدين والإيمان، والطريف في هذا البحث إيجاد مدخل للحديث عن العقل والشعور وكيف بحث الإنسان الأول عن التدين ونحن نتحدث عما كان بعد الطوفان.

وكما تحدث عن الدين في قلب الجزيرة العربية يتحدث في فصلٍ أخر عن اللغة العربية وأنها أُم اللُغات السامية فلسان جرهُم وعاد هو لسان مُضَر وإياد ويقصد بهما لسان اللغة العربية التي هي أُم اللغات تاريخياً وروايةً وأصلاً.

وهنا يُنبه الأستاذ إلى نقطتين مهمتين في هذا البحث:

الأولى: خطأ في من قال أن أُم اللغات السامية هي اللغة العبرية.

الثانية: خطأ من قال أن اللغة العربية بادت مع العرب العاربة.

وعندما نتأمل في هذا الحديث فإن الأستاذ قد أدرك التاريخية اللغوية للعرب بعد الطوفان وفي عهد العرب العرباء.

ولكنه يُشير أن لغتنا العربية مرت بتطور وهذا حق لا ريب فيه على ما نسمع حالياً في الشعوب العربية تماماً مثل ما تأثرت بلغة الأمم المجاورة قديماً.

وهنا يأتي المؤرخ المدني ليقرر حقيقة مهمة جداً ألا وهي أن هناك في العهد القديم للعرب وجدت لهجات عامية يختص كل قطر من الأقطار العربية بلهجة معينة. ومع ذلك فإن اللغة العربية لم تتغير أو تتأثر بهذا التطور القديم والحديث في آنٍ واحد.

ويمضي في بحثٍ آخر عن اللغة العربية أنها لم تكن اللغة الوحيدة إبّان الهجرات القديمة التي تؤثر وتتأثر سواء في الإنسان نفسه أو في لغته. بل إنه قال مؤكداً أن أرومة اللغات التي كانت تتكلم بها أمم من العرب في الزمن القديم أطلق عليها المستشرقون في القرن الثامن عشر الميلادي اسم الأمم السامية في الطريق الذي سار فيه البحث عن الأرومة العنصرية لهاتيك الأمم العربية.

فكما أن البحث عن الأرومة السامية سار في طريق التردد والشكوك طويلاً قبل أن يصل إلى الحقيقة التي تؤكد أن الأمم السامية هي أمم عربية من عنصر عربي، وأن مهدها الأول هو الجزء الذي يحده الهلال الخصيب شمالاً من جزيرة العرب، كذلك سار البحث عن أرومة اللغات السامية في طريق التردد والشكوك قبل أن يصل إلى الحقيقة التي تؤكد أن اللغات السامية تفرعت من اللغة العربية. فاستقصاء الحقائق التاريخية أثبت أن الكلدانيين والآشوريين والآراميين والفينيقيين والهكسوس كل هؤلاء شعوب عربية انتقلت من أواسط الجزيرة العربية إلى شمالها. فأسست في العراق وفي سوريا ولبنان وفلسطين، وفي مصر قومية عربية ولغة عربية، وأثبتت بعد ذلك أن الأمم العربية قبل الإسلام لم تستطع أن تحافظ على قوميتها وعلى لغتها، فكثيرة هي الكوارث التي حطمت قوميتها، وكثيرة هي الأزمنة التي طغت فيها على لغتها صفات ولهجات من لغات العناصر التي احتكت بها في أنهار ومدن الهلال الخصيب، وفي دلتا

النيل والشواطئ العربية، فجعلت كل واحدة منها تكاد تكون مستقلة عن الأخرى من حيث الأبجدية ومن حيث النطق، ومن حيث القواعد والخصائص.

وهكذا كان حديث المدني عن أصالة العرب والعربية(1).

ثم يتحدث عن الخط العربي وأنه من اليمن ومن كنده خاصة وهي قبيلة في الجنوب ويرى دكتور ولفنسون أن يُسمي هذا الخط الذي نكتب به اليوم الخط الإسلامي، ولكن أستاذنا المدني له رأيٌ أخر ألا وهو أن يُسمى هذا الخط بالخط القُرشي كما كانت لغة قُريش هي الأُم في الشعر والخطابة وهي التي نزل بها القرآن الكريم تباركت آياته.

وهنا يتناسب الحديث عن الشعر العربي وأنه قديم قِدم عاد وثمود وإنما الشك فيما يُروى من شعر على لسان هاتين القبيلتين أنه من وضع القصصيين مثل عُبيد ابن شريه.

ومع ذلك فالشعر الجاهلي صحيح النسب إلى قائليه في القرن الخامس الميلادي ويجزم الأستاذ أمين مدني بذلك على تاريخية الأدب العربي منذ الجاهلية حتى اليوم ولغة الشعر هي لغة قريش لأن القرآن قد نزل بها في ذلك التأريخ أي قبل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة بنحو قرن ونصف القرن.

وكما نرى فإن ذلك هو بدايات عربية لتأريخ حافل بالعلوم والثقافات واللغات هي من صميم جزيرة العرب التي تألقت وازدهرت منذ آلاف السنين.

والمؤرخ المدني كغيره من المؤرخين للتاريخ العربي والإسلامي أمثال الطبري وابن كثير وابن خلدون، يعود بنا في هذا الجزء من كتابه إلى عهود سحيقة في التاريخ حيث يتحدث في الفصول الأولى من بداية التاريخ العربي عن آدم وخلفائه وكيف استوطن الأرض بعد خروجه من الجنة مع حواء، وهنا يأتي حديث واعٍ عن بداية الحياة في الأرض وكيف تكاثر خلفاؤه ابتداءً من هابيل وقابيل وعلى الرغم من ذكر المصادر حول هذه الخلافة وأولها القرآن الكريم فإن المؤرخين أضافوا شرحاً وتفسيراً عن الحياة الآدمية الأولى. وهناك أمور تحدث عنها

(1) التاريخ العربي وبدايته ص111 طبعة دار القوافل - الرياض - 1429هـ / 2008م.

مؤرخنا المدني كالأديان والعقائد في جزيرة العرب ويشير إلى أن هناك حضارة هي السطور الأولى في التاريخ ثم يتحدث المدني عن ملوك حكموا قبل الطوفان، كما يورد أن ثمةّ قروناً تفصل بين آدم ونوح عليهما السلام وهناك ذكر عريضٌ وطويل للمؤرخين الذين كتبوا عن تاريخ العرب قبل الإسلام تناولوا فيها هذه الحقب التاريخية لما قبل التاريخ.

ويجدر بنا أن نستشهد بالآية الكريمة في سورة نوح التي تقول: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ويفسر الزمخشري هذه الآية بأن وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً هي أسماء رجال صالحين من ولد آدم أغرى إبليس معشرهم بنحت صورهم تماثيل احتراماً لذكراهم، ثم تطور الاحترام إلى الاعتقاد بأن عبادتهم تقرب إلى الله[1].

وهنا يُشير المؤلف بقوله: «نحن إذا ما رجعنا إلى كل ذلك يظهر لنا: أن أسماء الزعماء الذين أسسوا الدول كانت في الماضي القديم تظل حية تنتمي إليها دول وشعوب، كما هو الحال في جاهلية ما قبل الإسلام، مثل: قحطان، ونزار وكما هو الحال بعد الإسلام مثل: أمية والعباس وعثمان مؤسس دولة آل عثمان»[2].

والمدهش أن المؤلف يذكر وجود حضارة قديمة في العراق وسوريا وشواطئ الخليج العربية وفي قلب الجزيرة وذلك عن بعض المصادر ويستطرد قائلاً: «وكذلك أسهب الإخباريون وتحدث الأثريون في قصة (نوح) عليه السلام وبحثوا عن عالم من قبل الطوفان، وعن مساكن قوم نوح على شواطئ الفرات ودجلة، واختلاف سحن الذين كانوا يعيشون على سفوح الجبال عن سحن الذين كانوا يعيشون على ضفاف الأنهار، وعما كان عليه قوم نوح من حضارة غالى عن بعضهم في تقديرها فاستنتج مما قيل عن التنور وفورانه فقال: إن الإنسان على عهد نوح استخدم السفن البخارية!!».

---

(١) التاريخ العربي ومصادره، صفحة ٦٢ طبعة دار القوافل الرياض.

(٢) نفس المصدر صفحة ٦٣

وهذه الاستطرادات من المؤلف يدخل بها إلى عالم ما قبل التاريخ كأن يقول كذلك: «ثم تأتي قصة الطوفان، وقصة الطوفان بالأمس كانت كما يؤكد ابن خلدون غير معروفة في غير تاريخ الجزيرة العربية: (واعلم أن الفرس والهند لا يعرفون الطوفان وبعض الفرس يقولون كان ببابل فقط)، أما اليوم فقصة الطوفان كما يؤكد "المطران الدبس": تقول بها غالبية الأديان فالهندوكيون يعتقدون: أن "مانو" هو نوح الذي نجّت السمكة سفينته. والصينيون يعتقدون: أن "فحّا" هو الذي نجا من الطوفان العظيم، ويعتقد الإيرانيون:أن "إيما" هو صاحب السفينة، وفي اعتقاد اليونانيين:أن "دكليون" هو نوح الذي لم يغرق في الطوفان»[1].

وهي مداخلات تاريخية حاسمة من المؤلف كي يدخل بها إلى عالم اليوم الذين حتماً سيندهشون ويعجبون إذا ما أطلعوا على مثل هذه الأقاويل.

وها هو يقول: «أجل!... لقد ظلت قصة الطوفان في رأي الكثيرين أسطورة من أساطير ما قبل التاريخ الخيالية إلى أن أخذت البحوث الجيولوجية من جهة والبحوث الأثرية من جهة أخرى تعترف بقصة الطوفان، فآمن به أكثر من كان يساوره الشك فيه، وانصرفت الأبحاث تهتم بما يقال عنه، وهل هو أول طوفان سلطه الله على البشرية المتمردة؟ أو دهمَ البشرية أكثر من طوفان واحد؟ فالبعض يتمسك بنظريات علماء الجيولوجية التي تقول بأن طوفان نوح لم يكن أول طوفان منيت به البشرية، والتي تستشهد بما وصل إليه التحقيق المبني على تحليل عظام حيوانات مائية عثر عليها في رؤوس الجبال وتؤكد: أن آثار طوفان وجدت في أمريكا»[2].

بعد ذلك يؤرخ المدني لنهاية ما قبل التاريخ وبداية التاريخ ويقول: فمن المفروض بعد تلك الكارثة أن تمر بالإنسان فترةٌ من الزمن يستأنف في خلالها حياته الحضارية من جديد وهذه الفترة التي بدأ الإنسان فيها حياته من جديد، لا نعرف عنها غير الظنون والنظريات التي تحوم حول ما وجد في طبقات الأرض العميقة وتبلغ هذه الفترة في تقدير بعضهم أربعة وثلاثين ألفاً وثمانين عاماً وقد ألحق المؤرخون هذه الفترة بزمن ما قبل الطوفان، واعتبروها من التاريخ الخُرافي.

---

(١) التاريخ العربي ومصادره، ص ٤٣.

(٢) التاريخ العربي ومصادره، ص ٤٣.

على العموم هذا رأي المؤلف الذي استنتجه من مسارات من كتبوا عن هذه الفترة من تاريخ البشرية. على أن ثمةّ نقطة مهمة طرقها المؤلف الكاتب بأن التاريخ الحقيقي للبلاد العربية جميعها لم يبدأ في عام واحد فإذا كانت سلسلة التاريخ في اليمن ربطت التحقيقات التي قام بها المؤرخون على ضوء المصادر القديمة وعلى ضوء الآثار الحديثة الظهور حلقاتها من دولة "سبأ" و"معين" و"اوسان" و"قتبان" ثم "حمير" ثم "النجاشيين" و"ابن ذي يزن" ثم الاستعمار الفارسي، فلقد اعتبر كثير من المؤرخين رفع إبراهيم القواعد من البيت بداية التاريخ الحقيقي للحجاز فمن عهد إسماعيل إلى عصر عبد المطلب عرفت الشعوب التي سادت في مكة والشعوب التي سادة في المدينة[1].

على أن الرأي السائد يجزم بأن بداية التاريخ الحقيقي تتفاوت عصررها بتفاوت تقدم الأمم وتدرجها نحو الحضارة، وتختلف باختلاف المعلومات التي وصلت إليها بحوث المحققين واكتشافات المنقبين، فإذا كانت الأهداف التي وصلت إليها أيدي المنقبين إلى هذا التاريخ تصعد بعصر الدولة بالعراق، وفي مصر إلى ما فوق الألف الثالثة قبل الميلاد، فإن بلاد القوقاز لا يُعرف عنها شيء إلا بعد الألف الأولى قبل الميلاد ولا تزال بعض مناطق وسط إفريقيا لا تعرف بداية تاريخها ولعل بعضها لم يسجل تاريخه إلا بعد القرن التاسع عشر بعد الميلاد.

ثم لا يفوتنا أن ننبه الأذهان إلى الحقيقة التي تُثبت: أن في تاريخ كثير من الأمم حلقات مفقودة وإلى أن كثيراً من الحلقات المفقودة تسع دهوراً طويلة حجبها ظلامٌ دامس فمن النادر أن نجد أمةً من أمم الأرض الكثيرة، أو بلداً من بلاد الله الواسعة استمر تاريخها منذ بدايته مشرقاً واضحاً فكثير من الأمم وكثير من البلاد انطوت معالم تاريخها القديم في طيات الزمن[2].

والحديث هنا ذو شجون إذ إنه يقول: إن اختلفت الموازين التي قُدر بها عمر الزمن الذي عاشه الإنسان على هذه الأرض، فإن قدم الإنسان في هذه الدنيا العربية متفقٌ عليه.

---

(١) نفس المصدر، ص ٧١.

(٢) التاريخ العربي ومصادره، ص٧٠.

وهنا تدخل الثقافة التاريخية على قلم المؤلف ليقول: «وإن اختلفت وجهات النظر في بداية التاريخ، فإن الآراء متفقة على أن بداية التاريخ لأمة لا تصلح أن تكون دليلاً على تاريخ أمة أخرى وبدايته ما لم تكن هناك وشائج تربط بين الأمتين، فلو أن الأمم جميعها على مستوى حضاري واحد، أو كان تدرج البشرية متساوياً لما كنا نرى اليوم شعوباً شارفت القمة وشعوباً لا تزال في بداية الطريق[1].

ولا يدل شيء على تاريخ الأمم أكثر من حضارتها فحضارة سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ومصر والخليج العربي والحجاز ونجد واليمن هي التي تحدد لنا تاريخ هذه الأقطار العربية كما حددت حضارة مقدونية والهند والصين تاريخ هاتيك الأقطار. فالتاريخ الحقيقي لا بد أن يسبقه نضج حضاري يهيئ المجتمع ويرسم معالمه فالاستقرار والاستثمار: زراعة وصناعة وتجارة، يلزمان الفرد بمعرفة واجبه نحو المجتمع فيعرف ما له على المجتمع وما للمجتمع عليه واعتراف الفرد بواجب المجتمع واعتراف المجتمع بحق الفرد يضعان الأمور في نصابها. ووضع الأمور في نصابها يتيح للأمة أن تثبت وجودها في سجل الزمن».

ومن هنا يقرر أن حضارة الجزيرة العربية أنفسح مجال البحث فيها بسبب المصادر التي وفرتها الدراسات الأثرية.

وبالنسبة للتأريخ العربي فإن مصادره تشكل الجزء الثاني من العرب في أحقاب التأريخ التي يطرح المؤلف موضوعاته كفكرة التأريخ العامة من حيث المعنى والمصطلح ثم يُتبعه بالمصاعب التي تواجه الباحث التاريخي وهي كما يقول لا تزال قائمة أمام هذا الباحث خاصة إذا علمنا أن النقوش والأحجار الأثرية هي تُشكل جُزءاً من تأريخ الجزيرة العربية ولذلك يسمي الباحثون هذا النوع من التأريخ بالعصور الحجرية ولِماَ قلناه أدلةً معقولة تؤكدها النقوش والحجارة نفسها.

والمؤلف وقف على ذلك وقوفاً بشخصه وبصره فاستطاع أن يتعرف على مدلولات هذه النقوش والحجارة المنقولة من الجبال.. جبال جزيرة العرب وخاصةً شمالي الغربي منها التي تُحاذي مدينته المدينة المنورة فقد ذكر في ثنايا حديثه أن ذلك كان في عهد رئاسته لبلدية المدينة المنورة.

---

(١) نفس المصدر، ص٧٧.

وعلى ذلك يقول الأستاذ أمين: «وعلى كثرة النصوص المدونة، القديمة منها والجديدة ووفرة النصوص الأثرية الجديد اكتشافها والقديم، فإن جمع المواد التاريخية وتحقيقها وتصنيفها تأريخاً عاماً مرتبط الحلقات من بداية التأريخ العربي إلى فجر الإسلام هو ولا شك فوق طاقة الفرد.

وما هذه المؤلفات التي تحمل أسماء تدل على العمومية مثل: «تأريخ الأمم والملوك» و«البداية والنهاية» و«ديوان المبتدأ والخبر»، إلا محاولات مهّد بها المؤلفون القُدامى الطريق لمحاولات جديدة قام بها الذين عنوا بالتأريخ العربي القديم مثل (الألوسي) في مؤلفه (بلوغ الأدب) و(جرجي زيدان) في كتابه (العرب قبل الإسلام) و(جواد علي) في كتابه (المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام)»[1].

وإذا كُنا فيما مضى نُساير المؤلف في استطراداته عن التأريخ العربي القديم قبل وبعد الطوفان إلى القرن الخامس الميلادي فإنه يقفنا الآن عن تأريخ العرب في الإسلام ويؤكد على تاريخية السيرة النبوية الشريفة والمغازي النبوية وما أكثر عناية المؤرخين التي تألفت منها سيرة النبي ﷺ ومغازيه، وتنحصر نصوص السيرة والمغازي في أحاديث النبي ﷺ وأقوال صحابته.

ولقد تفرغ الكثيرون لتحقيق كل حديثٍ نبوي وكل أثرٍ صحابي وبينوا المُجمع على صحته من الأحاديث والثابت من الأقوال المأثورة وأبدوا آراءهم في رواة الحديث والأثر.

ثم يأتي بعد السيرة والمغازي تأريخ الخلفاء الراشدين والعناية بتأريخ الخلفاء الراشدين تأتي في المرتبة الثانية لا سيّما خلافة (أبي بكر) و(عُمر) أما الأحداث التي وقعت بعدهما فكثيرٌ منها لم يسلم من التحزب للعلويين والتحزب للعثمانيين الأمويين ونُساير المؤلف بهذا إلى أن يقول: ومن بعد الخلفاء الراشدين بلغت مواد التأريخ العربي من الكثرة وتعدد الموضوعات التاريخية ما حصر جُهد المؤلفين في جمع النصوص كما وصلت إليهم دون أن يعيروا رواتها شيئاً من الاهتمام الذي بذلوه في معرفة رواة الحديث والأثر وأخذت المؤلفات التاريخية تنتقل من الموضوعية إلى موسوعات في التأريخ السياسي والأدبي والاجتماعي وفي تقويم البلدان وتراجم الأعلام وأرومات الأنساب إلى غيرها»[2].

---

(١) التاريخ العربي ومصادره صفحة (٢٢) طبعة دار القوافل - الرياض ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨.

(٢) التاريخ العربي ومصادره، ص٢٣.

ومن أواخر العصر العباسي -والحديث للمؤلف- بدأت الغيوم تتكاثف وتحجب الأحداث التاريخية لا سيّما في قلب الجزيرة العربية وشواطئها الغربية والشرقية والجنوبية.

فلقد انزوت أقطار عربية في ظلامٍ حالك حجب عن الأنظار حياتها فجهل العالم ما يحدث فيها وجهلت هي ما يحدث في العالم بل من تلك الأقطار ما جهل أهله ما يحدث في أراضيهم وهذا ما جعل النصوص التاريخية لفترات طويلة من زمن البلاد العربية في مستوى النصوص الجاهلية في عصورها المظلمة قلّةً وغموضاً فتصفية نصوص التأريخ العربي الإسلامي من الشوائب وتلخيصها في مؤلف واحد يطلق عليه اسم التأريخ العربي الإسلامي العام هو أيضاً يحتاج إلى جهد جماعي تحتضنه دولةٌ غنية من الدول العربية ويتساءل المؤلف قائلاً: واليوم يتساءل الباحثون في التاريخ ما هي نصوص تأريخ القرن العشرين التي ستطلع عليها الأجيال القادمة؟ إنني أترك الجواب عن هذا السؤال إلى رجال المستقبل.

وإذا ما أتينا إلى الجزء الأخير من العرب في أحقاب التأريخ وجدنا المؤلف في الصفحة السابعة عشرة يُعرف مصطلحين عظيمين هما العرب والعربية، فالعرب اسم أُمة والعربية اسم أرض وهما عبارتان أو مصطلحان على الرغم من قِصر تعريفهما إلا أنهما متكاملان وإن هذه الأرض التي هي مهد هؤلاء العرب بل مهد الساميين كذلك يرى أمين مدني أن العرب هم أصل الساميين وأن جزيرتهم هي الجزيرة العربية وليست شبه الجزيرة العربية كما يتداوله ذلك بعض المؤرخين المتأخرين.

ولكن ينبغي أن نُعرّف المتلقي بأن هذه الجزيرة لها أقسام خمسة وهي (الحجاز ونجد والعروض وتهامة واليمن)، لكن مؤرخنا الكبير أمين مدني يقول: إنه وضع هذا الكتاب في سبيل جمع الأقوال التي تناقلها من ألفوا في جغرافية البلاد العربية وتأريخها والوصول إلى ما يقصده أصحابها من الأقدمين مما يُزيل ما حاول الاستعمار قديمه وحديثه أن يرسخه في أذهان الكثيرين من أن العراق وسورية ودلتا النيل وضفته الشرقية ليست من الجزيرة العربية ولا تمُت إلى العرب والعروبة بصلة.

ولا شك في أن هذا المؤرخ هو من أصحاب القلم وكُتّابه أديباً مؤرخاً صاحب ثقافة تاريخية واسعة. وله رؤية حضارية إلى التاريخ العربي الإسلامي العريق يتميز في ذلك بروح البحث العلمي والدرس الأثري على أسلوب بياني أدبي ساحر، ومنهج بحثي مدروس في هذه الأجزاء من الموسوعة المذكورة التي حوت على ألف وست مائة صفحة غطت فكرة التاريخ ومصادره وتقويم الجزيرة العربية وجغرافيتها والتاريخ.. تاريخ العرب العام وبدايته. وقد رجع في رصد هذه الموسوعة الضخمة إلى مئات المصادر والمراجع والدوريات والمجلات والصحف التي حوت البحوث والدراسات والتاريخيات عدا الآثار والخطوط والنقوش التي وقف عليها والمخطوطات التي فحص ما فيها.

ويبدأ فيها بالقرآن الكريم كأصل من أصول هذا البحث الدقيق والموسع والأسفار الدينية في الملل الأخرى التي دخلها التحريف بيد اليهود وبعض النصارى والمشركين ويذكر ذلك بالأسماء وعددها، كأسفار التكوين والخروج التي نسبوها إلى موسى عليه السلام وسفر يوشع بن نون صاحب موسى وسفر أيوم وعزرا وسفر زبور وأمثال سليمان بالنسبة للأسفار القديمة. أما الأسفار من العهد الجديد ففيها يذكر المؤلف سفر إنجيل متّى وسفر إنجيل لوقا وسفر إنجيل يوحنا وسفر إنجيل مرقس، وهكذا فالتاريخ له مجالات متسعة فحصها المدني بالأفكار والمتابعة والتدرج إلى أن وصل إلى العصر الإسلامي والعربي إلى يومنا هذا، فهو يبحث هذا التاريخ بطاقة هائلة وقدرة صائبة ومتابعة حصيفة بحيث لم ينتهِ مما أراد كتابته على الرغم من أنه قد استطرد وألف طويلاً في أحقاب التاريخ للعرب مشدداً في ذلك على منتهى الدقة التاريخية ووجوب أن يكون المؤرخ مهما كان أن يستيقن ويتأكد بالبراهين المشهودة كالآثار والمخطوطات والكتب «كتب التاريخ» و«كتب الأديان» وكتب «تاريخ الشعوب على وجه العموم».

وهذا اتجاه ثقافي أدبي اختطه أمين مدني في أعماله وآثاره وما كتبه وقدمه ككتابه «حواضر الثقافة الإسلامية» وهو كتاب يؤرخ لعواصم وأهم مدن العالم الإسلامي ومعالم ثقافته عبر التاريخ الثقافي العلمي والديني والتربوي كإحصاء ومسح ميداني بالأدب التاريخي -إن جاز التعبير-.

والكتاب هذا بحث يتميز بالفكر التاريخي بحيث بدأ مؤلفه بطرح الأصول التاريخية للتربية في حواضر الثقافة الإسلامية ومعالم هذه الثقافة الدينية منها والعلمية والتاريخية القديمة التي شهدها المشرق الإسلامي ثم المد الثقافي الذي انتشر في هذا العالم بعد قيام الدولة العربية الإسلامية الممتدة من الصين إلى اسبانيا.

ثم تحدث المؤلف في هذا الكتاب عن الأديان والعقائد والهجرات بالعقائد والثقافة وأن الإسلام يدعو إلى الاعتدال، والكتاب يقع في أكثر من مائة وثلاثين صفحة وقد شرح المؤلف في الفصل الثاني عن حواضر الثقافة وقواعد الدراسة في الجزيرة العربية والمشرق الإسلامي وفي شمال إفريقيا والأندلس مسهباً في الحديث عن مشارق الأنوار في الدين الإسلامي والعلوم والآداب والثقافة التي غمرت هذه المناطق بل العالم أجمع وجوامع مدنه كمكة المكرمة والمدينة المنورة والأزهر والقيروان وجامعته وتونس وجامع الزيتونة وجامع تلمسان وبحالة وسلا من مدن المغرب الأقصى.

كما عرج على نجد والدرعية بالأمس والرياض اليوم وعُمان وشعوب الخليج العربي الإسلامي ودمشق والقدس وحلب وحمص وبيروت والكوفة والبصرة وبغداد إلى كل حواضر الثقافة ومعالمها قديماً وحديثاً تحدث عن هذا كله الأستاذ أمين مدني بروح نكهتها العلم والأدب واللغة المتمكنة والدين.

ويقال في عالم الأدب أن من معانيه الإلمام من كل علمٍ بطرف وهذا يصحُ على المدني إذ أن له كتاباً اسمه «الاستثمار المصرفي في ضوء الإسلام» ألفه ونشره في عام ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م طرح فيه معلوماتٍ وأرقاماً وإحصائيات عن المصارف القديمة والحديثة كما أذكر ذلك حينما كتبتُ عنه في جريدة المدينة في تلك الفترة من الزمن عندما كنتُ مُحرراً ومُشاركاً في المُلحق الثقافي الأدبي فيها.

على أن أمين عبد الله مدني حاذقٌ في تأليف العلوم وكتابة الأدب وترصيعه باللغة القوية والأسلوب الجزل بفنية ثقافية لغوية جميلةٌ جداً، وكيف لا وهو الذي رضع لبان العلم في حلقات المسجد النبوي الشريف بالمدينة المنورة وفي كتاتيبها الدينية والأدبية ولقي النشأة والتربية في أخواله من قبيلة عوف، وفي ذلك هو يذكرنا بالعرب السابقين الرواة منهم والإخباريين.

يقال أن الأصمعي لقي إعرابياً في إحدى ضواحي الكوفة فسأله الأعرابي: ما حرفتك؟ قال له: الأدب، قال الأعرابي: نعمَ الشيء هو فعليك به فإنه يُقرب المملوك في حد الملوك.

المدني في مؤلفاته وبالذات العرب في أحقاب التأريخ يمتلك أسلوباً قوياً إنه يُجاري كبار الأدباء واللغويين في العصر الحديث أمثال محمد كرد علي وخير الدين الزركلي وأحمد تيمور وأحمد زكي باشا والرافعي وغيرهم من الأدباء الذين يمتلكون الأسلوب المتمكن واللغة الشاعرة والأدب الرفيع.

إذ يشكل البحث الأثري لديه فكراً تاريخياً، أضف إلى ذلك المعالم والشخصيات التاريخية كذلك الأزمان والقرون والسنوات التي تشكل مواقف تاريخية لدى هذا المؤرخ. فهو يستخدم اللغة ويضيف إليها الفكر والأدب ليجمع بين التاريخ والآثار والجغرافيا ومصادر ذلك كله من كتب ومخطوطات وصحائف ونقوش فهذه مسارات ومعالم وطرائق للتأليف عن العرب في أحقاب التاريخ.

يلقي رؤيته الأثرية ونظرته للتاريخ خلال الأزمنة والأمكنة في جزيرة العرب وليس في شبه الجزيرة كما يقال وهو "جزيرة العرب على أسسها الجغرافية والمكانية القديمة يبرر للذين يقولون أنها شبه جزيرة بخلاف هذا التحديد من خلال الوجهات والحدود الجغرافية الشيء الذي ينطلق منه المدني كباحث ودارس للتاريخ وجغرافيته.

فالجزيرة مهد العرب، ولغة العرب ناشئة من هذه البيئة، بيئة الجزيرة ذات المعالم والمظاهر الجغرافية والسكانية والمدن والقرى والبلدات والأودية والجبال.

وبالنسبة لمساره مع العرب في أحقاب التاريخ يحسب أنه مفكر تاريخي استطاع عن جدارة أن يضع لتاريخه موقعاً علمياً وثقافياً وأدبياً نظراً لهذه المسيرة التاريخية الطويلة فقد حفل تاريخه العربي هذا أكثر من ألف وخمسمائة صفحة ضمها ثلاثة أجزاء من العرب في أحقاب التاريخ، وليس الأمر هنا بالكمية أو المادية ولكن بالعلم والأدب والتأليف والتثقيف الذي طرحة أمين مدني في هذه الحقب التاريخية والعلمية والأدبية الرائعة، فاستطاع أن يكون للجزيرة العربية تاريخاً ومصادر وجغرافية في هذه الحقب الفكرية التي غاص بنا فيه كسياحة معنوية علمية

وتاريخية وأدبية. كما استطاع هذا المؤرخ أن يوجد للجزيرة العربية حضارة معنوية أرخ لها تاريخاً عظيماً وأدباً جميلاً بما حَبَّره في هذا التاريخ الواسع من تفاصيل في الحركة التاريخية والنشاط العلمي والجغرافي، والأروع من ذلك أنه خصص لمصادر هذا التاريخ جزءاً من العرب في أحقاب التاريخ، حيث سرح في هذا الجزء ما بين المخطوطات والبحوث والكتب والرسائل وما إلى ذلك من آثار تاريخية ولغوية وأدبية أثبت به أنه باحث مدقق لم يمل ولم يكل في هذا البحث المستميت العظيم بل استطاع هذا الرجل من أن يخوض عباب بحر البحث بكل ما أوتي من قوة، وهذا يجعل منه باحثاً مدققاً ومؤرخاً صبوراً وأديباً ذا أسلوب لغوي وبلاغي وبياني جزل.

ولم يكتف أمين مدني بالتاريخ العام بل إنه أرخ للمجتمع والدولة في قلب الجزيرة العربية، وكما أرخ لذلك فقد أرخ لجنوب الجزيرة وشرقها وشمالها كما كتب التاريخ العربي في القسم الغربي من هذه الجزيرة العظيمة، بل إنه أرخ للعرب وحضارتهم في وادي النيل، فهو يقول على سبيل المثال: يؤكد المحققون في تاريخ مصر القديم من المستشرقين مثل(بريستد) و(جون ويلسن) و(ل. ديورانت) أكثر ما قاله جهابذة المؤرخين الإسلاميين مثل الطبري، وابن قتيبة، والمسعودي، عن العرب الذين سكنوا الصحراء الشرقية المترامية على ضفاف النيل، منذ فجر التاريخ الإنساني[1].

فمما قاله المؤرخون المصريون عن الحضارة المصرية واتصالها الوثيق بالحضارة العربية في داخل الجزيرة يتبين لنا: أن العمالقة الحجازيين والفراعنة المصريين كانوا على مستوى حضاري لا ينقص هنا في الحجاز عنه هناك في مصر ويتبين لنا: أن الشعبين كانا على صلة ثقافية يتبادلان المعارف والفنون ثم شاء الله أن يمنى قلب الجزيرة بالجفاف وأن تستمر حضارة مصر بفضل النيل. فمصر كما يقولون: هبة النيل. وهنا يستخلص المدني ما يلي:

وإنني أؤكد أن لو بحث عن آثار قلب الجزيرة لظهر فيها ما يدل على حضارة لا تنقص عن حضارة الواديين الفرات والنيل. وإنني هنا أذكر أثراً ضئيلاً ظهر عندما كنت رئيساً لبلدية

---

(١) التاريخ العربي وبدايته ص٣٨٧ طبعة دار القوافل – الرياض ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

المدينة المنورة، فقد قامت بلدية المدينة بعمل بالوعات لتصريف مياه الأمطار ريثما يتم الإجراء الرسمي الذي تقتضيه الموافقة على المشروع الذي تقدمت به البلدية لإنشاء مجارٍ عامة. فلقد ظهر في إحدى الحفريات أمام باب السور القديم المسمى في العهد التركي "باب بصري" الواقع شمال السور، والذي أزيل في التنظيمات التي اقتضتها توسعة الحرم النبوي في العهد السعودي – جدار قائم تحت عمق ستة أمتار من ظهر الأرض يبلغ طول حجارته متراً ونصف المتر ويبلغ عرضها ثلثي المتر منحوتة بطريقة أدق من حجارة مباني الحرم النبوي القديم التي أظهرتها حفريات توسعة الحرم النبوي في العهد السعودي، وليس طراز نحتها من نوع حجارة أطام اليهود. ولقد بحثت مع بعض الإخوان الذين يعنون بالآثار وبتاريخ المدينة لعلنا نعرف شيئاً عن ذلك الجدار، فلم نعرف من تاريخه شيئاً غير أنه جاهلي قديم قد يكون من عهد العمالقة أو من آثار السبئيين أو المعينيين في يثرب[1].

والشاهد هنا قدم حضارة الجزيرة العربية بهذا التصور الذي أورده المؤرخ المدني، وأنه لو بحث عن آثار الجزيرة هذه لظهر فيها ما يدل على قدم حضارتها التي لا تنقص عن حضارة وادي النيل ووادي الفرات.

بعد ذلك يتبين لنا بعد رؤية المدني في التاريخ العربي وعمق نظره في هذا التاريخ الذي رصده لا ناقلاً بل متأملاً ومتعمقاً في تأمله فيما نقله من نصوص وآثار ونقول لم يجمعها جمعاً أو نقلها نقلاً بل إنه رصدها في بعد رؤيته وعمق نظره اللذين أشرنا إليهما واستنتج منها واستنبط أشياء أخرى تاريخية وحضارية وجغرافية نستطيع من ذلك أن نسمه بميسم المفكر التاريخي لجزيرة العرب شأنه شأن آخرين كان لهم أدوار في تاريخ العرب أمثال جواد علي، وجميل بيهم، وعزة دروزة الذين استعرضوا هذا التاريخ العريق للعرب قبل الإسلام وبعده.

أما بين أقرانه سواء في المدينة المنورة أو في مدن الحجاز الأخرى فأمين مدني يجاري أخاه عُبيد مدني وعبد القدوس الأنصاري وعبد الحق النقشبندي وعلي حافظ وأحمد السباعي وحسين سرحان هؤلاء الذين نذكرهم من الرواد الأدباء واللغويين المثقفين في مساراتهم الأدبية هم سواء

---

(١) نفس المصدر – ص٢٦٠.

في الطرح العلمي والأدبي واللغوي تشملهم الثقافة المعرفية إذا كتب أحدهم تاريخاً أخرج آخر ديواناً شعرياً أو بحثاً أدبياً ومعينهم في ذلك واحد هو بحر اللغة والفكر والثقافة والأدب وكما يقول الجاحظ: المعاني توجد في الطريق وإنما العبرة بالألفاظ، ويقصد بذلك أن الأسلوب هو الذي يشير إلى الكاتب أو الأديب أما المعاني فهو مطروحة في كل مكان والله أعلم.

ولد بالمدينة المنورة عام: (١٣٢٨-١٤٠٤هـ/ ١٩٠٩-١٩٨٤م).

عبيد مدني

ولد عبيد بن عبد الله بن حمزة بن محمد بن محمد المدني، بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٤هـ-١٩١٦م من أبوين كريمين، وفي سابع ولادته أخرجه والده عند آظآره في قبيلة بن عوف المسروحية، فأتم رضاعته منهم وأبقاه لديهم مدة من الزمن[1] وقد حفظ القرآن في طفولته ومبادئ القراءة والكتابة، ثم التحق بالمدرسة الفيصلية في العهد الهاشمي، ومنها إلى المدرسة الراقية التي خرج منها وهو في الصف الأول ليدرس في المسجد النبوي على فضيلة الشيخ/ محمد الطيب الأنصاري، ونال من شيخه هذا الشهادة العالمية التقليدية مع التقدير.

أما شيخه محمد العمري فقد وجهه إلى دراسة الأدب والتاريخ، فنبغ في هذه العلوم الشرعية واللغوية والأدبية طيلة شبابه، حتى انتخب عضواً في مجلس إدارة المدينة المنورة، كما عين مديراً لأوقاف المدينة، ثم انتخب عضواً في مجلس الشورى نائباً عن المدينة ورئيساً لجمعية الدفاع عن فلسطين، وعضواً في مجلس الأوقاف الأعلى، سوى عضويته في مجالس ووفود أخرى عالية.

وفي شهر رمضان من عام ١٣٧٣هـ صدر الأمر بناءً على طلبه بإحالته إلى التقاعد نظراً لتوعكه الصحي آن ذاك.

وعبيد مدني أديب مطلع وشاعر قدير ومثقف غزير المادة العلمية والثقافية والمعرفية، اطلع على كثير من أمهات كتب اللغة والأدب والشرع والتاريخ والآثار، كما كان له اشتغال في هذه الدراسات والمعلومات والقيم والآثار.

---

(١) مجلة المنهل - لعبد القدوس الأنصاري - العدد الخاص بتراجم وأدب أدباء المملكة السعودية المعاصرين ص٧٤٣ عدد رجب ١٣٨٦نوفمبر ١٩٦٦م.

وهو شاعر جليل يتخذ أسلوباً في شعره جيداً وعميقاً ولغوياً وبيانياً ساحراً، فقد كان له باع طويل ومواقف كثيرة مع الشعر والأدب والتاريخ، لكنه أفلح ونجح في هذا الشعر الذي ضم أكثر من ثلاثة آلاف وستمائة وثلاثين بيتاً، كما يقول الدارس لحياته وشعره الأستاذ/ إبراهيم بن عبد الرحمن المطوع [1].

ومن أشعار الأستاذ/ عبيد أبياته في قصيدة بعنوان "يا الله" كتبها في جلسة روحية أمام الكعبة المقدسة في الحرم المكي الشريف، في شهر المحرم، سنة ١٣٥٠هـ.

لا هم أنت وسيلتي ورجائي ... وعليك دون العالمين ثنائي

فاعطف عليّ بنفحة قدسيةٍ ... تستبدل الضراء بالسراء

فلقد حللت بسوح بيتك لاجئاً ... يا ألطف الكرماء بالنزلاء

* * *

يا رب هذا البيت دعوة بائس ... ولأنت أولى بي.. وبالبؤساء

ناديت رحمتك العظيمة فاستجب ... هل من سواك يجيب حر ندائي

وعقدت آمالي ببابك مؤمناً ... إن النجاح مواجهي وورائي

فاسعف عبيدك بالقبول فماله ... سبب إليك سوى أبي الزهراء

أما في المدينة فقد بدأ يعبر عنها بشعره إبتداءً من سنة ١٣٦٥هـ، يقول:

يا رب مالي حيلة ... إلا اللجوء إلى رجاك

فعليك نصر مطالبي ... فيما تفقم من عِراك

فلقد تأزمت الخطوب ... وليس يدفعها سواك

إن ضل فكري فاهدني ... فنجاح أمري في هداك

* * *

(١) الشاعر المؤرخ / عبيد مدني – حياته وشعره – الغلاف الأخير – الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

أما في القاهرة فله شعر فاضل، وقول جيد وأدب جم، من ذلك قوله تحت عنوان "هو الله":

إذا الـتمس المكـروبُ تفـريج كربـه — من الناس لم أقصد سوى الله مرجعا
تعـودت منـه الغـوث في كـل أزمـة — تلـم إذا مـا جئتـه متخشـعا
يرينـي يقينـي فيـه درء مخـاوفي — وتصـريفها مـن قبـل أن تتقشـعا
ومـا زلـت في نعمائـه متمتعـا — ومـا زلـت أرجـو أن أزيـد تمتعـا
هـو الله مـا ترجـوه ضـاعف خيره — وأمـا سـواه أن تـرده تمنعـا
فحسـبي بـه عونـاً وغوثـاً وعـدة — وملتجـأ في كـل حـين ومفزعـا

❊ ❊ ❊

ومن مدنيات شعره قوله عن الأنصار:

أوجز ولا تطنب فحسبك إنهم — "أبنـاء قيلـة" والأصـول تبـين
شـهروا سـيوفهم وألـوا إنهـم — لـن يغمـدوها أو يعـم الـدين
فوفـوا بـما عقـدوا عليـه عـزمهم — هـل ينثني دون النجاح حـرون
واستسلمت لهم الشعوب مطيعة — والفـتح بـالعزم الوطيـد رهـين

أما في مكة فقد هنأ الشاعر سمو الأمير/ فيصل بعودته من مؤتمر فلسطين في لندن.

لـئن هنـأت نجـد لطلعـة فيصـل — فقـد شـف أرجـاء الحجـاز حنين
وإن بـلاد العـرب شرقـاً ومغربـاً — بربرج وأنـت البـدر حيث تكـون

وعندما عاد سمو الأمير فيصل من الرياض إلى مكة قال المدني وهو في المدينة المنورة:

هـــز الحجـــاز حنينـــه — لمـــا نـــأى عنـــه أمـــيره
والآن عـــاد صـــفاؤه — بإيابـــه وطغـــى سروره

أما عن فلسطين السليبة التي بارك الله حول قدسها يقول شاعرنا عبيد مدني منشداً وهو في الطائف سنة ١٣٥٦هـ:

أعيـــدوا يـــوم حِطينـــا — وذبُّـــوا عـــن فلســـطينا

وحوطوا مجد ماضينا | وصونوا العرب والدينا
ودكوا مَنْ يناوينا

أعدوا الحملة الكبرى | وجوبوا السهل والوعرا
وغطوا الجو والبحرا | مقاويهاً ميامينا
وشبوها براكينا

تناديكم فلسطين | وقد أورى بها الهون
وجاس خلالها الدون | وعاثوا في الحمى حينا
فهل ثرتم ملبينا؟

أيحويها الأذلاء | ميسرة كما شاؤوا
وأنتم بعد أحياء | ولم تغشوا الميادينا
ولم تفنوا الملايينا

كفانا القول والخطب | فأين الجيش والقضب؟
وأين الحرب والحرب؟ | لقد جد الأسى فينا
وكاد اليأس يطوينا

كغيره من الشعراء الذين تغنوا بفلسطين الحبيبة، وحثوا على تحريرها من يهود هذا العصر الصهاينة المعتدين..

وقريب من هذه القصيدة قصيدة الشاعر المدني عن جهاد الجزائر التي احتلت من قبل الاستعمار الفرنسي أكثر من قرنين من الزمان، حتى تحررت عام ١٩٦٢م، يقول في ذلك شاعرنا المدني:

مرحى لأبطال الجزائر | من كل ثائرة وثائر
رمز الكفاح إذا تحدثـ | ـت القنابل والبواتر
وشواهد الخطباء في | كل المحافل والمنابر

مَثَلٌ تُرَدِّدُه العصور		وتشرئب له المناظر
الواهبين نفوسهم		وهي العزيزة للمجازر
الشاربين من النجيع		ألذ من حلو السكاكر
عزموا وفي عزماتهم		بسمات هزء بالمخاطر

* * *

وجروا إلى غاياتهم		وتعاقدوا فيها الخناصر
واستبدلوا صوت المدافع		بالأغاني والمزاهر

* * *

عرفت فرانسا منهم		صفة البطولة في القساور
فتراجعت مقهورة		بعد التناجز والتنافر
لم تغنها العُدَدُ الحديثة		والعديد من العساكر

* * *

"إيفان" تروي ما رأته		-وما- رأت غير المفاخر
لتضيف مجداً بازخاً		للأولين من الأواخر

* * *

هذي البطولة للخلود		فحيّ أبطال الجزائر

* * *

وللشاعر / عبيد مدني، أقوال شعرية ومقالات أدبية يقولها في الحل والترحال بين ربوع بلاده أو خارج هذه الربوع، وقد نظم قصيدة عصماء تحت عنوان "جبال سويسرا" قال فيها معبراً متأملاً متفكراً..

جبال سويسرا فوق الجبال		بدائع من تصاوير الخيال
كأن يدي مفن دَبَّجتها		رسوماً جاوزت حد الكمال

جبال شاهقات من زهور | فلا أثر لصخر أو رمال
مناظر ليس يدري المرء فيها | أيمشي في الجنان أم الجبال
ويحسبها طيوفاً عابرات | مجنحة العجائب والمثال

* * *

مراتع دهشة ومجال حسن | ومجلى بهجة وسنى جلال
كأن سفوحها بُسُطٌ حباها | رقيق النسج ألوان الجمال
منمقة النقوش منمنمات | موشاة الجوانب والعوالي
هبات الله أخدمها ذووها | عقولاً ما درت معنى المحال
سواذج للطبيعة كيفوها | وأبدوها مشقشقة الصقال
وقفت بها وأغرق في ذراها | شعور شدني عما حيالي
تنازعني محسات لجوج | وتمعن في النقاش وفي الجدال
أما كانت جبال الألب قفراً | ومأوى للوحوش وللرخال؟
فكيف تحولت غَنَّاء غلباً؟ | معطرة الشذى رحب الظلال
فهل هذي خصائص لم تنلها | عداها من جبال أو تلال
أم ان النجح موقوف على ما | أتاه رجالها دون الرجال
هراء إنما الإبداع رهن | بمن لا يستكين إلى الكلال
وما هذي الحياة سوى عراك | يبرز فيه كرار النزال
وفي وطني جبال عاليات | وفيها كل أسباب النوال
وتكمن في طبيعتها دواع | تهيب بكل وثاب الفعال
جمال في المناخ إلى اتساع | إلى خصب إلى ماء زلال

* * *

وسحر في مسالكها مشاع | وجنات منوعة الغلال
ولو جدت يد التنظيم فيها | أحالتها شموساً في الليالي
فهل تشدو جبال الألب يوماً | وتزهى بالفنون والاختيال؟

وتغـــدو للســـياحة مســـتراداً　　　ومهـــوى للخـــواطر والرحـــال

بـــلى ســـيكون إنِ العـــزم يثنـــي　　　إلى مـــا يشـــتهي صـــعب المنـــال

نظم شاعرنا المدني قصيدته هذه وهو في زيارته إلى لوزان في يوم ٣٠/ ٤/ ١٣٨٢هـ.

وإن قصائد وشعر شاعرنا عبيد مدني تتحدث عن نفسها دون أن تنلها يد ناقد، لأنه قد شرحها في بعضها البعض ومن خلال أبياتها وأوزانها وقوافيها التي احتوت مواضيع شتى من الأقوال الروحانية والأوصاف الطبيعية والمديح الصادق أو التعبير الجميل عما تكنه نفسه للآخرين وللبيئة التي من حوله ولوطنه وبلاده.

وقد صدق في مقدمته للجزء الثالث من ديوانه "المدنيات" الذي خصصه للمثنيات من الشعر: (لم تنظم هذه المثنيات في وقت واحد ولا في مكان واحد ولا في جلسة واحدة، ولم تتفق في الوزن ولا الروي، بل هي قطع متفرقة، فكل مثنى منها صدى لمناسبة عرضت، أو مشهد لاح أو حدث وقع، أو فكرة طرأت، فهي صور شتى الألوان ونفثات عن مختلف المشاعر..).

وما أروع أن يستهل شاعرنا بمثنى:

يـا رب خـذ بيـدي وقَـوِّ عزيمتي　　　واحفظ بفضلك من ومـا أعطيتني

واجعل حياتي مـا حييت سعيدة　　　وتـــولني يـــوم الحســـاب ونجنـــي

وفي هذه المثنيات بعض الغزليات من شعر الشاعر استهلها بقوله:

جمالـــك والمنـــى مترادفـــان　　　وحبـــي والمـــدى ملازمـــان

مـلأت جـوانحي شـغفاً ووجـداً　　　فوصـــلك والســـعادة توأمـــان

ثم يقول في مثناه بالمدينة المنورة سنة ١٣٤٤هـ تحت عنوان " غزالة الوادي ":

بوادي قناة أصمت القلـب غـادة　　　مهفهفـة الكشـحين بـارزة النهـد

فتـــاة كـــأن الله أوحـــد حسـنها　　　لتسلب الألباب بالرائحة الفرد

* * *

ويبدو مما اطلعنا عليه من هذه المثنيات أنها قيلت في عمر مبكر للشاعر.. أي في فتوته وشبابه، وإنما ضربنا بالبيتين السابقين المثناه مثلاً لقول الشاعر في غرض الغزل وهو غرض لم يخل شعر شاعر في العربية منه.

وإلا ففي مثنيات هذا الديوان للشاعر/ عبيد مدني.. أقوال في الروحيات وفي الحكم والنصائح، كما أن فيها صوراً اجتماعية وذاتيات خاصة بمشاعر الشاعر، وما إلى هنالك مما تناوله في هذه المثنيات.

وقد جاوز الصفحات هذا الجزء من ديوان الشاعر/ عبيد مدني المائة وستين صفحة. وله مؤلفات تاريخية تتعلق بالمدينة المنورة ومسجدها النبوي ومساجدها عامة، وآطامها وتواريخها ومؤرخيها وأمرائها وقضاتها، إنما للأسف لم تطبع حتى الآن ولم تذع أو تبث للنشر الورقي، كما هو مثبت فيما اطلعنا عليه في شعر وحياة شاعرنا "رحمه الله".. وإلا فالرجل مؤرخ موسوعي لتاريخ الجزيرة العربية ومعالمها وآثارها نظرياً وفكرياً وثقافياً.. يذكرنا بأخيه أمين رحمه الله.. الذي رثاه بعد وفاته بتاريخ ١٧/ ١١/ ١٣٩٦هـ، يقول أمين عن أخيه عبيد:

قدر طوى صِنوي فصرت وحيدا	وغدا الشقيق رؤى يلوح بعيدا
ما كنت أحسب عندما ودعته	أني أودع هالكاً مفقودا
فكأنه رفض الترحل صحبه	للموت يبقى زاهداً موعودا
نزل القضاء به ففرق بيننا	يا ليته حي وكنت – فقيدا
يا من تقحم في الحياة كؤودها	قد كنت تعبر شاهقاً وصعيدا
قاسيت أمراضاً لأمت جراحها	أنى تكون بعثرة موؤودا!!
الموت قناص ونحن فريسة	يصطاد منا واهناً وجليدا
كم كنت أرجو أن تكون مؤبني	يا شاعراً نظم الدموع عقودا
شاطرتني حلو الحياة ومرها	فلكم وقفت بجانبي صنديدا
كنا معاً نسعى لنيل مطامح	سهلاً تكون وتارة جلمودا

وهي مرثاة تذكرنا بمراثي الخنساء والمتنبي وحافظ إبراهيم ومن إليهم من الشعراء العرب الراحلين الذين رثوا أعزاء عليهم من ذويهم أو سواهم من المرثيين.

توفي الشاعر عبيد مدني في القاهرة صباح يوم الخميس ١١/ ١١/ ١٣٩٦هـ ونقل جثمانه إلى المدينة المنورة ودفن في بقيع الغرقد بالمدينة –رحمه الله–.

عبد العزيز الربيع

هذا العلم أديب ناقد، ومثقف بارع، ومربٍّ فاضل، من أعلام المدينة المنورة في القرن الرابع عشر الهجري المنصرم.

كان يقرأ الكتب ويطلع على أمهاتها، ويصنف في ذهنه المعلومات المفيدة ويستذكر في وعيه أفكارها، وبذلك مرن نفسه على حب الأدب ونقده حتى اجتمعت لديه نصوص من التراث ومعارف من الثقافة وقيم من الفكر. لقد مر عبد العزيز الربيع بمراحل خصبة أعطى فيها أكثر مما أخذ، فكان يعود القراء بفصول من الأدب ونقده، وكم أمتع هؤلاء بثاقب الفكر وفوائد القول وجميل النقد ورائع الأسلوب.

وأستطيع القول إن عبد العزيز الربيع، الأديب السعودي الوحيد الذي قام مقام الناقد وهو في ذلك رائد، والرائد لا يكذب أهله. حيث لم ينشر مؤلف أو يوزع كتاب أو يصدر إصدار إلا ونجد الأستاذ الربيع أول من يعرضه في الصحف ويكتب عنه أو يناقش مؤلفه وينقده. وظل على ذلك سنين عديدة، وهو يدبج المقالات ويكتب الفصول ويعرض الكتب، ويصنف الملحوظات الأدبية ويبديها بنقد نزيه وأسلوب عال وعرض دقيق.

عبد العزيز الربيع في المدينة، مثل عبد العزيز الرفاعي في الرياض، مثل محمد سعيد العامودي في مكة. هذا الثالوث الأدبي النقدي تجمعهم المعرفة الأدبية، والنقد الثقافي، والعامل التراثي بأساليب ملونة، غاية في الدقة، أصالة وروعة وعرفانا. وبما قدمه الربيع وأمثاله انتعشت الساحة الأدبية والنقدية في الصحافة صحافتنا الأدبية والثقافية في الزمن الجميل الثمين. وكان هذا التقديم، التقديم الكريم للمعرفة والأدب والنقد والفكر الذي أثرى القراء في كل صقع وصوب من معين الوعي الثقافي الحقيقي.

ومن القراء أوفياء للأدباء الذين يقرؤون، مثل محمد سعيد العريان بالنسبة للأستاذ مصطفى صادق الرافعي، الذي جمع أعماله وحققها، وكتب عنه «حياة الرافعي» تعريفاً وسيرة وتاريخاً. أما الأستاذ الربيع فقد قيض الله له بعد وفاته من يجمع أعماله النقدية والأدبية، ذلكم هو الأستاذ محمد صالح البليهشي، وهو أديب وكاتب، له اتجاه علمي وأدبي جمع ست مجموعات حتى الآن من تراث الربيع -رحمه الله- ونشرها له نادي المدينة المنورة الأدبي.

ودور الأستاذ البليهشي لا يقتصر على الجمع بل هو في الترتيب والإعداد ونفض الغبار عن إنتاج عبد العزيز الربيع وأدبه ونقده وثقافته. وبذلك يكون البليهشي قد أسدى للأدب العربي السعودي يداً بيضاء وجانباً مضيئاً من جوانبه المشرقة.

في إحدى هذه المجموعات كتاب بعنوان "كتب ومؤلفون" تأليف الأستاذ عبد العزيز الربيع، إعداد وجمع محمد صالح البليهشي، عرض الربيع الأديب الناقد كتباً مهمة في الأدب والشعر والفكر أمثال:

- كتاب الرافعي ومي للأستاذ عبد السلام حافظ.
- مع الكاظمي للأستاذ عبد القدوس الأنصاري.
- فصول من تاريخ المدينة المنورة للأستاذ على حافظ.
- الرسول في رمضان للدكتور علي حسني الخربوطلي.
- الرسول: حياة محمد للمستشرق بودلي.
- ترتيب القاموس المحيط للأستاذ طه أحمد الزاوي.

ومحّضها نظراته النقدية وآرائه الفكرية ومواقفه الشخصية برؤية أدبية وحسن تقليب لفصول هذه الكتب وأبوابها. ويرى القارئ أن الأستاذ الربيع الأديب الناقد هو مؤلف هذه الكتب لحسن معلوماته عنها وبصائره بما ورد فيها وليس هو الذي يعرضها. وهذا يسمى دربة الناقد وبصيرته ومعرفته بالثقافة والأدب والنقد.

والكتب بأسمائها المذكورة عرضها الربيع الأديب الناقد عرضاً موسعاً حتى بلغ أغلبها في أربعة فصول أو أربع حلقات، وكانت الحلقة الواحدة يبلغ حجمها في صحيفة المدينة آنذاك نصف الصفحة.

ولك أيها القارئ أن تتصور الإثراء الأدبي للنقد في مثل هذه الموضوعات الأدبية والنقدية في مجال أدبي بحت لا تدخل الثقافة كما هي اليوم -فيه- على وجه الإطلاق. لمثل هذا أثرى أدباؤنا الأعلام تاريخ أدبنا بالذخائر الوفيرة والعروض السخية والإنتاج المعرفي والأدبي والشعري الموغل في الخير والعرفان وبركة العلم والأدب والنقد النزيه.

وما من شك في القدرة التكتيكية للناقد التي كان يمتلكها الربيع حيث يستعرض نقده للكتب بالمعلومات والمعارف، وبذلك استطاع أن يضع النقاط على حروف النصوص المعروضة والمنقودة كما كان يحدد رأيه من القضايا والموضوعات الواردة في تلك النصوص ويقوي آراءه بمواقفه العلمية والفكرية التي مرت في حياته سواء ما يخصه أو ما مر به من الآخرين من رجال العلم والأدب وأساطين المعرفة وجهابذة النقد الأدبي ورواد الفكر والنقد. وعندما صدر كتاب الأستاذ الأنصاري عن الشاعر الكاظمي استعرضه الربيع بدراسة وافية بدأها بتقديم قاله فيه:

«كُتَّابنا في هذه الأيام -١٣٨٨هـ- ينقسمون إلى طائفتين. طائفة تتفادى شر النقد والمناقشة وما يجره ذلك من شد وجذب وغضب واستفزاز وكر وهجوم ودفاع وحسبهم كتابة مقالات قصيرة أو طويلة تقوم على طُرْفة في قديم أو حادثة في الحديث أو تعليق ساخر أو تعقيب عابر. أما الطائفة الثانية فهي في شغل شاغل بما يسمونه قضايا العصر كالوجودية واللامنتمي واللامعقول والرفض.. وليس لنا اعتراض على اتجاهات هذه الطائفة ولا على ما تعالج من قضايا لولا أن بعض أفرادها ينصبون من أنفسهم أوصياء على الأدباء والمفكرين». كتب ومؤلفون ص ١١٣.

هذا النص على الرغم من قصره، نموذج نقدي لعبد العزيز الربيع يحمل في عباراته الرؤية الناقدة لكتاب مرحلة، انتهى أكثرهم بحكم الزمن. ولكن الموقف النقدي هذا جدير بالاحترام، حيث نقل الربيع صورة حية لتلك المرحلة عبر موقفه هذا وهو يقول:

«من خير ما قدم أدباؤنا في عامنا الحالي هذا الكتاب.. وأول ما نلاحظه هو الفتور الذي قوبلت به هذه الدراسة القيمة وذلك في رأينا شيء طبيعي لأن كتابنا هذه الأيام ينقسمون إلى طائفتين.. إلخ. نفس المرجع.

قلت: وإذا كانت هذه المرحلة المنقودة على ما قال ناقدنا الكريم فماذا عساي أقول اليوم!! ونحن نعيش مرحلة صعبة أدبياً وإعلامياً وثقافياً واجتماعياً وتربوياً. إن رؤية الكتاب اختلفت، فصار الإنتاج الأدبي الآن يقبع في مشهد واحد ليس اسمه، سَمِّهِ ما شئتَ ثقافة ما!! كتابة أي كتابة؛ وأستثني منهم ذوي الأصالة.

فتصور الربيع -قارئي- وهو ذاك الناقد في العصر الذهبي يشكو من الساحة الكتابية وأدبها، وإنتاجها، وما يصدر فيها من كتب جليلة ككتاب الأستاذ الأنصاري عن الكاظمي الذي لم يجد أذنا صاغية إليه إلا ممن رحم الله.

وثمة كتب بحاجة إلى نقاد قبل القراء يدلونهم على طروحاتها ويستعنون موضوعاتها وينقدونها لهم. وفي طبعاتها المقبلة ستظهر الكتب المنقودة بتنقيحات وإضافات جديدة. وكما أن النقد صنو الأدب، فإن الناقد هو أخو الأديب. والله أعلم.

محمد سعيد الدفتردار

هذه الشخصية هي من المدينة النبوية المنورة حيث ولد فيها الأستاذ والشيخ محمد سعيد الدفتردار سنة ١٣٢٢هـ الموافق ١٩٠٤م.

لا نعرف أين درس وأخذ العلوم ولكن من خلال ما عرفناه أنه أخذ من العلم بحظٍ وافر في هذه المدينة المنورة وهو أديبٌ من الكُتّاب العلماء حنفي المذهب متفقّه فيه.

ومن يقف على ذلك من المعرفة والتفقه والأدب فهو جدير بأن يكون عالماً وكاتباً وأديباً وقد نظم الشعر منذ فتوته وهذا يعني أن موهبته الأدبية قد جاءت مبكرة، خاصة إذا علمنا أنه قد أخذ العلم في الأزهر إبان الفترة بين الحربين العالميتين كما أخذ بحظٍ من المعرفة والعلم في دمشق في نفس الفترة تقريباً.

والدفتردار مُثقف بارع وأديبٌ أريب وقف على الثقافة العربية والإسلامية منذ فتوته.

وقد كان المحيط حوله علماء المدينة المنورة وأدباؤها وكتابها مثل الشيخ إبراهيم الأسكوبي الذي تزوج أبو محمد سعيد الدفتردار بابنته، وهكذا نرى كيف أمضى هذا الأديب الكاتب والعالم حياته العلمية بين حلقات المسجد النبوي الشريف، ومكتبات المدينة المنورة، مثل مكتبة الحرم ومكتبة الشيخ عارف حكمت ومكتبة المدينة المنورة وسواها من المكتبات التي استقى فيها من العلم الشيخ الدفتردار.

وهكذا استطاع الفتى أن يكون مكتبةً في دار أبيه بدأها بالمصادر الفقهية مثل "الموطأ" للإمام مالك بن أنس و"المدونة" لسحنون و"الحُجّه على أهل المدينة" للشيباني و"مُسند الإمام أحمد" و"الصحاح الست" للبخاري ومسلم والنسائي وابن داوود والترمذي وابن ماجه.

أما المصادر الأدبية التي كانت مرجعاً للدفتردار في أدبه فهي "البيان والتبيين" و"الحيوان" للجاحظ و"الكامل في اللغة والأدب" للمبرد و"أدب الكاتب" لأبن قتيبة و"الأمالي" لأبي

علي القالي، فهذه هي المصادر المعوّل عليها كما ذكرها ابن خلدون عن شيوخه في المقدمة، الشيء الذي يجعل من الموهوب أديباً أن يصبح أديباً وكاتباً وراوية ومتفقهاً في الدين والأدب والعلم والمعرفة والفكر والثقافة.

ولا نستبعد أن يكون الدفتردار قد وفر له أبوه من النقود ما يجعل الفتى أن ينتهز الفرصة في دمشق والقاهرة أن يبتاع له هذه المصادر وسواها من الكتب التراثية والأدبية كما لا نستبعد كذلك أن يكون الدفتردار قد جمع من مصادر الفقه كما أومأنا إلى ذلك سابقاً.

كما لا نستبعد أن يكون هذا الفتى قد درس هذه المصادر على أيدي العلماء في المدينة المنورة مثل الشيخ محمد طيب الأنصاري وغيره من العلماء الذين استقى الدفتردار علومه من الشروح، شروح هؤلاء في تلك الفترة الغنية والثرية بالعلم والعلماء والأدب والأدباء والفقه والمتفقهين والشعر والنثر والنحو وعلوم اللغة بالمدينة المنورة.

كما توجد مصادر العلوم والآداب والفنون في المكتبات العامة بهذه المدينة المشرفة وهي التي يأوي إليها الدفتردار ومعاصروه أمثال عبد العزيز الربيع ومحمد هاشم رشيد وعبيد مدني وأمين مدني الذين كانوا يستقون من تلك المراجع في هذه المكتبات بشرائها واقتنائها ومن ثم الإطلاع والبحث فيها.

إن المدينة المنورة قد عرفت العديد من الأدباء والكتاب والعلماء وهؤلاء هم الرواد الذين ذكرنا أسماء بعضهم وسواهم كانوا مشاعل لنور المعرفة وضياء الأدب وشمس العلم.

هذا الجانب الأدبي والفقهي يتخلله التعليم والتربية في مدارس المدينة المنورة التي كان الدفتردار مديراً لبعضها لمدة عشرين عاماً وكان رفيق دربه الأستاذ عبد العزيز الربيع الذي كان مديراً لتعليم منطقة المدينة المنورة، هاتان الشخصيتان من أنبل ما عرفت المدينة المنورة في مسيرتها التعليمية والتربوية والأدبية حيث أنارت مشاعل الهدى والعلم لأبناء هذه المدينة.

ولخبرته بالتعليم والمدارس أسس الشيخ محمد سعيد الدفتردار حوالي ثلاثين مدرسة في المدينة وضواحيها وهذا مصداق الذي أشرنا إليه من كفاءة العلم وازدياد المعرفة وريعان الثقافة لدى الدفتردار يطبق ذلك كله على هذه المدارس سواءً التي أدارها ودرس فيها أو التي أسسها وأشرف عليها.

ولشغف الدفتردار بالعلم والأدب كتب سلسلةً طويلةً من المقالات في تراجم علماء المدينة وأعيانها نشرت في جريدة المدينة المنورة كما نشر بعضها في مجلة المنهل التي بدأ رئيسها بإصدارها هناك، وهي سلسلة للأعلام من أعيان المدينة وعلمائها.

وقد وجهت عليه انتقادات من بعض الأدباء العلماء مثل الشيخ عبد الحق النقشبندي الذي أشار في عدد من المنهل كذلك إلى أن الدفتردار في مقالاته عن أعيان المدينة لم يذكر غير محاسنهم وسكت عن أخطائهم[1].

وعلى الرغم من هذه النقدات إلا أن الشيخ الدفتردار لم تَفُتَّ في عضده تلك الانتقادات ومضى كاتباً ومترجماً عن علماء المدينة وأعيانها غير هيّاب فجمع كثيراً من هؤلاء الأعيان العلماء لو جُمعت لأصبحت أجزاءً في مجلدات.

كما أن من الكتب التي كتبها وأصدرها "تاريخ الأدب العربي" في ستة أجزاء أرخ فيه لهذا الأدب العربي العريق وتراثه العتيد في كافة العصور العربية كما ترجم فيه للشعراء والأدباء العرب منذ القدم حتى عصرنا وهو كتاب نادر في تاريخ الأدب السعودي الذي لم يؤرخ فيه أي في تاريخ الأدب سوى الأستاذ محمد سعيد الدفتردار علماً بأن الكتاب مطبوع كما أشار إليه الزركلي في ترجمة صاحبنا الدفتردار، ولم أقف على هذا الكتاب في أجزائه كلها.

كما أن هناك كتاباً آخر بعنوان "نصوص مختارة" في ثلاثة أجزاء أشتمل على روائع الكلم من تراثنا الإسلامي العريق.

ثمة كتابٌ أخر بعنوان "محاضرات دينية" في عشرة أجزاء سبق أن ألقاه الشيخ الدفتردار على منابر العلم والتربية والأدب والدين بالمدينة النبوية الشريفة اشتملت على توجيهات إسلامية من وحي الكتاب والسنة وعلى ضوء التراث الإسلامي والأدب العربي نظّر فيه الأفكار التربوية والتعليمية على لسان فلاسفتها أمثال الإمام الغزالي وإخوان الصفا وغيرهم من فلاسفة الإسلام والتربية الإسلامية كما أشتمل الكتاب أيضاً على خواطر دينية وأدبية تحمل قيم الدين الإسلامي ومعاني الأدب العربي.

---

(١)الأعلام لخير الدين الزركلي ٦/ ١٤٥، الطبعة السابعة دار العلم للملايين مايو ١٩٨٦م بيروت.

وهناك نصوص وإشارات إلى ما احتواه تاريخنا الإسلامي وأدبنا العربي وتراثنا التربوي العلمي تخللت المحاضرات تلك التي جمعها واحتواها الكتاب إرشاداً لطلاب العلم والمعرفة والأدب والثقافة والفكر الإسلامي الرشيد.

إن الأستاذ الدفتردار عالمٌ وأديبٌ مثقفٌ رشيد استطاع بالكفاح العلمي والنضال الأدبي والتحرك الذاتي أن يكون كذلك مقاماً علمياً وقمةُ أدبيةً وشخصية تربوية حميدة وقد ظلمه معاصروه ولم يؤرخوا له إلا ما ندر وقد اجتمعت إليه في حضرة الأستاذ عبدالعزيز الربيع أثناء زيارتي الأولى للمدينة النبوية الشريفة سنة ١٣٩١هـ-١٩٧١م مجالس في داخل المدينة وفي أبيار علي وخرجتُ منها بانطباعٍ ينمُّ عن فضل هذا الرجل وعلمه وأدبه في فنون الأدب والدين واللغة العربية، الأمر الذي أسفتُ عليه عندما نعاه الناعي بعد ذلك بسنة تقريباً.

للدفتردار كذلك كتاب لكنه مخطوط بعنوان "مذكرات في تاريخ العرب قبل الإسلام" لم يُطبع بعد.

ويُخال إلينا أن الدفتردار عميد في التربية والتعليم والأدب والثقافة وتخرج على يديه المئات من أبناء المدينة النبوية الشريفة وهم الآن في مناصب عليا وأعمالٍ كبرى ومعالم مُنيرة كالمشاعل.

وعلى ضوء ما عرضناه هنا فالرجل مُدرك تماماً للتراث العربي الإسلامي سواء كان ذلك في مجالات المعرفة والتربية أو اللغة وآدابها والفقه وأصوله وعلوم الدين الإسلامي وفنون الأدب العربي، ويُعدُّ من رواد أدبنا وتاريخنا الذين رحلوا وبقيت آثارهم العلمية والأدبية والدينية والتربوية لما لها من قيم وأصول ومبادئ ومُثل في كافة فنون المعرفة هذه وجميع معارف الثقافة الدينية والأدبية.

كما يُعتبر من رواد التعليم والتربية لا في منطقة المدينة المنورة وحدها بل في كافة مناطق المملكة العربية السعودية الذين أسهموا في تربية الأجيال والناشئة الذين تربوا على العلوم القرآنية والمعارف الدينية وقيم الأدب العربي وعلوم العربية ومعاني التربية الإسلامية والدينية، فقد أسهم الشيخ في ذلك كله بما أوتي من قدرة معرفية واستطاعة علمية واسعة ومن رؤيةٍ تربوية فاحصة الشيء الذي يُعد له ذلك في ميزان حسناته.

لأن العلم قيمته عالية ونفعه نفعٌ للعالم والمتعلم ولذلك كان النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم يدعو ربه كي ما يؤتيه العلم النافع.

وكان الإمام الشافعي رحمه الله يقول كل شيءٍ يعز إذا كثر لكن العلم يعز حتى قليله بله كثيره فالعلم يعز إذا كثر وكذلك قليله، الشيء الذي يكتب للعلماء احترامهم وتقديرهم من قبل الطلاب والسامعين.

هكذا علمنا شيوخنا وأساتذتنا من العلماء والأدباء، وما الشيخ الدفتردار إلا أحد هؤلاء الكرام الذين أسدوا للعلم أمانته فأبلغه طلابه والمنتفعين بعلمه وأدبه تَيمُّناً بهدي المصطفى عليه الصلاة والسلام القائل: «بلغوا عني ولو آية...».

هكذا يكون أدب العلم والعلماء وديدن الأدب والأدباء وعادة الثقافة والمثقفين والفكر والمفكرين حتى يبلغ ذلك لمن أراد أن ينتفع بمعلومة أو فكرة أو قيمة من القيم الحميدة التي تُكتب عند العلماء ولتلاميذهم بالعلم النافع صغيراً عن كبير وكابراً عن كابر.

كان الأستاذ محمد سعيد الدفتردار أحد المساهمين بالأدب والعلم في نادي الوادي المبارك الذي كان يرأسه الأستاذ الربيع وكان الدفتردار يُسدي لهذا النادي بما يراه من المعرفة والثقافة سواء كان بالإسهام الفكري والمعنوي أو الأدبي والمادي والثقافي والديني سائراً في ذلك مسيرة العلماء الأدباء والكُتّاب الأفاضل الذين يُحاضرون فيه لمنفعة الناس من طلاب ومتعلمين وحضور في جمع العلماء والأدباء.

وكان ناظماً للشعر لكنه فيه مُقل على تذوق وتأدب ومعرفة بأصول العمود الشعري العربي وبحوره العروضية التي قننها الخليل بن أحمد الفراهيدي أحد العلماء والمفكرين في التراث الأدبي والديني واللغوي.

وهكذا أمضى الدفتردار مسيرته العلمية والأدبية والتربوية في كنف الدين وفي ظل الأدب وهما الزمام الأمين الذي تمسك به طوال حياته لا يريد من ذلك جزاءً ولا شكوراً وإنما العمل والإيمان هما سداه ولحمته.

فكان محبباً للناس مُحباً لهم من التلاميذ والمتلقين والقراء الذين وجدوا منه نفعاً علمياً وأدبياً دينياً وعملاً فكرياً فساروا في ركابه وامتطوا للعلم دربه.

إن محمد سعيد الدفتردار وأمين مدني وعبيد مدني وعبد العزيز الربيع ومحمد هاشم رشيد وعلي وعثمان حافظ وعبد القدوس الأنصاري هؤلاء الأدباء والمفكرون الذين يشكلون مشاعل من ضياء الأدب والشعر والعلم في المدينة المنورة وهناك آخرون ساروا في الدرب ووصلوا إلى جسور المعرفة مُبدين للناس فنون العلم والأدب والمعرفة مؤسسين لهم معالم هذه الثقافة "كالمنهل" و"جريدة المدينة المنورة" و"الوادي المبارك" هذه قواعد وأصول للتعليم العام أراد به هؤلاء الرواد الوصول إلى عامة الناس كي يفيدوا صغيرهم في طلب العلم وكبيرهم في العمل والإنتاج.

ولا تزال هذه المعالم في إمدادها وأعمالها ومساراتها بحيث يُشار إلى أولئك بالبنان والعرفان فالمنهل صاحبها الأنصاري والمدينة منشئها الحافظان علي وعثمان والنادي بالمدينة المنورة، هذه هي المعالم ذات العلوم والآداب والفنون.

وهكذا يسير العلم والعرفان لهؤلاء الرواد في سماء الأدب وضياء الدين وظلال الفن المعرفي وأصول العلم النافع.

ويبدو لي أن كتاب الدفتردار المخطوط «مذكرات في تاريخ العرب قبل الإسلام» يحمل في طياته التعبير بالمعلومات عن حضارة العرب الأقدمين بالشرح والمعلومات والآداب والأشعار والخطب وأيامهم إضافة إلى تاريخ بعض الشعراء والأدباء في الجاهلية او في العصر الجاهلي.

والمحتمل كذلك أن لدى الدفتردار ملاحظات على من كتب في هذا التاريخ أمثال جواد علي من العراق وجرجي زيدان من لبنان وغيرهما من الذين أدلوا بدلوهم في تاريخ العرب قبل الإسلام لأن هذا الموضوع محفوف بالتحفظات والملاحظات ودقة المعلومات لذلك كتب الدفتردار مذكراته وعسى أنه قد أتم وما على نادي المدينة المنورة الأدبي الثقافي إلا إخراجه مطبوعاً.

أما كتابه «نصوصٌ مختارة» فيحمل في ثناياه آياتٍ قرآنية وأحاديث نبوية وخطبٍ ومقولات لحكماء العرب والإسلام كخطب الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعلي.

ثم يقوم بشرح ذلك لغةً واصطلاحاً في أسلوب أدبي وتعبير ثقافي علمي على الذي يستوقفه من تلك المختارات البليغة أو يقوم بتعريف الأعلام الواردة أسماؤهم في الكتاب وفي

مقدمة النصوص المختارة يرجع في ذلك إلى اللسان لأبن منظور وتاريخ ابن خلدون وأعلام الزركلي بعد كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكتب الحديث كالبخاري ومسلم.

وبالنسبة لكتاب «تاريخ الأدب العربي» فالمعمول به عند من كتب فيه تقديم جغرافي لبلاد العرب وتعريج لتاريخ اللغة ومتى بدأت الفصحى في الجزيرة العربية وما هو أقدم: الشعر أم النثر عند العرب؟ ثم يُعرج على أول الشعراء العرب وأصحاب المعلقات كامرئ القيس وزهير ابن أبي سلمى وطرفة بن العبد والمهلهل ثم يأتي بخطباء العرب، ثم يأتي بفصولٍ جديدة عن تاريخ الأدب والشعر في عصور صدر الإسلام وبني أمية والعباسيين وتاريخ الأدب الأندلسي والمملوكي ثم العصر الحديث.

وهكذا نجد أن هذا التاريخ يحمل تراجم في ستة أجزاء لكافة الأدباء والشعراء والمؤرخين لهم والخطباء والحكماء.

أما كتابه «محاضرات دينية» فهو في عشرة أجزاء حاملاً مالذّ وطاب من الثقافة الإسلامية والفكر الديني والتراث العربي كأفكار ومسارد حديثة في الفقه والسنة وتفسير القرآن الكريم في آيات وسور وتوجيهات تربوية للشباب والناشئة.

فهذه محاضرة في الفكر الإسلامي وأخرى في الثقافة الدينية تليها محاضرة عن التربية الإسلامية، وكلها تصب في محاضرات الدين والأدب والتعليم والتربية والأخلاق والقيم الرشيدة شارحاً ومبيناً رأي الدين الإسلامي في كلام المفسرين والمحدثين والتربويين قدماء ومُحدثين.

ثم يأتي بنصوصٍ لهم بينوها من القرآن الكريم والأدب النبوي الشريف وماذا قالوه في ظلال هذين الركنين الكتاب والسنة الأصلين العظيمين لديننا الإسلامي الحنيف.

وسواء ألقيت هذه المحاضرات الدينية في مدارس المدينة أو منتدياتها إلا أنها تحتوي على العلم والمعرفة وزاد من الثقافة والقيم لأبناء هذه المدينة المنورة الذين عرفوا بالخلق الكريم والأدب الرصين.

أما مقالاته في تراجم علماء المدينة وأعيانها فهي سلسلة ذهبية من السير والتواريخ لهؤلاء الأعلام والأعيان موضحاً ما تركوه من آثار وما كتبوه من آداب وما فقهوه من علوم وخلفوه من تراث وليت الشيخ جمعها في أجزاء كما فعل مع كتبه السابقة المذكورة.

عبد الله عريف

هو عبد الله عريف: أحد أدباء المملكة العربية السعودية وصحفييها المعتمدين البارزين فهماً وأدباً وعلماً. درس في مدرسة "الفلاح" بمكة المكرمة وفي دار العلوم العليا، التي تدعى حالياً كلية دار العلوم التابعة لجامعة القاهرة بجمهورية مصر المحروسة.

ومن هنا كان سر معرفته باللغة الأدبية الراقية والصياغة الأسلوبية للكتابة النثرية البليغة. تعشق الصحافة فغدا رئيساً لتحرير (البلاد) اليومية أكثر من أثني عشر سنة وبرز فيها إعلامياً وأدبياً واجتماعياً إذ كانت افتتاحية الجريدة تصويراً يكتبه (العريف) نقداً لظاهرة عائبة أو اعوجاجٍ فيه حنو أو افتئات على أحد أفراد المجتمع فكان هذا العمود صرخة مدوية لها أصداؤها البعيدة ومن هنا جاء سر أمر الملك فيصل بن عبدالعزيز رحمه الله بتولي (العريف) أميناً للعاصمة المقدسة مكة المكرمة فتفرغ عاملاً هندسياً فناناً مفناً لإصلاح بيئة أم القرى المكانية والجمالية حيث ألبسها في الستينيات الميلادية ألبسة قشيبة ورونقاً بديعاً ويبدو أنه كان يمتلك صفاء ذهنياً جميلاً وفكراً مستنيراً رائعاً حيث هذب عقله بالمعرفة والتبصر وشحذ ذهنه بالاطلاع الجم المفيد حتى ظهر باعه الطويل في العمل والأدب والعلم والثقافة والصحافة.

ولا غرو في ذلك إذ إن (العريف) استنشق عبير العلم بجوار الحرم وعلى ضفاف النيل فكانت هذه النشأة مضماراً لأدبه وفنه الراقي الجميل.

إن (عبد الله عريف) ظاهرة جمالية في أم القرى في الإبداع المعنوي والإنجاز العملي جَمَّلَ ظاهر مكة وكَحَّله وأبان باطنها الطاهر بالمحافظة على أعلاها وأرضيتها وهنا يبدو التأثير الأدبي في عمله والعمل الفني في علمه وأدبه وفضله.

كما أنه كان يتعاطى الشعر نظماً وقريضاً حفظاً وتذوقاً.

سافر بصحبة الأستاذ علي حافظ إلى الباكستان فعاد ذلك عليه تعبيراً شعرياً جميلاً كقوله في قصيدة بعنوان "مسكين".

يـــا بـــلاد الحســـن عفـــواً	أنـــا أودعتـــك حســـي
فيـــك خلفـــت غرامـــاً	بـــل وأســـلمتك نفســـي

أو كقوله حينما عاد منها مودعاً:

وددت إقامـــــة أبـــــداً	بقربـــك يـــا (روا لبنـــدي)
لأحظـــى منـــك بالوعـــد	الـــذي أحيـــا بـــه وحـــدي
وداعـــاً يـــا (روا لبنـــدي)	وداع القلـــب والوجـــد
وداعـــاً لســـت أســـاه	فهـــل تنســـينه بعـــدي

أما نثره فقد كتب دراسة مصغره عن الأدب والصحافة مُعرفاً الأدب بقوله: إنني بطبيعة الحال أقصد الأدب بنوعيه: أدب الإنشاء (النشاط العملي بالأدب) الذي ينتجه الكاتب والشعراء من أصحاب الفن.. وأدب العلم والدروس (النشاط النظري بالعمل الأدبي) الذي ينتجه النقاد ومؤرخو الآداب.. والأدب الأول فن كله.. والأدب الثاني مزيج (أو على الأصح مزاج) من الفن والعلم.. وقوام الأدبين اتصال الأديب بعصره اتصالاً يمثل ذوقه الفني إن كان منشئاً.. وحياته العقلية إن كان ناقداً أو مؤرخاً.

ثم يعرف الأدب بأنه يتسع للأعمال الفنية الجمالية أو العقلية الفكرية وأنه تعبير عن الحياة وسيلته اللغة الفصيحة.

ثم يكتب عن الصحافة فيقول: «أقصد من الصحافة، صحافة الرأي، وإن كان هذا التحديد لا يعني وجود الصحافة صحافة تقتصر على نشر الأخبار.. وإنما أعني ذلك الجانب من محتوى الصحيفة.. والمجلة.. الذي يعنى بالرأي، والتوجيه، والتعليق على الأخبار وأيضاً مغزاها السياسي والاجتماعي، أو الدعوة لمذهب سياسي أو اجتماعي معين.. أو الكفاح في سبيل قضايا معينة دينية أو قومية أو سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية تعرضها بأحد الأنواع الأدبية).

وفي مكانٍ أخر يحذر عبد الله عريف من الصحافة لأنها تنافس الكتب منافسة خطيرة وهي وإن كانت لا تزال عاجزة عن أن تنهض بمهمة الكتاب في التثقيف ونشر المعرفة.. إلا أنها أصبحت ضرورية لرجل القرن العشرين[1].

أما أسلوبه فبديع وقد افتقد شيئاً من السخرية والفكاهة في الأدب فكتب مقالاً نشره عبد السلام الساسي في (الموسوعة الأدبية) عن الفكاهة في الأدب الحديث ضمنه عرضاً طلبياً بإعادة السخرية وأدب الفكاهة إلى العمل الأدبي كسخرية عبد العزيز البشري وإبراهيم عبد القادر المازني.

وله اتجاهٌ فكري يميل إلى الأدب الفلسفي لكن في لغة لا تحس فيها ثقلاً معنوياً أو اختلالاً في الربط الصياغي بل إننا نجده لغوياً جزلاً في غير كلفة أو سجع وإنما هو أسلوب علمي ثقافي محكم ونثر مرسل رائع وبديع.

وهذا وذاك امتداد لأسلوب (العريف) في الصحافة والوسائل الإعلامية الأخرى حيث يشارك برأيه وبعد نظره، ووجهة تفكيره ومدى التأثيرات الاجتماعية لجهده.

وهذا بادٍ من خلال إنجازه العلمي والعملي حيث تأثر بالرجال الأشاوس ويظهر ذلك في كتابه الموسوم بـ«رجل وعمل» عن شخصية الوزير الأديب المفكر محمد سرور الصبان – وهذه ظاهرة طبيعية وصحية حيث يتأثر الإنسان ويؤثر في ما بعد.

كما أن ثمة ظاهرة الإصلاح الأدبي والتوعية الثقافية يعشقها (العريف) وهذه تبدو واضحة وبارزة في معلمة نادي (الوحدة) الرياضي، الذي كان يرأس إدارته حيث سن في النادي إقامة المحاضرات الأدبية والثقافية والدعوية والدينية والتاريخية، حيث يستحضر لهذه الثقافيات النظرية كبار الأدباء والعلماء كأحمد جمال، وأحمد عطار، وأحمد السباعي من مكة، ومحمد حسن عواد، ومحمد حسين زيدان من جدة، والدكتور سعيد رمضان والدكتور محمد فوزي البشبيشي من مصر وأبو الحسن الندوي وأبو الأعلى المودوي من القارة الهندية، وغيرهم

---

(١) بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين، نشر جامعة الملك عبد العزيز، جزء ٢ ص ٧٠٠ – ٧٠٦.

كثير يستكتبهم (العريف) للإسهام الإشعاعي الحضاري قبل التنمية الواسعة في البلاد أدباً وعلماً منه بأن التنمية المعنوية سابقة للتمدن والمادية الحضارية.

وأستطيع أن أقول إن الجانب الثقافي في نادي (الوحدة) الرياضي هو نواة لنادي (مكة) الثقافي والأدبي والله أعلم. رحم الله عبد الله العريف أديباً وعاملاً ومفكراً ومنجزاً إبداعياً رحمة واسعة.

فؤاد شاكر

أبو عصام فؤاد اسماعيل شاكر الصحفي الكبير ، والأديب المتبصر الجهبذ المفن ، والرحالة الدؤوب، والشاعر الناظم ، غزير الإنتاج ، عظيم القدر ، وهو مبجل وقور ، له شخصية متزنة، متأنقة جذابة ، وتبدو البشاشة والوسامة على محياه كل حين. ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٢٢هـ ، ١٩٠٤م وبها نشأ.

درس – رحمه الله – في المدرسة الرشدية بمكة المشرفة ، وفي المسجد الحرام على حضرة والده اسماعيل شاكر ، وكذا درس في الحرم على يد بعض العلماء ، كالشيخ أحمد ناضرين ، وسراج ششة.

وقد كان في أول بعثة تعليمية سعودية إلى القاهرة بمصر المحروسة ، درس خلالها العلوم الشرعية والعربية والأدبية ، وفي أثناء طلب العلم هناك أصدر مع زميله جميل داود المسلمي أول كتاب له بعنوان (الصحفي أو كيف تكون صحفياً) وذلك في العقد الخامس من القرن الرابع عشر الهجري الماضي ، كما أصدر صحيفة (الحرم) في القاهرة، بعد تدربه على العمل الصحفي في جريدة " كوكب الشرق " هناك في عاصمة المُعزبالله.

وبعد عودته إلى مكة المكرمة تولى رئاسة تحرير جريدة (أم القرى) ثم رأس تحرير (صوت الحجاز) وهما عملان مهمان يحسب حسابهما من جوانب التقدير والاعتماد على رجل مثله في زمن كان مثاله ؛ علماً وفهماً وبصراً بالنواحي النظرية والعملية نادراً. ثم اختاره الملك عبد العزيز طيب الله ثراه ليكون رئيساً لتشريفاته الملكية. وبعد أن انتقلت جريدة البلاد السعودية من مكة المكرمة إلى جدة تولى رئاسة تحريرها فؤاد فترة طويلة.

من هنا كان نظر الشيخ محمد سرور الصبان أمين عام رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة في الأستاذ فؤاد ثاقباً عندما جعله يصدر الصحيفة الأسبوعية بالرابطة (أخبار العالم الإسلامي) باللغتين : الأولى الإصدار العربي ، والثانية باللغة الإنجليزية.

وقد ألقى الأستاذ فؤاد شاكر على هذه الصحيفة لمساته الأدبية ، وإبداعاته الفنية. شكلاً ومضموناً ، بحيث كان إخراجها خبرياً مصوراً إلى حد كبير جداً ، وما أروع أن يتخلل الصفحات فن الكلمات المركزة الجادة ، وقصائد في مواضيع دينية أدبية واجتماعية تهتم بالمجتمع المسلم في كل نحو من أنحاء المعمورة ، وفي مجال الدعوة والإرشاد كذلك، ولا يغيبن عنا أن مثل هذه المواضيع والمجالات مؤطرة بالثقافة الإسلامية عموماً.

وليس من شك في أن ثقافة شاكر ، في المجالات المختلفة ، هي الدافعة إلى الإنتاج المستمر، فكتبه التي ألفها خلال عمر حافل بالحركة الإبداعية ، تربو على العشرين كتاباً ، عدا ديوانه الشعري (وحي الفؤاد) ، الذي قدمه الأستاذ محمد سعيد العامودي تقديماً أدبياً في صدر الديوان ، أبان في هذه المقدمة شاعرية الشاعر وعلمه وثقافته ومحبته للتراث الشعري العربي بما فيه العمود الشعري المُحلّى بالبحور العروضية ، وقد بسط ذلك العامودي ببيان انتقادي إيجابي، وأبان خلاله بحفاظ الشاعر فؤاد شاكر على التراث القديم. ويحضرني هنا ما قاله الدكتور عمر الساسي : وهو في شعره من المحافظين والمدافعين عن نظام الشعر الموروث ، وكان فؤاد شاكر يحرص على التمسك بالشعر المحافظ حرصه على أن يضمن شعره ما يحفظه من شعر الأقدمين فهو في القصيدة التي دافع فيها عن القديم ضمن من شعر المتنبي نصف بيت بأكمله في قوله[1] :

خليلي مالي أرى غير شاعر ... شدا في أماليد الرياض بها شدا

فصدر هذا البيت في شعر فؤاد شاكر هو صدر بيت لأبي الطيب المتنبي في قوله :

خليلي مالي أرى غير شاعر ... فلم منهم الدعوى ومني القصائد

وله نشاط شعري كغيره من شعراء مكة المكرمة أمثال محمد سعيد العامودي وحسين عرب وحسين سرحان الذين كانوا يقولون الشعر ويكتبونه لنشره في المجلات الأدبية والشعرية في مصر ولبنان والشام. ومن أبرز المجلات التي كتب فؤاد شاكر الشعر فيها مجلة الرسالة لأحمد حسن الزيات والكاتب المصري للدكتور طه حسين والثقافة لأحمد أمين وذلك

---

(١) راجع الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي ، ص٢٠١ ، ص٢٠٢ - طبعة مكتبة جدة ودار الزهران الطبعة الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

خلال الأربعينيات الميلادية من القرن العشرين.

وشعره يمتاز بالقوة في السبك ، والجزالة في اللفظ والانسيابية في الشكل والصورة والأسلوب. وكان – رحمه الله تعالى – يكره الشعر الحر الذي أطلق عليه العقاد (الشعر السائب) واسمع فؤاداً ، إذ يقول في هذا الشعر :

لقد روع الشعر الأصيل عصـــــابة	تأولت الشعـــر الفصيح المنضدا
يقولون إن الشعر (حـــــر) ولم نكن	لنعلم في (الشعـرى[1]) إماء وأعبدا
أولئك مــــن ظنـــوا القديم خرافـــة	ومــــن زعموا التهريج فناً مجددا
لقـــد نـســـي القـــوم الأباة تراثهم	وهيهـــات أن ننسى التراث المخلدا

والعجيب في الشاعر فؤاد شاكر أن (خير الدين الزركلي) يترجم له ترجمة في (الإعلام) وأقصد بالترجمة هنا (الشخصية الأدبية) واصفاً إياه في سياق الترجمة قائلا : (له نظم كثير ؛ فيه شعر) وأنا إذ أسوق هذا السطر من كلام (الزركلي) عن شعر الأستاذ شاكر لا للحكم عليه سلباً أو إيجاباً ، بل إني أترك ذلك للنقاد!!.

وأما تأليفه النثري فله من الكتب والمؤلفات الثقافية في أدب القرآن ، وسنة الهادي البشير، والتأريخ الإسلامي ، وأدب الرحلات ، والشعر ، والتراث بوجه عام ، من ضمنها رحلاته العلمية بين الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي ، في عهد كان يقال فيه : الشرق شرق والغرب غرب ، فلن يلتقيا!! لكن فؤاداً استطاع أن يكمل مسيرة التجوال المعرفي ، والسياحة الثقافية ، والرحلات الرسمية المستمرة ، على الرغم من المعوقات الاستعمارية للبلاد الإسلامية والعربية، في أواسط القرن العشرين الميلادي ، والحاجز المعنوي الذي كان قائما بينها.

وبذلك أسهم أمثال هذا الرجل في العمل الإسلامي والدعوة الدينية شأن رئيسه في العمل الشيخ محمد سرور الصبان ، الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، والشيخ محمد صالح القزاز ، الأمين العام المساعد للرابطة نفسها ، والشيخ محمد سعيد العامودي ، والشيخ إبراهيم الشورى – رحمهم الله جميعا – في بث القناة الأكثر إمكانية وتأثيرا وهو الإعلام

---

(١) " الشعرى " من النجوم المعروفة والمقابلة البيانية بين الشعر والشعرى واضحة في صدر البيت وعجزه.

المقروء من كتب وصحف ومجلات في ذلك الزمن العظيم والمتواضع في آن واحد فانتشر – على أيديهم – بما ملكوا من صلاحية إدارية، وأفكار نيرة، وثقافة عالية، وشخصية مرنة وقوية في نفس الوقت و الوعي في فكر أفراد المجتمع الإسلامي الكبير، ولا نزكي على الله أحدا.

ولا ننسى وسائل تثقيفية أخرى من أبرزها : إقامة المحاضرات الثقافية الدينية الإسلامية، والحضور المعنوي لهم في شتى المجالات المعنوية والأدبية والشخصية، وبالذات المناسبات العملية والعلمية، والندوات الدعوية والثقافية.

وأنا – هنا – إنما أذكر لفؤاد شاكر سيرته الأدبية والشخصية مما عرفت عنه خلقاً وعملاً وعلماً وأدباً وثقافة من خلال معرفتي به شخصياً في المحافل الأدبية، ولا سيما في المقر الأول القديم لرابطة العالم الإسلامي، في حي المعابدة بمكة المكرمة؛ حيث كنت أغشى مكتبه للمصافحة والتحية، والوقوف شخصياً على المعرفة به وإقامة عرى الصداقة الأدبية والثقافية، وأنا في طريقي إلى مكتب الشيخ محمد سعيد العامودي، في الطابق العلوي من الرابطة، ثم السلام – في القسم الثقافي بهذه الرابطة على الشيخ إبراهيم الشورى؛ المجاور مكتبه لمكتب الأستاذ الكبير فؤاد إسماعيل شاكر. رحمهم الله جميعاً. توفي بمكة المكرمة سنة ١٣٩٢هـ – ١٩٧٣م.

عبد العزيز ضياء

ولد في زقاق القفل من محلة الساحة بالمدينة المنورة في ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٣٢هـ الموافق: ٢٢ يناير ١٩١٤م وكان ذلك بشارة لوالده عن مولد أديب وكاتب وناقد ومطلع، نشأ عزيز ضياء في المدينة المنورة وتلقى تعليمه الأولي في كتاب الشيخ محمد بن سالم -رحمة الله- ثم في المدرسة الراقية الهاشمية، ومن أساتذته الذين يدين لهم بالفضل فيها الأساتذة/ حسين طه ومحمد صقر، وأحمد صقر، وماجد عشقي -رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته- في المدينة المنورة.

في عام ١٣٤٥هـ صدر إعلان في جريدة أم القرى عن افتتاح مدرسة الصحة ظنها أهله مدرسة للطب، فالتحق بها ليكتشف مع غيره ممن زاملوه من المدينة المنورة أنها مدرسة تمريض فاستطاع أن يهرب منها بعد سنة من التحاقه بها، اختفى فترة من الزمن في بيت وكيله في محلة الشامية بمكة المكرمة كان يسمع خلالها صوت المنادي يرتفع بالشامية، وفي غيرها من محلات مكة وهو يقرأ بياناً عن اسمه وعمره وملابسه، ويطلب ممن يراه إلقاء القبض عليه وتسليمه لمديرية الصحة العامة في أجياء بجوار الحرم المكي، فظل مختفياً إلى أن أتيح له السفر بعد الحج إلى المدينة المنورة. بعد مضي سنة تقريباً أعلنت مديرية الصحة العامة عن وظيفة (مقيد أوراق) فسافر إلى مكة وتقدم لهذه الوظيفة التي عقدوا للمتقدم لها اختباراً كان هو الناجح الأول فيه، فتم تعيينه في الوظيفة، وأثناء هذا العمل تمرن على الآلة الكاتبة وبلغت سرعته أكثر من خمسين كلمة في الدقيقة الواحدة.. دخل مسابقة للكتابة على الآلة الكاتبة أقامتها مديرية الصحة العامة وحضرها نائب جلالة الملك الأمير/ فيصل بن عبد العزيز آل سعود وفاز بالدرجة الأولى في المسابقة فكافأه سمو الأمير بثلاثة جنيهات، وساعة (زينيت)، ثم رقي إلى رتبة مفوض ثان وعندما افتتحت مدرسة تحضير البعثات بمكة المكرمة صمم على الالتحاق بها، فاستقال من عمله ولكن خطر له أنه يستطيع أن يدرس المرحلة الثانوية كلها، وهي أربع سنوات في سنة واحدة.

وبهذه الفكرة سافر إلى القاهرة والتحق بمدرسة الخديري إسماعيل وفي الاختبار رسب في اللغة الإنجليزية والكيمياء، ورسب مرة أخرى في الكيمياء، وبهذا انقطع أمله في الحصول على شهادة البكالوريا في سنة واحدة من مصر. ولذلك سافر إلى لبنان، حيث التحق بالكلية الأمريكية في بيروت وكان من زملائه فيها الأساتذة/ عبد الله عمر بلخير، وفريد بصراوي، وأحمد عبد الجبار.

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية اضطر إلى العودة إلى المملكة، حيث أعيد تعيينة في الشرطة، ولكنه استقال مرة أخرى ليلتحق بمعهد التحقيق الجنائي في كلية الحقوق بالجامعة المصرية في القاهرة.

وعجز عن الإنفاق على نفسه وعلى أسرته، فانقطع عن الدراسة في السنة الثانية والنهائية من هذا المعهد، وعاد إلى المملكة العربية السعودية ليعين في الشرطة رئيساً لقسم التنفيذ.

ثم تقلب في بعض الوظائف بوزارة الدفاع وعين بأمر من الوزير مديراً عاماً للخطوط الجوية العربية السعودية وكان عدد طائراتها آن ذاك طائرتا داكوتا، بالإضافة إلى الطائرة الملكية. ونتيجة لخلاف بينه وبين مسؤول آخر كان يعمل معه، فصل من هذه الوظيفة فسافر إلى القاهرة، وبعد سنتين من إقامته فيها التحق بوظيفة مذيع مترجم في إذاعات الهند في دلهي لمدة سنتين، وعاد إلى المملكة ليعين في وظيفة مدير مكتب مراقبة الأجانب بمكة المكرمة وكلف بوضع نظام للإقامة، وهو النظام الذي لا يزال متبعاً حتى اليوم.

أما عن نشاطه الأدبي فقد عشق الحرف في وقت مبكر عندما كان مقيداً للأوراق في مديرية الصحة العامة بمكة المكرمة، وكان من أوائل من كتبوا في جريدة "صوت الحجاز"[1].

عزيز ضياء هكذا كان يسمي شخصه من أدباء المملكة العربية السعودية الذين طال باعهم في الكتابة والنقد والتثقيف. وهو كاتب يملك أسلوباً لولبياً قادراً على الجمع والتعمق

---

(١) كتابه عهد الصبا في البادية ص٨، ٩ الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م سلسلة الكتاب العربي السعودي رقم (٣) الصادر عن شرطة تهامة بجدة.

والتفريق والضغط، هو في الكتابة مسهب مترسل مثل تولستوي، أو فرح انطون، ومثل قاسم أمين في الانطلاق الفكري وكان إذاعياً، وتعد حرمه أول مذيعة سعودية أما الآن فابنته السيدة/ دلال عزيز ضياء مديرة إذاعة جده (البرنامج الثاني)(1).

هكذا ترعرع الإعلام الإذاعي في فكر وشخص عزيز ضياء وأسرته.

بينما اختار ضياء ابنه الفن التشكيلي عملاً وموحياً لتفكيره.

عزيز ضياء كاتب ذهب كل مذهب في النقد بالذات في الصحافة.. صحافتنا السعودية فكان له عدة أعمدة من أهمها العمود المسمى بـ (نشر وطي) في البلاد وعكاظ. لقد تابع باطلاعه على كافة الأنشطة الثقافية والأدبية والاقتصادية منذ الستينات الميلادية حتى قبل وفاته في أول الحولية الثالثة في قرننا الحادي والعشرين الميلادي.

كان يرصد في هذا العمود الملاحظات والقيم والمعاني والمواقف والأفكار كي يصلح خطأها ويُقوِّمَ مُعَوجَّها ويصحح ما رمى منه المؤلف من صحيح القول بينما هو في الواقع على خطأ بيّن.

وظل هكذا سنين عديدة ولم يمل ولم يكل من الكتابة في وسائل الإعلام وبذات الصحافة والإذاعة، كان في الإذاعة أيضاً يرسم لوحات فضائية وأطباقاً طائرة وأفكاراً شاردة وكلمات واردة.

إنه صاحب الذخيرة المعنوية والتراث المقروء والمحفوظ والأدب الرصين والفكر الحصين.. ويأبى إلا أن يتابع ما ينشر وما يطبع في وسائل العطاءات الفكرية والثقافية والاجتماعية. وهذه حصيلة الاطلاع تلك والمحفوظات والقراءات والملاحظات. وأنت تكبره إذا جد في الموضوع أو تراجع إلى الحق الأدبي.

أراد يوماً أن يتحف الساحة الأدبية بمشاركة عن (حمزة شحاتة قمة عرفت ولم تكتشف) في مطبوعات صديقه الأديب عبد العزيز الرفاعي المسماة بالمكتبة الصغيرة. أبدع في هذه الرائعة عزيز ضياء ووضع النقاط على الحروف في سيرة فكرية لإبداع صديقه الأديب الحجازي

---

(١) أحيلت للتقاعد سنة١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

ومذهبه في الحياة الأدبية والثقافية والنقدية. وقد ملأ الساحة بهذا الكتاب كرائعة من روائعه وعمل من أعماله وأدب من فنونه وشيء نقدي من إنتاجه.

ثم رأى عبد العزيز ضياء بن زاهد أن يتفرغ للكتابة والتأليف والترجمة، وكتب للإذاعة كمعلق سياسي طيلة أكثر من عشر سنوات وكتب للصحافة كثيراً كثيراً.. كما كتب للتلفاز عدداً من البرامج والمسلسلات وأنتجها، وهو أول من أصدر جريدة عكاظ أسبوعية بامتياز الأستاذ/ أحمد عبد الغفور عطار، كما رأس عزيز ضياء تحرير جريدة المدينة المنورة لمدة أربعين يوماً حيث ألغى عطلتها الأسبوعية لتصدر في كل يوم من أيام الأسبوع دون انقطاع.. ثم أقصى عن رئاسة تحريرها.

ومن الأدبيات في حياته الثقافية أنه عين عضواً في المجلس الأعلى لرعاية العلوم والفنون والأدب. الذي كان يرأسه الأستاذ/ حسن بن عبد الله آل الشيخ رحمة الله عليه.

والأستاذ/ عزيز ضياء أديب ومثقف، يجيد اللغات الإنجليزية والفرنسية والتركية.. فاستطاع أن يطلع على آداب هذه اللغات، ولا شك أنه أفاد منه في مسيرته الثقافية والأدبية، ويعد من الرواد العمالقه ويعتبر من أفضل النقاد السعوديين للأعمال الأدبية والفنية، سواء للأدب المحلي أو الخارجي.

أما العمل العظيم الذي قام به عزيز ضياء وكان علماً في رأسه نار كتابه (جسور إلى القمة) تحدث فيه المؤلف عن شخصيات وأعلام ورجال وعلماء وأدباء بما يكفي تأريخه التاريخي. ونتاجه الإنتاجي وأدبه الثقافي. من هؤلاء الأشخاص الذين كتب عنهم المؤلف أحمد بن حنبل صور في الفصل العلم العلامة والفقيه الفهامة، فكان عزيز معتزاً بما كتب عنه لأنه صال فيه وجال وأبان عن صمود هذا الإمام في فتنة خلق القرآن وكانت لوحة علمية وفقهية وأدبية رسمها عزيز بكل معاني الإبداع.

كذلك أفرد فصلاً عن الخليل بن أحمد الفراهيدي اللغوي والنحوي أظهر في خلاله علمه وثقافته.

وكتب عن قادة الفكر الإسلامي عام ١٩٧٢م، كتب ذلك وا ستطرد فيه عن حالة الركود التي شهدتها آنذاك ساحة الفكر الإسلامي وقد علل الكاتب ذلك إلى أسباب عقائدية إيمانية

واجتماعية. وذلك في مجلة البلاد الأسبوعية التي احتجبت بعد أعدادٍ قليلة وكانت تصدر عن مؤسسة البلاد الصحفية ويُدير تحريرها الأستاذ راضي صدوق وكان رئيس التحرير آنذاك الأستاذ عبد المجيد شبكشي. نعم إنني أذكر هذا موقفاً إيمانياً للأستاذ عزيز حيث كتب في ذلك وذكر أسماء بعض هؤلاء القادة الذين كانوا يملأون الساحة الفكرية دراسات وأبحاثا وكتباً ومؤلفات.

وقد سألته في لقاء معه منشور في العدد ١٣٣ من مجلة "الفيصل" عن الأدب بأشكاله الفنية المختلفة، هل هو ظاهرة عامة؟ فأجاب قائلاً: «بدايةً لا أدري معنى لأن يكون الأدب ظاهرة، إذ هو في الواقع بجميع أجناسه عطاء وأحاسيس، ونبض فكر، وإشعاع روح. ولذلك لا أجد ما يبرر أو يسوغ أن تكون له صفة اجتماعية، إذ إن هذا العطاء فردي بطبيعته، ولكن كونه فردياً لا يمنع أن يكون له انتماؤه إلى المجتمع في حدود -انتبه- أشترط أن تبتعد عن الالتزام لتنطلق في آفاق حرة، لا تتقيد إلا بالبواعث التي تحرك مشاعر الأديب، وتوقظ فيه.. إلخ». ويقول بعد ذلك: «يظل الأدب عطاءً يجب أن تتوفر له أجواء الحرية والقدرة على التعامل مع قضايا الفكر، دون قيد من أي نوع»!!

ومن أقواله في هذا اللقاء: «الأديب يؤثر في المجتمع، والأمثلة على ذلك في العالم والتأريخ أكثر من أن تحصى.. أدباء من أمثال "فولتير" "مونتيسكيو" "جان جاك روسو" في فرنسا، هم الذين رجهوا المجتمع الفرنسي، وأثروا فيه وكان عطاؤهم وإبداعهم، هو المشعل الذي أضاء طريق فرنسا إلى الحرية، وإلى معايشة تلك المتغيرات الضخمة في حياتها.. إن أثر أولئك الأعلام الأوائل يظل هو القوة التي تحرك وجدان الفرنسيين وضميرهم وتفانيهم في الحفاظ على الحرية كمنهج في حياة لا سبيل إلى الانحراف عنه بأي شكل من الأشكال). مجلة الفيصل رجب ١٤٠٨هـ/ فبراير ١٩٨٨م.

ولكن هناك عمله الفعلي لحياته وسيرته فيها إنها (حياتي مع الحب والجوع والحرب) هذا العمل أخرجه الأستاذ عزيز في ثلاثة أجزاء يفصل فيه كيف عانى منذ الصغر من مصاعب هذه الحياة وشدائدها وكيف أنه صمد مع أسرته وكان هناك شخص عزيز عليه صَوَّره في الكتاب تصوير المصور للمجسم الذي يكاد يغمض أمامه الرؤية في واقع الأمر رجل عصامي رباه وأعانه على تعليمه وطلب الأدب إلى جوار النبع الحبي الكبير والطعام الذي يسد الرمق.

ومع أنها قصة حياة الأستاذ عزيز الخاصة في كل تفاصيلها الأسرية والشخصية البحتة مع شيء أو أشياء كثيرة أيضاً تمس مشواره العملي والأدبي أيام القسوة والشدة والمشقة الطبيعية للحياة، فإن في مضامينها الموضوع الصريح والجريء في ذات الوقت.

وقد ترجم أعمالاً روائية كثيرة عن أحوال المجتمعات الإنسانية العالمية مثل (العالم في عام ١٩٨٤م لجورج أورويل وكتب لها مقدمة ضافية، فإن منحى تفكيره كان منبهراً بالحياة والحضارة الغربية.

ولعل حياته العملية الإذاعية والإعلامية مثل عمله في الإذاعة الهندية ورئاسته لتحرير جريدة "المدينة" هي حياته التي اشتهر فيها بالصيت الذائع والصوت الجهير وناهيك عن برامجه الثقافية والإذاعية السياسية في إذاعة جدة.

ويظل عبد العزيز ضياء هو الكاتب الذي رسم بصمة لا تمحى في مسار الزمن وساحة العمل ورأب الصدع النقدي للأعمال التي نشرت في حياته في الحجاز بل في المملكة العربية السعودية.

وهناك أعمال كثيرة لدى الأستاذ عزيز رحمه الله ومالا يدرك كله لا يترك جله.

من ذلك كتاب «عهد الصبا في البادية» عبارة عن مجموعة قصصية إنسانية واجتماعية واقتصادية جامعة ترجمة الأستاذ/ عزيز عن اللغة الإنجليزية سنة ١٩٨٠م لشاب اسمه إسحاق الداقس من مواطني الأردن الشقيق، ومن مواليد عام ١٩٣٨م، وقد التحق بادئ ذي بدء بمدرسة ابتدائية ثم عندما بلغ السابعة عشرة من العمر كان قد أتم جانباً من دراسته "بالمدرسة الزراعية" التي تخرج منها فيما بعد، ثم قضى الثلاث سنوات مدرساً في إحدى المدارس الابتدائية في الرياض بالمملكة العربية السعودية، حيث أتيحت له فرصة الانتساب إلى القسم الأدبي بكلية الآداب في جامعة الرياض، وفي سنة ١٩٦٥م أتم دراسته وحمل مؤهل البكالوريوس في اللغة الإنجليزية، كما كان قد فرغ من كتابة هذه القصة بالإنجليزية قبل تخرجه من تلك الجامعة بأربعة أشهر.

توفي عزيز ضياء سنة ١٤١٨هـ-١٩٩٨ بمدينة جدة -رحمه الله-.

محمد علي مغربي

محمد علي مغربي ولد بمدينة جدة سنة ١٣٣٢هـ-١٩١٤م وقد درس في صغره في مدرسة الفلاح بجدة وبعد تخرجه منها التحق في وظيفة بإدارة بريد جدة لكنه انتقل إلى مكة المكرمة ليلتحق بإدارة مكتب الشيخ محمد سرور الصبان وامتدت خدمته له العشر سنوات تقريباً حيث استطاع أن يكون تصوراً معنوياً للأعمال التي كان يضطلع بها في خدمة هذا الشيخ الثري الغني.

بعدها كون المغربي عملاً تجارياً شخصياً له وامتد إلى أعمالٍ متنوعةٍ كثيرة.

والمغربي من الجانب الصحفي والإعلامي قد تولى رئاسة تحرير جريدة صوت الحجاز وذلك قبل قيام الحرب العالمية الثانية أي إنه من قُدماء الصحفيين بالحجاز، كما يعتبر المغربي من شعراء الحجاز الأوائل بل إنه من الشعراء السعوديين القلائل الذين أخلصوا لهذا الإنتاج الأدبي وهذا العنصر الفني مما يعبر عنه كشاعر وقد قال القصيدة الطويلة كما قال الرباعيات وكان لهم امتياز فيها حيث نشر عشرات الرباعيات في صحف عكاظ والمدينة والبلاد وما سواها من الصحف المحلية.

كما أنه كاتبٌ ناثر يكتب المقالة والبحث والدراسة والقصة والرواية إلى جانب الشعر العمودي الفصيح.

لكنه اهتم بتأريخ الحجاز قديمه وحديثه، حيث كتب عن أصالة الحجاز قبل الإسلام وبعده في كتابه المعروف ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة حيث تحدث فيه عن الأسر الحجازية وعاداتها في المهد الذي تربع عليه كل حجازي في مكة المكرمة وجدة والطائف والمدينة المنورة وينبع ورابغ وهذه المدن الحجازية ذكرها بالتفصيل في الباب الثاني من الكتاب، وإذا قارنا هذا الباب بالنسبة للباب الأول أو الفصل الأول من الكتاب

الذي تحدث فيه عن الأُسر وعاداتها مع الفصل الثالث وهو المخصص للملابس والأزياء أدركنا على التو تقاليد ومظاهر الحياة الاجتماعية في الحجاز.

وهناك فصول أخرى اهتم بالكتابة عنها مثل ظاهرة التعليم والرياضة والألعاب والتجارة والصناعة والأطعمة والأشربة.

إن المغربي ذو ولعٍ بتاريخ الحجاز الاجتماعي منه والثقافي وهذان الجانبان ذوا صلةٍ بالتجارة التي اشتهرت بها جدة على وجه الخصوص كما اشتهرت مكة المكرمة بذلك في موسم الحج والعمرة وكذا المدينة المنورة التي تشتهر بالزيارة على ساكنها الصلاة والسلام.

وقد فصل المغربي في هذا الكتاب، كافة الجوانب التي تتصل بكل كبيرة وصغيرة في الحجاز لأن هذا الموضوع ذو حيوية، فكان المغربي يسجل كل نقطة وعنصر في كتابه على أسس أدبية فائقة وجوانب اجتماعية رائعة.

ولم يكن كتاب الملامح الاجتماعية الوحيد الذي كتبه المغربي بل سبق له أن أخرج كتاباً عن «لمحات من تاريخ الحجاز قبل الإسلام» فصل من خلاله القول عن الظواهر الحجازية قبل بزوغ دعوة الإسلام على نبيه الصلاة والسلام.

ثم كتب في السيرة النبوية كتابه محمد عليه الصلاة والسلام وهو كتاب رجع فيه إلى العديد من المصادر الوثيقة مثل سيرة ابن كثير والطبري وابن خلدون والسيرة الحلبية وسيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام كل هذه المراجع هي المعتمدة في التاريخ الإسلامي العريق وقد نقل الأستاذ المغربي نصوصاً كثيرة من هذه المراجع وتم خلال ذلك إخراج الكتاب في شكله المفصل في مجلدٍ كامل.

ويبدو لي أن المغربي أراد أن يسلك في الكتابة التاريخية كما هي كتابة الأدب والشعر والنثر وله في ذلك أمثال الدكتور محمد حسين هيكل والأستاذ عباس محمود العقاد والدكتور طه حسين الذين كتبوا إلى جانب الأدب الكتابة التاريخية من السير النبوية والخلفاء الراشدين وسواهم من الشخصيات التي أثرت في التاريخ العربي والإسلامي.

ويعتبر هذا الكتاب الوحيد الذي ألفه أديبٌ سعودي معاصر في السيرة النبوية الشريفة ولم يسبق أن صدر في هذه السيرة مثل ذلك وهو يذكرنا بالأستاذ أحمد محمد جمال الذي يعد أول أديب سعودي تحدث وكتب في تفسير القرآن الكريم كتاباً.

ثم ثناه بتاريخ الخلفاء الراشدين وألحق بسيرة الإمام علي بن ابي طالب سيرة ابنه الحسن رضوان الله عنهما ثم أخرج كتاباً عن تاريخ الدولة الأموية في بضع أجزاء وكنا نتوق أن يخرج المغربي تاريخاً مثل ذلك عن الدولة العباسية لكن الموت عاجله مما حال دون الكتابة عنها.

وللأستاذ المغربي شعر يأسر بال قارئه من الصور والأسلوب الذينساير ذلك الشعر كقوله تحت عنوان قصة حب:

سألتها قبلة في الخد طاهرة	كبسمة الفجر أو تسبيحة الوتر
قالت: أخاف! وأغضت وهي عالمة	بما أقاسيه من ويل ومن سعر
قالت: أخاف عليك اليوم من خطر	وافرحتي بالهوى المحفوف بالخطر
لم تعط إلا يداً أمطرتها قُبلاً	وقد حظيت بأنسام من الشعر
قالت: كفى! قلت: كُفِّي من معارضتي!	فأعرضت، فخشيت الهجر من هجري
هجرتها عامداً كيما تلين فلم	كأنما قلبها قد قد من حجر
ليلاي قولي: أأنت اليوم غاضبة؟	قالت: هل غضب الأملاك من بشر؟
أغاضب أنت؟ وافترت لواحظها	فقلت: هل غضب الساري من القمر؟

إذاً فالأستاذ المغربي أديبٌ وشاعرٌ كما أنه محبٌ لأدب التاريخ والتراجم لذلك أطلق مشروعه التاريخي عن أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر والخامس عشر الهجريين وذلك في أربعة أجزاء كل جزء ترجم فيه لعشرة أعلام منذ بداية العصر السعودي كما ضم عدداً من مخضرمي العهدين، عهد الأشراف وعهد آل سعود.

وللمغربي فكرةٌ سببية جعلته يؤلف هذه التراجم عن قرابة أربعين عَلمٍ من أعلام الحجاز. يقول فيها: هذه تراجم لبعض أعلام الرجال الذين عاصرتهم وهم جميعاً ممن ولدوا وتوفوا

خلال القرن الرابع عشر الهجري وأغلب هؤلاء الرجال ممن اتصلت أسبابي بأسبابهم فعرفتهم عن قرب وخبرتُ من أمورهم ما قد يخفى على كثير من شباب الأمة ورجالها.

ورأيت أن من الخير التعريف بهم والتذكير بما كانوا عليه من كريم الصفات وما قاموا به من عملٍ نافع على اختلاف وجوه هذه الأعمال التي يمكن أن تجتمع تحت كلمة (النفع العام)، نعم فإن جميع هؤلاء الرجال الذين تحدثتُ عنهم كانوا قد وهبوا أنفسهم للخدمة العامة على اختلاف السبل وتفاوت الدرجات.

إلى أن يقول: فهذه التراجم أدخلُ في باب الذكريات منها في باب التراجم التي قد يتطلب فيها الكثير من التدقيق كما أني أود أن اذكر إلى جانب هؤلاء الرجال الذين تحدثت عنهم حيث أنهم لم يكونوا وحيدين بعصرهم وإنما كان لهم إخوةٌ وزملاء شاركوا أو يستحق أن يكتب عنهم ويشاد بذكرهم[1].

علماً أن الأستاذ المغربي لم يترجم إلا لمن قد توفي من الأعلام سالكاً في ذلك سلوك المؤرخين الذين لا يكتبون إلا عن الراحلين فقط ومن هؤلاء المؤرخين المعاصرين خير الدين الزركلي وعمر رضا كحاله ويوسف أسعد داغر.

وإذا علمنا أنه قد بدأ بكتابة هذه الفصول في التسعينيات من القرن الرابع عشر الهجري فقد أمتد به الوقت إلى بدايات القرن الخامس عشر الهجري فبين هاذين العقدين من السنين توفي راحلون آخرون كتب عنهم المغربي فيما بعد وعلى سبيل المثال ترجم للأساتذة علي وعثمان حافظ وصالح وأحمد جمال ومحمد سعيد العامودي وذلك في الجزء الرابع والأخير كما ترجم في الجزء الأول لمحمد صالح نصيف، ومحمد سرور الصبان ومحمد علي زينل ومحمد عبد الصمد فدا ومحمد الطويل ومحمد طاهر الدباغ وآخرين.

وهؤلاء جميعاً يشكلون شخصيات متنوعة الجوانب الحياتية في عملهم فمنهم العالم ومنهم الأديب ومنهم المربي التعليمي ومنهم رجل الأعمال والتاجر وسواهم.

---

(١) مقدمة أعلام الحجاز الجزء الأول.

وليست التراجم الشخصية هي الحدود الوحيدة التي كتب المغربي أعلام الحجاز فيها بل إنه ذكر كثيراً من المعالم العملية والعلمية والأدبية والتجارية والصناعية والدينية والحكومية في ربوع الحجاز الأغر وبالذات في عهد آل سعود.

كما أن ثمة معالم ذكرها المغربي قبل هذا العهد نظراً لارتباطها بها بعد ذلك.

إن محمد علي المغربي من رواد الأدب السعودي الذين أسهموا بخدمات جليلة لتاريخ هذا الأدب الرائد وقد حاول أن يلم بعناصر الأدب وأغراضه المعرفية والثقافية والفنية فقد كتب الشعر إلى جانب الرواية وكتب المقالة الأدبية إلى جانب الدراسة الاجتماعية والبحث التاريخي والشؤون الدينية الإسلامية.

وكان قد كتب رواية "البعث" كان هدفه منها أن يقوم الشباب بالعمل على إظهار حضارة هذه البلاد العتيقة في مسردٍ قصصي وروائي يحمد له ذلك، فهي من أوائل أدب القصة والرواية في الأدب العربي السعودي، إذا ذكرنا كذلك قصة التوأمان ومرهم التناسي لعبد القدوس الأنصاري، ورامز وقصص أخرى لمحمد سعيد العامودي فكلها تشكل بدايات الروايات والقصص في الأدب السعودي الحديث.

وله كتاب بعنوان «حبات من عنقود» ضمنه بعض الأفكار الأدبية والمعاني الاجتماعية والقضايا الثقافية.. هذا الكتاب على قصره وقلة صفحاته إلا أنه يُمثل مرحلة أدبية عاشها المغربي في السبعينيات من القرن العشرين التي شهد الأدب السعودي فيها مرحلةً خيرة وامتداداً زمنياً حمل في طياته الأفكار والآراء التي بثها الرواد سواء في الصحافة المحلية أو في التأليف الكتابي أو في التثقيف العام.

وإذا أردنا أن نقف على بعض أسماء هذه المؤلفات والكتب نذكر من ذلك عبد القدوس الأنصاري في كتابه عن الشاعر العراقي عبد المحسن الكاظمي وكتابه الأخر بين التاريخ والآثار ومع ابن جبير في رحلته.

كما نذكر محمد سعيد العامودي في كتابه «من تاريخنا» وكتابه «من حديث الكتب» وكتابه الآخر «من أوراقي». كما نذكر أحمد جمال في كتابه «محاضرات في الثقافة الإسلامية» و«الصحافة في

نصف عامود». وغيرهم من رواد الأدب الذين شكلوا بأقلامهم النيرة زخماً فكرياً وثقافياً وأدبياً عارماً، في هاتيك المرحلة التي شهدتها البلاد السعودية كأحسن طفرة معنوية وأدبية وفكرية.

وبالنسبة لكتاب لمحات من تاريخ الحجاز قبل الإسلام فهو يبلغ في صفحاته خمسمائة وثمانية وستين صفحة فصل من خلالها تاريخ الحجاز وحدوده وسكانه ومدنه مكة، المدينة، الطائف، وقد عاد بنا إلى تاريخ العماليق بمكة وجرهم ومن ثمّ قريش وكيف قدم إبراهيم عليه السلام وبنى البيت العتيق بالحرم الشريف هو وابنه إسماعيل وفي الكتاب تفاصيل عن تاريخ مكة وحكامها وبئر زمزم وذكر الحجر بالسقاية والرفادة والحجابة التي اختصت بها قريش وبطونها وأبناؤها كما ألمّ المؤلف المغربي بالتاريخ الاجتماعي والآداب الاجتماعية وتجارة القرشيين وأثريائهم وتحدث كذلك عن حرب الفجار وأسبابها وحلف الفضول وأسبابه وحادثة الفيل المشهورة.

ثم تحدث عن المدينة المنورة وآطامها ويهودها والزراعة فيها والنقوش النبطية ومن ثمّ تحدث عن التاريخ القديم لهذه المدينة المنورة ومنازل من نزلوا فيها وكيف توغل المؤلف بالحديث عن الأنبياء قبل محمدٍ عليه الصلاة والسلام مثل شعيب وموسى وسليمان عليهم السلام، كما تحدث عن الآشوريين وملك النبط وتاريخ ملك بختنصر ثم عن العدنانيين ومساكنهم إلى آخر ما هنالك من المعالم والتواريخ المدنية.

ويوضح المؤلف المغربي أن كتاب اللمحات هذا رجع فيه إلى ما كتبه المؤلفون عن تاريخ العرب قبل الإسلام مثل تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري وتاريخ العرب قبل الإسلام لجرجي زيدان وكتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للتقي الفاسي، ووفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى للسمهودي، وتاريخ العرب في عصر الجاهلية للدكتور عبد العزيز سالم، وكتاب المدينة في العصر الجاهلي للدكتور محمد العيد الخطراوي، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي، ومكة والمدينة للدكتور أحمد إبراهيم الشريف، وكتاب قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة.

وللمغربي كذلك كتاب "الإسلام في شعر شوقي" عبارة عن بحث قُدم إلى المؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي عُقد بمكة المكرمة من غرة ربيع الأول سنة ١٣٩٤هـ إلى السابع منه. وهو دراسة عن شعر شوقي الإسلامي الذي تحدث فيه عن أمجاد الإسلام وشريعته الغراء وخاصة في المدائح النبوية لأمير الشعراء.

وللمغربي كذلك كتاب «لعنة هذا الزمن» الذي احتوى على مجموعة من المقالات التي تتعلق بالأحداث العربية والإسلامية في العصر الحديث وخاصة الصراع العربي الإسرائيلي ورؤية المؤلف إلى هذه الأحداث وخاصة قبل مؤتمر السلام.

طاهر زمخشري

هو أبو فؤاد طاهر عبدالرحمن الزمخشري ؛ الشاعر الرقيق والأديب اللبيب ذو الشاعرية الثرة والإبداع الأدبي الرومانطيقي. كان شعلة في عالم الشعر وضاءة، وشخصية في الحياة الإنسانية نشطة ومرحة؛ يحب الحركة والتجوال، ودأبه التشجيع والتقدير للنشء من شباب الأدب وشداته وهو عبر الإذاعة السعودية ومجلتها "الروضة" من الراعين للأطفال والتلاميذ من طلبة المعرفة والعلم، مؤدب لهم ومرب أخذ بأيديهم إلى بر النجاح، وعالم الفلاح، ولذا لقب في دنياهم بلقب "بابا طاهر" واشتهر به عند الكتاب والوزراء والباحثين.

وهو مثل أترابه المترجم لهم -في هذه السلسلة- قد درس في مدرسة الفلاح الشهيرة، واستنشق عبير المعرفة والأدب والثقافة من خلال المطالعة والبحث والمتابعة وذلك في الكتب والمجلات والصحف التي ترد إلى جدة ومكة من الشام والعراق ومصر المحروسة.

ثم شارك في النتاج الأدبي بالحجاز الذي زخر بالأدب في صحفه؛ كصوت الحجاز، وأم القرى وحراء والبلاد والمدينة. وذلك امتداد لكتب «المعرض» و«أدب الحجاز» وكليهما لمحمد سرور الصبان، و«وحي الصحراء» لمحمد سعيد عبد المقصود خوجة، وعبد الله عمر بلخير، وكذا «شعراء الحجاز في العصر الحديث» للساسي؛ حيث بدأ الشعر في حيوية من هؤلاء الشعراء والأدب قوياً، والفكر نشطاً من الأدباء والكتاب، كمحمد سعيد العامودي، وعبد الوهاب آشي، وحمزة شحاتة، ومحمد حسن عواد، وعزيز ضياء، ومحمد حسن فقي، ومحمود عارف، وغيرهم من لا يحصيهم الحصر والتعداد؛ فكانت ثم حيوية شعرية وأدبية مثلت الثقافة والفكر لدى هؤلاء الرواد من أدباء وشعراء الجزيرة العربية.

وقد عرفته شخصياً في صيف ١٣٩٩ هـ الموافق ١٩٧٣م، وسره مقابلتي ؛ بعد أن قرأ لي كلمة نشرتها "المدينة" في صفحتها "دنيا الأدب" لمحررها الزميل الأستاذ سباعي عثمان -رحمه

الله- بعنوان: "ومضات من شعر طاهر زمخشري" وقال لي في أثناء المقابلة الشخصية إن ثمة كاتباً من الشباب هو الأستاذ حمد القاضي بصدد الرد عليك؛ لأنك جعلت شعري في الإتجاه الكلاسيكي " في حين يرى حمد أن شعري رومانسي.

ثم تتابعت مقابلتي له في جدة، بعد ذلك حيث كنت أزوره بمنزله في حي الشرفية، وكنت أرى جزءاً من مكتبة الأستاذ طاهر -رحمة الله عليه- في غرفة الضيافة، وكان يحلو لي أن أقرأ بعض العناوين ؛ كوحي الرسالة لأحمد حسن الزيات ووحي القلم للرافعي، من المعاصرين، ودواوين المتنبي وابن الرومي وأبي العلاء المعري من القدماء. وهي مكتبة غنية بكتب التراث الشعري والنثري في الأدب من الشعر والحكمة.

والشاعر الزمخشري إنسان رقيق الإحساس، أذكر لما صدر ديوانه "صبا نجد" عرضه الزميل الأستاذ علي العمير مع شيء من النقد القاسي تحت عنوان "قديم الزمخشري خير من جديده" نشره الأستاذ عبد المجيد شبكشي في صفحة "كل يوم" لعلي العمير في جريدة البلاد وكنت كثيراً ما أتردد على الرجلين في البلاد، واستغربت في إحدى المرات عدم إظهار التحية من الأستاذ طاهر للأستاذ العمير، ولما سألت العمير أخبرني أن طاهرا قد غضب عليه بسبب مقالته المذكورة، وبقي أكثر من شهر على هذه الحال.

وعندما أشير إلى شعر الرجل تستوقفني بعض القصائد الرائعة لأنها توحي بالشاعرية والإيمان، وعمق التمكن من اللغة وجزالة الأسلوب، في رونق جميل، كقصيدته "إلى المروتين" التي مطلعها قوله:

أهـيم بروحـي عـلى الرابيـة ... وعنـد المطـاف وفي المـروتين

وفي ديوان "أغاريد الصحراء" وقصيدته "سأعيش" التي مطلعها:

سـأعيش رغـم الـداء والأعـداء ... وأصـول في الـدنيا بعـزم إبـائي

وفي ديوانه "أنفاس الربيع" وقصدته "النفس المؤمنة" التي مطلعها:

إيـه يـا نفـس تـوبي إلى الله ... أنيبـي ثـم تـوبي

وفي ديوانه "همسات" ومثيلتها قصيدته "دعاء" التي يقول فيها:

إلهي خطايا عَدُّها ليس يُحصر — يضيق بها الإحساس مني وأزفر
إلهي خطايا كلما ثار وازع — من النفس ضجت في الحنايا تزمجر
إلهي خطايا ضقت ذرعاً بحملها — وأنت على محو الخطيئة أقدر
فَجُدْ لي بفيض يثلج النفس بالرضا — لتسعد أيامي وجهدي يثمر

أما إسهامه الإعلامي فهو أحد المؤسسين للإذاعة السعودية بمشاركته التحريرية والشخصية في الإنتاج، بدءاً ببرنامج الأطفال إلى برنامجه المسائي الشعري الغزلي الجميل "سجا الليل" وذلك عندما كانت الإذاعة نواة لوزارة الإعلام، التي كان وزيرها أو رئيسها الأستاذ عبدالله عمر بلخير.

كما ساهم "بابا طاهر" ببرامج إعلامية في إذاعات كا من مصر وتونس وغيرهما من الإذاعات العربية الأخرى، حيث برز فيها بشعره وأدبياته المرحة الجميلة ذات الشفافية النقية الصافية.

إن طاهر زمخشري ظاهرة شعرية عربية وإسلامية تعد صورة حية، وشكلاً فنياً رائعاً ومضموناً جيداً، عميق الجدة والإحساس، إنه صاحب الروح الخفيفة المرحة البديعة ذات المستوى الرائد لغة وسطاً في البساطة، مع شيء من التأنق بفصيح الألفاظ هي مثل ما نشاهدها في شعر الشعراء الغزليين، مثل العباس بن الأحنف والبحتري والشريف الرضي من القدامى، ومثل أحمد زكي أبي شادي وأحمد رامي من الشعراء المعاصرين.

إن لطاهر زمخشري -رحمة الله عليه- أسلوباً في الشعر هو نسيج وحده في الأدب والدقة في التصوير والسرحا ن في الخيال والطول في النفس.

وقد نال بجدارة -قبل وفاته ببضع سنين معدودة- جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م، والشاعر "محروم"، والأديب اللغوي أحمد عبد الغفور عطار رحمه الله.

وكانت وفاة شاعرنا الزمخشري ثاني أيام عيد الفطر المبارك من عام ١٤٠٧هـ الموافق ١٩٨٧م، عقب حياة حافلة بالحيوية والنشاط اجتماعياً، وبالمشاركة والإسهام في النتاج الأدبي والإعلامي والثقافي الإسهام الدال على سعة أفقه، وشاعرية غزيرة في الإنتاج، والأداء الثقافي، والمشاركة الأدبية على وجه العموم. رحمه الله رحمة واسعة.

عبد القدوس الأنصاري

عبد القدوس الأنصاري شخصية مرموقة في تاريخ الأدب العربي السعودي، وهو متعدد المواهب ومتنوع الإنتاج الفكري، واهتماماته العلمية عديدة الجوانب. فهو أديب، شاعر، لغوي، باحث مؤرخ، رجل آثار، صحافي، كاتب، ناثر، وهذه الأوصاف لمواهبه واهتماماته لست مغالياً في ذكرها أو متطرفاً في وصفها. فمؤلفات الرجل شاهدة على ما أقول، وهي دالة على ما ذكرت ووصفت وصرحت. ففي الأدب له كتاب «أربعة أيام مع شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي» وفي الرواية الأدبية له «التوأمان».. «ومرهم التناسي» وفي الشعر له «ديوان الأنصاريات» وكتاب «الملك عبد العزيز في مرآة الشعر». وفي اللغة له «إصلاحات في لغة الكتابة والأدب» وكتاب «التحقيقات المعدة بحتمية ضم جيم جدة» وفي الصحافة ناهيك مجلته العظيمة «مجلة المنهل» وما كتبه من بحوث ومقالات ودراسات في كافة الصحف المحلية والمصرية الأدبية منها والثقافية.

ولا أنسى رئاسة تحريره لجريدة "أم القرى" المكية. وفي التاريخ والآثار له باع طويل وقدم راسخة مثل "تاريخ مدينة جدة"، "طريق الهجرة النبوية المشرفة"، "التاريخ المفصل للكعبة المشرفة قبل الإسلام"، "بنو سليم"، "بين التاريخ والآثار"، "تاريخ العين العزيزية"، "وتحقيق أمكنة في الحجاز وتهامة". وله بحوث ورسائل أخرى في الدين والثقافة والفكر.

وهي كتب علمية من حيث المعرفة، ومؤلفات ثقافية ذات فلسفة، وهذه العلوم بناها الرجل في صروح الكتب التي صنفها وألفها، ولها مصادر ومراجع كثيرة ومتعددة تحمل طوابع من الموهبة والاقتدار والملكة والقدرة المتقنة، ومع ذلك فالرجل ليس خريج جامعات أكاديمية أو كليات حديثة، وإنما قد تخرج في حلقات الحرمين المكي والمدني ومدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة. حيث طلب العلم باكراً، ومن هذه المدرسة حاز شهادتها العالية في عام

١٣٤٦هـ. وكان له أساتيذ ومشايخ كبار مثل الشيخ محمد الطيب الأنصاري والشيخ أحمد الفيض آبادي، درسوه علوم الشريعة وآداب العربية وفنون الخط والرياضيات والطبيعة.

وكان -رحمه الله- قد تيتم وهو صغير حيث كفله بعد وفاة والده قاسم الشيخ محمد الطيب الأنصاري، وعلى يديه أخذ مبادئ القراءة والكتابة في الصغر.

وما فتأ الفتى أن نبغ مبكراً وسار في طلب العلم والأدب والمعرفة بحيث رام المجد الأدبي العظيم، والجد المعرفي الجليل، حتى أصبح أديباً مرموقاً، وصحافياً كبيراً، ومؤرخاً مشهوراً معدوداً من جيل الرواد الأوائل في تاريخ الأدب العربي السعودي والصحافة والمجلات الثقافية والأدبية والعلمية والمعرفية، في الوطن والخارج خارج إطار هذا الوطن الحبيب كذلك مثل مصر ولبنان والأردن وسوريا.

وقد خاض الأنصاري تجارب علمية وأدبية عديدة، خلال اجتهاده المعرفي. منها تجربته اللغوية في إصلاح لغة الكتابة والأدب، التي بدأها في العدد الأول من مجلته "المنهل" الذي صدر في شهر ذي الحجة من عام ١٣٥٥هـ الموافق لشهر فبراير من العام ١٩٣٧م، تحت عنوان "أبحاث لغوية" وهو عنوان جانبي على الصفحة رقم ٢٨ ضمن سلسلته المشهورة بسلسلة "إصلاحات في لغة الكتابة والأدب"[1] واستمرت هذه التجربة اللغوية النحوية الصرفية طويلاً حتى جمعها فيما بعد في كتاب.

ومن المفيد معرفة الباعث له، على هذا الإصلاح اللغوي الأدبي في ذلك التاريخ المبكر من مسيرة عبد القدوس الأنصاري " الأدبية والصحافية والبحثية " يقول في أول حلقة وفي أول عدد من المجلة – وتأمل ذلك أخي القارئ.

"تحت هذا العنوان سنوالي القيام بإصلاح الكلمات والشائع استعمالها ملحونة أو مغلوطة في عالم الكتابة والأدب، ورائدنا في ذلك، الرغبة في تقديم الأقلام، وتنقية اللغة العربية الكريمة

---

(١) على سبيل المثال كلمة شيّق -بتشديد الياء المكسورة- يرى الأنصاري أنها خطأ والصحيح هو شائق. بينما يراها لغويٌّ وأديبٌ أخر هو الأستاذ محمد سعيد العامودي أن شيق لفظةٌ صحيحة وقد استعملها في كتابه "من حديث الكتب" ج١.

مما علق بها من أوضار المسخ والتحريف والتشويه، واللغة هي نواة الحياة في الأدب فإذا كانت جيدة صحيحة سما أدبها وجاء رائعاً خالداً.

ومن وجهة نظري المتواضعة في هذا الصدد، أن تجربة الأنصاري هذه ليست تجربة لغوية وحسب وإنما يدخل فيها الجانب العلمي والمعرفي والفكري، وهو الجانب المهم بالإضافة إلى الجانب اللغوي، وذلك للبيان في معرفة نشوء المجتمع العربي وتطوره في ظل الإسلام من كافة الجوانب الاجتماعية والشخصية والتاريخية وجانب الأنساب الأثري والعرقي، والأدبي والشعري والتأليفي.. تأليف العلوم والآداب بفنونها وألوانها. ويظهر من مسار الأستاذ عبد القدوس الأنصاري، المعرفي، دخوله سلك الأدب من خلال البحث العلمي. أي أنه يعرف الأدب من خلال المطالعة والبحث، على الرغم من استعداده وموهبته التي لا تنكر.

فهو دارس للأدب مطالع في علومه وفنونه كاتب له وعلى هذا النهج المعرفي استطاع تكوين تراث أدبي علمي، بدءاً بإنشائه مجلة "المنهل" ومروراً بالبحوث والدراسات التكوينية فيها، ومشاركاته التي لا تحصى في هذا المجال الفسيح، والمنتج الثقافي الوسيع، لا في "المنهل" فحسب بل في عالم الكتب والصحافة المتعددة الفنون في "صوت الحجاز" و"البلاد السعودية" و"المدينة المنورة" و"الحج" وسواها من الصحف والمجلات المحلية، وفي "الرسالة" لأحمد حسن الزيات، و"السياسة الأسبوعية" للدكتور محمد حسين هيكل،ونور الإسلام لمحمد فريد وجدي من الصحف العربية. ففي بحثه عن "بنو سليم" ترى الكيفية الأدبية التي سيرها في الكتاب فهو يتحدث عن هذه القبيلة العربية العدنانية من خلال شريط تاريخي عن امتداد الإسلام والعروبة من مهدهما إلى العالم. ولا يخيل أنه يؤلف عن تاريخ هذه القبيلة المشهورة برجالها عبر التاريخ، بل يكاد أسلوب المؤلف في بحثه أن يصوغ لك كتاباً أو بحثاً أدبياً من خلال السيرة العطرة لهذه القبيلة، كيف استخرج المعرفة بالسليميين من الصحابة.. صحابة رسول الله ﷺ، والتابعين، وشعرائهم وأمرائهم.

ولا يعزب عن العلم أسلوب الأنصاري في هذا البحث العلمي الثقافي.. وهو الأسلوب الأدبي، فأنت لا تجد فيه "الطنطنة" أو التقعر، كما هو في أساليب بعض المؤرخين، عندما

يتناولون بحوثهم التاريخية الصميمة إنما لا يخلو كل فصل من فصول كتبه، من العبارات الفصيحة البليغة ووالجمل والأبيات الشعرية إن وجدت على سبيل الاستشهاد!!

وهذا جانب مهم في الأساليب التأليفية. خاصة في البحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية الثقافية. فما بالك والمؤلف من قبيلة شاعرة من قبائل العرب الشهيرة في التاريخ الأدبي لشبه الجزيرة العربية من حيث الأنساب التاريخية والمجالات الشعرية علماً بأن للشعر العربي آنذاك دوراً إعلامياً مهماً وإذا كان كتاب "بنو سليم" تجربة علمية تاريخية صاغها أديباً بأسلوبه وكذلك كتابه "بين التاريخ والآثار" صاغه بنفس الأسلوب البياني، فإن كتاب "أربعة أيام مع شاعر العرب عبد المحسن الكاظمي"، هو الأدب الصميم الذي ألف به عن حياة الكاظمي الأدبية والشعرية والتاريخية!. وجلى به شاعرية "شاعر العرب" في العصر الحديث تجلية أدبية رائدة.

بما نظم الكاظمي من قصائد شعرية مجلية كان رائده في أكثرها الارتجال البديهي، عفو الخاطر كما ذكر الأنصاري في هذا الكتاب.

فقد عاش عبد المحسن الكاظمي في طور انبعاث النهضة الفكرية والأدبية في العصر الحديث في مصر التي قدم إليها من بلاده العراق في بدايات القرن العشرين الماضي. وصادق فيها الإمام محمد عبده وشوقي وحافظ والرافعي، وأحمد محرم وآخرين من رجال النهضة الحديثة، حيث اعتبرت مصر عاصمة الثقافة العربية آنذاك، وأقصد بمصر هنا "القاهرة".

وعلى الرغم من أن هذه الدراسة الأدبية الشعرية، قد ألقت أضواء كاشفة على هذا الشاعر المنسي الذي توفي في مصر الجديدة، بالقاهرة في عام ١٩٣٥م في اليوم الأول من مايو. فإن المؤلف قد نقد شاعرنا الكاظمي نقداً لاذعاً في فصلين من فصول كتابه وهما "الكاظمي والدين الإسلامي" و"مناقشة هادئة".

ولا بأس أن ننشد مع أستاذنا محمد سعيد العامودي أبياتا من قصيدته الرائعة التي بعثها لصديقه عبد القدوس الأنصاري ونشرها في مقدمة الكتاب، يقول العامودي مخاطباً المؤلف:

أحييت ذكرى الشاعر الكاظمي بروعة البحاثة العالم

أحييـــــت ذكـــــراه وأنصـــــفته　　　إنصـــاف حـــق لـــيس بـــالآثم

قـــد عـــاش مظلومـــاً ومـــا كـــان　　　هـــذا الشـــاعر المظلـــوم بالظـــالم

يا شعراء العصر هذا هو الشاعر "عبد المحسن الكاظمي"

وقد احتدم النقد بينه وبين الأستاذ محمد حسن عواد حينما انتقد الأخير كتاب الأول الروائي «مرهم التناسي». كما جرى النقد بشدة بينه وبين الأستاذ حمد الجاسر في المعركة المشهورة حول ضم جيم جدة أو فتحها أو كسرها.. وكان الأنصاري يرى ضمها فقط وجمع وجهة نظره في الكتيب المسمى بـ«إعداد العدة بحتمية ضم جيم جدة» في حين يرى الاستاذ حمد الجاسر الحركات الثلاث بما فيها الضم على كل حال.

وعن طريق البحث والمدارسة مع اجتهاده وجلده على البحث، جرب " الأنصاري" أن يخوض في الحديث وفي التفسير وتفسير آيات من سور القرآن الكريم والحديث عن صيام شهر رمضان. وذلك في كتابه المسمى " الصيام وتفاسير الأحكام " الذي أصدره ابن المؤلف نبيه عبد القدوس الأنصاري بعد رحيل والده -رحمه الله-. وهو إصدار جيد من الأستاذ نبيه، إذ أخرج للناس كتاباً مخطوطاً نادراً -في موضوعه من قبل أديب سعودي كبير كالأستاذ عبد القدوس وفي موضوعه بالذات عن القرآن والصيام ونحن نعرف قلة من الأدباء السعوديين الذي خاضوا في الكتابة في تفسير الآيات البينات لعل أقربهم إلى الذكر هو الاستاذ احمد محمد جمال، وله في ذلك كتاب معروف.

أما الأستاذ الأنصاري فإنه رجل بحث وكما قلت سابقاً يظهر من مسار الأستاذ عبد القدوس الأنصاري المعرفي دخوله في سلك الأدب من خلال البحث العلمي. سقت هذا الحيدث لأقول إن البحث والمطالعة المستمرين في حياة الأنصاري العلمية والأدبية هو رباط التأليف والإنتاج والإكثار منهما، فهو موسوعي الإنتاج ويأتي معه من أقرانه في هذا المجال الأستاذ أمين مدني والأستاذ أحمد عبد الغفور عطار.

أما حديثه عن رمضان في هذا الكتاب فقد خصه في جوانب مهمة مثل: "الصيام في اللغة والدين" "مزايا الصوم"، "رمضان في شمائل رسول الله ﷺ".

أما التفسير في هذا الكتاب فعبارة عن تقدمات موجزة "لسور منتقاة" من القرآن العظيم مع التركيز على معانيها وتفاسيرها لكن في آيات الأحكام، أي إن المؤلف حرص على تقديم آيات وانتقاء معناها الدال في أحكام الشريعة الإسلامية الغراء مثل: آية الدين في خواتيم سورة البقرة. وخلافة الإنسان في الأرض في سورة الأعراف، وشعيرة الحج في سورته القرآنية المعروفة، ونتائج أعمال الكافرين وأعمال المؤمنين في سورة محمد. وهو نموذج حي في هذا الكتاب التفسيري بأسلوب الأنصاري المعهود في جميع مؤلفاته.

والكتاب مشتمل على قسمين، الأول منه عن الصيام وهو مجموعة حلقات متتابعة من أحاديث الصيام، ألقيت بإذاعة نداء الإسلام بمكة المكرمة طيلة شهر رمضان المبارك لعام ١٣٩١هجرية.

ويقول ابن المؤلف: ولقد بقيت هذه الحلقات كما هي في قمطرها حتى رؤي من الخير أن تظهر في أثر مجموع مطبوع، لما تشتمل عليه من الفوائد الدينية والتاريخية والاجتماعية والفكرية، وها هي بين يدي القراء الأفاضل انتهى من تقديم الكتاب الذي لم يذكر على غلافه اسم دار النشر ولا تاريخ طبعه، وأين طبع، ثم ختم الكتاب بالتفسير المذكور وهو منه القسم الثاني والأخير.

وضمن ثقافته يمكننا القول إنها ثقافة أدبية ودينية وعلمية، وإن كان الجانب الأدبي يتغلب على الجوانب الأخرى. فعبد القدوس نظم الشعر وقرضه، وكتب في الرواية القصصية،وله دور صحافي راشد، بث خلاله الثقافة من تراث ومعارف ومعلومات وآداب وفنون، ونشر الدراسات والأبحاث والآراء والخواطر والمقالات والأشعار والأفكار.

فديوانه "الأنصاريات" نظم وشعر مسبوك البناء، قوي التركيب ذو اسلوب لغوي بارع، ومعان وصور رائعة، وفي مقدمة الشاعر له يقول:

«ليس في هذه القصائد، مدح ولا قدح.. وإنما فيها وصف لمناظر الطبيعة في حقل، وفي سهل وجبل، وفي شمس وقمر وأرض، وفي سماء وماء، ووصف للحياة في أناس وقلوب

وحيوان، وفي باخرة وسيارة وطيارة. وصف لمشاعر النفس وخلجاتها في ساعة ألم وأمل، وفي ساعة غضب وساعة رضا».

وهي عبارات في موضوعات الشعر الذي حواه الديوان، تعبر عن الأجناس والأغراض التي حملها شعره، وجملها بالتناول الأدبي والإنساني والاجتماعي، فخرج الديوان على صغر حجمه في كتاب منسق الأقسام والقسمات والأسماء والسمات.

وبالنسبة للجانب الروائي والقصصي في أدب الأنصاري نجد له عملين هما «التوأمان» و«مرهم التناسي» على الطريق الذي اختطه مثله من رواد الأدب العربي السعودي في بداية آدابهم، وهو طريق سباق للريادة ليس نظراً للمرحلة كما قد يقال وإنما الواقع الأدبي والاجتماعي هو الذي أوحى لهم بمثل هذه الأعمال الريادية.

أما الصحافة فشاهدها له، «المنهل الأغر»، الإصدار الشهري الماتع الذي يحوي الثقافة العلمية والأدبية والدينية والتراثية بالمعارف والمعلومات والمفاهيم والمعاني "معاني الأدب والفكر والفن والدين والمعرفة" كل ذلك ثابت في كل عدد ودورية من أعداده ودورياته التي تحمل الأخبار والمقولات ومختلف الأفكار والمقالات والمقولات الدينية والشرعية والتاريخية والأثرية، وأسهم أو ساهم العديد من الكتاب والأدباء والعلماء والباحثين في الكتابة بالمنهل وهم من المملكة العربية السعودية ومصر والكويت ولبنان وسوريا والأردن وفلسطين واليمن والمغرب والعربي والسودان، وسواهم من الأقطار العربية والإسلامية والعالمية.

وقد أنشأها عبد القدوس عام ١٣٥٥ هجري الموافق للعام ١٩٣٧ ميلادي. ويعتبر المنهل -في نظري- الراية الثقافية الكبرى التي حملها عبد القدوس الأنصاري حوالي نصف قرن من الزمان، ولا يزال يصدره ابن المؤلف الأستاذ نبيه ولده زهير وفي الجزء الأول يقول عبد القدوس واصفاً المنهل:

«أول مجلة أدبية ثقافية من نوعها تصدر بالحجاز في عهد صاحب الجلالة (عبد العزيز آل سعود) ملك المملكة العربية السعودية الذي جعل مبدأه الحميد، أن يأخذ من أسباب المدنية

الحديثة كل جيد ونافع وصالح لأمته مع الاحتفاظ بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف والاستضاءة بهديه القويم، ص١، ع١، شهر ذي الحجة ١٣٥٥هـ - فبراير ١٩٣٧م.

وهو استهلال للعدد الأول من المجلة يوضح فيه الخط الأدبي والثقافي لها في ضوء السياسة الحكيمة للملك عبد العزيز آل سعود في دولته العتيدة، المملكة العربية السعودية.

محمد إبراهيم جدع

هو شاعر من أهل جدة، ولد فيها سنة ١٣٣٠هـ. ودرس في المدرسة السعودية بها وتخرج فيها سنة ١٣٤٨هـ.

بدأ نظم الشعر مبكراً من عمره لكنه لم ينشر منه في الصحف والمجلات في الحجاز إلا منذ عام ١٣٧٥هـ.

وكان يطلع على دواوين الشعر وكتب الأدب القديمة والحديثة ويتابع ما ينشر من الشعر الحديث في الصحف والمجلات المحلية والخارجية التي تأتي من مصر والشام والعراق.

ظهر ديوانه الأول "وحي الشاطئ" سنة ١٣٥٨هـ.

وقوبل أدبه وشعره بالترحاب من قبل رجال ونقاد الأدب والشعر الذين كتب بعضهم دراسات وبحوثاً تدرس شعره وتبحث فيه.

ويعتبر الأستاذ محمد إبراهيم جدع من رواد الأدب العربي السعودي الذين أخذوا من العلم والثقافة بوفرة عبر الاجتهاد الشخصي وذلك بالاطلاع والقراءة والمشاركة في الكتابة الأدبية مع أنه مقل في ذلك إلا أنه ذو جودة في الإنتاج الأدبي والثقافي.

ويكاد يكون نتاجه شعرياً فحسب دون النثر والكتابة الأدبية التي نادراً ما كتب فيها والنادر لا حكم له كما قيل في علم أصول الفقه ولكن لا يعني ذلك عدم الكتابة النثرية على الإطلاق، فالرجل أديب وشاعر، وثقافته جيدة في الفنون الشعرية والآداب وهو شاعر الإلياذة الإسلامية في وصف الرسالة النبوية الشريفة وفي وصف النبي ﷺ.

وهذه الإلياذة طويلة ونظمها جيد إذ يتنقل في أبياتها من حال إلى حال ومن وصفٍ إلى آخر في مدح الرسول ﷺ على قافية الهمزة التي كثيراً ما استعملها مادحوه ﷺ أمثال أحمد شوقي واحمد محرم وعلي باكثير عليهم جميعاً رحمة الله.

وقد ألقى شاعرنا الجدع هذه الإلياذة الشعرية ضمن أعمال المؤتمر الأول للأدباء السعوديين سنة ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م والذي انعقد بمكة المكرمة تحت إشراف جامعة الملك عبد العزيز إبان إدارة الدكتور محمد عبده يماني لها عليه رحمة الله تعالى.

يقول الناقد الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي حول الإلياذة هذه:

«إن هذه الملحمة التي يعز أمثالها في الشعر العربي الحديث والتي تحاكي الإلياذة الإسلامية للشاعر الكبير أحمد محرم هي من الدرر اليتيمة في حاضرنا الأدبي، وهي بحق نمط رفيع من الشعر الإسلامي الموجه البنّاء الذي يعمل ليؤدي رسالته نحو الجيل المعاصر من أبناء العروبة والإسلام».

ويواصل الناقد الخفاجي قائلاً:

«وفي شتى فصول هذه الملحمة الإسلامية الخالدة تلمح الإشراق الفني، ووهج الشاعرية، وذاتية الشاعر وانتباهته العميقة في الحياة».

«ومن حق الشاعر محمد إبراهيم جدع علينا وعلى الشعر العربي المعاصر، وقد أسدى إليه وإلى الفكر الإسلامي هذه الملحمة الرائعة أن نعبر له عن تقديرنا على ما أسدى ونبارك له هذه الجهود».

ومن الإلياذة هذه أبيات يقول فيها الشاعر:

أرضَ الجلال ولدتِ خير موحد	وبلغت مالم تبلغ الأجواء
وظهرت في الدنيا بأسمى مغنم	وطن الرسول وجل منك بناء
بيت الإله وفيه بيت المصطفى	ومقام إبراهيم والإسراء
تهنيك يا أرض الجلال مكانة	يمشي لها الحكّام والعظماء
تهنيك يا أرض الجلال مهابة	غنى بها الخطباء والشعراء
وعلى ترابك قد مشى خير الورى	وتحدث التاريخُ والفصحاء
وبنوك قد سعدوا بأعظم موطن	من دونه الأوطان والأحياء
ولديك عز الله ديناً قيماً	من عهد "إبراهيم" شع سناء

وعلى رحابك قام إصلاح الورى   بهدى الرسول وما دعا الخلفاء
وبنيت للدنيا بناء شامخاً   صلحت به الأوضاع والأشياء
ومنحت للدنيا تراثاً خالداً   نور الحضارة إنه لبهاء

فأنت ترى في هذه الأبيات نوراً من التعبير الجميل الذي يرسم صورة الدين والإيمان بنزول الرسالة الإلهية على رسولنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام وهي صورة إيمانية تجسد كلام الشاعر وتعبيره الجميل لرؤيته لتلك الرسالة وفكرته فيها.

بل إنك تجد أكثر من صورة وأكثر من فكرة ترسمها شاعرية الشاعر محمد إبراهيم جدع وأنت تمعن فقط في قوله:

بيت الإله وفيه بيت المصطفى   ومقام إبراهيم والإسراء
تهنيك يا أرض الجلال مكانةً   يمشي لها الحكام والعظماء
تهنيك يا أرض الجلال مهابةً   غنى بها الخطباء والشعراء

فهذه الأبيات الثلاثة تجسد تلك النورانية التي تتراءى للشاعر حيث يمشي الحكام والعظماء والخطباء والشعراء إلى ذلك النور، الأمر الذي يجعل من هذه الرسالة تولد الحضارة البشرية في العالم أجمع بعد مجيء المصطفى عليه الصلاة والسلام وأدائه الرسالة الإلهية المنوطة به وبيانه للناس أن ذلك من رب العالمين.

إن الشعراء في مثل هذه المواقف لا يتخيلون ولكنهم يفكرون ولا يتصورون ولكنهم يصورون في هذا الموقف المهيب حيث يأتي من الله الكتاب المنير والذكر الحكيم يبينه المصطفى للناس وإن ذلك لهو الحق وهل بعد الحق إلا الضلال.

ثم يتحدث الشاعر بتصوره عن هذه الدعوة قائلاً:

يا موطن التوحيد يا أرض الهدى   قد قام للتوحيد منك دعاء
من عهد "إبراهيم" قامت دعوة   لله تدعو وحده ونداء
ولديك "أحمد" قد دعا لهداية   هديت بها أمم وطاب ثناء

ومفاخر ما كان يحصى عدُّها | لم يستطع إحصاءها البلغاء
خَلـُدت وجل مقامها في بقعة | وتقاصرت عن عزها الجوزاء

إذاً هذه الدعوة عمت الكون ووسعت البشرية كي يؤمنوا بها لأنها دعوة الله لعباده أنزلها على رسوله ﷺ منذ أن دعا لها ابراهيم عليه الصلاة والسلام ونفذها أحمد في قول الشاعر:

ولديكِ أحمدُ قد دعا لهداية | هُديت بها أممٌ وطاب ثناءُ
ومفاخرٌ ما كان يحصى عدها | لم يستطع إحصاءها البلغاءُ
خُلدت وجلَّ مقامها في بقعة | وتقاصرت عن عزها الجوزاءُ

فانظر إليه كيف يبدع بالشعر في هذا المقام العظيم الذي يرى فيه المصطفى وهو يدعو أقاربه وأهله ثم معشره ثم مجتمعه ثم أمته العظيمة. هذه الدعوة إلهية بشر بها رسول الله ﷺ لخير الدين والدنيا ولخير الحياة الأولى والأخرى.

إن شاعرنا الجدع لديه إبداعات متعددة في الدين والأدب والثقافة والشعر.

أما الشعر فهو مُجيدٌ فيه بكل صوره وبكل عناصره وبكل أهدافه ومن ذلك شعر الوصف الذي يتحدث عن البحر وناهيك ببحر جدة مثلاً يقول في أنشودة البحر:

يا بحر ما هذا التصاخب حولنا | أم أنت تهزأ من هوى البلهاء
أم أنت تسخر بالضعاف لأنهم | لا يصمدون لصدمة وبلاء
أم أنت تضحك بالذين تخوفوا | من هول مدك أم بجزر الماء
يا بحر كم طود طويتَ وكم هوى | فُلكٌ بقاعك مُدعَّم ببناء
يا بحر كم سر حويت من الألى | ذهبوا ولا خبر أتى بأولاء
يا بحر كم بطل هزأت ببطشه | حتى ثوى في حفرة ظلماء
يا بحر كم علماء مدوا كشفهم | في ظلك المرهوب بالأنواء
فحبوتهم حتى أتوا بنتائج | خلدت مع التاريخ للأحياء

ومع عظمة البحر يعظم الشاعر أمره ووصفه لهذا البحر العظيم الذي لا ينضب ماؤه ولا ينقص منه شيء بل يبقى خالداً خلود الأرض والجو، وعندئذ يتحدث الشاعر عن هذه العظمة بكل وضوحٍ وبيان وأسلوبٍ مشرقٍ مبسطٍ وبليغ.

إن صدق الشاعرية هو بصدق القول مع الموهبة والخبرة والتجربة الشيء الذي يجعل من الشاعر إنساناً فذاً وشاعراً عبقرياً وأديباً كبيراً، وهكذا فعل الجدع في ديوانه الذي يحمل أعماله الكاملة وهذه الأعمال عبارة عن خمسة دواوين الأول بعنوان "وحي الشاطئ" الثاني بعنوان "الإلياذة الإسلامية الجديدة" والثالث بعنوان "أهازيج" والرابع بعنوان "نبع الصفا" والخامس بعنوان "نداء الحب".

وبقدر الإمكان لا نريد أن نمضي قُدماً لتلك الدواوين فإننا لازلنا في أنشودة البحر التي يستطرد الشاعر فيها بقوله:

يا بحر قل لي هل شهدت نضالهم	أم أنت عن ذاك النضال منائي
يا بحر حدث عن محاولة الألى	طافوا عليك بهمة ومضاء
وعن الذين توغلوا في قوة	وغزوك في جلد وفي إعياء
حدث عن العرب الذين مضوا على	آفاقك الكبرى بكل رجاء
هل طارق أضحى عليك محارباً	أم هل شهدت تقهقر الأعداء
وشهدت من هزوا ممالك رومة	أو ملك أندلس على الزهراء
ورأيت أسطولاً ليعرب قائماً	متبختراً في مشية الخيلاء
حيث الزمان زمان يعرب معلناً	مجد العروبة ساطعاً كذكاء
حيث البطولة للعروبة مجدها	وسمت على الأمصار بالعظماء
بهداية الإسلام أصبح شعبها	يلد الرجال مفاخر الحكماء
حيث النفوس تهيب في وثباتها	عزم الرجولة ناهضاً لعلاء

ولأنت أصدق في الحديث معبراً أسمى من التاريخ للقراء[1]

ويُعد محمد إبراهيم جدع أبرز شاعر في جدة وصف بحرها وشواطئها بل أبرز من مرّ من الشعراء عليها، فهو وصاف لهذا البحر ويعبر في ذلك عن الشاطئ البحري في جدة بشعر جميل مستطرداً يقول في أنشودة البحر وهي القصيدة الجميلة السابقة:

يا بحر ماهذا التصاخب حولنا أم أنت تهزأ من هوى البلهاء

أم أنت تسخر بالضعاف لأنهم لا يصمدون لصدمة وبلاء

أم أنت تضحك بالذين تخوفوا من هول مدك أم بجزر الماء

يا بحر كم طود طويت وكم هوى فلك بقاعك مدعم ببناء

يا بحر كم سر حويت من الألى ذهبوا ولا خبر أتى بأولاء

يا بحر كم بطل هزأت ببطشه حتى ثوى في حفرة ظلماء

يا بحر كم علماء مدوا كشفهم في ظلك المرهوب بالأنواء

فحبوتهم حتى أتوا بنتائج خلدت مع التاريخ للأحياء[2]

وأنت ترى هذه الأبيات تحتوي على صور من البحر وأفكار من أسراره التي لا يدركها إلا الشاعر أو المفكر أو الأديب، بحيث يصورها ويكتبها هذا الشاعر ببلاغته وشعره وأسلوبه الجميل.

إن الشاعر محمد إبراهيم جدع يحسن التصوير لوصف البحر وأشتهر بذلك بين أقرانه من الشعراء حتى لقب بشاعر البحر.

يقف هذا الشاعر على جزيرة صغيرة تقع في جنوب جدة الغربي وهي جزيرة الواسطة وعند شاطئها البهيج يقول:

أنفت من الصحراء مفعمة الهوى قد أيقظتها لفحة الصحراء

فبدت على البحر العميق مطلة تهوى الجمال ممثلاً في الماء

---

(١) الأعمال الكاملة ص٢٩ طبعة نادي جدة الأدبي سنة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

(٢) الأعمال الكاملة ص٢٩ طبعة نادي جدة الأدبي سنة ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

جنحــــت إلى حريــــة أبديــــة | تسـمو عــن الإجحــاف والإيـذاء
ولقد أحاط بخصرها موج الدجى | كـيما يسـر لهـا جميـل غنـاء
مــترددا ترجيعــه في جوهـا | فــترى الجــمال مــوفرا بثــراء
هربـت مـن الصـحراء لكـن عنـدها | ميــل إلى آثارهــا بلقــاء
قربـت مـن الشـط النضـير وراقبـت | قمـم الجبـال ورهبـة الرمضـاء[1]

ثم يعبر الشاعر عن هذه الجزيرة وما أوحت إليه من أفكار ومعان فيقول:

لمـا قضـيت بقربهـا كانـت لنـا | في ظلهـا ذكـرى وخـير وفـاء
والرمـل مؤتلـق بأسـفل شـطها | متمـوج في روعـة وصـفاء
واخضـر منـه جوانـب حتـى بـدا | وكأنــه في حلــة خضــراء
كـم ذا يحـاول بحرهـا أن يرتقـي | لينــال منهـا قبلــة برضـاء
فيحـار فيهـا المـوج مـن إعراضـها | بالشــط تمنعــه بكــل جفـاء[2]

فالتعبير بهذه المعاني وهذه الصور الجمالية من البحر هو تعبير شاعر وليس تعبير مار بقرب الشاطئ وإنما هو تعبير من يتأثر بهذا البحر وأمواجه وإخضرار ما حوله حتى يكاد أن ينال منها قبلة برضاه.

ثم يمضي صاحبنا جدع في تصوير هذه الجزيرة وبحرها العباب فيقول:

وكأنهـا صـور تصـور عالمـا | في النـاس مـن ميـل إلى الأهـواء
لـولا التـألم مـا رأيـت تـنعما | والخـير يرجـى بعـد كـل شـقاء
هـي للحيـاة ووقعهـا في نفسـنا | مثـل فهـل نحظـى بكـل رجـاء

ويواصل شاعرنا في وصف الجزيرة وما حولها من محيطات بحرية فيقول:

---

(١) الأعمال الكاملة ص٣٤ طبعة نادي جدة الأدبي سنة ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

(٢) الأعمال الكاملة ص٣٥ طبعة نادي جدة الأدبي سنة ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

وبقيت أبصر في سماء جمالها بحراً خضماً واسع الأرجاء
تتمتع الأبصار في جنباته فتنال منه النفس كل رواء
لما بدا والليل يرسل رهبة من عالم يزهو بروح بقاء
خلف الظلام يسر فيه تهامساً يتناجيان بخلسة وخفاء
يتصيدان فريسة محتارة ضلت مسالكها من الظلماء

لكنه فجأة يبعد عن هذا الشاطئ ليعزي نفسه من ويلات الحياة وما يقاسيه فيها من عذاب فيقول:

وبعدت عن شط الجزيرة قافلاً أبغي الرجوع إلى طريق عزائي
وطن هو الثغر الجميل له هوى في مقلتي يقيم والأحشاء
وطن الخيال يروق كل مفكر قد ضايقته سخافة الدهماء
لكنني أصبو ولست مبالغاً نحو الجزيرة مسرحاً لصفائي
لله ما أحلى السباحة حولها وألذ منها نظرة في الماء
هي مرتع الأحلام للنفس التي خلصت من الإجهاد والإعياء
هي مسرح الفكر الخصيب وعالم بسمو عن التزييف والإغواء

وفي الثلاثة الأبيات الأخيرة نرى الشاعر يعود إلى الشاطئ ليرمي بنظراته في مائه قائلاً: إن العودة إلى السباحة حوله ألذ شيء في الحياة.. ولعلنا نستنتج من ذلك أن شاعرنا يصف شاطئ الحياة الغاصة بالحركة والنشاط وليس ماء البحر أو شاطئه الشيء الذي يجعلنا ندرك كيف يتلمس الشاعر الحياة من خلف نظره للبحر.

وهذا ما نؤكده عندما نرى أن أول ديوان في أعمال الشاعر أسماه ديوان وحي الشاطئ. والذي إذا تصفحناه رأينا قصائد كثيرة لا تمت إلى البحر بصلة ولكنها تنتسب للحياة التي عاشها شاعرنا محمد إبراهيم جدع.

خذ أسماء بعض القصائد على سبيل المثال (المثل العليا للحياة، دنيا الإخاء، دنيا الحظوظ، الخليقة، هذا الوجود، تأملات، ما وجودي، صحيفة الآلام، ينبوع الحياة) وما إلى ذلك من

قصائد عبر فيها الشاعر عن مواقفه ومعالمه وحركاته وأنشطته وأعماله في الحياة التي عاشها وهو مطمئن البال سائراً لا يعبأ بتعويقات المعوقين وعقبات الحياة وما إلى ذلك من صعوبات تلقاها بصبر وثبات.

والواقع أن هذا الأمر هو طبيعي في الحياة الدنيا قد تمر بأي إنسان لكن تعبير الشاعر عنه هو الذي يجعلنا نتأمل ونفكر في هذه الحياة لأنه لفت أنظارنا إلى حقيقة الحياة وواقعها وكيف أن أي إنسان لابد أن يدرك ذلك في حياته، فالحياة هي مجموعة من عقبات ومصاعب واللبيب اللبيب الذي يدرك ذلك ويرسم في حياته الإبداع الذي ينبغي أن يصوغه ويرتب أموره عليه كي يدرك هدفه في الحياة وأموره في الدنيا وهكذا دواليك.

إن محمد إبراهيم جدع شاعر قال الشعر في أغراض الحياة المتنوعة وفي عناصرها المختلفة ومن ذلك الوطنيات التي ذكر فيها بعض الملوك والأمراء من آل سعود. يقول في تحية صاحب الجلالة الملك:

ملك البلاد وعزها ورجاؤها	قد بايعتك على الفداء دماؤها
في شرقها في غربها من يعرب	وشمالها حتى الجنوب ولاؤها
فاذا حللت بدارها من موطن	زفت إليك قلوبها ورجاؤها
وإذا مشيت فقد مشيت بأمة	قد عاهدتك بما يحق وفاؤها
وإذا أمرت فطاعة مقرونة	برضا الإله تباركت أسماؤها
تفديك بالروح العزيز وتفتدي	أرض العروبة أن يمس بناؤها
إن رامت الأعداء غصب حقوقها	حسم المعارك بأسها وباؤها

كما يقول في قصيدة بعنوان "مقاصد":

حسبي الله في نفوس تعدت	واستبدت ولم تراع الأمانة
واستهانت بكل أمر عظيم	واستخفت بما تحض الديانة
حسبي الله في نفوس تمادت	في أمور تجر شر الإهانة

حسبي الله في نفوس تردت ... وتهاوت إلى حدود النتانة

ورأت في القبيح خيراً وكسباً ... ونجاحاً يزيد منها المكانة

واقتناص الحقوق أو هضم فرد ... هو فوز بعرف أهل الخيانة

وامتهان النفوس أو خنق حر ... لدليل تقاس منه الفطانة

لرشاد بعرفهم وفلاح ... وصواب وتلك أقصى المجانة

فهو فيها يعالج مشكلة النفوس التي تستبد ولا تراعي الأمانة والاستهانة بكل أمر واستخفت بما تحض الديانة. إذا فهو يندد بهذه النفوس التي لم تراعِ الله ولا ديانته في الحياة والوجود والدنيا.

فمشكلة النفوس أنها تتغير مساراتها وتتعدد أغراضها ولذلك قد يصعب على أهلها أن يصلحوها ويقودوها إلى سواء الصراط.

ويصف الشاعر هنا الذين يمتهنون النفوس الحرة وكيف بكون الدليل أن القائم بذلك تقاس منه الفطانة وإن الذين يظلمون الفقير أو الضعيف هم الناجحون في الحياة، فهذا لعمري إحدى مصائب الدنيا التي صورها الشاعر في الأبيات السابقة، وأن مقصده هو الإصلاح إصلاح هذه النفوس المستبدة والتي لا تراعي الأمانة لأن هؤلاء أشرار في الحياة بالظلم واستضعاف النفوس الحرة الأبية التي لا تمتلك من الدنيا لا حول ولا قول وإنما هم أبقى بالعزة عزة النفس وسماحتها، والأعجب من ذلك أن يرى ضعاف النفوس في القبيح خيراً وكسباً ونجاحاً يزيد من مكانتهم في الدنيا،وهي رؤية باطلة يعوزها الدليل الواضح الذي لا يمتلكونه ولا يستطيعون أن يفكروا فيه البتة..

ثم يختم الشاعر هذه الأبيات الكريمة ببيتين هما:

وبقاء الضعيف من غير حول ... أو رجاء يزيل عنه المهانة

لرشاد بعرفهم وفلاح ... وصواب وتلك أقصى المجانة

حيث ختم المقصد من إيتاء هؤلاء المهانة ضد الضعيف والذي يرى هؤلاء أن ذلك هو من الرشاد والفلاح والصواب وتلك أقصى المجانة كما يقول.

ولعل القارئ يلاحظ أن الشاعر محمد إبراهيم جدع أكثر إنتاجه هو الشعر ومن النادر أن يكتب نثراً وقد وقفنا على صفحة نثرية في مطلع ديوانه الثالث (أهازيج) أحببنا أن نوردها هنا يقول:

لقرائي الأعزاء أقدم ديوان شعري الثالث (أهازيج) وهو في حجمه الكامل يحتوي على أمان فاضت بها نفسي الشاعرة بآمالها وآلامها وأحاسيسها المتعددة في رحاب الفكر الانساني وجوانب الحياة الإنسانية.

والنفس حين تفيض بهذا كله أو حين تنقله شعراً من الأعماق يتدفق على أمثال من النظرات والتأملات إنما تعرب عن ذلك بإخلاصها بطموحها إلى بلوغ الأفضل والأمثل في حياة تعددت فيها الصور وتكاثرت فيها الأحداث وتفاعلت في محيطها العام شتى النوازع ومختلف الخواطر والآراء.

وأحاول جاهداً أن أبرز جوانب هذه الانفعالات على مبدأ الالتزام بشرف الكلمة وإعلائها عن التفاهات، وهو الجهد الذي يتطلبه العمل الأدبي تقنيناً وتركيزاً يبرز الفكرة في صياغة أدبية يتوخى صاحبها منشداً الحقيقة وحُسْنَ الأداء وجمال التصور والرنة الموسيقية التي يزف بها الأثر الأدبي شعراً كان أو نثراً يغزل من النفوس المتطلعة إلى الجمال التواقة إلى الكمال مكانه اللائق وإن اختلفت الأذواق وتباينت، ولكنها تتفق جميعاً في رحاب الفكر وأثره الأدبي الرفيع... انتهى.

وهي نبذه قصيرة لكنها تدلنا على هذا التمهيد النادر للشاعر لشعره.

ومن هذه الأهازيج قصيدة يوم البيعة لأحد ملوك آل سعود وهو جلالة الملك خالد بن عبد العزيز آل سعود التي يقول فيها:

يــــوم بايعنـــــا الإمامـــــا   يــــوم صـــــافحنا الســـــلاما

هتــــف الكـــــون نشـــــيداً   مـــــن أغنـــــى الـــــزمن

يومـــــه يـــــوم أغـــــر   وهـــــو في الأيـــــام فجـــــر

إنـــــه بعـــــث وبشـــــر   وافـــــر بـــــالمنن

يـــا أبـــا الشـــعب ســـلاماً   خالصـــاً فـــاض احترامـــا

وولاء يتســـــــــامى   بالثنـــــــاء الحســـــن

إنهـــا بيعـــــة حـــــق   في هـــــدايات وصـــــدق

ومنـــــارات بـــــأفق   في ســـــماء الـــــوطن

ثم يخاطب المليك معدداً أياديه البيضاء قائلاً:

أنـــت حققـــت منـــالا   وتبـــوأت جـــلالا

وتســـاميت خصـــالا   مـــن أصـــيل المعـــدن

قـــد وهبـــت الشـــعب فضـــلا   وجعلـــت العلـــم نهـــلا

وأقمـــت الحكـــم عـــدلا   بعظـــيم الســـنن

أنـــت يـــا خـــير إمـــام   قـــد ســـعى نحـــو الســـلام

بـــاذلاً أســـمى مـــرام   مـــا حـــق للفـــتن

ورعـــى للعـــرب مجـــداً   بـــاذلاً فضـــلاً وجهـــدا

بالغـــا بالرشـــد قصـــدا   في القـــرى والمـــدن

عهـــدنا عهـــد رخـــاء   عهـــد بشـــر وصـــفاء

وبنـــاء واعـــتلاء   حافـــل بـــالمنن

وضمن قراءاتنا في أعماله الكاملة وجدنا كلمة نثرية أخرى لشاعرنا بعنوان دنياي يقول فيها:

أنا يا دنياي أمضي باسماً، فيك للنفس رجاء ومنى، وهنا البشر بآفاق الحياة أنت يا دنياي سحر رائع، أنت يا دنياي نور وسنا، أنت بالحظ إذا القلب ابتسم، أنت يا دنياي أسمى مطلبي.

هذه الوردة تنمو في صفا، شهدت فينا عراكا للعلا، فمضت تبتسم للفجر الجميل، وقعت نشوى على مر النسيم، وبألحان من الروض النضير، عندها الجدول رقراق طروب، عندها البلبل يشدو في حنين، وهنا الزهرة فواحٌ شذاها عطرت دنياي بالحب الجميل.

إنما الانسان وعي وشعور، تنطق الأيام فيه والدهور، وتناجيه بباقات الزهور وتحييه ببشر وحبور، حينما يمرح في جو بهيج..)[1]

وللمواضيع الاجتماعية والخلقية والإنسانية مجال فسيح للشعر عند محمد إبراهيم جدع حيث يطرح قصائده وأشعاره وأبياته الشعرية والنظمية في دواوينه المكثفة التي بلغ عددها الخمسة دواوين في أعماله الكاملة التي جمعها ابنه الشاعر: عبد الإله محمد جدع ونشرها نادي جدة الأدبي الثقافي سنة ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م بتقديم ابن الشاعر.

ولعل قصائده "ندوة الشيطان" و"نزوع النفس" "حق الحياة" "عزة النفس" "لهو الحديث" "خلق كريم" "رعاية الشيوخ" "سارق الأموال" التي تمثل هذه المواضيع الاجتماعية والخلقية والإنسانية وذلك في ديوانه الثالث "أهازيج".

خذ على سبيل المثال أبياته من قصيدة ندوة الشيطان التي يقصد بها الشاعر ندوة قريش وعلى الرغم من أنها تصطبغ بالصبغة الدينية والعقدية إلا أنها تحمل الكثير من المعاني الاجتماعية والخلقية:

جاءها الشيطان كالشيخ الكبير ... يحمل الفكرة في عقل صغير
فرأى جهل "أبي جهل" بها ... فسعى للجهل في عزم خطير
قال والفرحة تعلو صدره ... لي رأي فاسمعوا مني الكثير
قرروا قتل النبي المصطفى ... ويكون القتل في جمع غفير
يضع الدية عن أعناقهم ... ويشاع الثأر في حشد كبير
يعجز الطالب في قتلته ... وينالون بها الحظ الوفير
ومشى فيها شباب غادر ... يضمر القتل ويلهى بالمصير
فاذا المختار في طلعته ... يبهر الأنظار في يوم عسير

(١) الأعمال الكاملة ص٤٩٤.

ثم يقول مستطرداً:

يوم أن ساروا إليه زمرا ... فتعاموا كلهم عند المسير
ورسول الله يمضي قدما ... نحو عز وعلاء وحبور
وببطن الغار يمشي معه ... خدنه الصديق ذو العزم الكبير
وأتى الأعداء نحو الغار ما ... أبصروا الغار تنادوا بالثبور
ومشى المختار في عزمته ... لم ينله حاسد غر حقير
وهنا الشيطان ألقى رجله ... وأبو الجهل بشر مستطير
يسأل الناس عن شيخ متى ... ذهب الشيخ فلا عقل يشير
إنه الشيطان أغرى حزبه ... ورماهم في مجون وغرور
ورعى الله مصابيح الهدى ... وحباهم بنعيم وسرور
ورعى الدين بنصر باهر ... أخرس الشيطان والحزب الكفور

ثم يختم هذه الأبيات بقوله:

فإذا الهجرة تبني عزة ... وإذا الهجرة أبطال بثور
حطمت في الجهل أصناماً زهت ... وأذلت كل خبث وفجور
وأخذنا درسها في عبرة ... وأخذنا درسها في عبرة

وهكذا ينتهي المشهد من التعبير الموجز المختصر الذي عبر به الشاعر عن الهجرة النبوية المشرفة إلى المدينة المنورة التي بنى فيها الرسول ﷺ مسجده العظيم إلا أن تصوير الشاعر لهذا المشهد الكبير قد أكمل ووفى هذا المشهد حقه، الأمر الذي يجعل منه صورة حية لهذه الهجرة المباركة.

وقد يشير هذا المشهد إلى فتح مكة وذلك نستنتجه من قول الشاعر:

حطمت في الجهل أصناماً زهت ... وأذلت كل خبث وفجور

بل إن المشهد نفسه يشير إلى مقتل أبي جهل في غزوة بدر الفاصلة بين الحق والباطل وذلك من خلال بيت القصيدة الأخير الذي يقول فيه شاعرنا:

وأخـــذنا درســـها في عـــبرة عـن مصـير الشـيخ والبـاغي المبـير

وهكذا نجد شاعرنا يتنقل من قصيدة إلى أخرى ويعبر عن خلجاته وخواطره ومشاعره وأفكاره من خلال هذا الشعر المنظوم الجميل.

وحينما ننتقل معه إلى ديوانيه الرابع والخامس "نداء الحب، نبع الصفاء" نجد كلمة تقديم لأستاذنا الكبير عبد القدوس الأنصاري، يقدم بها هذين الديوانين للشاعر/ محمد إبراهيم جدع، يقول في مستهلها:

نداء الحب... ونبع الصفا

هما الديوانان الرابع والخامس من الدواوين الشعرية للأستاذ / محمد إبراهيم جدع. فهل ياترى أن "طائر" الشعر العربي بدأ ينبعث بعد طول هجوع وركود في القرن، قرن الآلة والذرة.. ليثبت أن المادة ليست كل شيء في حياة عالم اليوم.. وإن للروح مطالب غيرها، لا يجدها موفورة إلا في الأمور المعنويات.. كالأدب القيم والشعر العذب الرائع المنسجم؟

إن كثرة ظهور دواوين الشعر العربي، في هذه الحقبة من الزمن ظاهرة تدل على أن شيئاً يجري وراء الأكمة.

في المملكة العربية السعودية، تظهر دواوين شعرية، إن لم تزد عما يصدر فيها من الكتب الأدبية النثرية فليست على كل حال بأقل منها عدداً..

وفي لبنان وفي العراق وفي غيرها، الحركة كذلك أيضاً، مما نقرأه أو نقرأ عنه. ومما يصلنا أولا يصلنا وفي دواوين هذا الشعر ما هو جيد وقيم ويستأهل الكثير من الخلود وفيها ما هو دون ذلك.. إلا أن هذا الاندفاع اندفاع الشعراء إلى قرض الشعر ثم نشر أشعارهم، واندفاع القراء إلى قراءتها.

وهنا نعود إلى تحليل موجز مركز للديوانين فنقول:

إنهما يحتويان على موضوعات تتصل بالحياة العربية وبالحياة الوطنية الإسلامية من قريب أو بعيد.. ففيه تشيع الروح الإسلامية.. إن هناك قصائد إسلامية كاملة تضمها دفتا الديوان.

وهناك قصائد من شعر العروبة النابض.. يهمز ويهمس وينبه ويوجه ويردد ويسدد ويرسم وينظم ويحذر وينذر ويبشر ويطور ويدعو إلى حياة كريمة وإلى وئام ميمون.

وهناك قصائد تحمل شذى الوطنية كما تهدي السبيل إلى الوطنية المتسامحة النيرة التي لا تستعلي ولا تستغل ولا تتحاقد ولا تتحاسد.

والغزل له مكان طيب في هذين الديوانين فقد حويا غزليات رقيقة فيها حوار شعري يذكرنا بقصائد سلف الشاعر عمر بن أبي ربيعة في كثير من السمات والقسمات.

والشاعر محمد إبراهيم جدع من الشعراء المثاليين فقد خلا شعره من الهجو الممض كما خلا من المدح المغرق المستغل[1].

ومن الديوان الرابع نبع الصفا نختار من قصيدة "أيها الإنسان" قول الشاعر:

سكنتَ الأرض تحرثها وتزرع ... وتعمل جاهداً فيها وتصنع

فضقت بها وكنت بها سعيداً ... وسرت إلى الكواكب حيث ترتع

أقسم بالخير في الأرض السلاما ... وأصلح بالسلامة ما تصدع

فما لك والكواكب تبتغيها ... وأنتَ بأرضك الإخوان تفزع

يريدون الأمان فلا أمان ... ويبغون الرخاء وأنت تمنع

أقمت من السلاح لهم هلاكاً ... وجَوَّعتَ النفوس وأنت تجمع

وروعت القلوب بكل قهر ... وتهديد على الأحياء مفجع

إذا رمت الكواكب للمعالي ... فجندها لأهل الأرض أجمع

وهي قصيدة يفلسف فيها شاعرنا شخصية الإنسان بصفة عامة وما يتصف بها من القدرات والطاقات وما هيئ له من الإمكانات القوية الكونية منها والأرضية وهذا ما جعل شاعرنا يغرق في وصف الإنسان ولذلك مضى قائلاً يخاطب أهل الكتاب بعد البيتين الآتيين:

ولا تخذل من اطّلبَ المعالي ... وعاش العمر يطلبها ويدفع

---

(١) الأعمال الكاملة صـ ٤٢٦ - ٤٢٩.

تــذيق مريـــدها حربـــاً عَوانـــا   وأنـــت بذلـــة تلهـــو وتـــردع

فـــأين هدايـــة التـــوراة فـــيكم   وهـــذا شركـــم يـــؤذي ويوجـــع

ومـــا للنـــور في الإنجيـــل يخبـــو   أبعـــد ضـــياعه قـــد صـــار أضـــيع

فكفـــوا عـــن مهـــازلكم وكونـــوا   عبـــاد الله إخوانـــاً وأنفـــع

وإن شـــئتم هـــدايتكم بحـــق   ســـواء بيننـــا للحـــق نشـــفع

فـــإن كتابنـــا قـــد قـــال حقـــاً   تعـــالوا نبتغـــي خـــيراً ونرفـــع

وبين حين وآخر يعود الشاعر إلى وصف البحر متحدثاً عنه بصدق وحسن تعبير وهو الأمر الذي اشتهر به الجدع وامتاز بتفوقه في هذا الوصف، يعبر عنه ويصوره بأحلى الأبيات وأمتع الشعر، وخير الأوصاف. يقول في قصيدة بسمة البحر:

منظـــر البحـــر صـــورة مـــن ضـــياء   تعكـــس الأفـــق في عظـــيم بهـــاء

صـــورة تـــبرز الطبيعـــة حســـناً   عنـــد إشراقهـــا بحســـن رداء

وكـــأن النجـــوم ترنـــو إليـــه   في حـــديث تبثـــه في خفـــاء

شاخصـــات إلى الوجـــود لـــتروي   بافتتـــان غرامهـــا في نـــداء

منظـــر يبعـــث الشـــعور قويـــاً   وجمـــال يهزنـــا للغفـــاء

منظـــر البحـــر والحبيـــب تجـــاهي   وعـــلى الـــزورق الجميـــل ارتقـــائي

نقطـــع المـــوج بالمناجـــاة صـــفواً   في انســـجام وروعـــة وانتشـــاء

فـــإذا الحـــب حافـــل بالأمـــاني   وإذا الحســـن مـــنعم بلقـــائي

عـــانق المـــوج زورقـــي في سرور   وتبـــدى ببهجـــة وصـــفاء

وحبيبـــي يفـــيض حســـناً بجنبـــي   مفعـــم الـــود في جميـــل اتكـــاء

وما أجمل أن يثني الشاعر هنا بين منظر البحر وبين حسن حبيبه الذي قارنه بهذا المنظر والمشهد مشهد البحر ومنظره الحسن، وقليل من الشعراء الذين يربطون بين هذين المنظرين وهذين المشهدين، صحيح أن الحبيب قد يتبادر إلى ذهن الشاعر وهو على شاطئ البحر لكننا هنا أمام مشهد أجمل من الجميل، وشاعرنا بهذه المقارنة وهذه الموازنة وهذا التشبيه قد نجح

نجاحاً أدبياً وشعرياً مرتفعاً جداً. ولا يخلو شعر الشاعر الجدع من الحكم وأبيات الأخلاق وعلى سبيل المثال أبياته التي عنوانها "عيش الخلود":

أراك تعيش في نعم وفيره — وتحسب للصغيرة والكبيره

وتنهك عقلك المشدود دوماً — وتنسى راحة النفس الأسيره

وتنتعل الدراهم حين تمشي — وتشقى رهن أطماع كثيرة

وتطمع أنت تكون عظيم مال — وجاه في القبيلة والعشيره

ولا تبغي القناعة بعد خير — يفيض على جوانبك الوفيره

فما دنياك تبقى حين تمضي — تطاردها وتطلب الذخيره

مضى من قبل قارون وكسرى — وفرعون وأقيال شهيره

فما دامت بقربهم الأماني — ولا خلدوا بدنيانا العسيره

ثم يخاطب جامع المال وجهاً لوجه بأن هذه الثروة لن تفيده مادامت تجمع من أجل الجمع ولا ينفق على قريب أو حسيب منها شيئاً. يقول مستطرداً وهو يذكره بأن جمع المال بهتاناً وزوراً وظلماً إنما يزيده كساداً وبطلاناً:

أتجمع للنقود وأنت تخشى — لفقر يالفقدان البصيرة

أضف للمال أمجاداً تؤدي — بها حقاً لأرواح فقيره

وأحسن في حياتك حين تبغي — معاملة ولا تجني المريره

دع العش الذي قد عشت فيه — تجمع ما تشاء على غريره

دع التزييف في عمل وحاسب — لنفسك في الظواهر والسريره

فقد كانت نتيجة كل ظلم — وإجحاف إلى صفة حقيره

ولم تعمر بظلم أي دار — ولم تثبت مكانتها الشهيره

ولا دنياك زانت قبل هذا — لمخلوق يروم بها غروره

وجانب ما لهوتَ به ليوم — ومن عبث تروم بها الكبيره

فما رزء النفوس سوى انحراف — وأهواء تجر إلى السعيره

ودع مـا نلـت في زور وغـدر   وكـن عونـاً عـلى مـنن وفـيره

فقـدم للـبلاد هـدى ونـوراً   وأمجـاداً وأفضـالاً منـيره

فإنـك ميـت مـن غـير ذكـر   كصـوت الشاة في ركـن الحظـيره

أما المعرفة والعلم فقد عبر عنهما وعن بذورهما لطلابهما خير ما عبر عنهما شاعر، يقول الجدع وهو يصف إتيانه إلى الريان مبتهجاً لكأنه المدينة الفاضلة التي قالها أفلاطون:

لـما أتيـت إلى الريـان مبتهجـاً   والـروض يبسـم جـذلاناً وريانـا

رأيـت بـالرى تحيـا كـل مجدبـة   وبـالجهال يظـل القلـب نشـوانا

هـو الغـذاء لأهـل العقـل مـا عقلـوا   هـو الـدواء لفكـر بـات هيمانـا

هـو الرضـا لـنفس عـز مطلبهـا   فعانقـت في سـماء الحسـن ألوانـا

تفتـق الفكـر بالإعجـاز مؤتلقـاً   وألهـم العقـل مشـدوهاً وحيرانـا

طب القلـوب إذا ضـاقت خواطرهـا   وباعـث البشـر أنغامـاً وألحانـا

وأوهـب الـنفس نـوراً في مسـالكها   ينـير منهـا مفـاهيماً ووجـدانا

هو الجهال بـأرض النـاس مـا عرفـوا   محاسـن العـيش مزدانـاً بـدنيانا

ومن ثم يذكر الفكر في ذروته والمعرفة ببذورها في رياض الحسن لتزكي العقل الإنساني في مجال الفكر تزكية مفيدة ورائعة في نفس الوقت:

في ذروة الفكـر مـا جـادت هواطلـه   وأينعـت مـن سـماء الحسـن أغصـانا

بـذور معرفـة أهـدت محاسـنها   قلبـاً تعشـق للعليـاء ريانـا

في كـل بـادرة منهـا معلقـة   قـد صـاغها الشـعر أوزانـا وأفنانـا

بـذورها في ريـاض الحسـن مبعثهـا   تهـدي النفـوس مقايسـاً وبرهانـا

فأزكـت العقـل في انـماء معرفـة   وطـورت في مجـال الفكـر إنسـانا

وبعد هذه الحياة الشعرية والعملية والثقافية وبعدما قدمه للعمل المعرفي والأدبي توفي الشاعر في سنة ١٣٩٩هـ الموافق: ١٩٧٨م.

عبد الله عبد الجبار

في معلمة عبد الله عبد الجبار أدب ونقد وفكر من خلالها رسم خطته الثقافية نشاطاً عقلياً وعملاً إنسانياً في خضم حركة الثقافة العربية. هو أديب وطني مخلص ومثقف عربي ومفكر إنساني خاض عباب بحر الأدب ونقده شعراً ونثراً وأبان مستويات الشعراء والكتاب النثريين جودة وريادة ورصانة.

أعماله دلت عليه ناقداً ذائقاً للشعر وعارفاً بالثقافة. في "التيارات" نجده ذلك الأديب الذواقة والناقد البصير بهدوئه وشدته وسكونه وشجونه ولينه وعنفوانه. كل ذلك حباً منه لهذه الجزيرة الأدبية الشاعرة بأدبائها وشعرائها وكتابها وفنانيها المبدعين. مسح ميدانياً النتاج للفكر الأدبي في قلبها بتياراته وأقسامه وفروعه وأعلامه ودواوينهم ومؤلفاتهم الشعرية والأدبية.

نَظَّر الفكر الأدبي تنظير الأديب وبصره تبصير الذائق المفكر، فجانبَ النقد من حيث أراده ولكنه لم يجانب فلسفة النقاد ورأي البصراء بالشعر وأهله والأدب ومشاهيره والفن النثري وكتابه.

هذه ميزة عبد الله عبد الجبار، هذه فكرته الثقافية ورؤيته الأدبية وتذوقه الفني.

اللغة وما أدراك ما لغة كتابته وأعماله؟ إنها من السهل الممتنع، إنها مبسطة في مفهوم اللغويين. سهل التناول لكنه مدرك بمعانيها الفصيحة وأسرارها البليغة. يكفي فيما كتبه من الأعمال الكاملة التي جمعها الأديبان محمد سعيد طيب وعبد الله فراج الشريف في جزئها السادس الحاوي لمقالاته المتعددة وليست كلها بطبيعة الحال. اقرؤوها تجدوا بصيرته اللغوية لا في تصحيحه لما يقرأ من آثار الأدباء الذين تناولهم بل من خلال الأسلوب المنساب على هذه المقالات لغة وأدباً ورشاقة. لا أقول جديداً عنه ولكنني اكتشفه متجدداً ومجدداً، لا من خلال التلاقي الشخصي كما لاقيت - منذ شبابي: محمد سعيد العامودي، أحمد عبد الغفور عطار، طاهر زمخشري، محمد حسن عواد، عبد العزيز الربيع، عبد القدوس الأنصاري، ولكن من

خلال هذه الأعمال الأدبية ومؤلفاته العديدة وجدته ذلك الكاتب الأديب والناقد المثقف والشاعر الإنسان فيها.

عبد الله عبد الجبار كاتب فنان، وناقد ذواقة ومثقف رفيع. هو صنو يوسف عز الدين من العراق. ومحمد عبد المنعم خفاجي من مصر، وعلي عقله عرسان من الشام، وعبد الكريم غلاب من المغرب، وأحمد الشامي من اليمن.

لا يكاد يخرج عن الخط الأدبي بثقافة الناقد فهو ينقد الأعمال الفكرية بأدبه وثقافته. يبصر أصحابها بالأفكار المطروحة تصحيحاً لجوهر العمل وفكرته بل ولغته وأسلوبه فيغدو مثقفاً وهو ينقد هذا العمل ويطرحه برؤيته فيقيمه ويصلح معوجه أو يقول لصاحبه أنت كيت في الإبداع وكيت في ثقافتك الأمر الذي يشير بالفكر أكثر من النقد وبالثقافة أطول وأعمق من الأدب. هذا شأن تفكيره وثقافته ورؤيته التبصيرية أو التنويرية للأعمال التي يعرضها.

ويوم كان في مصر ولندن واصل هذا التوجه وتابعه بل وغرق فيه حتى أخمص قدميه. لم يتوقف عبد الجبار عن التنظير ولم يتوان عن التفكير في هذا الاتجاه الفكري والثقافي وهو الأديب بثقافته والناقد برؤيته والمفكر بتنظيره فكتب وأسهب في "المصور" و"روز اليوسف" و"الأخبار" وألف واسترسل في هذه المجلات الأدبية والثقافية هناك وكما في بحثه "الغزو الفكري" الذي يريد منه أن يطرح المشكلات التي ساير الفكر العربي المسلم مثل الاستعمار الثقافي في البلاد العربية في آسيا وأفريقيا والحركات المشبوهة مثل البهائية وحركة القوميين السوريين بقيادة أنطون سعادة والمرتبط بهذا الاستعمار الذي يدعو إلى فصل هذا الفكر عن تراثه حتى يسير الجيل بلا ثقافة أصلية، ثم يأتي دور الغزو في الكيان اللغوي من خلال العامية والحروف اللاتينية التي تستخدم للغرض المشبوه وكتابة الأدب والثقافة من خلال ذلك وهذا مرفوض في تراثنا وثقافتنا وديننا وأدبنا وكيف أن عبد الجبار يدرس هذا الموضوع الفكري من كل جوانبه الفكرية والثقافية واللغوية والخطية والأسلوبية، وأن الصحيح هو إصلاح الخط العربي بكفاية الفصحى للتعبير عن ثقافتنا الأصيلة، وأدبنا العربي وفكرنا الإسلامي وأن ذلك هو المنطقي واقعياً وأدبياً وكتابياً.

كما أشار عبد الجبار إلى هجرة العقول العربية المعنوية وعَدَّد أسبابها ثم طرح علاجها ولنضرب مثلاً لما قاله المؤلف هنا عن هجرة العقول "هناك لون خطير من ألوان الغزو الفكري، هو "الغزو بالسلب" على أي نحو فسرت معنى السلب: السلب يعني الانتفاء الذي يقابل الوجود، أو السلب بمعنى السرقة أو الاختلاس، فالنتيجة واحدة، هي حرمان البلاد العربية من بعض عقولها المفكرة، وكفاياتها الممتازة بسرقتها ومن ثم عدم الانتفاع بها"[1]. بعد ذلك يطرح المؤلف وسائل علاج مقاومة الغزو الفكري في عالمنا العربي والإسلامي كما يلي:

١) لا بد من كتابة التاريخ العربي من جديد على منهج علمي صحيح وأساس سليم، ولتحقيق هذا الغرض لابد أن تتكون لجان من كبار الباحثين المختصين كُلٌّ في مجال اختصاصه، كما يرى الأستاذ عبد الجبار أننا في حاجة إلى "دائرة معارف عربية" تكتب من وجهة النظر العربية وتثبت شخصيتها.

٢) لا بد أن تخالط اللغة العربية الفصحى قلوبنا ومشاعرنا ونشعر بشمولها وتذوق أسرار بلاغتها.

٣) محاربة ألوان الاستعمار الأجنبي كقضية الخرافة التي رسخت في النفوس رواسب الإسرائيليات كالشعوذة وما إلى ذلك.

٤) أن تقوم أجهزة الإعلام بتثبيت معنى الرقي ومعنى الحداثة والأصالة وأن البناء الجديد لابد أن يرتكز على أساس من جوهر القديم.

٥) في كتبنا المدرسية أخطاء ليست مطبعية فحسب وإنما لغوية وعلمية، وما يهمني هنا هو ما يتصل بالناحية القومية، فمادة التاريخ إذا قامت كتبها وطريقة تدريسها على مناهج سديدة جديرة أن تنشئ أبناءنا على روح الفتوة والبطولة، وأن تخرج لنا قادة المستقبل في كل فرع من فروع الحياة، ولكنها لا تلقى العناية اللائقة بها.

---

(١) الغزو الفكري بالعالم العربي ص ٦٨ الناشر المكتبة الصغيرة - الرياض.

ثم هو في "الغزو الفكري في العالم العربي" الورقة المقدمة لمؤتمر الأدباء العرب في بغداد عام ١٩٦٥م.

في هذا العمل موضوع جاد وعمل موضوعي كبير رصده الأستاذ عبد الله عبد الجبار بفكره وذهنه قبل أدبه وثقافته الأمر الذي قالت عنه الشاعرة نازك الملائكة موجهة حديثها إليه:

"إن بحوث المؤتمر متكاملة وبحثك يعتبر مقدمة لها وخلفية لا بد منها" وهذا شهادة فكر لا شهادة شعر -كما ترى- الم أقل إن عبد الله عبد الجبار أديب بفكره ومثقف برؤيته ومنظر ببصيرته، وذائق بفنه ناثر كاتب مسترسل مسهب في الكتابة باحث ومؤلف. تعجبك ثقافته قبل تناوله الأدبي، ويلفت نظرك فكره قبل أدبه، وتنظيره قبل نقده وبصيرته قبل رؤيته.

وقد اشترك عبد الله عبد الجبار مع محمد عبد المنعم خفاجي في تأليف كتاب عن: "قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي" كما كتب القصة القصيرة وبعض المسر-حيات الأدبية. فهو أديب لكن بأسلوب المثقف، ومنظر ولكن بروح الفيلسوف، ومثقف لكن بالمعرفة.

أما والأمر كما بسطته لك فعمله فكري وأدبه ثقافي وفكره إنساني وثقافته واسعة في الأدب والشعر: دواوين ومؤلفات وكتابات وأبحاثاً. كل ذلك لا يرمي من ورائه إلى جاه أو فخر أو منصب أو مديح بل طرح ما طرح صراحة ومكشوفاً وجهاراً وتأليفاً. إنه الرائد الذي لا يكذب أهله أو يهون من عمله أو يقلل من شأن نفسه فضحى بشخصه من أجل عمله ولقي مجداً من حيث لم يسع إليه! وهذا ديدن الأديب المخلص والمثقف المفكر والكاتب الأديب، والمؤلف البصير.

عبد الله عبد الجبار أديب من طراز أصيل بين الأدباء والمثقفين والكتاب الحاذقين. صاحب قلم أسيل سيال المعاني والألفاظ والقيم والأفكار يكتبها بدراية وبساطة، وهذا سر النجاح في أعماله.

حامد دمنهوري

حامد بن حسين جابر دمنهوري، ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٤٠هـ-١٩٢٢م ونشأ بها وتلقى تعليمه فيها حتى أنهى الدراسة الثانوية، والمعهد العلمي السعودي في أواخر عام ١٣٥٨هـ، ثم التحق بالبعثات السعودية بمصر في دار العلوم، وتحصل على دبلومها العالي سنة ١٣٦٣هـ، كما التحق بكلية الآداب جامعة فاروق الأول بالإسكندرية ومكث فيها سنتين نال منها شهادة ليسانس الآداب، وكاد أن يلتحق بقسم الدراسات العليا.. إلا أن الظروف اضطرته للعودة إلى الحجاز، فعمل مدرساً لمدرسة تحضير البعثات بمكة المكرمة، ثم نقل منها إلى المدرسة النموذجية بالطائف، وهكذا تدرج في الوظائف حتى أصبح وكيلاً لوزارة المعارف.

كان أديباً شاعراً وروائياً قصصياً، شارك بهذه السمات في الحركة الأدبية بالمملكة العربية السعودية، وله شعر رصين وأسلوبه فيه جيد يدل على تملكه للناصية اللغوية والشعرية، كما تدل أعماله الروائية والشعرية على ثقافته الأدبية ومعارفه، وقيمه وأخلاقه.

وله شعر يرقى إلى مجموعة ديوان لو أنه وجد العناية به، ومن شعره قصيدة من بين ضباب النسيان عودة الماضي، يقول فيها:

هـذا هـو المـاضي أثـرت شـجونه ... حـرى أكابـدها بقلبـي الموجـع

الـذكريات وأمسـي الزاهـي الـذي ... هَدْهدتُـه وأذبتـه مـن أدمعـي

وهياكـل الأحـلام أضـناها الأسـى ... فوأدتهـا حـيرى تـئن بأضـلعي

وشـتات آمـال -بقـين- حطمتهـا ... وذروتهـا نهـب الريـاح ببلقـع

مـاض أحـال النـأي ريـق حسـنه ... شـؤماً وكفنـه ولم يترعـرع

ثم يواصل الشاعر قائلاً:

شـتان بـين مشـرق ومغـرب ... بـين الغـد الـذاوي وأمـس الممـرع

أصبحت لا أمل يلوح لناظري إلا بقية خافق في أضلعي

لم يبق لي يومي سوى شبح الهوى ينعي لي الماضي ولا يبكي معي

وأنت كما ترى بلاغة الشاعر في هذه الأبيات التي تنم عن شعور مكثف وخواطر عميقة في نفس الشاعر..

وقد قال الأستاذ عبد السلام الساسي وهو يقدم لنا الشاعر بقوله:

شاعر عاطفي خصب الشاعرية، وله جولات في عالم الأدب تشهد به آثاره الخالدة ومواقفه مع الأدباء والفنانين[1].

وفي الإسكندرية عندما كان الشاعر يطلب العلم في جامعتها، ألقى قصيدة في مجتمع من مجتمعات الطلبة بجامعة فاروق الأول بمناسبة مطالب وادي النيل سنة ١٩٤٦م مشاركة للطلبة المصريين في شعورهم:

سائلوها إذا أطاقت جوابا وذروها تطيل فيكم عتابا

طال منها السكون فاستخذت اليو م ونَضَت عن الجراح الثيابا

وأسالت من المآقي دموعاً وأرتكم فؤادها كيف ذابا

ذاك عهد الكلام واليوم للجد أجيبوا وعضدوا من أجابا

إن يوم الجلاء أشرق في الوا دي فسيروا على هداه صحابا

جل ما يطلبون للوطن الغا لي وجل ما تطرقون للعز بابا

لا تصيخوا إلى الدعاة من الغر ب فقد طالما وعدنا سرابا

إن يوم الجلاء أشرق في الوا دي فسيروا على هداه صحابا

* * *

(١) شعراء الحجاز في العصر الحديث– ص ٢١٩ من مطبوعات نادي الطائف الأدبي، الطبعة الثانية – سنة ١٤٠٢هـ.

ونمضي مع الشاعر حامد دمنهوري في لحن المساء وهو عنوان قصيدة استوحاها من وحي ليلة من ليالي العمر:

أترنيمـــــة الحـــــب في نايـــــه وتســـبيحة العبـــد في وحدتـــه

وأنشـــودة الشـــعر في شـــدوه ومستشـــرف الـــوحي في فكرتـــه

عزفـــت الغـــداة فأطربتنـــا بلحـــن المســـاء وأنشـــرته

ســـكبت عليـــه ســـلاف الصـــبا فـــلاح يـــرنح في ســـكرته

وراح يعربـــــد في نشـــــوة بســـمع المعنّـــى وفي نظرتـــه

وهي قصيدة كما تلوح لنا من قصائد الشباب وترانيمه التي مضت بألحانها وموسيقاها وعربدتها، الشيء الذي أبدع فيه شعراً شاعرنا وأطرب به لحناً صاحبنا.

ونحن حينما نتأمل في شعر الدمنهوري نرى مقدرته على القصيد وتمكنه من الشعر علماً بأنه لم يطل في الحياة عمراً سوى خمسة وأربعين عاماً، لكنه أنجز عبر هذا الزمن إنجازات أدبية وعلمية وتربوية الشيء الكثير، فالاستاذ الدمنهوري روائي وقصصي كبير، كتب الرواية التسجيلية الطويلة -كما يقول الدكتور عمر الطيب الساسي- التي سجل فيها ملامح حقبة هامة من تاريخ مكة في أدق التفاصيل، في حبكة فنية مكتملة النضج، وفي حوار فريد سخره لخدمة الغرض التسجيلي بالمزاوجة بين لغة الحوار الأصلي عند عامة الناس في مكة في الفترة التي قصد التسجيل ملامحها، وبين لغة الحوار في العربية الفصحى، دون هدم أو إخلال، وفي براعة توفيقية نادرة المثال)[1].

وللمترجَم له روايتان قصصيتان هما: "ثمن التضحية" و"مرت الأيام"، وتعتبر رواية ثمن التضحية الرواية الأولى في الأدب السعودي التي جاءت مكتملة النضج الفني والأداء الأدبي. وقد شبهها الدكتور منصور الحازمي في مكانتها هذه بمكانة رواية "زينب"

---

(١) الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي – تأليف الدكتور عمر الطيب الساسي ص ٤١٢ مكتبة دار جدة الطبعة الثالثة ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

للدكتور/ محمد حسين هيكل في الأدب العربي الحديث في مصر.. وهي رواية عاطفية في خطيها العام الذي يربط بين قلبي بطليها "أحمد" و"فاطمة" إلا أنها تسجيلية لمرحلة تاريخية حدث فيها تحول اجتماعي هام في الحياة في الحجاز، وفي المملكة كلها.. وسخر حامد دمنهوري أحداث الرواية وما طرأ على شخصياتها للتعبير عن حقيقة ذلك التحول وما حدث خلاله من صراع.

والخيط العاطفي العام الذي تدور حوله أحداث الرواية بين بطليها أحمد وفاطمة يتلخص في ارتباطهما قبل سفر أحمد للدراسة في الخارج، ثم دخول أحمد في صراع نفسي مع عواطفه بعد تعرفه في مصر على فائزة الفتاة المثقفة التي تحولت علاقته بها من إعجاب ومودة زمالة إلى حب عنيف يقهره في النهاية بعقله عائداً إلى ابنة الوطن "فاطمة" وحول هذا الخيط العام دارت جميع أحداث الرواية.

أما الرواية الثانية فهي تشبه ثمن التضحية من حيث التسجيل والقيمة التاريخية، أما من الناحية الفنية فقد لاحظ الدكتور/ منصور الحازمي على الروايتين رغم مكانتهما الريادية، أنهما كانا في حاجة إلى قوة تشويقية أكثر، فقد اعتراهما بعض الضعف في بساطة الحادثة وبطء الحركة وضعف عنصر التشويق، بل إن الدكتور الحازمي يرى في رواية "ومرت الأيام" انتكاسة بالنسبة للتطور المنتظر في فنه القصصي، ويقول الدكتور/ عمر الطيب الساسي، ومهما يكن فإن الأستاذ/ حامد دمنهوري هو الرائد الأول في الإبداع الفني الحقيقي في الفن القصصي في جنس"الرواية" في الأدب السعودي الحديث، وقد ترجمت ثمن التضحية إلى اللغتين الانجليزية والروسية(١).

ويعد الأستاذ / حامد دمنهوري من المثقفين الذين لعبوا دوراً في الحياة الثقافية الجديدة في المملكة العربية السعودية بأعماله لا الأدبية فحسب، بل بخدمته في وزارة المعارف التي كان وزيرها آنذاك الأستاذ/ حسن بن عبد الله آل الشيخ، الذي اختار الدمنهوري لكي يكون وكيلاً

---

(١) المصدر السابق – ص٤١٢، ٤١٣، ٤١٦.

له في هذه الوزارة التي خدمها الرجلان متمثلة خدمتهما في إرساء دعائم التربية والتعليم في المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية ومعاهد إعداد المعلمين والكليات العامة قبل بناء الجامعات، إذ أننا نتحدث هنا عن العقود الأولى من القرن العشرين، وكان الرجلان رحمهما الله خير رجال الدولة في هذه الوزارة التي تعد من أولى الوزارات بعد تأسيسها على يد الملك / فهد بن عبد العزيز -رحمه الله-.

هذا وقد انتقل الأستاذ/ حامد دمنهوري إلى رحمة الله في صيف عام ١٣٨٥هـ عن عمر ناهز الخامسة والأربعين عاماً، الموافق للعام ١٩٦٥م.

زيد بن فياض

هو زيد بن عبد العزيز بن فياض المشرفي الوهبي التميمي.

ولد هذا الأديب الإسلامي في روضة سدير عام ١٣٥٠هـ ودرس في بعض الكتاتيب عند خاله وحفظ القرآن على عدد من العلماء في الرياض منهم الشيخ محمد بن إبراهيم، والشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم، ثم دخل المعهد العلمي ودرس على عدد من الأساتذة والمشايخ منهم فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز، وفضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والأستاذ حمد الجاسر، والشيخ عبد الرزاق العفيفي، حتى تخرج في هذا المعهد سنة ١٣٧٢هـ وكان ترتيبه الأول بين أقرانه، ثم درس في كلية الشريعة وتخرج فيها وترتيبه الأول كذلك.

عمل في مجالات وميادين من الأعمال كثيرة منها:

عضو بدار الإفتاء فور تخرجه في ١٣/ ١١/ ١٣٧٦هـ انتقل بعد ذلك إلى العمل مدرساً بالمعهد العلمي في ٣٠/ ٤/ ١٣٧٧هـ وفي ١٦/ ٤/ ١٣٨٠هـ ترقى إلى التدريس بكلية العلوم الشرعية وظل فيها إلى أن عين عضواً برئاسة القضاء في ٩/ ٧/ ١٣٨١هـ لكنه انتدب للتدريس حتى انتهاء السنة الدراسية وانتقل إليه امتياز جريدة اليمامة في ١٤/ ١٠/ ١٣٨١هـ وتولى رئاسة تحريرها إلى أن تحولت الصحف السعودية إلى مؤسسات صحفية في ١/ ١١/ ١٣٨٣هـ وفي ١/ ٥/ ١٣٨٣هـ استقال من رئاسة القضاء للتفرغ للكتابة الصحفية، وفي ٢١/ ٩/ ١٣٨٥هـ أعيرت خدماته إلى وزارة المعارف في وظيفة مدير عام إدارة المكتبات بوزارة المعارف.

ولا شك أن هذه الأعمال هي إنجازات ليست شخصية فحسب بل هي علمية وأدبية وإعلامية كذلك، ساهم بها الشيخ ابن فياض لوطنه وأبناء جيله وللدين وللعلم، وتلاميذه كثيرون يتولون القضاء والإدارة والتدريس والتوجيه في المعاهد والكليات والجامعات.

هناك عمل إعلامي غير مباشر كان الشيخ يساهم به في الإذاعة بمئات الأحاديث والكلمات والبرامج مثل (نور على الدرب) و(يا أخي المسلم). (فكرة اليوم) و(صور من الجهاد) وفي التلفاز شارك الشيخ ابن فياض في ندوة مجالس الإيمان في حلقات كثيرة.

وهذه البرامج الإعلامية الإذاعية منها والتلفازية تدور أفكارها حول التشريع الإسلامي وفكرة الدين والدفاع عن اللغة الفصحى للعربية ونحوها وصرفها وبلاغتها، كما تدور رحاها حول الفكر الإسلامي بصفة عامة.

والمتأمل في حياة ابن فياض العلمية والفكرية يتضح له رؤيته الدينية في الحياة واتباعه للنهج الإسلامي في الفكر والأدب والعلم، وهذا له دواعٍ تمهيدية بدأت منذ أن حفظ كتاب الله الكريم في المعهد العلمي الذي برَّ في دروسه جميع زملائه من الطلبة، فكان الأول بينهم في التحصيل والدرس والامتحان مما أهَّله أن يكون الأول بين زملائه كذلك عندما كان في كلية الشريعة بالرياض.

يقول عنه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي:

«والشيخ زيد بن فياض كاتب إسلامي النزعة، عربي الاتجاه، تراثي الثقافة، مع إلمامه الواسع بأحوال عصره، ووقوفه على مختلف التيارات الظاهرة والخفية التي تعمل عملها في العالم الإسلامي لليوم والغد، كما كانت تعمل عملها في الماضي، وهي تيارات تخطط لإفساد أحوال المسلمين وبلبلة أفكارهم وصرفهم عن شؤون دينهم ودنياهم».

يقول الشيخ زيد أكرمه الله وجزاه خير الجزاء في كتابه «فصول في الدين والأدب والاجتماع» (الصفحة الخمسون بعد الثلاثمائة) ما نصه:

«فماذا يمنع أن يكون الحديث منوعاً وأن يكون موجهاً معبراً فلا ينزوي في ناحية معينة ولا يتهرب من معالجة المشكلات، وهل يجدر بنا أن نغفل عن واقعنا ونصد عن مشكلاتنا ونحن نعيش في أدق مرحلة ونجابه أشرس عدو وأغدره، وبلادنا مُصوَّبةٌ نحوها السهام وهي في موقع هام وثرواتها كثيرة وخيراتها وافرة، والصديق يتطلع لها متمنياً لها الهناء والسعادة والتطور، والعدو ينظر لها نظرة طمع وحقد وعداء.. وروابطها بالعالم الإسلامي متينة

ومسئوليتها عظيمة وقادتها وعلماؤها وجندها وسائر الفئات الصالحة تعضد عنايتها بأمور المسلمين في شتى أقطارهم وعلى اختلاف أجناسهم ومشاكلهم في فلسطين وأريتريا وكشمير وقبرص وتشاد والتركستان وزنجبار وتركيا ويوغسلافيا والهند عويصة، والعدوان عليهم من قبل أعداء الإسلام في ضراوة وحنق ولؤم يزداد قساوة وشراسة فلا يليق أن تغفل هذه المواضيع المهمة وتترك جانباً» وهو قول له مغزى عميق، وحكمة جليلة.

وقد كتب الشيخ ذلك قبل خواتيم القرن الرابع عشر الهجري، ووضع العالم الإسلامي غير وضعه الآن وأحواله سابقاً غير أحواله حالياً. ويعد كتابه المذكور من أمتع ما كتب الشيخ زيد من مؤلفات حيث قسمه إلى ستة أقسام:

الأول: عن المسلمين بين الماضي والحاضر.

الثاني: عن العلوم والمعارف.

الثالث: عن الأدب والبيان.

الرابع: قصص وشخصيات

الخامس: في طلب العلم

السادس: حول الناس والحياة

وهي أقسام وفواصل يمكن أن نعدها متداخلة وليست بجامعة مانعة على حد المنطقيين.

وأسلوب الاستطراد الذي عرف به علماؤنا وأسلافنا القدماء هو الأسلوب الغالب على الكتاب، وهو أسلوب له بلاغته التي اعتد بها أبو عثمان الجاحظ، وأحبها المبرد صاحب الكامل، واعتنقها أئمة الثقافة الإسلامية والعربية في كتبهم الموسوعية الجامعة، على حد قول كاتب مقدمة الكتاب (ص ٧).

ولابن فياض كتب ومؤلفات أخرى منها (نظرات في الشريعة) حوى رؤية إيمانية للشريعة الإسلامية بموضوعات وقيم ومعاني قيمة وإصابات وأهداف جيدة يعطي ذلك كله القارئ خير النظر وبُعده لهذه الشريعة السماوية السمحة.

وعلى سبيل المثال لهذه النظرات ما قاله المؤلف بعنوان (هل الكذب جائز في الشريعة؟):

الكذب ممقوت شرعاً وعقلاً، والكذاب شخص لا يوثق به ولا يركن إليه، ولا يجد له صديقاً ولا محباً، بل هو يقابل بالاحتقار أينما ذهب، والمقت أينما حل، ولا يؤتمن على شيء، ولا يسند إليه أمر، وفي الحديث: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً».

ومع هذه السيئات للكذب فإن هناك مواقف يجوز فيها الكذب، لأن المصلحة المترجحة هنا أكبر من مفسدة الكذب، فيجوز الكذب للإصلاح بين المتباغضين.. فقد ورد في حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط: قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً أو يقول خيراً» ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث، تعني: «الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها.. ففي هذه الحالات الثلاث يجوز الكذب للمصلحة، في الإصلاح بين المتخاصمين وإزالة البغضاء في النفوس ليحل محلها الوفاق والإخاء، والتعاون على الخير».

وكانت مقدمة هذا الكتاب للأستاذ الراحل عبد الله بن خميس الذي مهد بفكرة خاصة وعامة عن مواضيع الكتاب، حيث كانت ذات مغزى عميق وفكرة رائدة ليعطي القارئ تمهيداً للنظرات الإيمانية التي ألقاها المؤلف للشريعة الإسلامية.

ومن كتب الشيخ ابن فياض كذلك كتاب «في سبيل الإسلام» أعطى فيه لمحات ونظرات في درب النور للإسلام العظيم ويستشف من موضوعه المقدرة الإيمانية للمؤلف في سبيل الدين الإسلامي وروائع آياته وسبل جهاده لمن أراد أن يستفيد من رؤية المؤلف الإيمانية للشريعة الدينية.

أما كتابه (الوحدة الإسلامية) فهو عبارة عن إطار فكري للوحدة الدينية عند المسلمين وأمة هذا الدين الحنيف في تناول يدبجه قلم المؤلف في أسلوب أدبي وتناول ثقافي، حيث نرى عصارة

فكره وهو يتناول هذه الوحدة التي قد دعا إليها كثير من مفكري الإسلام في العصر الحديث أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد إقبال ومحمد أبو زهرة وآخرين كان همهم إلقاء رداء وإطار للأمة الإسلامية في سبيل وحدتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

وللأستاذ ابن فياض كتاب (الدين والعلم) عبارة عن موقف الإسلام من العلم بدءاً بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وجرياً بحديث رسوله عليه الصلاة والسلام «اطلبوا العلم ولو كان في الصين»، والمؤلف هنا يحبذ الأجيال الصاعدة لطلب العلم والتنبه للدين الإسلامي الذي يدعو علماءه لمعرفة الأهداف السامية من العلم وكيف أن الإسلام يدعو إليه باستمرار تنويراً لعقول الناشئة وتكبيراً لشؤون الدنيا بهذا العلم وتحفيزاً للمجتمع أن يأخذ على أعتاقه قيم وشيم العلم أينما كان.

كما أن له كتاباً بعنوان بحوث ومناقشات استطلع فيه آراء في دراسات وأفكاراً في بحوث تمس الفكر الاسلامي الذي اضطلع به في سائر كتبه ومسائله التي ناقش من خلالها تلك الآراء والأفكار والدراسات الدينية والعربية والشرعية والاجتماعية الأمر الذي يعتبره المؤرخون كتاباً يستحق النقاش والدراسة وبالذات العلماء والكتاب كي ما يسير الناشئ على علم بهذا الدين وهذا التشريع وهذه الآداب والأخلاق والقيم من خلال تلك المناقشات والبحوث والدراسات.

كما أن للأستاذ زيد بن فياض كتاباً بعنوان «من كل صوب» عبارة عن فصول في العلوم الدينية واللغوية والأدبية والاجتماعية التي دبجها بقلمه في ميادين هذه الثقافة الإسلامية والأدب العربي والمجتمع المسلم، الذي شهد في تلك الفترة الذهبية من تاريخنا أي في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري شتيتاً من العلوم والآداب والفنون، وشارك فيها الشيخ بعلمه وفكره وأدبه متخذاً النهج الديني منهجاً له بأسلوب مشوق ولغة سهلة وفكر مستنير، جمع ذلك كله في كتبه ومؤلفاته وما أنتجه من أدب وفكر وثقافة.

إن زيد بن فياض يعد من العلماء الباحثين والأدباء الفضلاء والمثقفين المتنورين بآدابهم العلمية والدينية والمعرفية الذين ساروا في دروب الحق والفضل والخير، أمثال الدكتور مصطفى

السباعي، والدكتور صلاح الدين المنجد، والأستاذ أحمد عبد الغفور عطار، والأستاذ عبد القدوس الأنصاري، والأستاذ محمد سعيد العامودي، والأستاذ أحمد محمد جمال، والأستاذ محمد عبد الله السمان، والأستاذ عبد الرحيم بن سلامه، والدكتور بكري الشيخ أمين، والأستاذ عثمان الصالح، والأستاذ ناصر العمري، وآخرين يطول بنا ذكرهم لو أردنا أن نذكر أسماءهم ذلك الرعيل الذي قدم للأجيال الصاعدة من بعده كل العلوم وكل الثقافات والآداب فكان لأقلامهم دور بارز في الحركة العلمية والأدبية في المملكة العربية السعودية وخارجها.

وهناك كتب للشيخ زيد لم تطبع وهي في عداد المخطوطات العلمية والثقافية والمعرفية تقدر بنحو ما طبع من مؤلفاته. وله كذلك مواقف إيمانية وخلقية وقيمية من خلال الطروحات والآراء والمحاضرات التي ألقاها على منابر العلم والدين والأدب ومشاركاته الكتابية والبحثية والدراسية عبر الصحافة والإذاعة والتلفاز هذه الوسائل الإعلامية التي استطاع من خلالها الشيخ زيد وأمثاله من أن يثروا الساحات العلمية والأدبية بإنتاجهم الفكري والمعرفي وأنشطتهم الأدبية والدعوية والثقافية.

صالح محمد جمال

هو أبو طارق صالح محمد جمال المصلح الاجتماعي والكاتب المتأدب والوراق صاحب مكتبة الثقافة بمكة المشرفة المشهورة والصحفي الجريء القدير، وقد كان نشاطه -رحمه الله- في هذه المحاور القطبية الثرية، ذات العماد المادي والمعنوي الكبيرين.

تراه ذلك المصلح الاجتماعي يتحدث في المناسبات الرسمية عن أهالي الله وبخاصة أهل مكة المكرمة وينافح عن المواقف في ذات جنبهم ويقضي حاجات المحتاجين منهم، ويقترح الأفكار الأدبية والاجتماعية والعمرانية في صالحهم ومن أجلهم وكان يوقف لهم الهبات والأعطيات ويرحم ضعفاءهم ويغطي عوزهم بالستر المادي والمعنوي هو وشقيقه الأثير إليه الشيخ أحمد محمد جمال رحمه الله.

ولا شك في أنه موهوب من الله فهو ذو دخول مالية سخية ثرة، من خلال جهوده العملية في دار الندوة ودار الثقافة ومكتبتها الرئيسية بسوق الليل بجوار الحرم والفرعية بالحجون.

وهناك مجال الكتابة الملتزم بها صالح جمال في الصحف المحلية على مدى السنين وتطاول الأيام، وله أسلوب كتابي سهل في غير إملال أو إثقال على نفسية قرائه وما أكثرهم وفي كتاباته الصحفية يلبي (الجمال) مطالب الكثير من هؤلاء ليوصلها إلى من يهمه الأمر، ويقدر على الفصل بالإضافة إلى القضايا الفكرية والسياسية والاقتصادية والإخبارية الأخرى مما يدور في وسائل الإعلام السماعية والنظرية (الراديو + التلفاز + المطبوعات صحفاً وكتباً).

وتأتي الناحية المعنوية في كتاباته خلفية بوازع الأخلاق والدين والمروءة والكرم ينقل عنه محمد علي مغربي من مذكرات صالح جمال أنه كان يكتب تحت عنوان عباقرة العرب عن أعلام المسلمين أمثال الرازي وابن سيناء والخوارزمي[1]. إضافة إلى كتاباته عن مدارس التربية والفكر

---

(١) أعلام الحجاز ٤/ ٨٠. ط ١ أ ١٤١٤هـ.

الإسلامي كمدرسة الإمام حسن البناء ومدرسة الأستاذ سيد قطب ومدرسة الشيخ المودودي رحمهم الله ينشر بالندوة نقداً إسلامياً لأساطين الكتابة كطه حسين وتوفيق الحكيم وسلامة موسى.

ولم يكن صالح جمال شاعراً أو قاصّاً لكنه تأدب بالثقافة والمعرفة اللتين أشبعتاه فكراً ونماءً عقلياً سليماً بما اطلع عليه من الكتب التراثية والثقافية والأدبية.

وقد أثرى الصحافة المحلية بتناوله لأعمال الأدباء والمؤلفين والكتاب عرضاً واستدراكاً أو نقداً أو تقديراً وتقريظاً سواء كان ذلك في النطاق الثقافي في المملكة العربية السعودية أو مايتعلق بالثقافة العربية والإسلامية.

كل ذلك كان يكتبه في صحيفة البلاد التي كان يديرها ويحررها قبل أن ينتقل إلى صحيفة الندوة مؤسساً ومحرراً ومع أخيه أحمد جمال الكاتب والأديب الذي ظل بجوار أخيه صالح مسانداً ومعاوناً ومساعداً.

أما مكتبة الثقافة فهي المركز الرئيسي للتحرك الأدبي والثقافي للأخوين صالح وأحمد وبالذات صالح الذي أسسها ثم انهالت عليه فوائدها المعنوية والمادية.. الشيء الذي انداح عليه بالثروة المادية والفكرية والثقافية كذلك.

كما كتب صالح في صحيفة المدينة وله في كل الصحف التي كتب فيها أعمدةً أسبوعية ويومية يتناول من خلالها بث الفكرة البلدية والأدبية والاقتصادية والتعليق على الأحداث بصفة عامة.

وفي هذه الصحيفة عرفت صالح جمال المصلح الاجتماعي بحق فقد كان كثير التناول فيما يكتب فيها عن إزالة ما حول الحرم في مكة، وبدافع الشباب كتبت كلمة في الرد على فكرته فكان أن ردّ عليّ بكلمة مطولة لم يذكر ولم يشر فيها إلى اسمي قط بل اكتفى بالرمز الدلالي حول الموضوع وعندما أخبرت أخي الدكتور محمد صالح با سلامة بذلك دهش ودهشت معه لفضل هذا المصلح الاجتماعي ثم كتب ضمن أفكاره حول الحرم المكي خريطة موضوعية مبرمجة بنظام هندسي عجيب.

ولعلّ فيما آلت التوسعة للمسجد الحرام إلى ما هي عليه الآن تحقيقاً لبعض فكر الرجل الذي نشرته جريدة (المدينة) الغراء فيما بين العام ١٤٠٠هـ والعام ١٤٠٢هـ في زاويته الأسبوعية التي نشر في أنهرها مسلسل اقتراحاته الاجتماعية والعمرانية لمكة المكرمة حرسها الله.

ولطول خبرته في الكتابة الأدبية كان يسهم بالأفكار الثقافية والحلول لمعضلاتها ففي إحدى المرات ندّت عليّ لفظة في البحث عنها بالمعاجم اللغوية فقمت بالاتصال هاتفياً بأستاذي أحمد جمال لأسأله عن موقع هذه المادة اللغوية بالقاموس لكني لم أجد أبا محمد ليرد عليّ ويفيدني فقلتُ أتصل بأخيه أبي طارق ولحسن الحظ وجدته فأفادني وعلى الفور وجدت اللفظة كما عيّن بابها وفصلها الأستاذ (صالح) بالقاموس.

كما كان له رحمه الله مقولات ومواقف أدبية كأن يطلق "قارئ" على الأديب الكبير محمد سعيد ألعامودي وعلى جلالة قدر الرجلين أشعرت الأخير بذلك فكان أن سكت عما قاله غريمه رحمهما الله وكان فضل بينهما ولا يعرف الفضل إلا ذووه.

وللرجل أعمال مطبوعة مثل كتاب (من أجل بلدي) وكتاب (دليل الحاج المصور) وله في الكتاب الأخير بصر عن عرفان وتجربة بالطوافة بمكة المكرمة وكان له في شؤون الحجّ والحجاج كتابات ومواقف جمّة، منها ما نشره في (الندوة) و(عكاظ) و(المدينة المنورة) خلال الثلاثة العقود الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجري.

وله كتاباتٌ عديدة لو جمعت لخرجت في مجلدات.

توفي في عصر يوم السبت ٢٥ من ذي القعدة ١٤١١هـ رحمه الله رحمةً واسعة.

محمود عارف

ولد الأديب والشاعر محمود عارف في مدينة جدة سنة ١٣٢٧هـ ثم درس في مدرسة الفلاح وبعد تخرجه عمل بها أستاذاً ثم تنقل في وظائف حكومية وآخرها عضوية مجلس الشورى.

شارك الأستاذ محمود عارف في العمل الصحافي السعودي كاتباً ورئيساً لتحرير جريدة عكاظ وكان عضواً بنادي جده الأدبي الثقافي.

وهو شاعر مكثر مُلتزمٌ في الشعر بالعمود القديم وتقليد الشعراء السابقين على مر العصور لأدبنا العربي وكان أول ديوان صدر له بعنوان "المزامير" ثم تتالت دواوينه الشعرية إلى أن جمعها في أعماله الكاملة تحت عنوان "ترانيم الليل" في مجلدين كبيرين وقد صدرها أو تَوَّجها بقوله:

خـــلان: خـــل منصـــت أبـــداً، وخـــل يســـجع

كـــالبلبلين كلاهمـــا يشـــدو، وآخـــر يســـمع

متآلفـــان مـــودة.. هـــذا بهـــذا مولـــع!

يغشـــاهما فجـــر المنـــى.. وكلاهمـــا مســـتمتع

ســـيخلد "الـــديوان" بيـــنهما، ويبقـــى الأنفـــع

ذكـــرى لأحـــلام العـــلا حيـــث الضـــياء الأرفـــع

وعلي هذه الوتيرة انطلق الشاعر محمود عارف في عمله الشعري بحيث كرّس هذا الشعر للتعبير عن ما في الكون من أعاجيب وآيات على خلق الله سبحانه وتعالى، وتشكل البيئة في حياة الشاعر رمزاً مهماً ومنطلقاً حاسماً لهذا التعبير الذي ملأ دواوينه به أي بشعره.

ويرى شاعرنا مقومات الشعر عندما يدور الفلك دورته المعتادة، والناس تحت دورته ممتثلون لما يأتي به الغيب دون الرجوع إلى الوراء، حيث الماضي الهارب والحاضر الغامض ومهما تنفرج عنه أبواب الماضي والحاضر من عظات وعبر، فهي بلا شك النوافذ المطلة على الأشباح والهيولى.. حيث تبدو على صفحات تاريخ الإنسان في الموضع الأجوف سطور باهته، ومعالم مطمورة.

والويل للإنسان وهو يركض في ضباب أحلامه بين ماضيه الهارب، وبين أمانيه في حاضره المبهور[1].

تلك رؤيته الفلسفية للشعر من كافة أبوابه وجوانبه بل هي فكرة جيدة للدخول إلى عالم الشعر الذي طالما كتب فيه الأشعار والدواوين والأعمال.

ولعلنا لا ننبهر إذا رأينا أول قصيدة في هذه الأعمال الشعرية قصيدة بعنوان "أهداف" منادياً الشباب قائلاً:

قل للشبيبة سيروا   على هدى التجديد

سيروا على نهج عقل   موفق التسديد

أدوا المهمة حقاً   لمحو ليل الركود

واسترجعوا مجد فن   من طارف وتليد

مجد الأوائل صرحاً   مدعم التوطيد

مرحى بيقظة جيل   تمشي بوعي جديد

تعلي النداء جهاراً   بفكرة التوحيد

وتستفز حماة   إلى وثيق العهود

وتستحث شعوباً   إلى الإخاء الأكيد

تبغي التضامن منهم   مع السلام الوئيد

هذه مبادئ قامت   على أساس وطيد

---

(١) ترانيم الليل صفحة (١٧) إصدار نادي جدة الأدبي.

تـــــــــــذيعها بوفـــــــــاء | في كـــــل صـــــقع بعيـــد
دعايـــــــة تتســـــامى | عـــلى كبـــار جهـــود
أكــــرم بجهـــد شـــباب | يلــــوح للمســـــتفيد
أحـــــرار فكــــر تخطـــوا | مراتــــــب التمهيـــــد

وإذا عدنا إلى رؤية الشاعر الفلسفية حول الحياة والدنيا تستوقفنا عبارة قالها عن نفسه: (يعيش حياة القناعة والبساطة) فهذه رؤية أخرى على وجازتها في القول إلا أنها تفسر لنا بيئة الشاعر ومنزله ومجتمعه والحياة التي كان يعيشها فهو يقنع من العيش بشظف على سبيل المثال ولكنه يحب البساطة لا عن قلة ولكن عن قناعة.

هذه انطلاقة أخرى لشاعرنا الذي رحل عن دنيانا في يوم ٦/ ١٢/ ١٤٢١هـ هذا اليوم ودعنا الشاعر محمود عارف بعد مسيرة طويلة في هذه الحياة وكيف رسم عن نفسه فكرةً وفلسفةً وإطاراً وجدانياً جميلاً.

لم يكن هذا الشاعر يحب الضجيج أو المديح وإنما كان يسير في حياته مسيرة الإنسان المفكر القانع والشاعر المبدع السامع لدوي الحياة أينما حلَّ أو جلس.

أسمعه يقول في قصيده عنوانها "سطوحٌ وأعماق":

يـــا نمـــير الجــمال والحســـنُ نبـــع | يشـــتهيه عـــلى الصـــدى الملهـــوف
رفَّ مـــن حولـــه خيـــال مـــن الســـر | وناغــــاه في الســـكونِ رفيـــف
وارتمـــى حانيـــاً نســـيمُ صـــباحٍ | فاشـــتكى الـــدوح مـــا أثـــار الخفيـــف
الـــدوالي حـــول المنـــابع أحـــلام | ربيــــعٍ لــــه الوجـــود أليـــف
ولبـــابِ الوجـــودِ معنـــى عميـــقٌ | زاد في عُمقـــه هـــوى محفـــوف
الـــرؤى والجـــمال بعـــضُ مجاليـــه | فيســـمو تليـــده والطريـــف
ومـــدار الســـمو في الأرض يعيـــا | عـــن مـــداه التفكـــير والتصريـــف
كـــل شيء لـــه التأمـــل بـــابٌ | ينتهـــي عنـــده الولـــوج الضـــعيف

وبعد هذه الأبيات من قصيدته يقول الشاعر:

وضياع الحيران غفلة عقلٍ ضاع منه الصواب والتكييف

أترى كانت الحياة شريطاً بعضه كان ساقطاً وبعضه كان نظيف

هكذا شاءها أسير فراغ يطببه من الخيال الطريف

إنها أشعار غاية في البساطة لكنها عميقة في المعنى لأنه يَهَبُ من مشاعره إلى الناس كي يتعرفوا على جوانب من جوانبها -أي من جوانب الحياة- هذه الحياة التي هي من نواميس الكون أن يعيش فيها كل مخلوق ذو نفسٍ غرور وكبدٍ رطبة الشيء الذي يعبر عنه شاعرنا حتى يحقق ما أراده من فكره أن يفكر وما أستصاغه من وجدانه ما شعر.

وهذا هو واقع الشاعر الذي يعبر عنه محمود عارف بكل بساطة وقناعة كما يقول.

وإذا أتينا إلى تسابيح الشاعر وابتهالاته فإنا نرى قصيدة يرثي فيها الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله قائلاً:

ماذا أقول.. وحزن الحرف والكلم ... يجري على الطرس.. مسفوحا من

الله أكبر.. أودى "فيصل" ومشى ... للخلد مستشهداً في الحادث العمم

الناس في الشرق أو في الغرب قد صعقوا ... لما اعتراك.. وما فاقوا من الغمم

في صدر شعبك.. آلام مبرحة ... تنعاك لاظية.. مشبوبة الضرم

والحزن جرحان.. جرح لاهب أبداً ... من وقع خطب.. وجرح غير ملتئم

في حرب رمضان.. كل الناس قد عرفوا ... تأييدك الفذ.. منشوراً على الأمم

في ساحة الشرف المبرور مبتدر ... كما هو الشأن في التركيز والدعم

في حرب سيناء.. في الجولان كم أخذت ... من العتاد الذي يأتي لملتزم

فكان ما كان من نصر تعززه ... عناية الله.. والتوفيق من أمم

وتلك ملحمة عزت مواقفنا ... في العالمين.. وبين العرب والعجم

فلم نجد بعدها إلا مبادلة ... وزن بوزن.. وسر الوزن في القيم

إن "التضامن" عنوان لبادرة ... من الأخوة.. قد لاحت من الحرم

تغلغلت في قلوب الناس واتسعت ... قضية.. في الدنا في "مالي" في الهرم

و"فيصل" رائد يرعى بحكمته ... هذا "التضامن" بالإيمان والذمم

ولستُ أدري لماذا أدرج الشاعر هذه المرثاة ضمن الابتهالات ولم يضعها ضمن المراثي التي في ديوانه الكبير أو لنقل أعماله الشعرية الكاملة؛ لكن هناك مبرر قديم حيث أنزل الشاعر الملك فيصل منزلة القائد الرائد عبّر عن ذلك لا باعتبارها مرثية فحسب.

لقد عرفتُ الشاعر محمود عارف ضمن من عرفتهم من الأدباء السعوديين الروّاد الذين كانوا مصابيح في دنيا الفكر والأدب والثقافة أول ما عرفته شخصياً في دارة مجلة المنهل لصاحبها الأديب المعروف عبد القدوس الأنصاري وذلك في أوائل التسعينات من القرن الرابع عشر الهجري حيث كنتُ أحمل له رسالة من الأستاذ محمد سعيد العامودي الذي أخبرني أنني سأجده في دارة المنهل آنذاك وبالفعل تعرفت على الأستاذ محمود عارف شخصياً بعد مرحلة طويلة كنت أتابعه فيما ينشر في الصحف المحلية، وهكذا استمرت المعرفة بيننا بالتي هي أحسن حتى إذا كنت في أوائل الثمانينيات الميلادية وكنت أشارك الأستاذ علوي الصافي بإجراء بعض اللقاءات مع من بقي من الرعيل الأول في مجلة الفيصل، وكان من ضمنهم أستاذنا محمود عارف عليه رحمة الله وقد أجاب على أسئلتي الأدبية والشعرية والصحافية بإجابات موجزة إلى حدٍ مّا ولكنها كانت مفيدة جداً للقارئ الأدبي.

وكان من ديدني وعادتي إذا عملتُ حواراً أو لقاء مع أي أديب أو مفكر أن أهديه نسخةً من العدد الذي ينشر فيه لقائي معه وأذكر أنني أجريت ضمن اللقاءات في هذه المجلة العريقة مع كلٍّ من الأساتذة حسين عرب ومحمد سعيد العامودي ومحمد حسين زيدان وعزيز ضياء وأخيراً كان محمود عارف هو ضيف اللقاء في تلك الفترة الغالية من تاريخ أدبنا العربي السعودي.

وللأستاذ محمود إنتاج نثري متعدد الجوانب ولكني سأشير إلى ما ساهم به في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي عقد في ربيع عام ١٣٩٤هـ تحت عنوان "أدب المملكة العربية السعودية بين الآداب العربية" وهو بحث متكامل النقاط والمحاور حيث حدد كاتبه ما يتمتع به الأدب السعودي – في عهد الرواد – كمرحلة تاريخية ومحله بين الآداب العربية.

ليس ثمة فارق بين الآداب العربية كلها لكن أدبنا يستحق منا أن ننشره خارج البلاد وقد بدأ بتلك الفترة روادنا الكبار أمثال محمد سرور الصبان وأحمد محمد جمال وأخيه صالح وآخرين كان لهم دور التعريف بالأدب السعودي وقد كتب باحثنا قائلاً:

«إن لأدبنا المحلي شخصيته والمقصود بالشخصية هو الطابع النادر الذي يتسم به أدبنا، وأبرز خصائص طابع أدبنا هو سمة البداوة المتحضرة، فالإطار هو جو الصحراء، ومميزات أدب الصحراء هي الحرارة في العرض؛ والوحشة في غربة المسيرة الطويلة، ورفيف الأحلام، وهذه هي الصور التي تحمل معاني أدب الصحراء، ولا مانع من أن تنساق هذه المعاني من مسيرة الصحراء الشاسعة إلى منابع الفرح أو الحزن والرجاء أو اليأس، والثبات أو القلق. وهذا هو الطابع الذي يفصل بين أدبنا وبين غيره من آداب الشقيقات العربية التي يعطر آفاقها أريج الواحات الخضر، ويهز مشاعرها خرير الجداول والأنهار، ولا شك بأن هذا الفاصل هو طابع الشخصية في أدبنا الحاضر".[1]

وهكذا يسير باحثنا مؤكداً على وجود أدبنا وأدبائنا على الساحة العربية وقد أورد أسماء كثيرة من أولئك الرواد الأفاضل منهم حمزه شحاته، ومحمد عمر توفيق، وحسين سرحان، ومحمد حسن فقي، وأحمد قنديل، وأحمد عبد الغفور عطار، وعبد العزيز الرفاعي، وعبد العزيز الربيع، وعبد الله بن خميس، وعبد الله مناع.

وهنا يؤكد الأستاذ محمود عارف على أن المكتبة السعودية تحتفي بالكثير من المؤلفات السعودية على اختلاف مستويات أدبائنا واختلاف درجات الموضوعات التي طرقوها، يذكر من هؤلاء المؤلفين الأدباء عبد القدوس الأنصاري، وحمد الجاسر، وأحمد جمال، وحسن القرشي، وعبد السلام الساسي، وطاهر زمخشري، وأحمد عبد الغفور عطار. هؤلاء المعروفون في تلك الحقبة بالتأليف وإخراج الدواوين الشعرية.

ومن الطريف أن نذكر أن الباحث كان من الدعاة إلى التفرغ للأدب من قبل الأدباء وهو يذكرنا بالأستاذ الساسي أشهر الداعين إلى هذا التفرغ حيث قال به في الستينيات الميلادية من القرن العشرين وها هو محمود عارف يجدد الدعوة ولا من مجيب إلى يوم الناس هذا.

---

(١) بحوث المؤتمر الأول للأدباء السعوديين ٢/ ٨٤٣.

والأستاذ يضعنا أمام إصدارات المكتبة الصغيرة التي كونها الأستاذ عبد العزيز الرفاعي كنموذج للأدب السعودي الذي انتشر من خلال هذه الإصدارات ويشير فيها إلى بعض مؤلفات الرفاعي نفسه ككعب بن مالك وضرار ابن الأزور وزيد الخير وآخرين كتب عنهم الرفاعي في المكتبة الصغيرة.

ثم يورد نماذج شعرية لحسين سرحان ومحمد حسن فقي وضياء الدين رجب وعبد الكريم جهيمان وسواهم.

ثم يتحدث عن واقع الأدب السعودي قائلاً:

واقع الأدب السعودي قبل عشرين عاماً كان مشرفاً في كثير من ألوانه كالنقد وأدب المقالة وروعة الشعر والقصة. وقد سجل في الماضي الأساتذة العواد والربيع والشحاته والعطار وعبد القدوس الأنصاري وحمد الجاسر صفحات مشرقة في النقد. وكان من كتاب القصة: المرحوم الدمنهوري صاحب "ومرت الأيام" والمانع صاحب "اللمسات" المطبوعة، "وقمم الشقاء" وهي منشورة في مجلة الرائد. والمرحوم أمين رويحي صاحب قصة "الحنينة" ومعظم هؤلاء أحياء[1] ولكنهم فقدوا نشاطهم القصصي والنقدي لفقدان الدوافع المؤثرة في الوقت الحاضر.. والأدب العربي بوجه عام مصاب بنكسة. ورأيي في الحركة الفكرية المعاصرة في العالم العربي غير طبيعية لأنها ولدت في مناخات أجنبية ولم تستطع التعايش في المناخات العربية..

إذاً هذا حديث رائد من روادنا في الأدب السعودي الذي بيّن فيه منزلة هذا الأدب بين الآداب العربية وغيرها وشرح فيه الباحث إمكانيات وعناصر هذا الأدب الذي كان حديث الباحث فيه لم يراوح مكانه كما هو الآن الذي مضى على ذلك التاريخ سنون عديدة.

وظهر بعده جيل ما بعد الرواد ولنضرب أمثالاً لهم عبد الله مناع، محمد عمر العامودي، عبد الله عبد الرحمن الجفري، الدكتور عبد العزيز مُحيي الدين خوجه، وفاروق باسلامة وسواهم من هذا الرعيل الذين خلفوا جيل الرواد ولهم إنتاجهم الشعري والأدبي والنثري الفني.

---

(١) بل رحلوا بعد ذلك عليهم رحمة الله

وهذا التواتر هو من سنة الحياة الأدبية بل الحياة الإنسانية عموماً على ما عهدنا من الأدباء الذين عايشوا الفترة الماضية.

ونحن إذ نقرر هذا القول إنما نوجهه إلى الأجيال الصاعدة من الشبيبة والنشء الذين ينبغي تبنيهم أدبياً وخلقياً وثقافياً من قبل من هم بعد الرواد الذين مازالوا على قيد الحياة.

وبالنسبة إلى الأستاذ محمود عارف ورفاقه من الرواد هم الذين حفروا دروب الأدب والفكر والثقافة عندما كانوا في بدايات الطريق وبالكفاح والعزم استطاعوا أن يكونوا أدبنا العربي السعودي شعره ونثره بالقصيد والمقالات والبحوث والرواية والقصص القصيرة.

وفي أحد دواوينه كتب صديقه الدكتور عارف قياسة تحليلاً لبعض القصائد في هذا الديوان يقول الدكتور عارف: «وصديقنا الأستاذ محمود عارف في هذا الديوان (أيام من العمر) شاعرٌ ملئ قلبه من الحب حتى لا يكاد يتسع لشيءٍ سواه. والذي يحب كثيراً يتألم كثيراً ولا ريب أن إحساسه المرهف قد زاد من ألمه وضاعف من عذابه اسمعه يقول:

إن قلبـي الهـيمان أظمـأه الشـوق	ولم يـنج مـن سـعير الفـراق
ومن عاش حساساً طوى في ضلوعه	شـكايات محـروم وآمـال معـدم

ولكن هذا العذاب لم يكن ليفتَّ في عزمه ولا ليثبط من همته فالحياة على مافيها من صعابٍ وعقاب وعلى ما في دربها من أشواك تمزق الأيدي والأقدام مليئة هي أيضاً بالمسالك الناعمة والورود الفاغمه والرجل الرجل من لا يستكين إلى ضعف ولا يسكت على هوان وإنما يكافح ويناضل ويصبر ويصابر حتى يصل إلى مُبتغاه:

أي درب هـذا الـذي تمتطيـه	كـل درب الحيـاة شـوك وورد
السـموات معـبر للزواهـي	والزواهـي منهـا وضـاء وربـد
والأراضي رحيبـة في مـداها	مسـلك نـاعم وآخـر صـلد

فلا يأس إذن مع الحياة ولا قنوط وكل ضيق إلى فرج وكل عسر إلى ميسرة:

رب نهـر يشـوبه وحـلُ سـيلٍ	سوف يصفو ما فيه لو طال عهد

وأنت ترى أن مثل هذا النص حول شعر الشاعر إنما هو وصفٌ لما ورد فيه من قول فني وشعرٍ أدبي يحاول قائله أن يسلم من نقد الناقدين ولوم العُتّاب الأمر الذي كان شاعرنا محمود عارف بمنجى من ذلك لا لأن من كتب عنه صديقٌ له وإنما لأن الكاتب إنما عرض له عارض في شعر الشاعر فكتب ما كتب ونقلنا ذلك عنه.٢/ ١٣١٢ ديوان ترانيم الليل.

وهذا الديوان نشره نادي جدة الأدبي الثقافي سنة ١٤٠٤هـ الموافق ١٩٨٤م وفي مطلعه كتب رئيس النادي السابق الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين تحت عنوان كلمة يقول فيها:

«حين نقدم اليوم المجموعة الكاملة من شعر شاعرنا المجدد الأستاذ الرائد.. محمود عارف، فإنما نسهم بجهد المقل، لأداء بعض الواجب، نحو رجل شارك بقلمه وفكره نصف قرن من الزمن، ليضع في أساس وطنه لبنة أدبية، لتصبح مناراً فيما بعد، بعون الله.. ثم جهود الرواد، التي أتيح لها أن تدرس وأن تتعمق الدرس، وأن تصل إلى المستوى.. الذي يؤهلها لكي تكون في مستوى المسؤولية، لحمل الأمانة الفكرية والأدبية، بموهبتها ودراستها واهتمامها التي تحقق للوطن نهضة إشعاعية تعيد إليه سيرته الأولى، يوم انطلقت شعلة الأدب من الجزيرة العربية.. عبر قرون طوال، سبقت ظهور الإسلام، فكانت الجزيرة منارة ومنطلقاً.. لحياة عقلية من هذه الصحراء الصافية الأديم، فكانت إشراقة أدب صاف مثلها، استطاع أن يبقى قروناً طوالاً، لأن لغته.. لغة لكتاب حفظه الله.

والأستاذ الكبير الشاعر محمود عارف.. خليق بالتقدير والاحتفاء لأنه أديب، خلقاً ومسلكاً وأسلوب حياة، وشعره الذي تضمه المجموعة المكونة من مجلدين.. صورة من نفسه وحياته ومجتمعه، ليس فيها تزوير ولا صناعة، وإنما هو شعر حياة.. لها أنماط وتقاليد وطابعها الذي تعرف به ويدل عليها».

والشيء يذكر بالشيء فالأستاذ عبد الفتاح أبو مدين هو المحفز لجمع الشاعر لشعره كأعمالٍ كاملة فهو من الرعيل ذاته الذي يُعد أبو مدين منهم ولا ريب، لذا رأينا شعر الشاعر محمود عارف مجموعاً ومتضمناً ديوانه الكبير.

فما رحل هذا الشاعر إلا وقد كانت قُرة عينه في ديوانه، وهي أسباب وتعاون وتضامن كما هو الحاصل بين الأدباء بعضهم بعضاً.

وهناك كتبٌ نثرية كان أبرزها الذي أشرنا إليه ضمن أعمال المؤتمر الأول للأدباء السعوديين حول منزلة الأدب السعودي بين الآداب العربية.

محمد علي السنوسي

ولد السنوسي سنة ١٣٤٢هـ - ١٩٢٣م بمدينة جازان في الجنوب التهامي وتلقى تعليمه العام في مدارسها كما كان لوالده الشيخ/ علي السنوسي فضل التربية والتعليم لابنه محمد حيث كان هذا الوالد عالماً قاضياً وأديباً وشاعراً أورث مكتبته العامرة بكتب التراث من شعر وأدب وتاريخ ودين وشريعة لابنه فاطلع الأديب الصغير على هذه الكتب ونهل منها العلوم والآداب وفنون المعرفة حيث ظهرت موهبته الشعرية في هذه الأجواء الأدبية والعلمية والثقافية.

وكان محمد بن علي السنوسي قد عمل في وظائف الحكومة في منطقة جازان ثم تفرغ للعلم والأدب فأصبح رئيساً للنادي الأدبي فيها وعضواً في المجلس الإداري في المنطقة. وقد كتب الكثير من الشعر وفن النثر في مجلات المنهل والحج والهلال والأديب كما أسهم في الحركة الأدبية في الصحافة السعودية ونال جوائز تقديرية كثيرة. وذلك استحساناً لشعره النابض بالحيوية وأدبه وثقافته المتعددة،وهو من الشعراء المحليين الذين حافظوا على عمود الشعر العربي وبحوره المتوارثة وقد جدد في موضوعات شعره بحيث زاوج بين القديم والحديث معنى لا شكلاً وموضوعاً لا قالباً. ويصفه الدكتور عمر الطيب الساسي[1] بقوله: كان محمد علي السنوسي من الشعراء الذين يمتلكون حساً رقيق العواطف وكان أديباً مثقفاً واسع الإطلاع قرأ روائع الأدب العالمي بعقل متفتح، فتجاوب مع ما فيها سن جوانب إنسانية نبيلة ونظمها في شعره، ومن ذلك قصيدته (أنشودة الصقر) قال السنوسي وهو يمهد لها: هذه قصة للكاتب العالمي (مكسيم جوركي) وضعناها في هذا الإطار الشعري بعد ان أضفنا إليها لمسات فنية تقربها من الذوق العربي الشفاف. والقصيدة موجودة في ديوان الشاعر السنوسي الموسوم بـ(القلائد). ومطلعها:

---

(١) الموجز في تاريخ الأدب العربي السعودي ص ٣٤١، ٣٤٢

زخـــر البحـــر ذو العبـــاب وحيـــا　　　شـــــاطئاً حالمــــاً وأفقـــاً بهيـــا

وازرقـاق السـماء يضـفي عـلى الكـو　　　ن جمـــــالا مهفهفــــاً شـــــاعريا

والســـنا ذائــب يشعشــع في المــوج　　　رحيقـــــــاً ويســـــــتثير حميــــــا

وعـــلى صـــفحة الفضـــاء شـــعاع　　　أبـــيض يســـكب الصـــفاء نقيـــا

والقصيدة جميلة وطويلة على هذا الغرار من التصور الكوني والتصوير الرقيق البديع للصقر في أنشودته.

ويعنينا هنا قول الشاعر السنوسي عن شعره حيث يقول في تصديره لأعماله الشعرية الكاملة:

القلائد، الأغاريد، الأزاهير، الينابيع، نفحات الجنوب هؤلاء أبنائي أيها الأحبة. أقدمهم إليكم بلا غرور وأعرف بهم بلا عجب.

اختلفت ألوانهم وتباينت أسماؤهم. ولكنهم يحملون سحنة واحدة وملامح واحدة هي سحنة (محمد بن علي السنوسي) صاحب هذه المجموعة الشعرية التي تفرقت على مدى السنين والأعوام والشهور في دواوين ثم ضم شملها في ديوان واحد.

أجل هذه هي المجموعة الشعرية (لمحمد علي السنوسي) الذي ولد بين أعاصير مدينة جازان وغبارها في فصل الصيف ونشأ في جوها المعتدل وبرودتها العذبة في فصل الشتاء وشواطئها الحالمة وسمائها الزرقاء الصافية في فصل الربيع وسهولها المنبسطة وسيولها المتدفقة في فصل الخريف.

ولكن للنقاد حديثهم عن شعر السنوسي الذي استحسنوه كعبد القدوس الأنصاري الذي يقول في مقدمته للقلائد:

وأعتقد أن ديوان "القلائد" لصاحبه الشاعر الأستاذ / السيد محمد بن علي السنوسي.. (والاسم هذا كالمسمى).. سيثبت بصدوره أن الشعر العربي الأصيل الذي جمع بين الأصالة في المبنى، والطرافة والتجديد في المعنى هو حي ولن يزال حياً ذا تأثير فعال في المجتمع والأفراد..يؤز النفوس الظامئة إلى الحياة الطامحة أزاً، ويدفعها إلى محيط العمل والنشاط دفعاً،

ويوقد فيها جذوة الحرية والحماسة ويخلق فيها الحركة والانطلاق إلى الأمام على الدوام.. ويساند حركات الاستقلال والاستبسال في نيل المطالب العليا، كما كان من قبل ألف عام.. أيام البحتري وأبي تمام، وأبي الطيب المتنبي، وأخيراً أيام البارودي، وشوقي، وحافظ، ومن سار على دربهم من فحول الشعراء العرب»[1].

أما المقدمة الشعرية التي قدم بها الشاعر السنوسي أعماله الشعرية الكاملة فهي أربعة أبيات يقول فيها:

هـــــذه ألحـــــان قلبـــــي	وأغاريـــــد شـــــبابي
هـــي أحلامـــي وآمـــالي	وكـــــــأسي وشرابي
وصـــباباتي وأشـــجاني	وحبـــــي وعـــــذابي
إنهـــا صـــورة نفســـي	قـــد تجلـــت في كتـــابي

وهي كما تراها أخي القارئ تصور الرؤية الشاملة التي أتجه بها شاعرنا نحو ما سطره في هذه الأعمال التي تشكل في مجموعها نحواً من ثمانمائة صفحة.

أما ديوان الأغاريد من نفس الأعمال الشعرية الكاملة للسنوسي نفسه فقد قدم له الأستاذ/ محمد سعيد العامودي يقول فيها:

«ولست أحاول في هذه الكلمة أن أعرف بالسنوسي شاعراً.. فالسنوسي مكانته بين شعرائنا البارزين فهو صاحب القلائد وقد كان لديوانه القلائد وما يزال صداه الطيب الجميل في أوساطنا الأدبية. وأحسب أني لا آتي بجديد عندما أقول عن صديقي محمد السنوسي أنه أول شاعر من شعرائنا يترجم بعض من شعره إلى لغة أوربية. وتلك شهادة لا أظن السنوسي وحده يختص بها بل هي أحرى أن تكون شهادة لها مغزاها ولها مدلولها بالنسبة للشعر السعودي عامة. والحق أن في شعر شاعرنا من سمات الشاعر الأصيلة ما هو خليق بأن يجعل من هذا الشعر.. شعراً يستأهل الإعجاب».

---

(١) مقدمة ديوان القلائد جدة ٢٨/ ٤/ ١٣٨٠هـ

ومن هذا الشعر ما كتبه شاعرنا السنوسي عن أحمد أمين العالم والأديب المصري الكبير:

ثمـــن المجـــد أن تعـــيش غريبـــاً ... فيلســـوفاً أو شـــاعراً أو أديبـــا
تتحـــدى عواصـــف الفكـــر والـــرأ ... ي وتلقـــى سـلـم النهـي والخطوبـا
كالشـــهاب الـــوضيء يحلولـــك الجـو ... فيـــــزداد شـــــعلة ولهيبـــــا
في ســـماء مـــن الشـــعور وقلـــب ... نـــابض يصـــرع الأســـى والكروبـا
لـــك روح فســـيحة تســـع الـــدنيا ... إذا ضـــاق ســـاكنوها قلوبـــا
وفـــؤاد مضـــمخ بالأحاســـيس ... يُشـــيع الســـنا ويهـــدي الطيوبـا
يســـتمد الحيـــاة مـــن أفقهـــا الســـا ... مـــي ويســـتوعب الفضـــاء الرحيبـا
رن في مســـمعي نعيـــك والـــبرق ... حـــزين الـــدجى يشـــق الجيوبـا
فتوقفـــت أستشـــف عـــلى البعـــد ... فـــؤاداً ذوى طريـــاً خصـــيبا
وتصـــورت عبقريـــاً تـــردى ... مـــن ســـماء العـــلى قويـــاً مهيبـــا
وتنـــورت كوكبـــاً صـــدع الليـــل ... ســـناه وخـــر يهـــوي معيبـــا
يـــا (حيـــاة) كانـــت عـــلى العلـــم أزكـــى ... مـــن حيـــاة الربيـــع خصـــباً وطيبـــا
فجـــرت في مســـارب الكـــون نبعـــاً ... وهـــي تســـتقطر الحيـــاة حبوبـــا
وأعلنـــت ســـلافة الـــروح روحـــاً ... عصـــرتها الشـــجون كوبـــاً فكوبـــا
(فجرها) و(الضحى) على الأفق العلـ ... ـمي مجـــداً يخلـــدان الغروبـــا
حملـــت مـــن رســـالة الفكـــر نـــوراً ... ومضـــت تنشـــر اللـــواء القشـــيبا
وسرت كالشـــهاب ينصـــدع اللـــ ... ـــيل عـــلى جانبيـــه واهٍ كئيبـــا[1]

وهو يشير هنا إلى موسوعة أحمد أمين التراثية (فجر الإسلام) و(ضحى الإسلام)و (ظهر الإسلام) التي تنم عن فكره العلمي وثقافته الواسعة وأسلوبه الأدبي في ذلك كله.

---

(١) الأعمال الكاملة ديوان القلائد ص ١١٣، ١١٦، ١١٥، ١١٤

ومن روائع السنوسي كذلك قصيدته التي بعنوان (يا قلمي) يخاطبه قائلاً:

هلم إلي يا قلمي ... هلم فقد طغى ألمي
فأنت إذا أشرت، يدي ... وأنت إذا صرخت، فمي
وأنت نَجيُّ آهاتي ... وأناتي ونبض دمي
وأنت إذا بكيت، أسى ... دموعي فضن في كلمي
وأنت إذا صبوت، هوى ... وغنيت الهوى نغمي
وأنت ملاذ آمالي ... إذا ضاقت بها هممي
أبثك ما أنوء به ... من الأرزاء والنقم
فتصغي لي بلا ضجر ... ولا ملل ولا سأم
حملتك في سبيل الحق ... والآداب والقيم
وكنت وما أزال بها ... رضيعاً غير منفطم
أهيم بها وإن جرحت ... مناي وحطمت حلمي
وأعشقها على الآلا ... م والضراء والسقم
وأسري في ظلام الدر ... ب مرفوعاً بها علمي
كما سار الدليل على ... ضياء النجم في الظلم

وأنت ترى تعدد استخدامات الشاعر والأديب لهذا القلم الميمون في سيرة ثقافية وفكرية وأدبية للشاعر والأديب السنوسي. وما أروع قوله:

حملتك في سبيل الحق ... والآداب والقيم
أهيم بها وإن جرحت ... مناي وحطمت حلمي!!

أما عن المغرب الأقصى فللشاعر السنوسي قصيدة يقول فيها:

على الشاطئ الرقراق في المغرب الأقصى ... قرأت أحاديثاً من المجد لا تحصى
مسطرة من عهد موسى وطارق ... وعقبة لم تنصل شروحاً ولا نصا
وحسان – حسان بن نعمان إنه ... هناك على الآثار يقتصها قصا

سواطع ملء البحر والصخر والذرى ... تزيد ائتلاقاً كلما زدتها فحصا

إذا غمغمت فيها الرياح حسبتها ... صهيل جياد تحمل العرب الخلصا

وإن لاح قرص الشمس جبالها ... رأيت شعاع الفتح يحتضن القرصا

تأملتها والذكريات يهزني ... صداها كما تهتز أمواجه رقصا

يلوح بها الماضي كأن حياته ... متلفزة يرنو وينطق منتصا

كأني أرى موسى أمامي بخيله ... وأسمع وثب الخيل والركض والقمصا

ولمح المواضي والسفين – وطارق ... يخوض – عباب اليم واليم قد غصا

مآثر للإسلام وهاجة السنا ... قباباً وألباباً سوامق لا وقصا

وكم لهدي الإسلام في الأرض من يد ... بها صفعت مستعمراً ورمت لصا[1]

وفي هذه القصيدة رأينا مآثر الإسلام في المغرب الأقصى وكيف تغنى الشاعر بها وكيف أنه سرد معلومات تاريخية عن المغرب وفي مقدمة ذلك الفتح الإسلامي لهذه البلاد التي دخلها الإسلام مبكراً جداً وذلك في بدايات النصف الثاني من القرن الأول الهجري. ثم بعد انتشار الإسلام بين ربوعها دخلها العلم والعلماء والفقه والفقهاء والأدب والأدباء والقراء والنحويون، الذين أغنوا الساحة العلمية والفقهية والدينية والأدبية بالعلوم والآداب والثقافات.

بعد هذه السياحة الشعرية والأدبية كنا نتوق إلى وجود الكتاب النثري الوحيد الذي أصدره السنوسي بعنوان (مع الشعراء) ولكننا لا ندري مصير هذا الكتاب بعد رحيل مؤلفه السنوسي سنة ١٤٠٧هـ.

وبالنسبة للأعمال الشعرية الكاملة التي سردنا منها القصائد المختارة سلفاً فإننا نود أن نشير إلى أن هذه الأعمال من منشورات نادي جازان الأدبي سنة ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م الطبعة الأولى والأخيرة حتى يومنا هذا.

(١) ديوان الينابيع من الأعمال الكاملة ص ٦٢٤

عبد الله بن خميس

هذا العلم الذي ولد في "الملقى" من الدرعية سنة ١٣٣٩ للهجرة كيف هو فكره "أدبه" كتبه. إنها رموز ثقافية، وعلامات معرفية أن تشير إلى عبد الله بن خميس أديباً وشاعراً، وكاتباً وصحافياً!! هذا العلم اليمامي "من بلدات نجد الغراء وفيافيها وسهولها وهضابها وعرارها. إنه المفكر والأديب الألمعي.. عمل في شؤون الحياة العملية والأدبية والعلمية والحياة التأليفية ورحل إلى الشمال من نجد والجنوب وإلى شرقها والغرب. فوصل إلى دمشق الشام وخرج بانطباعات في كتابه «شهر في دمشق» عبر فيه عن مشاعره تجاه الشام ولم قصدها وكيف خرج منها ومكث فيها شهراً كيوم من كثرة التباريح والأفراح والأفكار الملاح إنها الرحلة الشامية الشمالية الجميلة العطاء والأماني.

إن بن خميس في كتاب رحلته يسطر المعاني العذبة والقيم الحميدة والأفكار النبيلة بمختلف أصنافها وألوانها وجمالها وجلالها بأسلوب الأديب ذي السهل الممتنع والبلاغي الأريب.

هو هنا يذكر بكتابه «المجاز بين اليمامة والحجاز» مع الفروق البيئية والجغرافية وأسماء المواقع والأعلام والآثار التي شرحها وتحدث عنها بإسهاب وصدق إحساس ودفق نبض في كتاب الرحلة اليمامية. بن خميس يختلف عن جوه في رحلة الشام ثمة فوارق وبون شاسع وفرق واسع ومساحة كبيرة.

ابن خميس في "المجاز" يفلسف المكان ويستنطقه بينما هو في "دمشق" يعبر ما حلا له التعبير في مكان جميل وبيئة لطيفة ويواجه أناساً جدداً يتحدث معهم بلغة الأديب بينما هو في "المجاز" يتحدث بمنطق العربي القح والبدوي الأديب الذي لان منطقه بالفصحى وتحرك لسانه بالنبطي شعراً ونثراً أحياناً وشعراً منفرداً في أحايين كثيرة، يتحدث عن مكان أو علم أو أثر أو قبيلة فيها شاعر وأكثر أو يعبر عن ركبان مروا من هنا أو ذهبوا إلى هناك.

إنها رحلات وأسفار فيها كثير من الفوائد الأدبية والفوائد اللغوية والفوائد الجغرافية والتاريخية.. الشيء المعبر عنه بأدب الرحلات مع فارق الوصف والتعبير؛ والحقائق، وأصل الوصف للرحلات التي يرحلها الرحالون ويجوبون بها أرجاء الدنيا.. إنها أدبيات الوصف ولغويات التعيين وإرشادات المعرفة بالأماكن والديار ذات الطول والعرض، يحققها الرحالة بن خميس بعلومه وثقافته ومعارفه وأعلامه من نجد حتى الحجاز في سياحة علمية وتاريخية وجغرافية الأمر الذي جعل من الكتاب موسوعة في الآثار الأدبية والجغرافية التاريخية والأعلام الأثرية تحوي الكثير من الأسماء للوديان والجبال والبلدات والهضاب والقبائل والعشائر والكثير من اللغويات واللهجات وكلام العرب نثراً وشعراً وأمثالاً وأقوالاً ونصوصاً ولغات.

أما كتابه «الأدب الشعبي في جزيرة العرب» فدراسة أدبية وسياحة ثقافية عن هذا اللون من الأدب والشعر النبطي في الجزيرة العربية من نجدها فحجازها فيمنها إلى حضرموت ومن شمالها إلى عسيرها فعمانها، ثم يعرج على بعض الأقطار العربية مثل مصر والسودان ولبنان فيتحدث عن الموشح المصري والشعر العامي في لبنان.

لكنه يتحدث عن نشأة الشعر النبطي في نجد وبواديها وواقعه الشعبي وتحقيق كلمة "نبط" وبين يدي شعره وتطوره العربي وخصائص هذا الشعر ونماذج منه في أغراضه المختلفة مثل المدح والهجاء والفخر والحماسة. كما يعرض في هذه الفصول من الكتاب عن شعر الحكمة النبطية وأمثالها كما يعرض لشعر الوصف مع الشواهد منه. وهناك فصل ماتع في هذا الكتاب هو فصل «اللهجات العربية في شعر النبط» ويستشهد فيه بشعر الملوك والأمراء والأعيان. وفي الكتاب فصول متعددة في كل ما يتصل بهذا النوع من الشعر الأدبي الشعبي خاصة الفصل الذي تحدث فيه المؤلف بن خميس عن "ترف الشعر النبطي" والفصل الشامل عن "الشعر الشعبي في الأقطار العربية" حيث مسح ثقافياً وميدانياً عن هذا النوع من الشعر في البلدان العربية خارج جزيرة العرب العرباء. وختم الكتاب بملح وطرائف لطيفة وممتعة جداً جداً.

ولكن الشيء الذي ينبغي ألا يغيب عن القارئ – ونحن معه – أن المؤلف الأستاذ عبد الله بن خميس قد أثبت في هذا الكتاب الذي نتحدث عنه أوزان الأشعار والأبيات الشعرية للشعر النبطي وأنها متسقة التركيب بالوزن والموسيقى الشعرية. وهذا ما نجده متراكباً وموزوناً في كل الشعر الذي أورده في الكتاب وتراكيبه وبحوره الأمر الذي بسببه لم يترك الأول للآخر شيئاً!!.

كما إن لابن خميس كتباً أخرى منها «معجم اليمامة» و«راشد الخلاوي» و«من أحاديث السمر» و«من القائل» في عدة أجزاء. وكان عبارة عن إجابات إذاعية لأسئلة المستمعين عن أقوال الشعراء في الشعر العربي الفصيح.

ويعتبر ابن خميس مؤسساً لمجلة "الجزيرة" أصدرها لمدة أربع سنوات قبل أن تحول إلى مؤسسة تصدر هذه الجريدة أسبوعياً ومن ثم يومياً. كما أنه عضو في مجمع اللغة العربية بالقاهرة والمجمع العلمي العراقي. وعضو في مجلس الإعلام الأعلى سابقاً وعضو في مؤسسة جريدة الجزيرة وإدارة المجلة العربية، وهو عضو كذلك في دارة الملك عبد العزيز. وقد مثل المملكة العربية السعودية في عدة مؤتمرات أدبية خارج البلاد وداخلها مثل المؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي انعقد في مكة المكرمة عام ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

إن لابن خميس بصمات شاهدة على ريادته الأدبية في الثقافة والآداب والإعلام والصحافة والفنون الأدبية الأخرى.

ويعتبر قمة من قمم الأدب في قلب الجزيرة العربية التي أسهمت في ريادة الأدب العربية السعودي. توفي في عام ١٤٣٢هـ رحمه الله.

عبد العزيز الرفاعي

هو أبو عمار عبد العزيز أحمد الرفاعي، المثقف الأديب والمطلع الأريب، كان آية في دماثة الأخلاق، ولين الجانب فارع الطول مهيب القامة عرفته ابتداءً إبان إخراجه كتابه (توثيق الارتباط بالتراث العربي) وهو الكتيب الذي كان موضوعه طرح في مؤتمر الأدباء العرب الذي عقد عام (١٣٨٩هـ -١٩٦٨م) ببغداد فكان أطروحة ثقافية بسطت الفكرة الأدبية التي كان عبد العزيز الرفاعي يبرزها لأدباء العرب انطلاقاً من جزيرتهم، ثم إن هذا الكتيب ضمن المجموعة الأولى في نشر الأدب العربي السعودي، عندما كان رواد الأدب في المملكة هم المنتشرون طباعياً للمؤلفات والإصدارات الأدبية والروائية والثقافية والتاريخية على عهد الملك فيصل بن عبد العزيز - طيب الله ثراه-.

ثم امتدت بي معرفته، عرضاً في القراءة وطولاً في الاستشراف الثقافي، فتارة أقرأ عن ندوته وتارة أخرى أقرأ له مقالة أو بحثاً أو دراسة أو مرثية أو قصيدة شعرية وكان منتشراً في «اليمامة»، «الجزيرة»، «المدينة»، «البلاد» و«عكاظ» وخلال ذلك تبرز له هذه الصحف لقاءات وحوارات وأخباراً عنه.

والعجب في الرجل أنه أديب ذو صلة بالعلماء وليس معارفه من جنس الأدباء فحسب، بل الدبلوماسيين أيضاً، وبعض من رجالات السياسة على اعتباره مستشاراً في مجلس الوزراء ثم في الديوان الملكي. وله صلة حميمة بالشيخ عبد الله بن عبد الغني خياط، والدكتور معروف الدواليبي، والشيخ علي الطنطاوي، وشعراء المهجر وأدبائهم كزكي قنصل وشقيقه، وكتَّاب مصر كوديع فلسطين ومحمد عبد الغني حسن ومحمد محمد حسين والدكتور محمد رجب البيومي.

كما كانت له صلة بأدباء الخليج مثل: إبراهيم العريض ومحمد جابر الأنصاري، وخالد الفرج، وعبد الرحمن رفيع.

كما كان له صلة بأدباء الشام وشعرائها كعمر أبي ريشة، وبدوي الجبل، وعبد الله يوركي حلاق وآخرين.

وكانت له صلة- أيضاً - بأدباء لبنان كفارس سعد وبشارة ألخوري، وألبير أديب، صاحب مجلة (الأديب) وغيرهم.

وقد كان لأسبوعياته في مجلة (اليمامة) دافعاً لي: في بدايتي الأدبية التي كان يحررها الأستاذ علوي الصافي في بداية العقد السابع للقرن الرابع عشر الهجري، عن الاتجاهات والتيارات الأدبية، وذكر منها الاتجاهات والتيارات الأدبية منها الاتجاه الإسلامي في الأدب فكان ذلك حافزاً لي كي أدبج مقالتين بعنوان الأدب الإسلامي وذلك في صفحة (دنيا الأدب) التي كان يحررها صديقنا الأديب الأستاذ سباعي عثمان رحمه الله صيف عام ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م وذكرت في بداية المقالة الأولى الأستاذ الرفاعي ومقالته المشار إليها.

وقد زرته في عام ١٤٠٠هـ في مقر عمله بالديوان الملكي في الناصرية بالرياض فاستقبلني بحرارة الأبوة الأدبية والحنان الأخوي الثقافي، وتحدثت معه فيما كتبت عن المؤرخ الشاعر خير الدين الزركلي، عقب وفاته عام ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م وهل بالإمكان نشرها ككتاب في سلسلته العظيمة (المكتبة الصغيرة) التي يصفها فضيلة الشيخ عبدالله بن عبدالغني خياط رحمه الله بأنها المكتبة الصغيرة حجماً والعريضة محتوى أو الكبيرة فأبدى رحمه الله استعداده، وبعد عودتي من الرياض إلى مكة المكرمة في الفترة المذكورة بعث إلي بكتاب التأبين الأدبي للزركلي الذي أصدرته وزارة الثقافة السورية وفيها كلمة ضافية للعماد مصطفى طلاس الوزير الأديب فكان ذلك مؤثراً في نفسي إذا عرفت كيف يؤثر الرفاعي إخوته الأدباء على حقه إذا كان ذلك الكتاب النسخة المخصصة له.

وهذا من باب الوفاء الذي عرف عن الرفاعي رحمة الله عليه كذكره للشيخ عبدالله الخياط عندما سكن الرفاعي وهو طالب بالمعهد العلمي السعودي وبداية تدريسه به بجوار الشيخ الخياط في حي أجياد بمكة وذكر للشيخ فضل الجار على جاره الجديد وكان الإيجار باهظاً ذلك الذي عرف الرفاعي بأخرةً أن الشيخ الخياط قد سدد ما تبقى من النقود.

ولم ينس الرفاعي هذه المكرمة ألخياطية إلى ما قبل رحيله بهنيهة عندما كان في آخر ندوته بداره الكائنة في حي الأمير فواز السكني بجدة في رمضان ١٤١٣هـ وصادف أن حضر الندوة الدكتور عبد العزيز عبد الله خياط فذكر تلك المكرمة على الحضور ولم ينسها على تعاقب الزمن وهو من هو غنى وثراء رحمه الله.

أما إنتاجه فهو جمٌّ ولست بصدد رصده ولكن أذكر للقارئ الكريم كيف سرني أسلوب بيانه وترسله به فقد كتب مرة في مجلة الفيصل معبراً عن معاناة الأدباء من أجور البريد لكتبهم المهداة لبعضهم البعض فقال رحمه الله: (وقد جرت العادة أن تكون العلاقة بين هذه الطبقة من الناس وبين النقود ود مفقود).

وكان ذلك ضمن سلسلته التي كان ينشرها له الأستاذ علوي الصافي في الفيصل تحت عنوان: وللحديث شجون، مضاهاة للحديث ذو شجون الذي كان يكتبه في مجلة الرسالة الدكتور زكي مبارك التي يود الأدباء لو جمعت في كتاب لكل من الأديبين الكبيرين الرفاعي والمبارك.

وكان الرجل أميناً لسر الناس جابراً لكسرهم وأذكر أنه في ندواته الأخيرة في جدة طلب مني رئيس تحرير صحيفة المدينة الأستاذ أسامة السباعي أن أعمل تغطية موجزة لكل ندوة مساء كل خميس فلبيت الطلب واتصلت بالشيخ الرفاعي فما كان منه إلا أن حياني ودلفت صالون الندوة الرفاعية أنا والأستاذان الشاعران أحمد سالم با عطب ويحيى السماوي فإذا ببعض الأدباء ورجال الأعمال وأذكر منهم الآن الشيخ عمر بادحدح والشيخ عبد الرحمن با وزير وسعيد العمودي ومعهم صديق الأدباء ورجال الصحافة الأستاذ عمر أبو زيد وكان معي جهاز التسجيل الصوتي وبعد التحية من الأستاذ الرفاعي بالحضور إذا به يتأنى في الحديث مع شيء من الترسل فإذا ثمة شيء من الخصوصيات التي تتعلق بالناس أمر بقفل الجهاز حتى يأتي حديث الأدب والثقافة فيأذن باستئناف التسجيل وهكذا.

ومنذ فجر يوم الخميس ٢٣/ ٣/ ١٤١٤هـ، ١٨ عاماً مضت على رحيل عبد العزيز الرفاعي إنساناً أديباً يملك ناصية البيان بالعلم ونشره المعرفة وتثقيفها والآداب وتفعيلها والفكر وتشغيلها بعد أربعين عاماً من الموهبة والاطلاع.

ودعونا نرجع إلى الخلف قليلاً علنا نتصور رائداً حمل الراية الثقافية في أفق العربية وسماء آدابها ونهل من فوائد العلم ما بثه في الحياة الأدبية في المملكة العربية السعودية بعد الكفاح في الأعمال والنضال مع الرجال في بناء صرح العلم والأدب والمعرفة والسياسة والاجتماع والفكر والثقافة. وشيمة الرفاعي وقيمته في التواصل مع المعرفة والرفع من أساسها إنه العلم الوافر والعمل الراشد في نهج قوي من العوالم الفكرية وأساليب بناء الحضارة الثقافية في بيئة مواتية وإمكانية معطاءة ومنهج علمي واضح يرى فيه نشر المعرفة واجباً فكرياً وإذاعة الأدب مشروعاً عاماً وبما أوتي من النبوغ استطاع ملازمة هذا النهج الفكري الذي يتخذ أسلوباً مبسطاً معروفاً وأثمانه مادية زهيدة؛ فالمكتبة الصغيرة وسلسلة المصابيح والسلسلة الشعرية والسلسلة الثقافية وكلها مشاريعه الفكرية العامة سوى مؤلفاته لم تفده مادياً بقدر قيمتها المعنوية التي أكسبته الفضل في الحياة الثقافية والعلمية والتنمية والبناء الحضاري.

وبطبيعة الحال لم يكن عبد العزيز الرفاعي وحيداً في ذلك المشروع بل كان جنباً إلى جنب مع حمد الجاسر وعبد القدوس الأنصاري وأمين المدني وعبد الله بن خميس ومحمد أحمد العقيلي ومحمد حسن عواد وأحمد محمد جمال وطاهر زمخشري ومحمد سعيد العامودي وصالح جمال ومحمد سرور الصبان وعبد العزيز ضياء وحسن بن عبدالله آل الشيخ.

وعبد العزيز الرفاعي كان الأسلوب عنده معبراً عن مكنونه الثقافي الذي نوع في العطاء وشارك في البناء معه أعلام عديدون استكتبهم للكتابة ضمن سلسلة المكتبة الصغيرة على سبيل المثال ولم ينتخبهم انتخاباً وإنما فتح لهم دار الرفاعي فدخل فيها من أحبه وترك لهم المجال مفتوحاً.

وأما مطبوعاته التي نشرها فهي ذات أنواع علمية عديدة في علوم القرآن وعلوم السير والتاريخ القديم والأدب والشعر واللغة العربية والتراث الإسلامي وأعماله الشعرية والثقافية في مجالات متنوعة ذات جِدَّة وأثر رصين وأسلوب مؤثر هو يذكرني بأعلام الأدب والتراث الكبار مثل: أحمد زكي باشا وأحمد تيمور ومحمود شاكر وخير الدين الزركلي ومحمد فريد وجدي ومحمد كرد علي إنهم جمع من العارفين بسرائر العلوم ومكنونات الأدب وأنابيش التاريخ التي جمعهم عن طريق التصنيف والتحقيق والنشر والطبع.

وفي نظري إن عبد العزيز الرفاعي يعد همزة الوصل الذي أمدهم بالتراث بلباس جديد وثوب قشيب وإزاحة الستار عن جواهر العلوم وتحف الآداب ودرر الأفكار. إن لكل مثقف نظرية والمثقف المنظر هو فيلسوف التفكر الثقافي الذي يرسم العمل الفكري ويرصد الفعل الثقافي بفكر جديد وثقافة غزيرة وخلق رفيع وشخصية قوية. فالتنظير الثقافي عند الرفاعي ذو أسس بينة.

أولها: العمق العالمي في توفير المعرفة.

ثانيها: الفكر الأدبي في بسط هذه المعرفة الذي يفعل للمنظر المثقف آثاراً في المتلقين.

ثالثاً: إيمانه برسالة المفكر في الحياة الاجتماعية.

لا بد من القول إن الأخلاق في نظرية عبد العزيز الرفاعي العلمية مادتها الأدب وشعارها الإخلاص ودثارها التضحية بالنفس والنفيس ومثل هذه النظرية الخلقية قمينة أن تجعل صاحبها المثقف الذي يتفهم معاني الفلسفة في الحياة العلمية وقيم الفكر الحر في آفاق الحياة المعنوية وإن الثقافة رهان حضاري يفوز به الرائد الذي لا يكذب أهله.

وكم من القيم والمعاني التي اتسم بها نظره في الأدب والتأليف والنشر والطبع والتحقيق والجمع والتصنيف والكتابة والبحث وكان مع كل قيمة له أصل في رأيه الحصيف ولكنه مع من قال:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل   وحيلة العقل زانتني لدى العطل

أو أن العالم لا يصونه إلا العارف بسره وخلفيته كما قال القاضي الجرجاني:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم   ولـو عظمـوه في النفـوس لعظـما

وعلى هذين الأساسين انطلق شاهراً قلمه ليكتب العلوم والآداب والثقافة والفنون وشؤون المعرفة والفكر والبلاغة ونشر الآراء والأفكار والخواطر والمعارف والمعلومات وإنشاء عديد من قنوات النشر كعالم الكتاب وعطائه مع المجامع الأدبية واللغوية والأندية الثقافية وحضوره المؤتمرات والمحافل... محافل المعرفة والأدب والفن، ومشاركاته البحثية في

الصحافة والمجلات ومتابعته على شكل كناشات للملاحظات العلمية والنقدية وتصويب الأخطاء في اللغة والأسلوب والمعلومة وإقامة الأمسيات الثقافية كخميسيته المشهورة وإلقاء المحاضرات والندوات وبرامجه وأحاديثه في الإذاعة المسموعة والمرئية وعبر الهاتف وسواه من وسائل ذيوع المعرفة وبثها ونشرها وتوزيعها وهذه وسائل أقيمت على أسس ثابتة ومبادئ راسخة من الدقة والحصانة والاقتدار والاتزان والحلم والصبر والاحتمال القوي والسماح ورباطة جأش والعفو والتقدير والتجلة والاحترام والبذل والعطاء والإكرام والرصانة في أطروحاته والوفاء والإحسان والإهداء والتجمل الحسن.

صاحب هذه السمات والميزات هو من المجددين لإحياء علوم العربية وآدابها بل يذهب بي هذا التصور الفكري لعبد العزيز الرفاعي إلى أبعد من ذلك إذ أراه مجدداً للفكر العربي الذي يستمد آدابه من قيم الفكر الإسلامي وتراثه المجيد وبالذات في داخل جزيرتنا المعطاءة ولكن لا يكفي ذلك لأن عمومية الفكر الإسلامي تمتد لتحيط بعالمنا الإسلامي والإنساني الكبير وهو العالم الذي ينتسب إليه بلال الحبشي وسلمان الفارسي وعطاء الخراساني ومسلم النيسابوري ومحمد بن إسماعيل البخاري... الخ فأصدر رحمه الله أكثر من سلسلة: المعاجم وأولها معجم مصنفات القرآن الكريم للدكتور علي شوخ إسحاق في خمسة مجلدات، وأصدر الرفاعي أيضاً سلسلة الطبقات وأولها: الطبقات السنية في تراجم الحنفية لتقي الدين التميمي تحقيق الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو رحمه الله وهو كاتب تاريخي يترجم حياة وعلوم أتباع الإمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله في أربعة مجلدات، وهناك سلسلة تواريخ مكة مثل كتاب: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام تأليف عبد الكريم بن محب الدين القطبي علق عليه كل من الأستاذ عبد العزيز الرفاعي نفسه بالاشتراك مع الأستاذ أحمد محمد جمال والكتاب يقع في مجلد واحد لطيف واشترك في التعليق على هذه الطبعة أي طبعة دار الرفاعي للنشر الدكتور عبد الله الجبوري كذلك. كما ضمت سلسلة أخرى هي سلسلة المصابيح وكان أول إصداراتها كتاب حكم وأحكام من السيرة النبوية الشريفة تأليف الشيخ عبدالله عبدالغني خياط إمام وخطيب المسجد الحرام.

رابعاً: هذا الإيمان يستخرج في فكر صاحبه ما يلاقيه في أداء رسالته من مواد باهظة الثمن.

خامساً: قناعته بانتشار المعرفة وأنها ضرورية كالدين في الحياة الإنسانية.

وفي الإطار الإسلامي أيضاً أصدر الأستاذ عبد العزيز الرفاعي سلسلة في الاقتصاد الإسلامي حيث كان كتاب الأسس الفكرية والعملية للاقتصاد الإسلامي للدكتور محمود محمد بابللي من أهم إصداراتها الأمر الذي يؤكد أن التفكير الإسلامي يأخذ جانباً مضيئاً من الفكر الأدبي والثقافي عند الأستاذ الرفاعي رحمه الله.

وهي إذن علوم أدبية وثقافة أدبية ومعرفة وفن في الأديب الإنسان وهناك إصدارات الدراسات الأدبية عن دار الرفاعي مثل كتاب الدكتور مصطفى إبراهيم حسين: أدباء سعوديون ترجمات شاملة لسبعة وعشرين أديباً من المملكة العربية السعودية أمثال أحمد السباعي وأحمد عبد الغفور عطار، حسن عبد الله القرشي، حسين سرحان سعد الجنيدل، عبد الله بن إدريس، غازي القصيبي، محمد حسن فقي، محمد حسين زيدان...إلخ وهوكتاب غزير المادة في الأدب والعلم والثقافة والمعرفة قدم له الأستاذ الرفاعي نفسه بمقدمة ضافية ونفيسة.

ونأتي إلى سلسلة أخرى أصدرها عبد العزيز الرفاعي ألا وهي سلسلة الدراسات الصحفية وكان كتاب الرسالة والزيات للدكتور سيد محمد سيد أهم إنجاز فيها.

ومعروف في سيرة الأستاذ عبد العزيز الرفاعي أن هذه المقدمة كتبها وهو في عز منصبه بالديوان الملكي فانظر إلى تواضعه العالي والأدبي الجم وهذا ما عنيته عندما قلت سابقاً لا بد من القول أن الأخلاق في نظرية عبدالعزيز الرفاعي العلمية مادتها الأدب وشعارها الإخلاص. الأمر الذي ينطبق عليها ما قاله الرجل في تقديمه لديوان شعر الأستاذ محمد سعيد العامودي من (رباعياتي) يقول رحمه الله:

(ظللت أسأل نفسي عدة أيام متوالية قبل أن أخط كلمة واحدة من السطور.. من أين ابدأ الحديث عن أستاذي محمد سعيد العامودي وكيف أبدأه وإني إذ أقول أستاذي فأنا أعني ما أقول... فإنه وإن لم يكن لي شرف التلمذة على يديه مباشرة... فإنه لم يفتني مع نفر من جيلي أن نتلقى أدبه وكتاباته وأن نوثق به الصلة ليكون لنا نعم الموجه والمرشد والمعين حينما كنا في دنيا الأدب والكتابة زغباً لم ينبت لنا ريش بعد.

وقد قلت سابقاً أيضاً بخصوص أدب الرفاعي الخلقي ونظريته فيه: ومثل هذه النظرية الخلقية قمينة أن تجعل من صاحبها المثقف الذي يتفهم معاني الفلسفة في الحياة العلمية وقيم الفكر الحر في آفاق الحياة المعنوية وإن الثقافة رهان حضاري يفوز به الرائد الذي لا يكذب أهله. مما يكشف بوضوح أنه أديب بطبعه دمث الخلق بفطرته متواضع الجانب وهذه لعمري من شيم الكرام وقيم الأخيار وطبيعة الرجال العظام الذين يقدرون للناس فضلهم ويعطونهم العرفان الجميل بفضلهم عليهم مهما علت مناصبهم وطلعت عليهم الدنيا بالنفيس من الجاه والمال لأن قيمتهم هي الخلق ليس إلا وقد كان عبدالعزيز الرفاعي ذلك الفاضل بأخلاقه وعلمه وفكره ودينه.

الرفاعي أديب ناضج الفكر قد تمتع بذائقة ثقافية تميز كل فكرة بحسب معناها وتميز كل جملة بحسب مبناها فمعنى الفكرة عنده ثقافة ومبنى الجملة عنده أدب جميل التعبير رائق الصورة وحلوها، ورائق الأسلوب ثابت في بناء قوي، وجزل في مبنى مسبوك.

أما فكره فَتُوشِّيه الثقافة أفكاراً في معلومات منوعة وثقافة زانها الفكر الراسخ والقدم الراسخة في الأدب والفنون والمعرفة.

هذا مجمل المعنى في شخصية الرفاعي الفكرية ومختصر الأسلوب في أدبه أما الرجل في صورته المعرفية وصوره الأدبية فذلك الشغوف بالقراءة والطامح لمعرفة جذور الثقافة بالاطلاع تارة وبالمراسلة الأدبية مع أقرانه من الأساتيذ والأدباء ورجال الثقافة والأدب والفن والفكر تارة أخرى، يهديهم كتاباً أو يطلعهم على معلومات أو يراسلهم بخصوص الحالة الثقافية والإنسانية إذا دعت الحاجة إلى ذلك وهذه ميزة الرائد الثقافي والقائد الاجتماعي الإنساني لا يفتأ يفيدهم ويعمل على العطاء لحقهم ويقدرهم به سخاء رخاء وكرماً حاتمياً بالأدب والقيمة والفكر والمعنى وينالون منه البذل وعسى أن يكون الشاعر المفن عفيفاً فيناوله ما قدر عليه وأنت لا تقارن بين العلم والمال والأدب والمادة فهما مثلان في الضد والانعكاس وإنما أردت من ذلك علمه وأخذه وأدبه وعطاءه وقس على ذلك في الحياة الإنسانية والاجتماعية والأحوال البشرية.

يقول راثياً أحد الأدباء وقد أراد أن يهدي أعماله الشعرية الكاملة في مجلدين ضخمين عبر البريد لأصدقائه الكثر وأن ذلك يكلف مالاً جماً: «والعادة أن تكون العلاقة بين هؤلاء وبين النقود ود مفقود».

فانظر إلى عبارته كيف جملها بالكرم الأدبي المطلوب والعطاء الإنساني المحبوب تلمسه في فكره ذلك بالبذل المجلوب والرفد الفكري الممدود.

وهو تعبير من حسن الأدب الإنساني والخلق القويم والذهن الصافي، ويكاد التعبير القوي المؤثر في سير الأدب مثل ذلك أن يكون مندثراً لأنه يمثل أدباً ريادياً لا نعرفه إلا لدى الأدباء الكبار والكتاب العظام وما عبدالعزيز إلا منهم صاحب القلم الرائد والأدب الرافد مثله في ذلك مثل حمزة شحاته ناثراً وعبد القدوس الأنصاري ومحمد سعيد العامودي وأحمد إبراهيم الغزاوي ناثراً أيضاً وقد سبق أن أوردنا تلك العبارة البليغة وأعدناها هنا نظراً لكل منهما موضع ومناسبة.

ولست أدري لم يغيب الأدب الرفيع في الثقافة والفكر والمعرفة والفن. لماذا افتقدنا مثل هذا التعبير في أيامنا وزماننا وعصورنا.. لا في المملكة فحسب بل في سائر الوطن العربي الكبير أين مثل أولئك الأشاوس في النهضة الأدبية؟

أين مثل الرافعي والعقاد في مصر أين مثل العواد والعامودي في السعودية؟ أين مثل المحجوب وعبد الله الطيب في السودان؟ أين مثل الفاسي والكنون في المغرب؟ أين مثل علي الطنطاوي وسعيد الأفغاني في الشام؟ أين مثل الأكوع في اليمن؟ أين مثل علي أحمد با كثير في حضرموت؟

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

وقد تساءل يوماً الأديب المحامي محمد عمر العامودي وقد تشعب الحديث في أمسيته الخميسية: أين مثل الأستاذ عبد العزيز الرفاعي؟ والحديث عن الرواد كناية عن جهودهم الأدبية والمعرفية والنشر الثقافي قلت: سؤال في محله يثير الشجن والأمل الشفاف.

وهناك أعلام في المملكة العربية السعودية لا تنقص المعرفة بهم في الداخل ولكن أين صداهم في الخارج؟ وهذا سؤال ينطبق على كل من: عبد الله عبد الجبار، محمد عمر توفيق، عبد الله عريف،عمران محمد العمران، عبد الله بن خميس، حمد الجاسر، محمد علي السنوسي، محمد أحمد العقيلي.

وأروي أن القصور هو في التعريف بهم من قبل المؤسسات الثقافية ولا أقول إن مثل هؤلاء الرواد غير أعلام مشهورين كلا وإنما ينقصهم التعريف بهم وتوزيع كتبهم ومؤلفاتهم ودواوينهم الشعرية خارج البلاد وفي العالم الأرحب. والآن من ينكر حمد الجاسر والعرب؟ ومن يغض الطرف عن عبد القدوس الأنصاري والمنهل؟ أو من يستطيع الجحود لمثل عبد العزيز الرفاعي والمكتبة الصغيرة؟ تلك التي وصفت بالصغيرة حجماً الكبيرة علماً وأدباً وفكراً وثقافة وفناً. هذه المكتبة العظيمة تراثاً وثراء هذا الرمز العلَم الشامخ الذي يرتفع في الجو وفي الذرى إنه من الرفاعي المثقف المفكر الأديب الرائد الذي حمل الراية الثقافية عالياً في السماء.. سماء الفكر والدين والأدب. إن ما خلفه لثروة هائلة من العلوم والآداب والفنون لا يحس بجدواها إلا من علم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولا يدرك مداها المعرفي إلا من أوتي الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ ولا يفهم معانيها معرفة وإدراكاً وثقافة وأدباً نثراً وشعراً إلا كما جاء في قول القائل:

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ... ولا الصبابة إلا من يعانيها

ولله في خلقة شؤون وهو أحكم الحاكمين.

عبد السلام الساسي

هو: عبد السلام بن طاهر الساسي؛ من أدباء مكة الظرفاء، ورواة الشعر الحجازي، الحفاظ المجودين، وصاحب (الموسوعة الأدبية) في تراجم أدباء المملكة العربية السعودية، ذلك العمل التاريخي الأدبي المبارك، الذي نذر (الساسي) نفسه فيه أن يجمع خلاصة السيرة الأدبية والتاريخية لأدباء هذه المملكة المترامية الأطراف والشاسعة البقاع.

عرفته في الستينيات الميلادية بمكة المكرمة: كاتباً أديباً في صحيفة (الندوة) و(عكاظ) يتناول رؤوس أقلام أدبية وتاريخية وتراثية، إما يترجم لكاتب، أو يضع نقاطاً على أحرف المواضيع الصحفية والاجتماعية والتاريخية، أو ينبش عن شخصية تراثية، فترى (الساسي) ذلك الأديب الفارس، يجوب أرض الشعر والكلمة والمقالة.

وكنت أراه كثيراً ما يقدم المحاضرين من أدباء مكة وأعلامها في منبر (نادي الوحدة) بحيوية يقدمهم، وفي همة علياء يقربهم في حضرة الشيوخ والشباب الذين تمتلئ بهم باحة النادي الصيفية، وساحته الشتوية الداخلية الأخرى؛ بالإضافة إلى ذاكرة جيدة واعية يتمتع بها عبد السلام الساسي -رحمه الله- فهو ينشد شعر (حمزة شحاته) في إتقان، ويروي شعر (العواد) في إخلاص، ويستشهد بالأمثال العربية والشعبية، ويبوح بالقصائد الشعرية المتفننة الأغراض والأجناس. وكان شيوخ الأدب يلقبونه براوية (العواد) المنافح عنه في حيوية وإخلاص.

وقد جلست إليه كثيراً في دارة شيخ الأدب والشعر الأستاذ (حسين عرب) -رحمه الله- وعرفه بي شخصياً الأستاذ الكبير أحمد عبد الغفور عطار -رحمه الله- قائلاً: وهو يقول (الجار وإن جار، فما بالك وجارك أديب).

كما كنت أراه في ساحة دار الأستاذ أحمد السباعي -رحمه الله- يزوره ويتعامل معه على طبع كتابه (الموسوعة الأدبية) في جزئية الأول والثاني.

وكان (الساسي) يُدانُ من قبل (السباعي) مادياً وهو يستصغر هذا الدين في سبيل إنجاز (الموسوعة الأدبية) أو دائرة المعارف في تراجم أبرز أدباء المملكة العربية السعودية، التي تفانى (الساسي) في طبعها وإخراجها إلى حيز الوجود، وكان يفخر بهذا الإنجاز الذي قدر له أن يقف إنجازه عند الجزء الثالث في حرف العين فحسب ؛ في حياة المؤلف -رحمه الله- وبعد وفاته.

وأعتقد أنه أنجزها كاملة إلى حرف الياء، ففي تقديم الأستاذ محمد حسن عواد لهذه (الموسوعة) الساسية في جزئها الأول ما يشير إلى ذلك، وأرجو باسم قراء هذه (الموسوعة) ممن يعرف عما تبقى من أجزائها، ولعل أقرباء المؤلف أعرف الناس بذلك -والله أعلم- وأصحاب دور النشر الكتابي يهتمون بإخراجها.

إن عمل (الساسي) في موسوعته: انفتاح معرفي في سبل معرفة الأدب العربي السعودي وأدبائه؛ ومن ميزات هذا العمل السيرة التاريخية لأعمال الأدباء الفكرية والمعرفية، والسيرة العملية لإنجازاتهم الاجتماعية في مرافق العمل الرسمي أو الاجتماعي والفردي.

وهناك ميزة أخرى زكية وطيبة في تلك النماذج المختارة من شعر أو نثر الأدباء المترجم لهم، يوردها (الساسي) في ختام التراجم، ولهذه النماذج أهمية لا إنشائية، ولكنها الأهمية المعنوية لتاريخ النص أو وجوده في (الموسوعة) فحسب ؛ لأن (الساسي) كان يطلب من المترجم لهم ذلك.

وقد شكا – رحمه الله – كثيراً من أن الكثير من الأدباء لم يتجاوبوا معه ؛ حتى في الترجمة الذاتية لأعمالهم الأدبية والاجتماعية، ونجد هذه الشكوى باختصار في مقدمته للموسوعة.

وعلى المستوى الأدبي الشخصي لي أسعدني أن يكتب (الساسي) -رحمه الله- كلمة في صحيفة عكاظ عن الدكتور طه حسين، وجدت فيها فرصة لمنازلته في صفحة (دنيا الأدب) التي كان الأستاذ سباعي عثمان -رحمه الله- يحررها بجريدة المدينة بكلمة عنوانها (الساسي وعمادة الأدب العربي) وسكت ولم يرد علي لطفاً منه رحمه الله.

وعلى المستوى العكسي كان (الساسي) يحب أن ينبش؛ كما قلت آنفاً، في قضايا الشخصيات التاريخية والأدبية، وقد كتب مرة في (عكاظ) أيضا مقالاً عن الشاعر المدني إبراهيم الاسكوبي، تناول فيه عرض الأستاذ محمد سعيد العامودي، وما كتبه عن هذا الشاعر

في كتابه (من تاريخنا) طبعة الدار السعودية للنشر والتوزيع، فما كان من الشيخ العامودي إلا أن قاوم (الساسي) في (عكاظ) على عهد رئيس تحريرها الأستاذ الصحفي والكاتب الأدبي عبد الله عمر خياط -طيب الله ذكره- بمقال مفحم.

نشأ عبد السلام بمكة المكرمة ودرس في مدرسة الفلاح بها ثم تخرج في مدرسة الفلاح بجدة وقد ولد سنة ١٣٣٥هـ الموافق للعام ١٩١٦م بالمدينة المنورة التي قدم منها إلى مكة المكرمة عام ١٣٤٦هـ وقد حفظ القرآن المجيد بالفلاح المكية. ومن أساتذته الشيخ محمد بن سالم وبالفلاح بجدة الأستاذ محمد حسن عواد الذي حبب إليه الأدب والشعر والنثر.

أما في حياته العملية فقد شغل عدة وظائف في مكة وجدة والأحساء وعاد إلى الحجاز سنة ١٣٦٠هـ فعين بديوان المحاسبة ثم رئيساً بمكتب مشروع توسعة الحرم المكي وكلاهما تابع لوزارة المالية بمكة المكرمة.

وميزة عبد السلام الساسي أنه محب للأدب والأدباء يحفظ آثارهم فهو راوية بالغ الحفظ وقوي الذاكرة حتى إن الأستاذ محمد علي مغربي في ترجمته للساسي بأعلام الحجاز يعتبره محباً بحماس للأدب والشعر في الحجاز والرائد في ذلك دون منافس حيث رزقه الله سبحانه وتعالى قوة الحفظ وصدق الذاكرة، وكان الأستاذ حمزة شحاته رحمه الله يعتمد على الساسي في حفظ شعره بعد أن عزف عن قول الشعر.

ويبدو لي أن ديوان حمزة شحاته الذي اعتنى بنشره الأستاذان عبد المجيد شبكشي ومحمد علي مغربي كان مرجعهما هو الأستاذ عبد السلام الساسي لذاكرته المعتمدة. وهذه هي ميزة الرجل في حياته الأدبية والثقافية يجمع شعر الشعراء ويقدم أدب الأدباء وناهيك بكتابيه: "الشعراء الثلاثة محمد حسن عواد وحمزة شحاته وأحمد قنديل" و"شعراء الحجاز في العصر الحديث" و"نفثات من أقلام الشباب الحجازي" الذي شاركه فيه الأستاذان علي حسن فدعق وهاشم يوسف زواوي. وقد صدر هذا الكتاب بمقدمة لشيخ الأدباء محمد سرور الصبان الذي طبعه ١٣٥٥هـ. والكتاب مقتصر على نشر آثار طبقة معينة من الأدباء كانت في ذلك الزمان تخطو خطواتها الأولى في الطريق الطويل لتظهر في دنيا الفكر وبين حملة الأقلام كما يقول

الأستاذ المغربي: ١/ ١٧٢ أعلام الحجاز في القرن الرابع العشر الهجري. وممن تحدث عنهم الساسي في النفثات الأساتذة أحمد عبد الغفور عطار وحسين عرب وحمد الجاسر وعبد الله عريف وغيرهم الذين كان لهم شأو كبير في عالم الأدب العربي السعودي، فيما بعد.

ولعل من المناسب ونحن نتحدث عن الساسي المحب للشعر والشعراء أن نالم بشيء من أدبه ألا وهو أبيات من شعره بعنوان "حي الشباب "(١):

في كل يوم لكم فتح وميدان	يرضي العلا بانياً والمجد عمران
لا مطلب أخرق في طيه نزق	ينزو به أحمق عقباه خسران
حيي الشباب الألى قادت عزائمهم	للمجد شعباً له بالمجد إيمان
حثوا الخطى في سبيل خَطْوها دأبٌ	وخَلَّفُوا الوهنَ للقوم الألى هانوا
صانوا الأمانة أدوها مقدسة	كأنهم في مجال السبق عقبان
فدوا بها الروح والأموال غالية	المال والروح في دنياك صنوان
يا سابقين إلى العليا لنا أمل	أن تسعدوا الشعب فالإسعاد إحسان

أما الموسوعة الأدبية لتراجم أدباء المملكة العربية السعودية فهي العمل الأدبي الكبير من أعمال الأستاذ الساسي. فقد ترجم فيه لحوالي ١٢٠ أديباً وشاعراً إذا قدرنا أن الموسوعة تضم أربعة أجزاء من الألف إلى الياء علماً بأن ما وصلنا هو ثلاثة أجزاء ينتهي بحرف الغين. وبعد فترة أخرج النادي الأدبي بمدينة الطائف الجزء الثالث من الموسوعة في أوائل التسعينيات الهجرية. وقد تفاوتت ردود الأفعال لهذه الموسوعة بعد صدورها من قبل الأدباء والشعراء بين مغتبط بها ومشفق على الساسي منها ومن هؤلاء الأستاذ محمد علي مغربي الذي رأى أن مثل هذه الموسوعة كان ينبغي لها أن يتفرغ لها أكثر من باحث.

قلت: لقد استطاع الأستاذ الساسي أن يخرج موسوعته منفرداً فهو فيها دقيق المعلومات جميل الفقرات بأسلوب سلس وخفة بيان مرتب على حسب الأحرف الهجائية مثقف الترتيب

---

(١) مجلة المنهل العدد الخاص لتراجم وأدب أدباء المملكة العربية السعودية المعاصرين ص٨٩٦.

والتنميق قابلَ وكاتبَ أكثر الذين ترجم لهم إن لم يكن قد عرفهم جميعاً معرفة دارية واجتمع بهم اجتماعاً شخصياً وعاصرهم تاريخياً. وإذا ما أردنا أن نشيد بعبد السلام أدبياً وثقافياً وعلمياً فناهيك أنه أحد أسرة الساسي بالحجاز الأغر حيث أن الشيخ الطيب الساسي أخوه كان رئيساً لتحرير جريدة القبلة في العهد الهاشمي ثم رئيسا لتحرير جريدة أم القرى بمكة المكرمة. والشيخ عبد الله الساسي أخوه كذلك، وعبد الله هذا كان مدرساً في مدارس مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة. وهما الأخوان اللذان كفلا عبد السلام الذي مات والده طاهر وهو طفل رحمة الله عليهم أجمعين. أما الدكتور عمر الساسي الأستاذ العريق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة فهو ابن أخي عبد السلام الطيب الساسي. وكما ترى فإن هؤلاء من أسرة علمية وأدبية ودينية وثقافية[1].

وقد كتب عبد السلام طاهر الساسي الكثير من المقالات الأدبية والفكرية ونشرها في كثير من الصحف السعودية كما شارك في إعداد الأحاديث والبرامج الإذاعية المحلية كذلك مما ينم عن ثقافته ومعرفته وبصيرته بالأدب والعلم. كما كتب عبد السلام رحمه الله الدراسة النقدية التي بحث فيها المسارات المختلفة للأدباء في أدبهم وللشعراء في شعرهم. وهي حصيلة من الإنتاج لم يتوفر جمعها في كتب وإلا لو نشرت لرأينا فيها علما وفهما ومعرفة غزيرة.

وفي يوم الأربعاء ٢٣/ ١٢/ ١٤٠١هـ - ٢١/ ١٠/ ١٩٨١م توفي عبد السلام طاهر الساسي ودفن بمكة المكرمة رحمه الله رحمة واسعة.

---

(١) راجع أعلام الحجاز: ٢/ ١٨٥،١٨٤.

عثمان حافظ

يعد عثمان حافظ ثاني اثنين شارك أحدهما الآخر في إنشاء وتكوين أول مطبعة للإصدارات في مدينة الرسول ﷺ.

تلكم هي مطبعة (جريدة المدينة) التي مضى من عمرها الزمني حوالي خمسة وسبعين عاماً أما الآخر فهو أخوه (علي حافظ) رحمهما الله.

ولم يقف السابق من الأخوين في المجال الصحفي فحسب بل كان ثمة سبق علمي تربوي يتمثل ذلك في إنشائهما وتأسيسهما لمدرسة (الصحراء) بالمسيجيد التي تبعد عن المدينة المنورة بحوالي ثمانين كيلاً، وذلك قبل أكثر من نصف قرن من زمننا هذا.

وهذان السبقان الأغران للأخوين من أل حافظ يذكر أولهما بالامتداد الصحفي لجريدة المدينة الذي يتمثل الآن في مطبوعات الشركة السعودية للأبحاث والتسويق بجريدة (الشرق الأوسط) و(المسلمون)[1].

لكنا نجد وكما حدث تماما أن عثمان – رحمه الله – هو القائم العملي في تلك المطبعة وبالتالي في رئاسته لتحرير (جريدة المدينة المنورة) أما أخوه علي فقد شاركه وأمده بما يكفل نجاح المطبعة وإصدارها العظيم (جريدة المدينة) علماً بأن علي الحافظ قد ترأس تحرير هذه الجريدة في فترة سابقة.

ولا يخفى في ذلك سر الفتوة وقوة البدن الذي يختلف عند عثمان عن أخيه علي رحمهما الله غير أننا نجد كذلك أن علياً حينما ولدت المدينة (الشرق الأوسط) نجده ذلك الماد بذراعيه لمعاونة ولديه هشام ومحمد علي حافظ لكن بحضور أخيه عثمان أيضاً الذي خصص لهما مكتباً في مقر الشركة القديم ومكتباً آخر حينما استقر بها النوى في مبناها العتيد.

---

(١) توقفت هذه الجريدة منذ بضعة سنوات.

وما أروع أن يزين هذين المكتبين رفوف مملوءة بالكتب الممتازة وذلك زينة فكرية لا محاسن جمالية بالمظاهر أو بالشكل.

وبما أن هذه الترجمة عن عثمان وحده رحمه الله فأقول بعد هذه الاستطرادة وبالله التوفيق: عرفته شخصياً في مقر مطبعة الأصفهاني في حي الشرفية القديم بجدة وذلك عام ١٣٩١هـ الموافق ١٩٧١م عندما كان الأستاذ محمد صلاح الدين مديراً لتحرير (جريدة المدينة) وكان الأستاذ عثمان أحد المؤسسين لها، ورئيس التحرير.

وتزامن ذلك مع ابتدائي الكتابة والإنشاء الصحفي في (جريدة المدينة) في ركن رسائل إلى المحرر.

وفي إحدى المرات عندما أصدر رحمه الله كتابه عن (تطور الصحافة في المملكة العربية السعودية) كنت في زيارة لأستاذي طيب الذكر محمد سعيد العامودي فأبدى ملاحظة حول فصل كتبه المؤلف عن جريدة (صوت الحجاز) في مكة المكرمة وعدد أسماء من رأس تحريرها كالغزاوي ومحمد حسن فقي وأحمد قنديل ولم يذكر الأستاذ العامودي ضمن من رأسوها فأوعز إلي بعرض الكتاب مُضمَّناً فيه تلك الملاحظة وما كان مني إلا أن فعلتها.

فكتبت مقالاً بهذا الصدد نشره لي الأستاذ عبدالله أحمد الداري المشرف على تحرير جريدة (عكاظ) عقب تخلي رئيس تحريرها الأستاذ عبدالله عمر خياط من منصبه، ولست أدري كيف بلغت بي الجرأة عندما أتيت مكتب الأستاذ عثمان في جريدة (المدينة) أخبره بالذي نشر عن ملاحظة العامودي وأن ذلك يعد إخلالاً بأمانة الكلمة وتاريخها.

والمدهش أن السيد عثمان صمت بحكمة ولم يتحدث عن الموضوع فعددت ذلك منه تلطفاً رحمه الله وذلك كله عندما أصدر طبعة الكتاب الأولى في أوائل السبعينيات الميلادية.

والشيء يذكر بالشيء أن السيد عثمان أدخل في صحيفة المدينة أبواباً ومواد صحفية موشاة بالثقافة والأدب والفن، فكان لصفحة الأدب محررها زميلنا سباعي عثمان رحمه الله وكان للصفحة الدولية الأستاذ أحمد محمد محمود الذي أصبح فيما بعد رئيساً للتحرير، وكان للفن الأستاذ علي خالد الغامدي، وللرياضة الأستاذ هاشم عبد هاشم.

ومن ضمن كتاب العواميد اليومية على عهد الأستاذ عثمان بالمدينة الأستاذ محمد علي موسى الذي كان يكتب عاموداً تحت عنوان (شمعة) وكان عامود (دقيقة من فضلك) من نصيب الأستاذ إياد أمين مدني[1] الذي أصبح فيما بعد مديراً عاماً لمؤسسة عكاظ الصحفية.

كما استكتب الأستاذ السيد عثمان حافظ كاتباً أسبوعياً ضمن كتاب الجريدة المحامي القانوني سمير شما، وحديث الأربعاء بقلم الأستاذ عمر محمد سعيد العامودي، نجل أستاذنا العامودي.

وكان ثم كتاب إسلاميون وعلى رأسهم الأستاذ الكبير أحمد محمد جمال رحمة الله عليه.

ولا يعني ما سردته عن عثمان حافظ أنه صحفي ورئيس تحرير لصحيفة فقط فلقد كان رحمه الله كاتباً أديباً وناثراً مجيداً وله في الأدب والفكر أكثر من كتاب وفي مقدمة ذلك كتابه التاريخي الوافي (صور وذكريات) عن المدينة النبوية المشرفة، مربع صباه ومغنى شبابه ومأواه السكني والتعليمي والتربوي وكتابه الأخر (صور وأفكار) وفيه شذرات من نثره وفكره وبأسلوبه السهل المبسط البديع.

ويجدر بالذكر أن من وراء مثل هذه الإنجازات المعنوية لأعلام أدبائنا الرواد وقوفهم الأول على استظهار وحفظ القرآن الكريم كالذي رأيناه في فكر أحمد جمال وأحمد السباعي وعثمان حافظ رحمهم الله جميعاً ومن هنا جاء سر الأصالة والنبوغ في العلم والعمل والثقافة الملتزمة.

ولعل لدروس المسجد النبوي الشريف في فكر عثمان حافظ رافداً آخر لإنجازاته المعنوية فقد حاز على إجازة علمية من أحد شيوخ هذه الدروس بالحرم النبوي ألا وهو الشيخ عبد القادر الشلبي.

كما كان من أساتذته بمدرسة العلوم الشرعية بالمدينة السيد أحمد فيض الأبادي وهو أستاذ شيخنا عبد القدوس الأنصاري كما سيأتي إن شاء الله في ترجمته ضمن هذه السلسلة عن أعلام أدبائنا الرواد السعوديين.

رحم الله الأستاذ حافظ فلقد كان نعم الرجل في فضله وهدوئه ووقاره وصمته عن القول وقت الصمت وحديثه حينما يحسن الحديث.

---

(١) وهو وزير سابق.

وكان نعم الرجل العامل في صمت وتصبر وهدوء وسكينة.

ونعم المؤسس لهذه الجريدة (جريدة المدينة) مع أخيه علي حافظ قال تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

محمد عبد الله مليباري

أبو عبد العزيز، محمد بن عبد الله المليباري هجرة، المكي مولداً ونشأة، وحياة عامرة بالكفاح التحصيلي العلمي، والعملي الدؤوب، تتلمذ في رحاب أم القرى، بين حرمها الآمن، ومدارسها العلمية والروحية، كالفلاح، والصولتية وناهيك بهما مثلاً. وقد حدثني أن أصله ينحدر من دار البافضيل في حضرموت.

ولد في مكة المكرمة سنة ١٣٥٠هـ الموافق لعام ١٩٣٢م وقد حصل على ليسانس الشريعة الإسلامية من الكلية الإسلامية بالهند سنة ١٣٩١هـ، عمل موظفاً في البريد بمكة المكرمة من العام ١٣٦٧هـ حتى وصل إلى منصب مدير منطقة مكة المكرمة للبريد عام ١٤٠٠هـ وفي عام ١٤٠٣هـ أحيل إلى التقاعد بناءً على طلبه لكي يتفرغ للأدب والعلم.

وقد انخرط في العمل الصحافي بالندوة ومجلة قريش والرياضة وعكاظ التي كان نائباً للمدير العام فيها يدبج المقالات والأبحاث والردود فقد اشتبك مع مجموعة من الحداثيين في الأدب وهو يرى أن الحداثة تقليعة خارجية أو بدعة من الكلام غير المفيد. ودارت بينه وبينهم معارك أدبية شرسة ليوقف أمرهم عند الحد الذي يراه أنه قد أقنعهم به، وجالت معركة أخرى بينه وبين المعاصرين من الحداثيين في اللغة العربية بين الحديث بها وبين العامية. في هذه المعركة تصدى أبو عبد العزيز رحمة الله عليه لهؤلاء الذي يريدون أن يتحدثوا باللغة العامية ويهجروا الفصحى البليغة.

وله أيضاً بحوث في الفكر الإسلامي جمعها في كتاب تبرز فيه الإشارة إلى المستشرقين ومغبة أخطائهم في التراث الإسلامي والعربي. وعلينا أن نتعرف على الأسلوب الذي اتخذه المليباري في معاركه الأدبية فنقول إنه أسلوبٌ حسن ليس فيه كلمات نابية أو صفات غير خلقية وإنما معاركه اتسمت جميعها بالقسوة المعنوية والفصيح من اللسان وهذا ليس من الأدب فحسب بل هو من حسن الخلق.

يعد الأستاذ (المليباري) من مؤرخي مكة المكرمة، كما يعد من صحافييها الأوائل، وهنا يحسن الربط المعنوي -والشيء يذكر بالشيء كما يقولون- بين هذين العملين الفكريين العظيمين، حيث إنه -رحمه الله- عمل فترة زمنية ليست بالقصيرة، مع شيخه الأستاذ أحمد السباعي -رحمة الله عليه- في صحيفة (قريش) التي تعد الصحيفة الاجتماعية الشائقة والرائعة، في مكة إبان النصف الأخير من القرن الرابع عشر الهجري تقريباً، وكان الأستاذ أحمد منشئها ورئيس تحريرها والمليباري مديراً للتحرير.

وللمليباري كتاب «المفصل في تاريخ مكة المكرمة» في أربعة أجزاء، ولكنه لم يطبع بعد بيد أنه أخرج كتابه الأخير (المنتقى في أخبار أم القرى) أهدانيه بخطه المميز، جزاه الله عني خيراً، وفيه للمتأمل نظرات بصيرة، مما ينبئ -بإذن الله- على ما سنراه في المفصل المذكور في تاريخ مكة، دراية لا أشك فيها مطلقاً، واستفادة (المليباري) من كتاب السباعي الذي أوجزه في تاريخ مكة، لكن التأصيل بادٍ من خلاله، بلا ريب كذلك.

أما المليباري الأديب فأراه من خلال ما كان ينشر في "يوميات" صحيفة (البلاد) على عهد رئيس تحريرها الأستاذ -طيب الذكر- عبد المجيد الشبكشي.

وفيها يتلمس الظواهر الاجتماعية في البيئة، وهذا يجرني إلى أدبه القصصي الروائي، مثل (وغربت الشمس- ط) العمل الأدبي الرائع، الذي يتغنى فيه (المليباري) بالأسلوب السهل المبسط الممتنع، والممتع كذلك.

والرجل بعد خفيف الروح، إذا شارك في ندوة ثقافية، بدا ذلك الروح المعنوي، من خلال الإلقاء بلسانه العربي المتأثر باللهجة "المكاوية" المرحة الدارجة -- اليوم.

وما ألطف أبا عبد العزيز، وهو يضحك، فيقهقه، ويسمع ضحكه المنبعث من تلك الروح الشفيفة وأعماقه النقية. وهو خلوق أديب، أريب، مُجالِسٌ فَكِهٌ لا يمل، كريم، ذو شيم عريقة، ومن تواضعه الأدبي ما كتبه في إحدى تلك المقالات، تحت عنوان (بنتي راسبة في التعبير). واستطراداً إلى ما أشرت إليه سلفاً من (تأريخيته) وخبرته الطويلة في قراءة التأريخ المكي الحجازي منه نجد أبا عبد العزيز، ذلك المفكر الإسلامي الذي يعنى بتاريخ أمته، فله جهود

مبذولة في الدفاع عن حياض هذا التاريخ، درءاً لما أثاره كثير من المستشرقين من أذناب الاستعمار، من شبهات حول هذا التأريخ المحكم.

ومن ذلك ما شارك به في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين في مكة المكرمة ربيع عام ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م للميلاد المسيحي، الذي جمعت أعماله المباركة في خمسة أجزاء مطبوعة، عن جامعة الملك عبد العزيز بجدة، في نفس العام. بالإضافة إلى تتبعه الدائب في هذا المجال من خلال صحفنا المحلية.

له أعمال قصصية (مع الحظ) مجموعة قصصية صدرت عام ١٩٥٥م و(غربت الشمس) رواية صدرت في عام ١٣٨٦هـ ومجموعة قصصية أخرى بعنوان (قاتلة الشيطان) صدرت عام ١٣٩٨هـ.أما الأبحاث والدراسات فله منها كتاب (المفصل في تاريخ مكة) وهو شامل كامل بيد أنه لم يطبع في حياة المؤلف، وصدر كتاب آخر للمليباري عنوانه «١٧ رجلاً من أصحاب النبي ﷺ» عام ١٤٠٠هـ الموافق ١٩٨٠م وفي عام ١٤٠٥هـ الموافق ١٩٨٥م أصدر المؤلف كتاباً يحمل عنوان «المنتقى في أخبار أم القرى» وهو اختيارات على تاريخ مكة المكرمة والبيت الحرام والكعبة المشرفة والحج من الوجهة التاريخية.

ويعتبر المليباري من أدباء أم القرى الكبار الذين أثروا الساحة الثقافية فيها بالعديد من المقالات والأبحاث والدراسات والقصص والروايات إلى أخر ما هنالك من الأعمال الأدبية. كما أنه صحفي كبير وأستاذ لكثير من جيل الشباب آن ذاك.

ويبدو أن الأستاذ المليباري له كتاب أخر عن أم القرى سماه (مكة بين الماضي والحاضر) صاغه بأسلوب دراسي متوسع يعكس من خلاله حقائق تاريخية وأحداثاً مختلفة عاشها البلد الأمين عبر تاريخه الطويل وقد رجع فيه إلى المراجع القديمة والمصادر العتيقة مثل: «تاريخ مكة» للفاكهي و«تاريخ مكة» للتقي الفاسي، و«الجامع اللطيف في فضائل مكة» لجمال الدنيا والدين محمد بن أمين بن ظهيرة. هذا بالنسبة للتاريخ القديم أما التاريخ المعاصر لمكة المكرمة فقد رجع فيه المؤلف رحمه الله إلى كتاب «مكة في القرن الرابع عشر الهجري» للشيخ محمد عمر رفيع الذي تحدث فيه عن مهنة الطوافة والمطوفين والحالة الصحية بمكة وإمارة الشريف عون

الرفيق، ويعلق الأستاذ المليباري على هذا الجزء من كتاب الرفيع قائلاً: ويكاد يكون هذا الفصل الذي جاء في كتابه عن ولاة مكة والتاريخ السياسي فيها.

ومن الكتب الحديثة التي عاد إليها المليباري كتاب «من تاريخنا» للأديب والشاعر الشيخ محمد سعيد العامودي اختار منه ثلاثة فصول أولاً: أحداث تاريخية في الحج، ثانياً: من تاريخ الصحافة في بلادنا، وثالثاً: من شعرائنا في الجيل الماضي. أما كتاب المؤلف نفسه والذي أشرنا إليه سابقاً والمعنون بالمفصل في تاريخ مكة فقد اختصره المؤلف في أربعة مواضع: عمارة المسجد الحرام عبر التاريخ، ومشروع الملك عبد العزيز لعمارة وتوسعة المسجد الحرام، والمنائر في المسجد الحرام بعد التوسعة السعودية، وبئر زمزم في شكله النهائي. وهناك كتب أخرى لم يسعف المؤلف أن ينقل منها لكثرتها وتعددها مثل كتاب خلاصة الكلام في بيان أمراء البيت الحرام للسيد أحمد بن زيني دحلان وغيره. ومن خلال ما كتبه أستاذنا المليباري في كتبه عن مكة المكرمة تستشف لنا قدرته التاريخية التي تناول بها كتبه عن مكة المكرمة. وكيفية استرساله فيها التي تنم عن صبرٍ وجلد بلا كلل أو ملل.

وقد تناول تاريخيات أخرى عند العرب مثل كيف كانوا يؤرخون قبل الإسلام ومتى وضع أول تاريخ للعرب والمسلمين، وهل كان للعرب تقويم تاريخي قبل الإسلام. ويعد الفصل الذي كتبه عن المؤرخ الأزرقي هو تنبيه منه رحمه الله لأول عربي مسلم كتب تاريخاً محلياً لمكة المكرمة. كما اعتبر المليباري المؤرخ الفاكهي المؤرخ المحلي الثاني لمكة المكرمة ومعلوم أن الأزرقي له تاريخ عريض وكبير لأم القرى. لا يقل شأناً عما كتبه التقي الفاسي والفاكهي وهو صاحب القرى لقاصد أم القرى. ولم يكن ذكر كتاب السيد أحمد زيني الدحلان عن أمراء البلد الحرام من قبل المليباري ذكراً ماراً ولكنه يعود فيتحدث عنه قائلاً أن المؤلف فيه بحث عن تاريخ مكة السياسي في إيجاز وشمولية وقد كان كما قال محمد سعيد عبد المقصود: والمعروف عن الدحلان أنه كان عالماً دينياً. ولم يفت مؤرخنا المليباري ذكر مدينة جدة التي اختلف بعض أدبائنا هل هي بضم الجيم أم بكسرها أم بفتحها ويبدو أن أبا عبد العزيز قد اختار الضم كما قالها الشيخ عبد القدوس الأنصاري.

قضايا كثيرة طرقها الأستاذ في تاريخه عن مكة سواء كان في المفصل أم مكة بين الماضي والحاضر أو في المنتقى فقد أبرز في كلها ما يتعلق لا تاريخياً فحسب وإنما اقتصادياً وجغرافياً وأدبياً كذلك.

توفي أبو عبد العزيز رحمه الله سنة ١٤١٠هـ.

محسن باروم

هذا الرجل أديب تربوي ومفكر إسلامي. ولد في أم القرى موطن الإيمان ومتنزل القرآن بالحجاز الأغرّ في ٢٧ من شهر ذي الحجة سنة ١٣٤٧هـ، أتْمَم دراسته العامة في مدارس الفلاح بمكة المكرمة، التي خَرّجت العلماء والأدباء والوزراء في المملكة العربية السعودية، لكنه رحل إلى مصر فالتحق بالأزهر الشريف وتخرج فيه في محرم الحرام من سنة ١٣٦٩هـ. فاشتغل مذيعاً بمديرية الإذاعة السعودية بمكة أول تأسيسها ردحاً من الزمن لكنه آثر الانتقال إلى مديرية المعارف قبل تحويلها إلى وزارة سنة ١٣٧٣هـ. وقد تقلب في عدة مناصب بها.

لكن هناك حدثاً مُهماً في حياة الأستاذ باروم التربوية والتعليمية ألا وهو إنشاء جامعة الملك عبد العزيز الأهلية، شارك الباروم فيه حتى عين أميناً عاماً لهذه الجامعة وهو دورٌ من أدوار عمله التعليمي والاجتماعي والفكري في سبيل نشر التعليم الجامعي بين أبناء الجيل أو الأجيال.

وكان قد اختير مستشاراً ثقافياً في أوروبا مطلع سنة ١٣٨١هـ الموافقة سنة ١٩٦١م لمدة ثلاث سنوات للإشراف على طلاب البعثات العلمية في مختلف الجامعات الأوروبية بعد ذلك عُيّن مديراً عاماً للتعليم العالي قبل إنشاء وزارة لهذا التعليم سنة ١٩٧٥م.

إن محسن أحمد باروم من المفكرين السعوديين القلائل الذين ساهموا وبذلوا جهوداً بانية في سبيل التعليم والفكر التربوي والأدب العربي السعودي والتراث العلمي الثقافي داخل هذه المملكة الفتية، وفتحوا لطلاب العلم والمعرفة والثقافة أبواب كل مجال من هذه المجالات، بالكتب والمادة والجهد الفعلي العملي، إذ إن حبه لكتب التراث العربي والفكر الإسلامي قديم في حياته حيث بدأ ذلك يسري في تفكيره منذ أن كان يطلب العلم في مصر العظيمة، ولقد كان نظام الحياة في دار البعثات السعودية بالقاهرة يصرف لكل طالب فيها سنوياً بدل كتب لشراء المصادر والمراجع العلمية التي يحتاجها في فهم مواده الدراسية، فكان محسن الطالب يستغل

هذا المال في شراء أمهات كتب الأدب والتراث العربي ويزيد على ذلك مما يرسله أهله بالحجاز فأخذ في السنوات الأربع التي قضاها في دار البعثات يقتني كثيراً من مصادر التراث الفكري العربي والأدب الإنساني.

وعلى مدى السنين تكونت لدى المفكر الأديب الباروم في داره بجدة مكتبة عامرة بالعلوم والآداب والفنون أوصى بشأنها قبل وفاته -رحمه الله- أن توهب لمدرسة الفلاح بمكة المكرمة.

وهناك جزء عملي آخر من حياة الباروم صرفه في كتب العلم والأدب والمعرفة والثقافة.. وهذا الشأن يكمن في تأسيس دارين للنشر والتوزيع ألا وهما "دار الشروق" و"عالم المعرفة" وكلتا الدارين مقرهما بجدة.

وهنا نسير مع الأستاذ باروم في حكايته مع النشر حيث يقول: «حين بدأت عملي في مؤسسة الشاطئ للصناعة والتجارة والمقاولات مع أخي وشريكي العزيز السيد علي حسين عقيل رحمه الله كنت أحس بغربة روحية في أجواء ذلك العمل لبعده عن خبرتي وتجاربي الحية في مجالات التربية والتعليم ونشر الثقافة والمعرفة على نطاق شعبي واسع، حتى شاء الله أن يزور أخي الكبير الأستاذ محمد المعلم مدير عام دارة الشروق للنشر والتوزيع والطباعة في بيروت مدينة حدة لمتابعة أعماله مع أصحاب المكتبات فيها فجرى حوار يتسم بالسخونة والانفعال بيني وبينه أكد لي عدم رضاه على الاشتغال بعمل لا يمتُّ بصلة إلى مجال تخصصي العلمي وخبرتي التربوية والثقافية وحثني على ولوج ميدان الكتاب العربي -نشراً وتوزيعاً- وأكد لي استعداده التام بتزويدي بألوان الكتب العلمية والثقافية العامة والمتخصصة من مطبوعات داره ودور النشر العربية الأخرى وكان ذلك إيذاناً بالتفكير الجدي في إنشاء دار نشر سعودية في جدة واتخاذ الخطوات النظامية بعدها لظهور دار حملت اسم دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة تيمناً باسم رصيفتها الكبرى في بيروت وتأسياً بمناهج العمل التي تسير عليها تلك الدار التي أخذت على عاتقها نشر كتاب التفسير العظيم «في ظلال القرآن» لمؤلفه الكبير الشهيد سيد قطب رحمه الله وغيره من مؤلفات سيد قطب وأخيه المفكر الإسلامي المعاصر النابه الأستاذ محمد قطب فكان أن رأت دار الشروق بجدة النور في شهر رجب من عام ١٣٩٤هـ لتنضم إلى قافلة دور النشر السعودية الرائدة في مجال صناعة الكتاب العربي السعودي بالمنطقة الغربية وهي آنذاك.

١. مكتبة الثقافة في مكة.

٢. والدار السعودية للنشر والتوزيع بجدة فقط.

وأخذت دارنا الوليدة تحبو في مجالها المتخصص ببطء وتؤده تدرس معطيات سوق الكتاب ومشكلاتها وانعكاساتها على تطور صناعة النشر سلباً أو إيجاباً وعلاقات الناشر بالمؤلف والطابع والموزع»[1].

حيث شاركه في دار الشروق مجموعة من الدارسين والباحثين السعوديين، أما الأخرى فقد صرف جهده وحده له. وقد نجح الباروم في عمل هاتين الدارين للنشر.. نشر الكتب وتوزيعها حيث استكتب عدداً من المؤلفين والباحثين الأكاديميين وبالأخص من جامعة الملك عبد العزيز بجدة التي غدت فيما بعد جامعة كبرى وصرحاً عظيماً من صروح العلم والمعرفة في المنطقة. والأستاذ محسن يُعد من رواد الأدب والفكر والمعرفة والثقافة بالحجاز باعتبارات جمة فهو مشارك في الحركة الأدبية والصحافية أولاً في صفحات الأدب والشعر والنقد والبيان.

وهو متعاون في كتابة المناهج والمقررات العربية والأدبية والشعرية في التعليم العام. وهو مساهم في حركة نشر الكتاب لا الأدبي فحسب بل الثقافي والعلمي كذلك خلال ربع قرن من الزمان وبالأخص في سنيّ الثمانينيات والتسعينيات من القرن العشرين الماضي وجزء من السبعينيات أيضاً فيه، وقد أجريت تحقيقاً صحافياً بجريدة "الشرق الأوسط" حول دار الشروق السعودية وعالم المعرفة وما نشرته من كتب ومؤلفات فوجدت من ذلك ما يربو على ستمائة كتاب ومؤلف ومقرر جامعي. وهي إحصائية عملتها مع أمين الدارين الأستاذ محمد الرمحي، إن دلت فتدل على الجهود المضنية التي بذلها الأستاذ في جوه الخاص، يستقرئ ويستكتب ويقرر ومن ثم ينشر ثم يوزع النسخ البالغة المئات أو الآلاف على المكتبات المحلية والإقليمية، وكان توزيع الكتاب هاجسه الأول فهو يهدي العلماء والأدباء والأصدقاء وبعض طلاب العلم من تلامذته وأصدقائه، ثم يصدر أمره بتوزيعه بشكل عام لدور النشر والمكتبات.

---

(١) من كتاب ألوان من الأحاديث مقالة حكايتي مع النشر ص ١٥٤، الناشر عالم المعرفة في جدة.

وقد كان يشتغل بذلك في مكتبه بجدة صباح مساء يستقبل فيه الغادين والرائحين من العلماء والناشرين وأصحاب الحاجة الكتبية والمادية. وكان مسؤولاً عن وقف السادة العلويين بالداخل طلاباً وسواهم. بعد ذلك كله تفرغ الأستاذ باروم لعمله الإنتاجي الأدبي والتربوي والفكري فأصدر عام ١٤١٩هـ-١٩٩٨م «في موكب الزمن» كتاباً يحتوي ذكرياته وشجونه التربوية وعمله بالتعليم العام والعالي دراسياً وإدارياً في تسعة عشر فصلاً ضمت ٢٥٥ صفحة من القطع العادي في مجلد لطيف. وفي عام ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م أصدر الباروم كتاباً تحت عنوان «من أعلام التربية والفكر في بلادنا» يضم سير وتراجم ١٧ من رجال التربية والتعليم والأدب والعلم والمعرفة. أما كتاب «ألوان من الأحاديث» فقد احتوى أكثر من ٣٥٠ صفحة عن دراساته ومقالاته في الإسلاميات والتربويات التعليمية والتاريخ والتراجم والثقافة والعلوم.

نقتطف منه نبذة من مقالة كتبها عن صديقه أحمد عبيد إلى دار الخلود يقول فيها: «قرأت نعي أخي الكبير والصديق العزيز السيد أحمد عبيد في صحفنا المحلية فاسترجعت وقلت لنفسي هذا مصير كل حي ولا أحد باق منا في هذه الدنيا طال به العمر أو قصر.

وعدت إلى ذاكرتي التي اختزنت في تلافيف وعيها الباطن صوراً من المشاهد وألواناً من الذكريات وضروباً من الخواطر عما اكتنف حياة السيد أحمد عبيد من مصاعب وعقبات استطاع أن يذللها بقوة عزيمته وصلابة إرادته ولماحية ذكائه وحسن تأتيه للأمور حتى استطاع أن يبني ثقافته العامة ويُنمّي حصيلته الفكرية على أيدي شيوخ المسجد النبوي الشريف في فترة الأربعينيات من القرن الرابع عشر الهجري.

ولما اضطرته ظروف حياته المعيشية إلى خوض غمار الحياة العملية انتقل إلى جدة يدرس فن اللاسلكي في مدرسته حتى إذا حذقه أرسل إلى الإحساء ليفتح أول مكتب للبرقيات فيه.

وأخذ السيد أحمد عبيد بما وهبه الله من ذكاء وقوة عزيمة وحسن إدراك يشق طريقه إلى مختلف الوظائف الحكومية.. إلى أن يقول: فاجتذبته ميوله الأدبية إلى دنيا الصحافة يحقق فيها أمنيته الغالية لخدمة وطنه العزيز عن طريق الكلمة والمقال والتوجيه الصحفي الصادق يبتغي من وراء ذلك كله أداء أمانة المواطنة المؤمنة والنصح لله ولكتابه ولأولياء الأمر فينا. فكانت

مقالاته التي نشرها في صحيفتي حراء ثم الندوة تحت عنوان «رأي من الشعب» تفيض بحرارة الشعور ونبض الوجدان ونزعة الإصلاح لما يدور حوله في المجتمع من قضايا ومشكلات تتصل بشؤون التربية والاقتصاد والاجتماع والإدارة والعلم والثقافة. فكان لتلك المقالات صداها القوي في أفكار ونفوس المثقفين وجمهرة الناس فأحبوا السيد أحمد عبيد وأجلُّوا كتاباته الصحفية التي تعكس حبه الصادق للإصلاح الاجتماعي في مختلف صوره وأشكاله»[1].

وهكذا نرى أن الباروم كان يُزامل ويُصادق الأُدباء أمثاله فهو منهم يُعد ويعتبر لا بحكم المزامنة وحدها ولكن بالمشاركة والمتابعة والكتابة أيضاً.

ومن يستقصي القراءة في كتبه المذكورة يجد هذا الحديث صادقاً منطبقاً عليه.

في كتابة باروم هناك الأسلوب والطرح والفكرة والهدف؛ كل هذه العوامل تجعله من الأدباء الكُتّاب والكُتّاب الأُدباء. وفي ذلك هــو مثل الرواد كعبد المجيد شبكشي وأحمد علي أسد الله وإسحاق عزوز الذين كانــوا يشتغلون بالأدب إلى جانب العلم والثقافة والمعرفة أو أنهم يؤطرون العلم والثقافة بالأدب وأساليبه الفنية الكتابية المنتظمة على أساليب الأدب التراثي والحداثي معاً. هكذا شغل محسن باروم معلوماته وثقافته وأفكاره بالأدب الذي كان الرعيل الأول من أدبائنا قد أختطوه بالعمل والكفاح حتى غدا مشرقاً وباهياً ومنوراً.

وتوفي محسن أحمد باروم سنة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م.

---

(١) المصدر السابق صفحة ٩٩، ١٠٠.

عبد الله بلخير

قبيل سنة من الزمان(1) -وفي مثل هذه الأيام- أفل نجم من نجوم السياسة والأدب والفكر، ذلكم هو الأستاذ عبد الله عمر بلخير. هذا العلم الذي نبغ مبكراً -من حضرموت- ودرس في مدارس الفلاح بمكة، وتعلم في الحرم المكي ثم أكمل دراسته الجامعية ببيروت لبنان. ولما عاد من رحلته العلمية تدرج في المناصب الكبرى مع موحد الجزيرة العربية والملكين سعود وفيصل -رحمة الله عليهم جميعاً-.

وقد اختصه الملك عبد العزيز لنبوغه منذ صدح بشعره وهو في "الفلاح"، وعمره آنذاك لم يتجاوز العشرين ربيعاً! يقول بلخير:

وعيد جلوس العاهل المنقذ الذي	تميس به (نجد) وتفديه (يثرب)
فأنعم به يوماً، نذكراه كلما	يردده (التاريخ) يزهو ويعجب
هو النعمة الكبرى على العرب، كيف لا	وفيه ابتدأ عصر (السعود) المذهب.. إلخ

فكان لهذا القصيد صداه في نفس الملك، مما جعل لبلخير حظاً مسعداً في قابل الأيام.

إن شعراءنا الرواد -كما قلت أكثر من مرة- شرفوا بالعلم والأدب وعمق الاطلاع، وحب الشعر وكتابة المقالة الأدبية فألموا بأنواع من الثقافة، الصحافي والتاريخي والإعلامي والاجتماعي وبقية أنواع الثقافة الأدبية التراثية والفكرية والمعرفية. وبهذه المعرفة بدؤوا عصر النهضة الفكرية في هذه الجزيرة العصماء. كمن خطا في الطريق الموصل أول خطواته على الرمل!! وشق في السبيل أول سكة على الأرض!!.

ولعل الشاهد على ما أقول كتاب «وحي الصحراء» لعبد الله بلخير نفسه وصديقه الأستاذ المأسوف عليه محمد سعيد عبد المقصود خوجه الذي توفي شاباً -عليه رحمة الله-. هذا الكتاب

---

(1) عام ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

عبارة عن منخول الفكر الأدبي للمملكة حيث جمع شعراً ونثراً لأكثر من عشرين أديباً شاباً من شباب وأدباء هذه البلاد. فكان من أول الثمرات من غراس المعرفة والأدب والثقافة والفكر في تاريخ الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية، إلى جوار كتابي الأستاذ محمد سرور الصبان «المعرض» و«أدب الحجاز».

هذه الثمار المعنوية كانت بركة علمية وإعلامية وأدبية على أدب الأدباء وكتابة الكتاب إلى يوم الناس هذا. وإلى جانب هذه القيمة الأدبية والمعرفية هناك قيمتها التاريخية والتراثية والعلمية أيضاً. فهذه الكتب.. كتب الأدب للرعيل الأول السعوديين هي الأساس التأليفي في ذلك السياق الكتابي والأدبي لإنتاج شعراء وكتاب المملكة في عصرها الذهبي منذ الأشراف ومروراً بعهد آل سعود إلى يومنا هذا. لقد ازدهر الأدب والشعر.. أدبنا وشعرنا على أيدي ذلك الرعيل، ومن ثم كمل المقام الأدبي وانتشر على أيديهم ومعرفتهم ونشرهم له من خلال صحف الحجاز ومجلاته مثل: (صوت الحجاز والمنهل). وكان هذا الأدب الداعم الرئيسي لانتشار الصحافة بصفة عامة.

ومن الجدير بالذكر إنشاء "المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر" التي تشكل أول وزارة إعلام سعودية والتي كان أول وزير لها أستاذنا بلخير -رحمه الله تعالى- وذلك في أوائل ستينيات القرن العشرين الماضي. وكان من ريادة بلخير في هذه المؤسسة الإعلامية صدور نظام المؤسسات الصحافية بعد أن كانت فردية التأسيس، ونظام المطبوعات المتصور إعلامياً. وقد حقق بلخير بذلك نواة الفكرة الإعلامية وطبيعة مسارها وأسس وسائل الإعلام ومبادئها الرسمية والعلمية، وخلق جواً جديداً للصحافة والنشر والمذياع، بحيث يتماشى والطريقة الإعلامية في مجتمع محدود الإمكانات المادية. كما أن الإذاعة تأسست قبل التلفاز وكان لابد لها من تمهيد نفسي للتلفزيون في أسلوب موحي بالعفوية الأدبية الذي لابد منه في أول طريق تسلكه الوزارة الجديدة.

عبد الله عمر بلخير، له شعر على نحو المطولات من الأشعار سماها بـ "الملاحم" التي عبر فيها عن الإسلام وأمجاده، والشعر وعوالمه، والإنسان ومواهبه وأشواقه وعن العرب وجزيرتهم. وفي ذلك كله تحدث عبد الله بلخير الشاعر عن القيم الأصلية عند الإنسان العربي

المسلم إيماناً وشهامة وفكراً. وبهذه القيم الأصلية في شعره تألق بين الأدباء والشعراء الفنانين بالأدب والشعر والفكر، وكان للوزارة دور في تحنيكه سياسياً ودبلماسياً. بل إن مناصبه العملية زادت من فنه الإعلامي والأدبي والفكري حيث عرف الكثير من الدبلماسيين الأدباء الشعراء مثل عمر أبي ريشة وعمر بهاء الدين الأميري ويحيى حقي.

وهذه المعرفة زادت من وجاهته الشخصية الإنسانية وتقديره لزملاء الفكر السياسي والقلم الأدبي وتبادل وجهات النظر الشعرية والدبلماسية، وإشاعة جو أدبي وإعلامي مرموق، يصولون ويجولون من خلاله بالشعر والأدب والأفكار.

إن عبد الله بلخير مفكر سياسي، ومحنك دبلماسي، عبر عن فكره هذا بالعمل، وحنكته بالفعل بالثقافة الغزيرة والمعرفة العميقة. ولا بد من القول في تكوين ثقافته ذكر التلميذ بلخير في كتاتيب ومدارس مكة المكرمة في بداية القرن العشرين والقرن الرابع عشر الهجري. فتلك صفحات مشرقة في فكر التلميذ، ومعلومات مستجدة في ذاكرته؛ وقيم معنوية في قلبه وشعوره على الرغم من صغر سنة إلا أن المعنويات تتكون وتبدأ في الصغر ومبتدأ العمر وهذا ما يميط اللثام عنه علم النفس والتربية الحديثين، إذ إن العقلية في هذه السن غضة والذاكرة طرية، فلا بد من أن يتأثر الصبي الصغير بما حلوه، ويكتنز من المعلومات ما يسهل معرفته ويمكنه من حفظه. فهو صبي ذكي وتلميذ نابه. يقول في ذكرياته عن المدرسة الأهلية للأطفال في محلة الشبيكة بمكة: هي عبارة عن مدرسة تحضيرية أو تمهيدية للأطفال، ويديرها الشيخ الحافظ لكتاب الله: محمد أمين الماحي، وكان التعليم فيها مقتصراً على قراءة القرآن الكريم ومبادئ العلوم وقد التحقت بهذه المدرسة عام ١٣٤٦هـ-١٩٢٦م[1]. ثم يقول: «وقد اهتم بي مدير المدرسة الشيخ محمد أمين الماحي، فكان يستبقيني إذا انصرف الطلاب عند أذان العصر ساعة كاملة ليستمع إلى ما أحفظه يومياً من القرآن الكريم مجوداً»[2].

---

(١) عبد الله بلخير يتذكر – الناشر عبد المقصود خوجه جدة ص١١، ص١٢.

(٢) عبد الله بلخير يتذكر، ص١٢.

وفي اهتمام مدير المدرسة ببلخير الصبي علمياً ما يدل على نباهته في تلك السن الباكرة ثم تواصلت المراحل الدراسية عبر المدرسة الصولتية ومدرسة الفلاح والحرم بمكة. وتلك هي الاهتمامات الثقافية لفكر عبد الله بلخير.

ومن هنا كانت الاستعدادات المعنوية والمواهب المعرفية التي سايرته صبياً فشاباً يقول الشعر ويتأدب الأدب ويتخذ منهما سلاحاً ثقافياً لتقوية شخصيته الفكرية ويثبت في معركة الحياة العامة من أجل المستقبل العملي والفكري والسياسي.

في مزاياه وصفاته ونعوته لا يختلف بلخير الأديب الشاعر عنه كمفكر سياسي حتى ثقافته العملية ومعرفته الدراسية، إنما هي أجزاء لكل واحد هو العلم الكبير والأديب والشاعر "شاعر الأمة عبد الله بلخير والسياسي الوزير". فشخصيته عبقرية المورد وفلتة من فلتات العصر الحديث في الجزيرة العربية والتاريخ والثقافة بمختلف ألوانها وأنواعها. فكان لذلك نصيب التألق والعرفان وتبوء الصدارة في العمل الذي اشتهر به في هذه البلاد الكريمة كما شكل ذلك ثقافة وفكراً نابغين لشخصه، ومكانة جيدة بين العارفين في وسطه الاجتماعي الكبير، ويظل بلخير القيمة والقمة، والمكانة المعنوية، في هذا المجتمع وهذه الأمة الكبرى التي طالما تغنى بأمجادها وتاريخها العريق. ولكن الأبقى من ذلك ما خلفه من ذكر بفضله وفكر بعلمه، وعمل وفعل كبيرين، ولقد كان لتمكنه من العلم والمعرفة دور في شخصيته العملية، وكان لذلك عظيماً ولكن ولا غرابة في هذا، فلقد جالس الملوك والأمراء والعلماء وقادة الفكرة والعلم والسياسة. ولذلك أثره البين في سلوكه وسيرته يسجله التاريخ بأحرف من نور.

لقد كانت النزعة الفكرية والثقافية هي في منطقه اللغوي وفي الحوار مع الآخر. لذلك تجده مقنعاً بكلامه وفصيحاً بلسانه وبليغاً بمنطقه؛ فحين تسأله عن أمر كان الجواب حاضراً ببداهة سريعة وعفوية مريحة. ولقد يكون السؤال المعرفي له غير متكامل إلا أن فطنته تجبر خاطر السائل ليجد الجواب كما أراد منه. وهذا من مستلزمات العباقرة وذكائهم الخارق.

وللثقافة صلة بذلك وعروة وثقى به لأنها تكسب جِدَّةً للفطنة ومعرفة للبصيرة وذكاء جيداً للذهن وإدراكاً واضحاً للعقل الإنساني لديه، وعلى الرغم من هذه القيمة العقلية إلا أن صاحبها عبد الله بلخير لم يكن يستخدم إلا الألفاظ المختصرة والكلمات الدالة إدراكاً منه بحسن البيان ولباقة اللسان وهذا في الواقع الأدبي ما يسمى بالإيجاز البلاغي والفصاحة البيانية.

اقرأ ما يلي من كلامه:

«ومعروف أن علوم الإسلام قد حفظها علماء الأقطار والأمصار، وأصبحت وشائج يربط بعضها بعضاً والمنتمون إلى الإسلام بها استنوه تلبية لما جاء في كتاب الله تعالى من وجوب القراءة في ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وغيرها من الآيات في تفضيل العلم والندب إليه ووجوب نشره وفضل حملته، ثم في السنة الشريفة من الحث على طلب العلم ولو في الصين وتفضيل العالم على العابد، ثم في تلك السلاسل المتفق عليها من الرواية والتلقي والتدوين والتسجيل والحفظ الذي ينفرد به المسلمون عن جميع شعوب الأرض، والذي نشأ عنه علم الحديث وأسانيده ورواته وتعديله وجرحه وإجازته، وغير ذلك من ذلك الخضم المتلاطم، بما اشتهر به المسلمون في إعطاء العلم حقه من الدراية والعناية والتمحيص والاستقراء والإملاء والإجازة والنشر"[1].

فأنت تجد معان كثيرة في هذا النص، وتجد أفكاراً كباراً فيه، فسطوره قلائل لكن قيمته العلمية والنفسية والروحية جديرة بالذيوع والانتشار والوعي الطويل الحافظ ذلك أنه ضم العديد من العلم الشرعي والثقافة الدينية والفكر الإسلامي. وبماذا؟ الجواب: بأسلوب خفيف الظل، وطريقة مبسطة وروح خفيفة. مما يعني بتعدد معلوماته ومصادرها المعرفية من تراث ثقافي وعلم حديث واستقراء واسع فحينما كان شاباً طالباً بالجامعة الأمريكية في بيروت، ينتهز فرص التعرف على الأدباء ورجال الصحافة الأعلام مثل الأمير شكيب أرسلان والكاتب المشهور أمين الريحاني وإضافة إليهم مفتي لبنان يومئذ الشيخ حسن خالد ودولة الرئيس رياض الصلح ومن يفد على بيروت من رجالات سوريا. وكان يرى مجلس الأمير في مكتب حسين العويني، نافذة كبيرة للتطلع إلى باحة الأدب العربي خارج الجزيرة العربية، حيث يعتبر لبنان من مصادر الأدب والثقافة، والصحافة. وغدوت -كما يقول-: أغبط نفسي على هذه النقلة التي خرجت بها من المحيط الاجتماعي الضيق في مكة إلى مثل هذا المحيط الزاخر والصاخب[2].

---

(١) من كتابه: عبد الله بلخير يتذكر، ص٣.

(٢) عبد الله بلخير، ص٨٣.

لقد فتحت بيروت للرجل بوابة عريضة للمعرفة على الحياة العلمية والعملية والأدبية والإعلامية في زمن النهضة العربية وبدء حضارة العرب والمسلمين في العصر الحديث، وذلك بعد خروج الاستعمار من أكثر دولهم. وأصبح لهم إعلام مميز وأدب مستقل وثقافة خاصة بهم، وانتشرت مدارس ومعاهد وكليات التعليم في أراضيهم. وكان لذلك كله أثره على بعضهم البعض. وما الحجاز إلا من هذه البلدان الشادية بالأدب والعلم الحديث بعد فترة ركود دامت طويلاً من الزمن ولذلك رأى الملك عبد العزيز رأي من قال بضرورة إنشاء مدرسة تحضير البعثات بعد أن عين السيد محمد طاهر الدباغ مديراً للمعارف في عام ١٣٥٥هـ وحقق بذلك الملك عبد العزيز رغبته الملحة في إشاعة جو جديد من الثقافة في الحجاز. فكانت مدرسة البعثات النواة للنهضة الكبيرة في المملكة العربية السعودية. وكانت مصر أكثر البلدان المجاورة لاستقبال طلاب هذه المدرسة لمواصلة التعليم في المراحل الجامعية العامة والعليا. وتخرج في جامعاتها وكلياتها العديد الذين غدوا بعد تخرجهم، وأصبحوا مسؤولين كباراً في الدولة العربية السعودية.

وعندما كان بلخير في بيروت وهو يتابع الحركة الأدبية والثقافية على أنهر الصحف والمجلات استرعى انتباهه مجلة أدبية اسمها "المكشوف" كانت في ذلك الوقت تنشر سلسلة من المقالات النقدية المثيرة الحادة لنفر من أدباء الشباب اللبنانين هاجموا بها كتاباً مصريين كباراً يتهمونهم فيها بالسطو على إنتاج لأدباء فرنسيين. فما كان منه إلا أن استطلع الموضوع فذهب إلى مقر المجلة ليتعرف على ملابساته من فم رئيس تحرير المجلة واسمه "فؤادحبيش" ودار بين الرجلين أو الشاب الأديب الطلعة عبد الله بلخير ورئيس تحرير المجلة المذكور، وهو الصحافي الكبير آنذاك، حوار عن تأصيل الأدب العربي في مصر وأن أولئك الأدباء المصريين الكبار هم من أدباء العرب والعروبة ولهم استقلاليتهم في الإنتاج الأدبي والثقافي بعيداً عن ذلك السطو المزعوم عليهم من قبل كتاب السلسلة في المجلة. وفي ذلك يقول:

«لقد عَزَّ علي وأنا في سورة الشباب وفي عمق محبتي وإيماني لمصر وجهابذة علمائها ومفكريها وكتابها وشعرائها أن يسلقوا بمثل تلك المقالات النقدية الملتهبة التي تدعي أن بعض أولئك الكتاب المصريين كانوا يسطون على بعض مقالات الأدباء الفرنسيين وينسبونها إلى أنفسهم».. إلخ.

لكن زيارة الفتى الحجازي للمجلة تكررت بعد ذلك مدافعاً عن أدباء مصر ليكون تعرفه على أصحاب تلك المجلة وكتابها فرصة من رئيس تحرير المجلة ليقدم دعوة إلى بلخير في كتابة تعريف شامل عن الحركة الأدبية في الجزيرة العربية. لأنه -أي بلخير- كما قال رئيس تحرير المكشوف أول ما جاءه منها إلى لبنان على المستوى الأدبي. وبالتالي كتب عبد الله بلخير لعدد من إخوانه الشباب في الجزيرة كتاباً ليوافوا مجلة المكشوف بما يأمل رئيس تحريرها أن يلقوا أضواء على بوادر حركة متواضعة بدأت تومض بين جبال الجزيرة العربية وعلى سهولها وشواطئها[1].

ويعد ذلك إنجازاً من بلخير وبعض رفاق الدرب الأدبي والشعري والثقافي الذين وافوا المجلة الداعية للكتابة عن أدب الجزيرة العربية ببعض الأعمال الأدبية ونشرت حينها. وقد ذكر كثيراً من الأسماء إلا أن المستجيبين لدعوة الكتابة في المكشوف عدد ضئيل جداً. وتوالى نشر الأدب والشعر في الصحافة اللبنانية مثل مجلة "الأديب" لصاحبها ألبير أديب، ومجلة "الرسالة" المصرية لصاحبها أحمد حسن الزيات.

وذلك قبل انتشار هذا الأدب في الصحف والمجلات المحلية، فيما بعد مثل صحيفة "صوت الحجاز" ومجلة "المنهل" لصاحبها الأستاذ عبد القدوس الأنصاري.

(١) كما يقول بلخير، ص٩١.

عبد المجيد شبكشي

أبو أسامة عبد المجيد علي شبكشي؛ الصحفي الأديب، صاحب ريادة ثقافية في عالم الأدب، والصحافة العربية السعودية، عرفته جدة علماً من أبنائها في نواح شتى من العمل والعلم والثقافة، بل عرفته المملكة أحد أبنائها الكرام.

ولأبي أسامة يد بيضاء على الصحافة، وبخاصة "البلاد" التي ظل يرأس تحريرها قرابة ربع قرن من الزمن، وقد أدبها، وهذب صفحاتها، بالمواضيع المتعددة: إعلامياً وسياسياً ودينياً وثقافياً، واستكتب على أنهرها عديداً من الكتاب من مختلف أرجاء المملكة العربية السعودية والعالم العربي والإسلامي واحتكاكه العملي بالناس، والعلمي بالأدباء، كانت (البلاد) محطاً لأنبائهم، وما يتعلق بأذهانهم وإنجازاتهم، والأهم من ذلك أنه -على عهده- كانت همزة الوصل بين البلاد السعودية وأعلام اللغة والصحافة والأدب والدين في العالم الخارجي حيث تتبع أبو أسامة أنشطة هؤلاء وأعمالهم الثقافية، وفتح لهم صفحات (البلاد) في تلك الأيام، التي عايشها جهابذة من الأعلام؛ أمثال: محب الدين الخطيب، ومحمود شلتوت، وعلال الفاسي، وأبي الأعلى المودودي، ومحمد محمود الصواف، وفوزي البشبيشي، وبعد هؤلاء الجيل الذي تلاهم من الأعلام في البلاد العربية والإسلامية.

وقد بدأت معرفتي به بوساطة الأستاذ عبد الكريم نيازي -رحمه الله- الذي كان يعمل مندوباً لمكتب (البلاد) في مكة، وصادف في موسم حج عام ١٣٩١هـ؛ حيث يعقد فيه كل عام الدورة التأسيسية لرابطة العالم الإسلامي؛ برئاسة فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز، المفتي العام، وأمين الرابطة الشيخ محمد سرور الصبان، وبحضور أعضاء المجلس، كالدكتور سعيد رمضان، والأستاذ كامل الشريف، والسيد علال الفاسي، والشيخ عبد الله القلقيلي، والشيخ سعيد شامل، والشيخ أمين الحسيني، والشيخ حسنين مخلوف، وغيرهم من الأعضاء العلماء؛ علماء العالم الإسلامي، في تلك الفترة الزاهرة؛ فكنت أجري الحوارات مع هؤلاء؛ مسانداً لأخي النيازي، الذي يبعث بهذه الحوارات للشيخ عبد المجيد، فينشرها تباعاً كل يوم جمعة.

وبعد صلتي به صحفياً -رحمه الله- تابعت الصلة معه بكتابة المقالات والكلمات، أما من الجانب المحلي فقد كان دوره في نشر إنتاج الرواد الأدباء والشعراء، وكان بين فترة وأخرى يجدد في (البلاد) صفحاتها، مثل صفحة "كل يوم" وكان يحررها هو والأستاذ عبد الله الجفري، والأستاذ على العمير، والأستاذ يحيى باجنيد، والأستاذ طلال قستي، والأستاذ عبد الكريم نيازي، على مدار الأسبوع، وكانت (البلاد) في تلك الأيام تحتجب عن الصدور كل يوم سبت.

ولطموحه الصحفي والأدبي والثقافي أصدر (مجلة البلاد) وهي ملحق خاص كل يوم سبت، وقد وضع لها محرراً متابعاً، هو الأستاذ راضي صدوق. وكانت صفحة "كل يوم" أدبية المنزع حيث ينشر فيها كل من الأساتذة المحررين المذكورين -آنفاً- مختارات ثقافية وصحفية وشعرية، كما كان يشارك في موضوعاته الأساتذة: ضياء الدين رجب، وأحمد إبراهيم الغزاوي، ومحمد حسن عواد، وغيرهم كل يوم جمعة، اليوم الذي تصدر فيه الصفحة تحت اسم "يقدمها أبو أسامة".

وبلغ من تشجيعه الأدبي لي أن نشر عديداً مما أساهم به إلى جانب موضوعات هؤلاء -رحمهم الله جميعاً-.

والجدير ذكره أن نجاح صحيفة (البلاد) أدبياً وثقافياً متعلق برجل اختاره الشبكشي مديراً لتحرير صحيفته، هو الأستاذ الشاعر عبد الغني قستي -رحمه الله- حيث كان الرجلان يتعاقبان، أو قل يشتركان، في دعم المحررين، وجلب الثقل لا الصحفي للبلاد فحسب؛ بل الجانب المعنوي البحت، فاستطاع عبد المجيد شبكشي أن يؤدب صحيفته ويوشيها بالإنتاج الرائع لأعلام الأدب والثقافة.

شيء آخر ينبغي ذكره من الناحية التربوية أن (الشبكشي) كان أحد المؤسسين لنواة الجامعة جامعة الملك عبد العزيز الأهلية آن ذاك، ومن هنا حبب إليه استكتاب أعضاء هيئة التدريس بالجامعة، عندما تولى إدارتها معالي الدكتور محمد عبده يماني، وبخاصة حينما كانت كلية الشريعة وكلية التربية بمكة المكرمة شطراً للجامعة، ومعلوم أن ثمة أعلاماً كباراً شاركوا في التدريس بشطري الجامعة، كالشيخ علي الطنطاوي -رحمه الله- والشيخ محمد أمين المصري، والشيخ محمد محمود الصواف، والشيخ محمد متولي الشعراوي، والشيخ محمد علي الصابوني،

بالإضافة إلى أمين الجامعة عندما كانت أهلية الأستاذ محسن باروم، والدكتور مصطفى عبد الواحد، والدكتور محمود الشريف، والدكتور عبد الصبور مرزوق، والدكتور عبد الوهاب أبو سليمان وغيرهم.

وفي المناسبات الدينية كالسابع عشر من رمضان، وعيد الفطر المبارك، كان عبد المجيد شبكشي يستكتب نخبة من الأدباء الرواد آنذاك، كالأساتذة: أحمد جمال، وأحمد عطار، ومحمد سعيد العامودي، ومحمد سعيد دفتردار، وعبد القدوس الأنصاري، ومحمد حسين زيدان، الذين تعاقبوا على الصفحة الأخيرة في (البلاد) في كتابة يومياته البديعة.

ومن حرص عبد المجيد شبكشي -رحمه الله- على مشاركة هؤلاء الرواد كانت وسيلته أن يبعث إليهم بالبرقيات المستعجلة؟ والملحة، وبهذه الطريقة النادرة والسريعة في تلك الأيام استطاع (الشبكشي) أن يستقطب هؤلاء للبلاد، وينشر أروع إنتاجهم وأدبهم وثقافتهم.

ومن إسهاماته الثقافية والأدبية -رحمه الله- مشاركته شخصياً في الحديث بالإذاعة السعودية، في مختلف المواضيع المحلية اليومية، في بداية تولي الدكتور محمد عبده يماني لوزارة الإعلام ن على عهد المغفور له الملك خالد بن عبد العزيز، بين عام ١٣٩٥هـ-١٣٩٧هـ.

هذا بعض ما أعرف عن الرجل شخصياً في الأدب والصحافة والثقافة والفكر، ودوره الناجح في المسيرة الريادية للأدب العربي السعودي -رحمه الله رحمة واسعة-.

ومما عرفته من فضله وتواضعه أن الصفحة الاقتصادية في (البلاد) كان يحررها آنذاك الدكتور حسن أبو ركبة، الأستاذ بكلية الاقتصاد والإدارة بجامعة الملك عبد العزيز، قبل عمادته -رحمه الله- للكلية، ودارت الأيام ليكون الدكتور أبو ركبة مديراً عاماً لمؤسسة (البلاد) و(اقرأ) الصحفية، فكان الشيخ عبد المجيد نعم الوالد والزميل والموظف معه، وأرى أن له حسن اختيار لمن يساهم في صحبفته رحمه الله.

هذا الرجل من جيل الرواد الذين أسهموا بالتنمية العملية والمعنوية في هذه البلاد المقدسة.

ولد عبد المجيد شبكشي بجدة سنة ١٣٣٨هـ. تلقى فيها التعليم الأولي في مدرسة الفلاح ثم انكب على المطالعة في أمهات الكتب والمؤلفات ليزود فكره بحصيلة من الثقافة والمعرفة شأنه في ذلك شأن زملائه الرواد في الأدب العربي السعودي الحديث فغدا أديباً في حياته.

بدأ حياته العملية بسلك الشرطة ثم تدرج حتى أصبح مديراً للشرطة بمنطقة جدة لكنه شغل خلال هذه المدة عدداً من المناصب منها مدير الحج بجدة ومدير الجوازات والجنسية.

أما الأدب وإعلامه فقد مارس الشبكشي الإنتاج الأدبي والتعليق السياسي والاجتماعي للإذاعة السعودية، كما كان يراسل ويكتب في الصحف المحلية والعربية المقالات والأبحاث وسائر فنون الكتابة الأدبية والإعلامية، لذلك تحصل على عضوية عدد من المؤسسات سواء العلمية منها والثقافية والخيرية كعضوية مؤسسة البلاد الصحفية التي رأس تحريرها، وعضوية اللجنة التأسيسية لجامعة الملك عبد العزيز الأهلية، في هذه الأثناء تبنى الأستاذ الشبكشي الدعوة لإنشاء المكتبة العامة بجدة وبالفعل تشكلت لجنة كان فيها عضواً.

أما في صحيفة البلاد فقد عمل هذا الرجل عملاً إعلامياً وصحافياً وأدبياً حيث طرز صفحاتها بالثقافة وفنون المعرفة من خلال صفحات الأدب، والثقافة التي تهم المجتمع عموماً والأدباء والمثقفين بوجه خاص. كما أفرد صفحات الدين والاقتصاد والأدب الشعبي والمرأة.. كل ذلك برؤيته الصحفية الناضجة ومدركاته الفنية والأدبية. فيستكتب للبلاد على ضوء هذه الفنون المنوعة عدداً كبيراً من الأدباء والكتاب أمثال أحمد إبراهيم الغزاوي ومحمد حسن عواد وعزيز ضياء وأحمد عبد الغفور عطار وضياء الدين رجب وطاهر زمخشري. هذه الأسماء التي تناولت أقلامها المواضيع الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية ونشرها عبد المجيد في صحيفته كمواد أدبية يقدمها للأجيال الصاعدة.

وكانت يوميات البلاد يداولها كل من هؤلاء الكتاب عدا الصفحات الأخرى المتخصصة فيما أسميناها. ومن هذه الصفحات الصفحة اليومية الثقافية المنوعة التي يكتبها هؤلاء. والصفحة الاقتصادية التي يحررها الدكتور حسن أبو ركبة، وصفحة الأدب التي كان يحررها عبد الله عبد الرحمن الجفري، وصفحة الأدب الشعبي التي يحررها عاتق بن غيث البلادي وصفحة المرأة التي

كانت تحررها الأستاذة عابدية خياط. ومن الصفحات المتجددة التي يفاجىء عبد المجيد شبكشي قراءه صفحة الكتب التي كان يحررها تحت اسم "كتب ومؤلفون" الأستاذ علي العمير وهناك صفحات أخرى للثقافة والكتب والدين التي يشرف عليها الأستاذ الشبكشي نفسه. فكانت صحيفة البلاد بهذه المزايا صحيفة ناجحة على الرغم مما كانت تعانيه من الضوائق المالية فكان شبكشي يغطيها ما أمكنه مادياً ومعنوياً. ومع بداية التسعينيات الهجرية من القرن الماضي شهدت البلاد تطوراً أدبياً بصفة عامة فرأى المعنيون فيها أن يتم إصدار أسبوعي ومجلة هي مجلة اقرأ واختير لرئاسة تحريرها الدكتور عبد الله مناع. وما من شك أن الأستاذ الشبكشي كان له الدور الفعلي في هذا الإصدار الذي دعمه تحريرياً وأدبياً ومادياً.

ومن الإنجازات التي تكتب للشبكشي في حقل الصحافة أنه مثل صحافة المملكة العربية السعودية في عدد من المؤتمرات الدولية مثل ترأسه للوفد الصحفي السعودي في مؤتمر الصحفيين العرب الذي انعقد في الكويت في أواخر الستينيات من القرن العشرين. وهذا مؤشر لخبرته الإعلامية والصحفية وجهوده الثقافية والعملية في هذا الحقل الصحافي الكبير.

وإذا ما عدنا بالزمن إلى ذلك التاريخ لنتصفح صحيفة البلاد نجد المواد الصحفية الجديرة بالتحقيقات والإعداد الإخباري والإخراج الفني للمواضيع والمواد الأخرى التي تحسب ليحيى باجنيد أيضاً. نجد أن هذه الكتل من الصحافيات والأدبيات ذات قيم إعلامية واقتصادية وثقافية فهاهنا الحوار وهنا الخبر وهناك المقال وهناك العمود الصحفي كطي ونشر للأستاذ عزيز ضياء أو ظلال للأستاذ عبد الله الجفري. هذا الزخم من المعطيات التي ضخها في صحيفته الأستاذ عبد المجيد شبكشي بحيث يتم النشر والإخراج على وجه أتم. فكان الإقبال على هذه الصحيفة متوفر الحال ومتطلب العمل حتى استقدم لها بعض الصحفيين من مصر وذلك في أواسط السبعينيات من القرن العشرين. وعلى ذلك سارت البلاد مساراً صحافياً وأدبياً وسيراً حثيثاً في إصداراتها وموادها وإخراجها واستكتاب الكتاب والأدباء والمفكرين.

على ضوء ذلك كانت البلاد في مقدمة الصحف المحلية التي تتصدر المكتبات ومراكز التوزيع على بعض التواضع الذي لم يؤثر على ذلك النشر. وميزة هذه الصحيفة في تلك الفترة

الذهبية أن من يرأس تحريرها ويدير تحريرها هما أديبان الأول أديب بياني والآخر أديب وشاعر. أضف إليهما أديب آخر هو عبد الله الجفري، إذا فتأديب الصحيفة على هذا الغرار والمثال أمر مجد وفاعل مفيد لأن للصحافة تأثيراً على الأدب كما أن للأدب تأثيراً على الصحافة. نخرج من هذا أن الصحيفة سواء كانت البلاد أو التي تسير مسارها هي صحيفة ناجحة بكل المقاييس الأمر الذي تخلو منه معظم صحفنا اليوم التي نجد أن أغلب من يديرها هم صحفيون وليسوا بأدباء. ونجد هذه الصحف تعنى بالإعلانات والأمور العملية وليست الجوانب التحريرية من إعلام وأدب وثقافة واقتصاد ودين كصفحات رئيسية ودائمة طوال العام الزمني والفعلي إذ نجد تبدلاً مستمراً في صحف اليوم من حيث الرؤية والمسار والأسلوب والطرح على حسب التيار الذي يختاره رؤساء تحريرها وأقصد بذلك مواضيع صفحات وتبديل بعضها ونفي البعض الآخر الأمر الذي كانت الصحف أيام الأستاذ الشبكشي وزملائه ثابتة على موادها الصحفية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية وفنون المعرفة الأخرى.

كتب تحت عنوان "من أدب الطريق": لي صديق كان قد أمضى بعض الوقت في لندن ثم عاد، وحدثني عن كثير مما رأى وحصل له في لندن، ومن جملة ما قال:

أن نظام السير على الطرق في لندن نظام عجيب، تصور نحو مليون سيارة بين صغيرة وكبيرة تروح وتجيء.. ازدحام عظيم، ونظام عظيم أيضاً لم أر له مثيلا في حياتي.. كنت على موعد مع مدير الكلية، وانشغلت بعض الوقت بحيث قرب الموعد، وأنا ما أزال بعيداً عن الكلية وخشيت أن أتأخر، فصممت على الذهاب في سيارة أجرة، وحاولت أن أوقف سيارة أجرة خالية، ورأيت سيارات كثيرة خالية، تمر ولكن لم تقف إحداها، وكان شرطي يراقبني. فاقترب مني وقال: لعلك يا سيدي تريد سيارة أجرة؟ قلت: بلى! قال: لا يمكن أن تقف سيارات الأجرة هنا.

فالمكان محظور فيه وقوف السيارات، وأرشدني الشرطي إلى مكان قريب أستطيع أن أوقف به سيارة أجرة وما كدت أقف هناك حتى وقفت لي سيارة ركبتها، وحثثت السائق أن يسرع، ولكنه لم يتجاوز سرعة ٣٠ ميلاً، فقلت له: أسرع من فضلك! قال في اعتذار: إن النظام

يمنعني من أن أتجاوز سرعة ثلاثين ميلاً، وهذه يا سيدي سرعة عظيمة في لندن، فعجبت من هذا النظام العجيب الذي يتمسك به جميع السائقين وأصحاب سيارات الأجرة، وكأن السائق لاحظ استغرابي فقال لي: إن الطريق ملك لجميع السيارات، لا لسيارتي وحدها، والنظام يمنعني من السرعة ومن تخطي السيارات الأخرى، ويمنعني من الوقوف في بعض الأماكن، ولا بد من المحافظة على النظام وإلا غدت المدينة في فوضى"[1].

كما أن له مقالات وأبحاث سياسية وأدبية محفوظة في الكتاب الذي صدر العام ١٤٣٢هـ-٢٠١١م الذي نشره ابناه فوزي وأسامة عبد المجيد شبكشي وجمع مادته العلمية الأستاذ/ محمد المنقري، ومنها مقال بعنوان لقاءات الفيصل:

رحبت الأوساط العربية والإسلامية باللقاء الذي تم بين جلالة الملك فيصل والرئيس جمال عبد الناصر وما أسفر عنه من التقاء على الخطوط العريضة للتضامن العربي الإسلامي في مواجهة العدو المشترك.. فقد جاء هذا الاتفاق قبل انعقاد مؤتمر القمة ليضيف إليه رافداً من روافد القوة ويمثل عنصراً رئيسياً من عناصر النجاح له فيما سيتوفر عليه ويضطلع به من إعداد لتحرير الأرض السليبة واستعادة الحق المغتصب بعدما أكدت الأحداث التي عاشتها المنطقة عبر محنتها أن لا سبيل إلى الخروج من هذه المحنة والتغلب عليها في ظل أية محاولة كالتي شغل بها العرب أكثر من عامين فصرفتهم عن اتخاذ الخطوة الإيجابية التي لا بد من الاستعانة بها على مواجهة تحديات الصهيونية واستهانتها بهم في الوقت الذي استغلت فيه هذه كل دقيقة من العامين الماضيين فراحت تعمل على حشد ما توفر لها من طاقات مادية وأدبية لدعم وتعزيز موقفها العدواني منها. (جريدة البلاد - العدد ٣٢٩٧ - ١٢/ شوال / ١٣٨٩هـ)[2].

وهذا النص الذي سقناه كان من افتتاحيات صحيفة الشبكشي، ويتحدث فيه عن التضامن العربي والإسلامي الذي كان زعيمه الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله.

---

(١) المصدر من مجلة المنهل العدد الخاص بتراجم وأدب أدباء المملكة العربية السعودية ص٨٢٧، عدد رجب ١٣٨٦هـ نوفمبر١٩٦٦م.

(٢)عبد المجيد شبكشي رجل الأمن والصحافة والأدب، ص٢٨٩.

وفي مقال عن أدبنا "هل له سمات وخصائص يتميز بها"؟ وهو مقال يعلق فيه الشبكشي على الندوة التي قدمها وأدارها عبر التلفاز الأستاذ الدكتور/ أحمد الضبيب، واشترك فيها الدكاترة محمد الشامخ ومنصور الحازمي، وفهد العرابي الحارثي، وتناول الحوار فيها الأدب السعودي وما قيل عن شخصيته، وقد ساق كاتب المقال الأستاذ الشبكشي ما علق في ذاكرته من الرجوع إلى نفر من كبار أدبائنا وهم الأساتذة محمد حسن عواد وحسن محمد كتبي، وحمزة شحاتة ومحمد حسين زيدان، وعبد الوهاب آشي، وأحمد عبد الغفور عطار، وعبد الله بن إدريس، ومحمد علي مغربي، الذين تفاوتت آراؤهم حول شخصية الأدب السعودي. فحسن كتبي يقرر ذلك، أما حمزة شحاتة فينفي ما أثبته الكتبي (صحيفة المدينة ١٠/ شوال/ ١٤٠٣هـ)[1].

وكان الشبكشي يدعو إلى القيم والقيمات الأدبية لأدبائنا وشعرائنا كأن يقول: كرموهم في حياتهم قبل أن يرحلوا.

ومن مقالاته الاجتماعية مقال بعنوان (من صور الحياة):

في حياتنا صور ما كان لها أن تتسلل إليها وتبلغ الغاية منها لو كان الحب هو وسيلتنا إلى ما ننشد في الحياة من حرية وكرامة، ولكننا ضعفنا أمام شهوات النفس فَغُلبنا على أمرنا، وكان لها ما أرادته منا ولنا، حيث جعلت من بعض هذه الصور معاول هدم أطاحت بكثير من عناصر الخير والهناء فحالت فيما بينها وبين المشاركة فيه على حاجتنا إلى كل يد مخلصة نظيفة لتسهم مع غيرها ما وسعها الجهد إلى ذلك سبيلاً[2].

ومن مقالات الشبكشي الأدبية مقال بعنوان (عبد الوهاب نشار الأديب المجهول) يقول في ذلك:

ضمت مدرسة الفلاح في جدة في فترة مشرقة من تاريخها المجيد عدداً من الشعراء الذين اضطلعوا بمهمة التدريس فيها، وهم الأساتذة محمد حسن عواد وأحمد قنديل ومحمود عارف وعبد الوهاب نشار ومحمد علي باحيدره وسلام أشرم وعمر عبد ربه.

---

(١) المصدر السابق ص٤٣٢.

(٢) المصدر السابق ص ٤٦٥.

ولقد عرف القراء الكثير عن الأساتذة عواد وقنديل وعارف وعبد ربه من خلال ما نشر من إنتاجهم، سواء في الكتب والدواوين التي أصدروها أو في الصحف التي كانت ولم تزل تعنى بإنتاجهم، ولكن القراء لم يعرفوا إلا القليل عن الأستاذين باحيدره والأشرم، إذ لم تسلط عليهما الأضواء كما سلطت على غيرهما.

ولقد كان الأستاذ عبد الوهاب نشار من أقدر المدرسين الذين نهضوا بدور بارز وجليل في حياة الكثيرين ممن تخرجوا من مدرسة الفلاح في جدة بما كان يتميز به -رحمه الله- من إخلاص لمهمته وتقدير لها وحفاوة بها حتى لقد كانت نسب النجاح في المواد التي يقوم بالتدريس فيها من أعلى النسب، لأنه لم يكن يترك الفصل إلا بعد استيعاب الطلاب للدرس.

ثم يأتي الكاتب الشبكشي ويستشهد بقصيدة لهذا الأديب المجهول يستنهض فيها الشباب للنهوض بوطنهم:

وفي شرف الأوطان إذا عز أهلـه	تحقرهـا للمـرء منقبـة الفخـر
ولا بلـد إذا عـز أهلـه	عزيز وإن ذلوا فيا ضيعة العمـر
وما طلب العليـاء عفـواً بمنـتج	فلا بد من صبر على مضض الصبر
ومن رام أن يرقى من المجـد ذروة	فلا نهج إلا أن يسير على الحجـر
أنرجو نهوضـاً بالسـبات وإنمـا	بجدٍّ سَمَتْ كل الشعوب إلى الخير
ومن يسع للـهيجا بغـير مهنـد	دهته يد الأرزاء من حيث لا يدري
ننمق من ذكر الجـدود صحائفاً	ونزعم أن المجد في دمنـا يسـري
جهلنا وأخطأنا الطريـق ضلالة	وأُبْنَا من الترحال بالأنمل الصفر
فسـعياً إلى إدراك كـل عظيمـة	تجدد للأوطـان محمـدة الـذكر

* * *

ثم يدعو الشبكشي أبناء الشاعر وصهره الأخ/ فيصل صائغ بأن يعنوا بجمع آثار هذا الأديب الشاعر ونشرها[1].

---

(١) المجلة العربية. محرم/ ١٤٠٥هـ-أكتوبر/ ١٩٨٤م.

وفي مقال لجنة لإحياء التراث العلمي والأدبي يدعو عبد المجيد شبكشي إلى تحقيق وصيانة تراثنا، في الوقت الذي يدعو فيه إلى رجل جدير بالتكريم في هذا الصدد هو الأستاذ/ أسعد طرابزوني، وهو من أوائل من عنوا بنشر ما وصلت إليه يده من تراثنا العلمي والأدبي، فقد بدأ قبل حوالي أربعين عاماً بنشر كتاب (عبث الوليد) لأبي العلاء المعري بعد أن ظل هذا الكتاب مجهولاً لأكثر من تسعمائة عام، دون أن يقف عليه أحد أو تمتد إليه يد، حتى وجده الأستاذ الطرابزوني في المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، فتوفر على نسخه وعهد إلى عالم فاضل هو الشيخ محمد عبد الله المدني -رحمه الله- بتصحيحه وضبطه والتعليق عليه، ثم تولى طبعه ونشره من بعد ليجد من حفاوة الوسط الأدبي به ما هو كفاء للمكانة التي كانت ولم تزل لفيلسوف المعرة وأديبها الكبير.

وقد أثنى الأمير شكيب أرسلان في مقدمته للكتاب على الجهد الذي بذله السيد أسعد فقال: «إن الكتاب من أنفس الكتب وأجدرها بالمطالعة وكان الذي أخرجه للناس وهو الشاب السيد الأديب المهذب أسعد طرابزوني قد قام بعمل عظيم فاستحق شكر هذه الأمة شرقاً وغرباً وأن يحبه كل ناطق بالضاد». صحيفة عكاظ ١٠/ رجب/ ١٤٠٤هـ[١].

توفي الأديب الصحفي عبد المجيد البشكشي في ١٢/ ٤/ ١٤١١هـ رحمه الله.

(١) المصدر السابق ص٤٤٠- ٤٤١.

علي حافظ

هو أبو هشام علي بن عبد القادر حافظ الصحفي المدني والشاعر الرائع والأديب البليغ.

حفظ القرآن صبياً وتخرج في مدارس الحكومة بالمدينة المنورة حتى نال الشهادة الابتدائية التي تعادل اليوم الشهادة الجامعية العامة بل والعليا كذلك.

ونال إجازة تعليم العلوم الشرعية والآداب العربية في المسجد النبوي الشريف على يد شيوخه وأبرزهم ثلاثة وهم: محمد الطيب الأنصاري وإبراهيم بري وسيد أحمد صقر، فانطلق عمله ابتداء في المحكمة الشرعية عام ١٣٤٤هـ وانتهاء عام ١٣٨٥هـ بعدها تفرغ للعمل الأدبي والصحفي الجادين. ولعل أبرز ما في عمله الحر تأسيسه هو وأخوه عثمان لمعلمتين من معالم الحجاز في العصر الحديث ألا وهما مدرسة الصحراء المسيجيد (بلدة قريبة من المدينة المنورة) وجريدة (المدينة) كبرى الصحف العربية السعودية اليوم.

وفي خلال هذين الإنجازين يبرز الحافظان كما يحلو للشيخ محمود شويل أن يطلق هذا الاسم المختصر على الأخوين علي وعثمان رحمهما الله، ذكر ذلك الأستاذ محمد علي مغربي في الجزء الثالث من موسوعته المهمة لأعلام الحجاز.

نعم من خلال هذين الإنجازين يبرز كل منهما بصفات وخلال حميدة تربوية وأخلاقية وأدبية ثقافية وعلمية عملية فالسيد علي حافظ المحرك للناحية الفكرية، والسيد عثمان حافظ المحرك الإداري أو العملي إن جاز التعبير وكل منهما قد تسري عليه هذه الصفة الواحد منهما للآخر.

فعلي رحمه الله أديب ذواق وشاعر عملاق خذ ديوانه الشعري مثلاً فتجد الناحية الأدبية والفكرية واضحة السمات بينما عثمان كان صحفياً وكاتباً وأديباً بلا شك.

لكن إنجاز الأخير هو تطبيقي وصحفي في غالب الأحيان كما رأينا في إدارته لمطبعة المدينة المنورة في ترجمتنا لعثمان حافظ رحمه الله.

خُذ قصيدته عن سعد زغلول مثلاً على شاعريته ورؤيته الفنية والفكرية يقول فيها:

حملت لنا صحُف الكنانة رزأها ... بزعيمها ليثُ الوغى ورحاها

فتفاقم الخطبُ الجليلُ وهالنا ... ما قد ألمَّ بمصر حين دهاها

وتساقط الدمعُ الغزيرُ وفتت ... أكبادها جزعاً على بلواها

يا ليتها لم تحمل النبأ الذي ... هدمت به آمالنا ومُناها

فإذا بكته اليوم مصرُ فإنما ... تبكي شهيد جهادها وهواها

أو مزقت مصر الثياب لحزنها ... فلكم أذاب حُشاشة لهناها

كم قام في وجه العدو مناضلاً ... حتى أقام لها مثال عُلاها

فأنت تجد هذه الروي من الشعر وقصيده شعوراً نابضاً بالشاعرية ليواصل بعد ذلك قائلاً:

يا سيف مصر وعزها ومُغيثها ... عند الخطوب وسعدها ورجاها

لم يبكِ فقدك شعب مصر وإنما ... عم المُصاب العُرب في دنياها

يا سعد قد قالوا قضيت وإنما ... نفس العظيم حياتها ذكراها

من يترك الذكرى الحميد مُخلداً ... كالشمس يُستهدى بنور ضياها

فهو الذي نال الحياة عزيزةً ... فله الهناء بمجدها وسناها

كما نجد أن هذه المرثية تنبع من قلبِ صادق بالإعجاب والوفاء لسعد زغلول زعيم الوفد في مصر في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

ولم يكن شعراء الحجاز آنذاك بغفلةٍ عما يدور في عالمهم الخارجي والداخلي وإنما شاركوا بالأدب والشعر والفن في التعبير عن تلك الأحداث والمناسبات بصفةٍ عامة.

وفي هذه القصيدة أبيات بليغةٌ جداً حيث يقول:

فتفاقم الخطبُ الجليلُ وهالنا ... ما قد ألمّ بمصر حين دهاها

ثم البيت الذي يليه راثياً وباكياً:

وتساقط الدمع الغزير وفتت　　　أكبادها جزعاً على بلواها

وهذا تعبيرٌ شعوريٌ بلغ مداه المعنوي إلى حدٍ كبير.

ثم يذكر محاسن سعد زغلول المناضل ضد الاستعمار على مصر:

كم قام في وجه العدو مناضلاً　　　حتى أقام لها مثال عُلاها

يا سيف مصر وعزها ومُغيثها　　　عند الخطوبِ وسعدها ورجاها

لم يبكِ فقدك شعب مصر وإنما　　　عمّ المُصاب العُرب في دنياها

فانظر كيف صوّر الراثين والجزعين لا في مصر وحدها ولكن في العالم العربي كله.

وبعد هذا التعبير النبيل يقول شاعرنا علي حافظ:

يا سعد قد قالوا قضيتَ وإنما　　　نفس العظيم حياتها ذكراها

فانظر إلى هذا البيت الذي جمع بين السيرة السعدية إلى أن قضت نفسها فصارت ذكرى بعد الحياة المليئة بأشغال السياسة والدُبلوماسية والنضال من أجل شعبه ضد الاستعمار الغاصب.

ثم يقول علي حافظ:

من يترك الذِكر الحميد مُخلداً　　　كالشمس يُستهدى بنور ضياها

فهو الذي نال حياة عزيزةً　　　فله الهناء بمجدها وسناها

وهنا تبدو عدة صور شعرية وفكرية وثقافية.

وعلى الرغم من أن القصيدة ذات مقاطع قليلة إلا أن الشاعر قد ضبط مرثيته بالمحاور التعريفية للراحل كيف قدم حياته فداءً للجهاد في سبيل الله وأن المرثي عليه يستحق أحزان الأمة كلها وليس شعب مصر لوحده فحسب.

وإذا كان علي حافظ شاعراً فإنه ناثرٌ جيد كذلك اسمعه يقول وهو يتحدث كيف بدأ شاعراً وكيف أصبح كاتباً: (منذ بدأت الدراسة وأنا أشعر بميول عارمة للشعر ونظمه، وأحاول أن أخضعه لي، وكان كثير الترفع والاستعلاء يهزأ بجهدي، ويستخف بمحاولاتي.

كان بين يدي كراس لأحد الدروس التي أتلقاها في المسجد النبوي.. وكان في يدي قلم أحاول نظم أبيات في موضوع، ومر بي أستاذنا السيد أحمد صقر فقال: (أيش تسوي يا واد؟) قلت: أنظم شعراً! قال: (هات أشوف) فأريته ما كنت أنظم وكان نظماً -كما سميته وقتئذ- تعوزه القافية المحبوكة والوزن وحتى المعنى أعني أنه كان هذياناً فقال: (لا: لسع (بفتح اللام وتشديد السين المهملة بعدها عين مهملة، أي إلى الساعة هذه لم تشعر) احفظ الشعر الجيد وافهم معانيه وافهم ألفاظه اللغوية وحاول وستصل لأن فيك استعداد).

وقد حفظت بعض المعلقات وكثيراً من جيد الشعر في الغزل والمديح والرثاء والحكم وغير ذلك، وكان إعجابي بالمتنبي كثيراً حتى أني حفظت عدداً من قصائده.

وكنت أجد لذة في حفظ الشعر وفهمه وحل مشكلاته.. وكثيراً ما لجأت إلى أساتذتي والقواميس عندما أجد صعوبة في الفهم، وكانت "ثلتنا" تتذوق الأدب والشعر ومن هذه "الثلة" الصديق الأستاذ السيد عبيد مدني.

أذكر أنني كنت أنظم أنا وهو قصيدة أو قصة في قصيدة.. أنا أنظم بيتاً وهو ينظم بيتاً، وكان "دقيسي السوق" أي "مجلسه العالي" و"روشانه" المطل على جلبة الباعة ودق الصاغة ينصت لهاتيك الأبيات، ولعلها كانت الباكورة بالنسبة لي.

ولكن الطريف في ما نظمه عن برج إيفل في باريس حيث يقول:

لبرج إيفل فوق السين[1] معجزة	للعلم والفن في صنع وتشييد
ومصعد البرج كالثعبان منطلقاً	في جوفه بين تخفيض وتصعيد
والناس في البرج كالأمواج تلمحهم	وفي ذراه تراهم كالعناقيد
ركبته فحسبت الأرض قد بسطت	لناظري وظننت الشمس في (إيدي)[2]
وخلت أني مع السواح في فلك	ندور من كوكب يعلو إلى بيد

(١) نهر السين الذي يخترق باريس وهو معروف.

(٢) أي في يدي.. وهي كلمة مستعملة في عامية الحجاز.

كـالطود ينظـر للأحـداث حالكـة مـن حولـه وتـراه رافـع الجيـد
روى مـن الفكـر والتـاريخ أصـدقه وآمـن النـاس في دعـم وتأييـد
سبحان من خلق العقل الذي صنعت يـداه ذا الـبرج كـي يحظـى بتمجيـد

فأنت ترى صوراً حية في هذا الشعر وكيف عبّر الشاعر عن صوره هذه تعبيراً دقيقاً وتصويراً بديعاً. وقليلٌ من الأدباء من يجيد التعبير بالشعر تارةً وبالنثر تارةً أخرى ولعل علي حافظ يُعد منهم.

فكتاباته بالصحف ودراسته فيها أدبياً واجتماعياً توضح ما قلناه آنفاً وكذلك في المواضيع التي كان ينشرها في شبابه وكهولته وحتى أصبح شيخاً.

ولقد تعرفت على شخصيته عام ١٤٠٠هـ الموافق ١٩٨٠م وذلك في المبنى الأول لجريدة الشرق الأوسط في حي الشرفية بجدة.

وعندما صدر كتابي (شيء للفكر) ذهبت إلى هذا المبنى وسألت عن الأستاذ علي حافظ فوجدته هو وأخاه عثمان في مكتب واحد يحوط هذا المكتب مكتب عظيم فأهديت كلاً منهما نسخة من كتابي وعند تناول السيد علي لنسخته قرأ العبارة الموضحة تحت عنوان الكتاب (لمحات في الفكر الإسلامي والإنساني) فتساءل رحمه الله قائلاً كيف يتفق الإسلامي والإنساني؟ قلت له: إنها لمحات فكرية لها خاصية إسلامية وعمومية إنسانية فضحك رحمه الله وسكت.

أما علي حافظ الأديب والمثقف فقد عرفته مبكراً في أوائل السبعينات الميلادية من قرننا العشرين حيث كنت أتابع باهتمام إنجازه الفكري وبالذات في هذه الصحيفة الغراء حيث يعجبني في إنتاجه وهذا ما يجذبني إليه التزامه الثقافي والتأصيل في هذا النتاج.

وهنا إن انس فلا أنسى موقفاً شخصياً لعلي حافظ وذلك في إحدى أمسيات المؤتمر الأول للأدباء السعوديين عام ١٣٩٤هـ الموافق ١٩٧٤م حيث إنني قد رأيته مدلفاً حدائق الزاهر، حيث مقر المؤتمر بمكة المكرمة ولفت نظره العرض الخاص بإنتاج هؤلاء الأدباء فرأيته يتناول قلمه وبطاقة ورقية ليكتب عليها الأسماء الجديدة في هذه الإصدارات، ومن بينها كتب للعواد والزيدان وآخرين.

فهذا الموقف ينم عن حرص تثقيفي وأدبي في نفس الوقت وهو يدل على متابعة دقيقة حيث يرصد كل اسم لأي كتاب باسم مؤلفه يستحضره في الغد كتاباً مقروءاً معروضاً بالوعي والتعريف والاقتناء.

وللأستاذ علي حافظ جانبه الاجتماعي العريض والعريق وبحكم منزلته الأدبية والصحفية يعرفه كبار الموظفين في القطاع الحكومي ولعل موقفه مني حينما بدأ سكني في جدة بجوار جريدة (الشرق الأوسط) التي كان يحلو له أن ينسبها فيقول: إنها بنت جريدة (المدينة المنورة) لا ينسى حيث احتجت إلى أمر اتصالي فما إن أتيته في مكتبه في المبنى الجديد للجريدة والمطبعة وعرضت عليه الحاجة حتى حبّر بقلمه النزيه رسالة أخوية لمسؤول كبير فاستجاب لحاجتي مشكوراً ألا وهو الأستاذ طارق كيال طيب الله ذكره.

وإلى آخر لحظة من حياة الأستاذ علي كان رحمه الله يقوم بصياغة عريضة لأفراد مجتمعه في الجريدة التي أنشأها ابناه الأستاذان هشام ومحمد أكبر دليل على تفاني السيد علي في محبة هذا المجتمع وقصارى الجهد الذي بذله من أجلهم.

وقد كان آخر لقاء بيني وبينه قبل وفاته بأشهر إذ ذهبت إليه للتسليم والتحية وكيف أنني أخبرته بسؤال الأستاذ محمد سعيد العامودي في مكة المكرمة عنه في جدة فما كان من السيد علي إلا أن طلب مني رقم هاتف الأستاذ العامودي، فتم الاتصال بين الأديبين الكبيرين. رحم الله أستاذنا علي حافظ رحمة واسعة.

الفهرس

الموضوع	الصفحة